مجالس النور

في تدبر القرآن الكريم وتفسيره

بمنهج عملي وتربوي جديد

المجلد الرابع

الشيخ الدكتور

محمد عياش الكبيسي

راجعه وحقق مسائله وخرج أحاديثه

د. وليد الحسيني   د. إبراهيم الأنصاري   د. محمد المصلح

دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مجالس النور

في تدبر القرآن الكريم وتفسيره
بمنهج علمي وتربوي جديد

المجلد الرابع

الشيخ الدكتور

محمد عياش الكبيسي

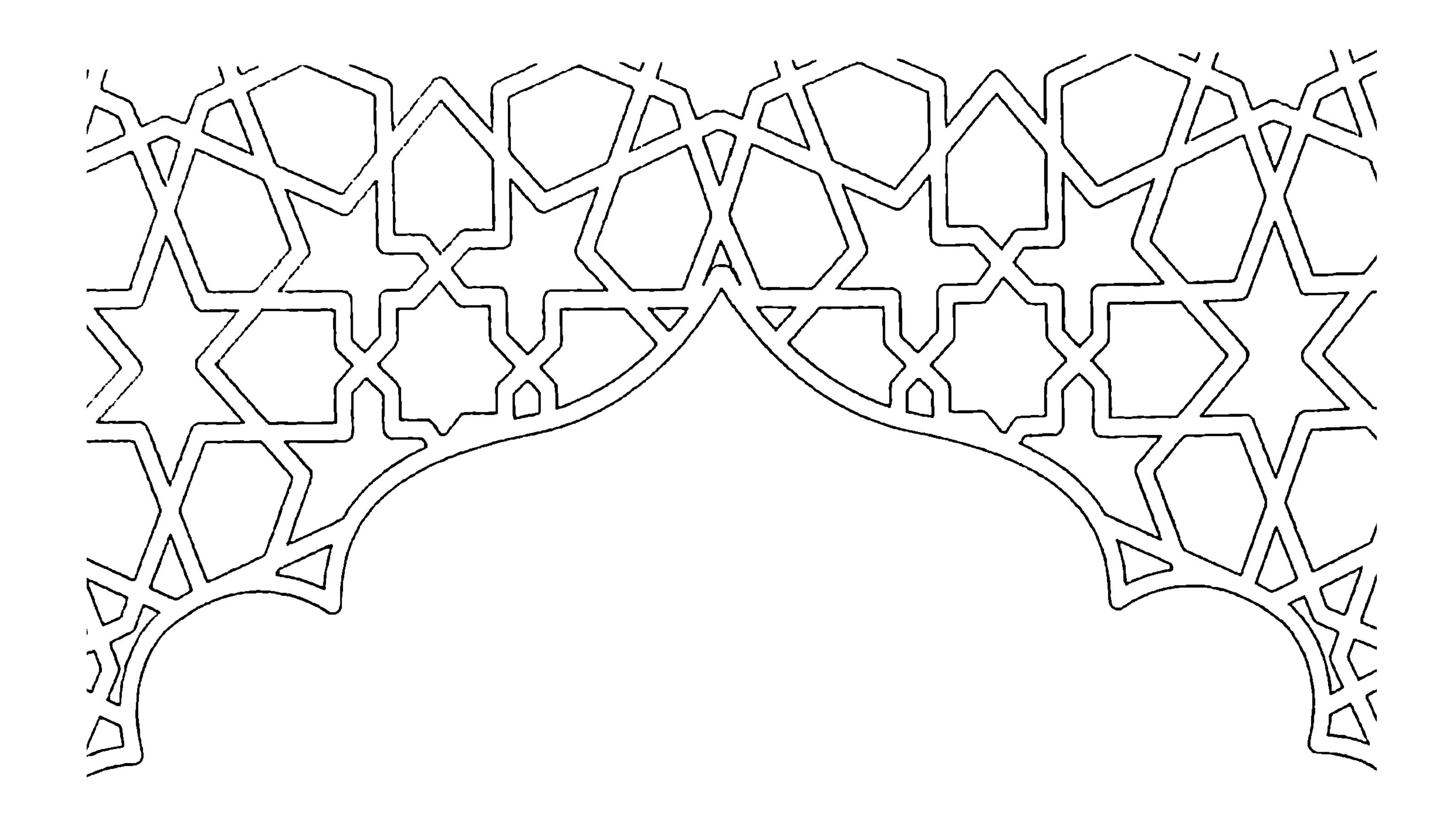
راجعه وحقق مسائله وخرج أحاديثه

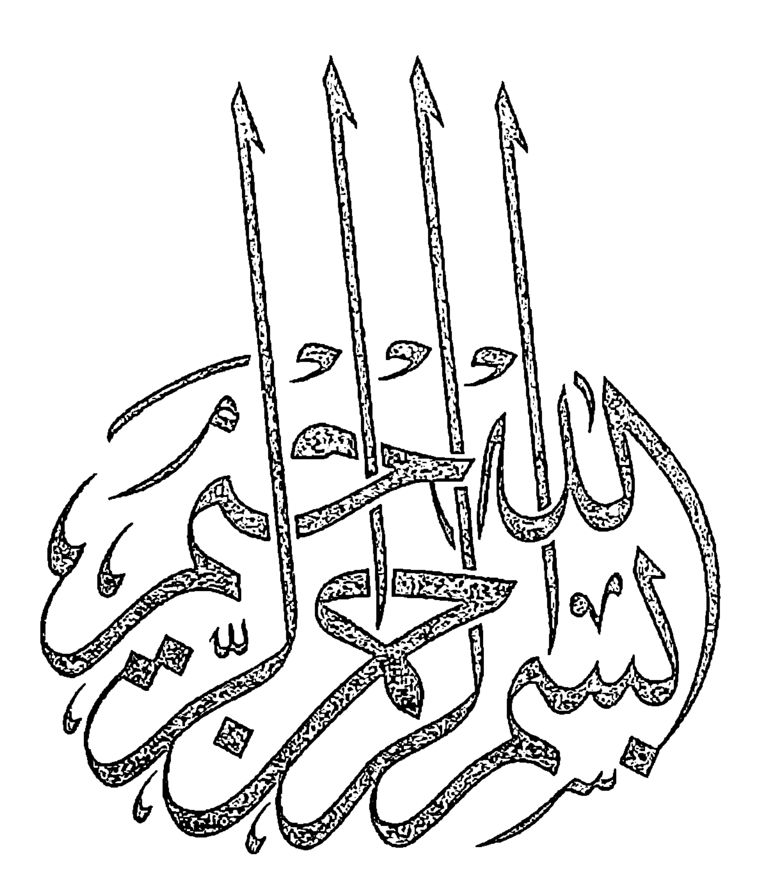
د. وليد الحسيني   د. إبراهيم الأنصاري   د. محمد المصلح



دار نشر جامعة قطر

Qatar University Press




بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

المجلد الرابع

سورة الذاريات

سورة الطور

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة المنافقون

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة الانفطار

سورة المطففين

سورة الانشقاق

سورة البروج

سورة الطارق

سورة الأعلى

سورة الغاشية

سورة الفجر

سورة البلد

سورة الشمس

سورة الليل

سورة الضحى

سورة الشرح

سورة التين

سورة العلق

سورة القدر

سورة البينة

سورة الزلزلة

سورة العاديات

سورة القارعة

سورة التكاثر

سورة العصر

سورة الهمزة

سورة الفيل

سورة قريش

سورة الماعون

سورة الكوثر

سُورَةُ الكَافِرُون

ـ	المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين	لكم دينكم ولي دين	١٩٥٨

سُورَةُ النَّصر

ـ	المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين	نهاية الصراع مع قريش	١٩٦٠

سُورَةُ المَسَد

ـ	المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين	تبَّت يدا ابي لهَب	١٩٦٢

سُورَةُ الإخلَاص

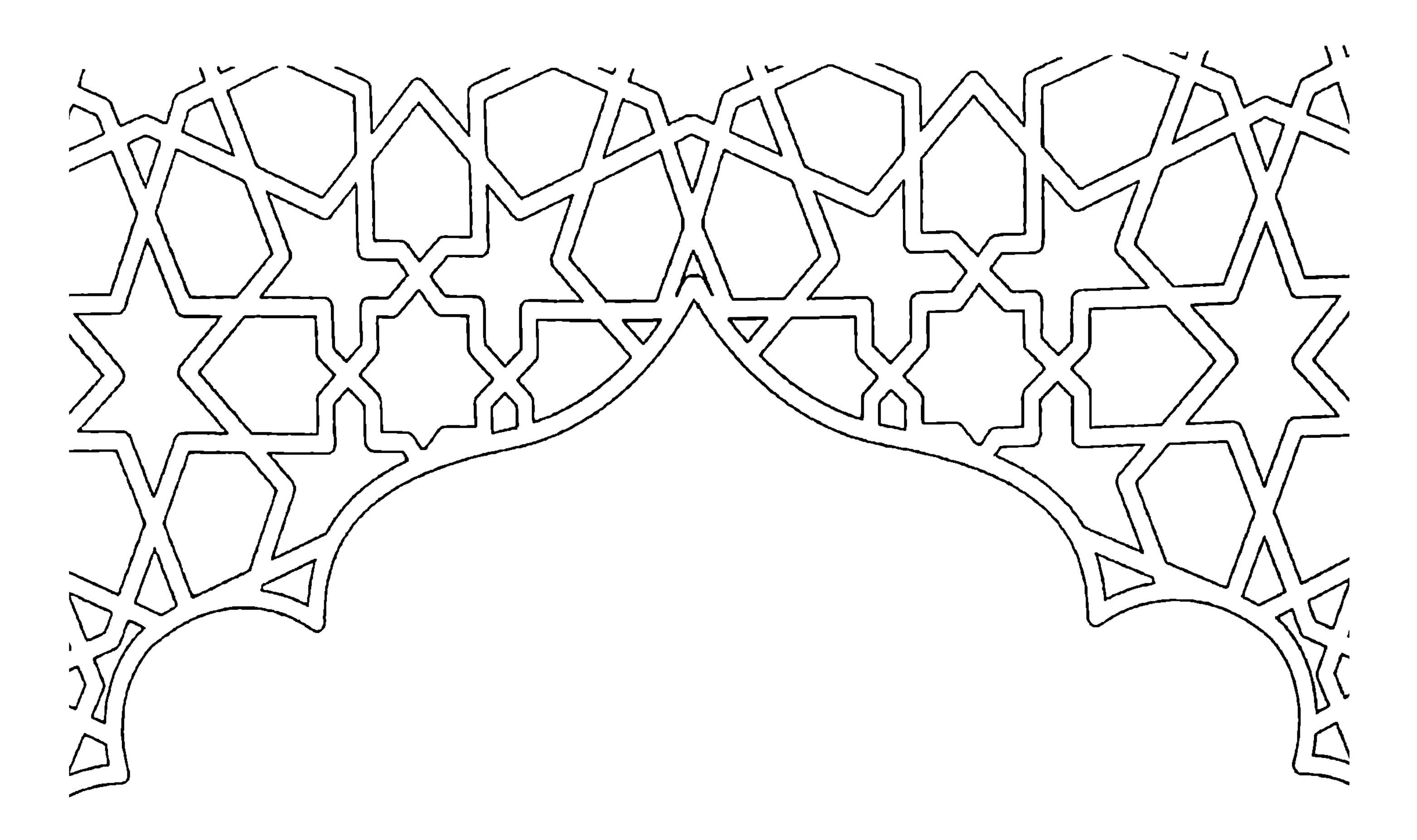
ـ	المجلس المُتمِّم ثلاثمائة	حقيقة التوحيد	١٩٦٥

سُورَةُ الفَلَق

ـ	المجلس المُتمِّم ثلاثمائة	التعوّذ من الشر والحسَد	١٩٦٧

سُورَةُ النَّاس

ـ	المجلس المُتمِّم ثلاثمائة	التعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن	١٩٦٩



سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦ وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ۝٧ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩ قُتِلَ الْخَرَّٰصُونَ ۝١٠ الَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ۝١٢ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝١٣ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝١٤ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ الَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝١٨ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَالْمَحْرُومِ ۝١٩ وَفِى الْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ۝٢٣﴾

إنما توعدون لصادق

سورةُ الذاريات سورةٌ مكيَّةٌ تتناول أُسُس العقيدة؛ التوحيد والنبوَّة والمعاد، وقد ابتدأت بالمعاد؛ لتحفيز الأذهان وتحريكها باتجاه التفكير والنظر في دلائل الإيمان المبثوثة في هذا الكون، وكما يأتي:

أولًا: أقسَمَ الله ﷻ بالرياح؛ مُنبِّهًا إلى وظيفتها في هذه الحياة، والمُتَّصِلة بحاجة الناس إلى الغيث والزرع ﴿وَالذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ وأمّا المُقسَم عليه فكانت عقيدة المعاد وما فيها من حسابٍ وجزاءٍ ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾.

ثانيًا: ثم أقسَمَ الله بالسماء وما فيها من أفلاكٍ مُحكَمة، وطرائق مُتشابِكة ﴿وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ أما المُقسَم عليه وهو جوابُ القَسَم، فكان ما عليه المشركون من اختلافٍ وتناقض؛ مثل: جمعهم بين الإيمان بالله خالقًا لهذا الكون مع عبادتهم للأصنام، وجمعهم بين بقايا التديُّن الإبراهيمي وإنكارهم للبعث والحساب، وقولهم في محمدٍ ﷺ أنّه ساحر، وأنّه مجنون،

وقد جعل القرآن تخبُّطَهم هذا دليلًا على أنّهم مصرُوفون عن الحقِّ زاهِدون به ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

ثالثًا: أكَّد القرآن أنّ مُنكري البعث لا يملِكون حجة، وإنّما هو القول بغير علمٍ مع سيطرة الهوى والغفلة ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ وهو سؤالٌ على سبيل الإنكار والسُّخرية.

رابعًا: توعَّد القرآن هؤلاء المُكذِّبين بما يستحِقُّونه من العذاب ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾.

خامسًا: في مُقابل هؤلاء الأشقِياء، يعرِض القرآن حالَ المُتّقين وهم ينعَمُون برضا الله والجنَّة ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾، ثم يُفصِّل في تَقوَاهم وإحسانهم وما استَحقُّوا به كلَّ هذا الثواب ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ فهم يتَّقُون الله في عبادتهم، ويرجِعُون إليه ويستغفرونه عن أخطائهم، ويُحسِنون إلى الخلق بأموالهم.

سادسًا: ثم يعود القرآن ليُنبِّه العقول إلى ما في هذا الكون من آياتٍ ودلائل ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾.

سابعًا: يُقسِمُ الله تعالى بنفسه المُقدَّسة بعد أن أقسَم بمخلوقاته أنّ الذي جاء به مُحمدٌ ﷺ هو الحقُّ الذي لا شكّ فيه ولا شائبة ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ يُقسِمُ الله تعالى بالرياح، مُنبِّهًا إلى دورها في إثارة السحاب ما بين السماء والأرض، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨].

فمِن معاني الذَّرْو: الإثارة والنشر.

﴿ فَٱلْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا ﴾ الرياح التي تحمِل الوِقْر؛ والوِقْرُ هنا: السحاب المُثقَل بالماء.

﴿ فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ﴾ الرياح التي تجري بيُسرٍ وهي مُحمَّلةٌ بالسحاب الثقيل.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ الرياح التي تُوزِّعُ ماء المطر هذا على بقاعٍ مختلفةٍ، وهو من تقسيم الرزق الذي هو بيد الله سبحانه، والرياح أداةٌ وسببٌ لا غير.

وتلخّص لنا من هذا القَسَم: تكوين صورة بنسقٍ واحدٍ من إثارة الرياح للسحاب إلى حمله بعد أن يتجمّع إلى الجريان به، ثم تقسيمه على الأرض، وهذه ظاهرةٌ كونيّةٌ بديعةٌ تدلُّ على وحدة النظام في هذا الكون الذي أبدَعَه الله ﷻ.

﴿ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴾ أي: البعث والمعاد.

﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ الدِّين هنا: الحساب، وواقعٌ أي: حاصلٌ لا محالة.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ أصلُ الحُبُك: النَّسجُ المُتقَن، والسماء منسوجة بأفلاكها ونجومها وكواكبها ومساراتها الدقيقة التي لا يصطدم بعضها ببعض.

﴿ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴾ متناقض ومضطرب.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴾ يُصرف عن الإيمان من صُرِف بعناده وتكبّره.

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴾ دعاء بالهلاك على أصحاب القول المختلف، وهم الخرّاصون، أي: الكذّابون الذين يقولون في الله ورسوله وكتابه ما ليس لهم به عِلم.

﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ الغارقون في الضلال والغفلة.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ يسألون ازدِراءً وتهكُّمًا عن يوم الحساب والجزاء.

﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴾ أي: يُصْلَون في النار.

﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ يقال لهم وهم في النار: ذوقوا عذابَكم الذي كنتم تسألون عنه استهزاءً، وتستعجِلونه تحدِّيًا.

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ ﴾ من النعيم، وراضُون به تمام الرضا، فهذا الذي كانوا ينتظرونه ويعملون مِن أجله.

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كان نومهم وهجوعهم في الليل قليلًا.

﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ بمعنى أنّهم كانوا مشغُولين في الليل ووقت السحر تحديدًا بالعبادة والاستِغفار.

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يطلُبُ العَون.

﴿وَٱلْمَحْرُومِ﴾ الفقير الذي يتعفَّف عن السؤال.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ﴾ دلائِل على الإيمان.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ دلائِل أيضًا.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ أي: تقدير رزقكم.

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من ثوابٍ وعقابٍ، فكل ذلك مُقدَّرٌ ومحفوظٌ عنده سبحانه.

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: إنّ ما جاءكم به الوحي إنّما هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه كما لا تشُكُّون بنُطقكم، وهذا جَارٍ على عادة العرب في التأكيد، كقولك: إنِّي على يقينٍ كما أنِّي أراك وأسمعك.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَـٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَـٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَـٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾﴾

من قصص النبيّين

بعد أن نبَّهَ القرآن إلى ما في هذا الكون من دلائل على وحدانيَّته سبحانه، وصدق نبيّه فيما أخبر عنه، وما ينتظر الناس من حسابٍ وجزاءٍ، أخذَ بعرض المشاهد التاريخية التي تُجسِّد عُمقَ الصراع بين الحقِّ والباطل؛ بين دعوة النبيِّين وبين أولئك الضالِّين المُكذِّبين:

أولًا: يعرض القرآنُ قصَّة إبراهيم ﷺ؛ إذ جاءه ضيوفه المكرمون، وهو لا يعرفهم ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فلمّا قدّم لهم القِرَى خافَ منهم؛ لأنّهم أبوا أن يأكلوا من طعامه، ثم كانت مفاجأته أنّهم لم يكونوا من البشر، بل هم ملائكة الرحمن ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾.

إبراهيمُ على كِبَره لم يكن قد وُلِد له، وكانت امرأتُه تسمَع تبشيرَ الملائكة فاستغربَت ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فأجابها الملائكة: ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ

رَبُّكِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ بعدها أخذ إبراهيم يسألهم عن المُهِمَّة التي جاءوا من أجلها: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطۡبُكُمۡ أَيُّهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمٖ مُّجۡرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرۡسِلَ عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن طِينٖ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلۡمُسۡرِفِينَ﴾ وهؤلاء القوم الذين أذِنَ الله بهلاكهم هم قوم لوطٍ ﷺ، بعد أن نجّاه الله ومَن معه من المؤمنين ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾.

وفي هذه القصة دلائل على قُدرة الله، وأنّه سبحانه يخلق ما يشاء ويرزق من يشاء، وفيها أنَّ عِلْمَ الإنسان مهما بلغ فهو محدودٌ، فهذا إبراهيم رسولٌ من أُولي العزم ولم يعلم مَنْ هم ضيوفه حتى تفاجَأَ أنّهم لا يأكلون الطعام، وفي القصة أيضًا بيانٌ لعاقبة الظالمين المُكذِّبين.

ثانيًا: بعد قصَّة إبراهيم ﷺ، لخَّصَ القرآن قصَّة موسى ﷺ وهو يُواجِهُ فرعونَ وجُندَه وكيف كذَّبوه، فأهلَكَهم الله كما أهلَكَ أسلافَهم ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾.

ثالثًا: ثم ذكَّرَ القرآن بعاقبة عادٍ وهم قوم هودٍ ﷺ بعد أن ردُّوه وكذَّبوه ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾.

رابعًا: وذكَّرَ كذلك بعاقبة ثمود وهم قوم صالحٍ ﷺ بعد أن ردُّوه وكذَّبوه ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

خامسًا: وفي الختام أشار إشارة سريعة إلى ما أصابَ قومَ نوح ﷺ، ومن المعلوم أنّهم أسبَق من كلِّ الأقوام الذين تقدَّموا، وكأنّ ذكرهم ما جاء إلَّا لبيان عُمق هذا الانحراف عن فِطرة التوحيد، وعُمق ذاك الصراع ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ وكانوا من الملائكة، والضيف يُطلَق على الواحد، وعلى الجمع كذلك.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: غُرباء لا يعرفهم، وهذا قاله في نفسه؛ لأنّ الجهرَ به يُنافِي إكرامَهم وهم ضيوفه.

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأنّهم لم يأكلوا مِن طعامه الذي صنَعَه لهم.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحاق ﷺ، بدلالة استِنكار أُمّه سارة؛ لأنّها كانت عجوزًا عقيمًا.

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ﴾ أي: صاحَت وهي مُقبِلةٌ عليهم، والصَّرَّة: الصيحَة، ومنه: الصَّرير.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ لطَمَتْه تعجُّبًا، وهي حركةٌ كثيرًا ما تُصاحِبُ الاندهاشَ والتعجُّبَ.

﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ بمعنى أننا لم نقُل هذا القول من عندنا، وإنّما هكذا قال الله.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ والخَطْب: الأمر المُهمُّ، وقد عرف إبراهيم ﷺ أنّهم مُرسَلون لأمرٍ عظيمٍ؛ لأنّ الملائكة لا تنزل إلّا لذلك.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ هم قوم لوطٍ ﷺ.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ بمعنى أنه طِينٌ مُتحوِّل إلى حِجارة بعد شَيِّه في النار كالآجُرِّ.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: مُعلَّمَة ومُخصَّصة لهم.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنّ إيمانهم هو الذي نجّاهم.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وصَفَهم بالإيمان أولًا، ثم وصَفَهم بالإسلام لإضافة معنى استِسلامهم لأمر الله، واستجابَتِهم له، والإيمان والإسلام من المعاني المتداخلة والمتكاملة.

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ أي: تركنا في قريتهم علامةً وعِبرةً لكل مُستدلٍّ ومُعتبرٍ.

﴿ وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ بحُجَّةٍ ظاهرةٍ.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ﴾ أي: أعرَضَ وصدَّ عن الحقِّ مُستنِدًا إلى مُلكِه وسُلطانِه.

﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ قذَفناهم وأغرَقناهم في البحر.

﴿وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ مُستحِقٌّ للملامة.

﴿ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ﴾ التي لا خير فيها.

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ وصفٌ للريح أنّها لا تمرُّ على شيءٍ إلّا أهلَكَتْه، والرَّميمُ: العَظمُ الذي بَلِيَ وتفتَّتَ.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ أي: تمتَّعُوا في حياتكم حتى تَحِين آجالُكم، والصيغةُ تأتي عادةً للتهديد.

﴿ فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ﴾ تكبَّروا عليه وأعرَضُوا عنه.

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ أي: ينظرون إليها نظر العاجز الذي ليس له رأيٌ ولا حيلةٌ.

﴿ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ﴾ أي: من قبل هؤلاء الهالكين جميعًا.

﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن الطريق الصحيح، وفيه إطلاق الفِسق على الكفر، بمعنى أنّ هذه الكلمات فيها تداخُل وتقارُب، وقد يأخذ بعضها محلَّ بعض، فلا يصحُّ - والأمر كذلك - أن تُفسَّر الكلمة منها في كلّ مواردها بمعنًى واحدٍ، بل لا بُدَّ من مراعاة السياق والقرائن.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾

ففرُّوا إلى الله

في خواتيم هذه السورة المباركة وجّه القرآنُ خطابَه للمشركين داعيًا ومُنبِّهًا ومُحذِّرًا، مُلتفِتًا إلى نبيِّه الكريم ﷺ مُعلِّمًا ومُوجِّهًا ومُطمئِنًا، وكما يأتي:

أولًا: نبَّه مرَّةً أخرى هذه العقول إلى ما في هذا الكون من آيات ودلالات ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

ثانيًا: ثم حذَّر المشركين من مغبَّةِ عنادهم واستمرارهم في طريق الشرك، موجِّهًا لهم النداء الخالد الذي فيه النصح والجد والحزم ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

ثالثًا: بيَّن القرآن طبيعةَ هؤلاء الناس، وكأنَّها سُنَّة مُتبَعة عندهم قديمًا وحديثًا ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ولا شكَّ أنَّ في هذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ ثم لِمَن معه من المؤمنين.

رابعًا: وجَّه القرآن محمّدًا ﷺ بترك أولئك المُعاندين وعدم الانشغال بِهم، وتوجيه الجهد إلى تربية المؤمنين وتوعيتهم وتذكيرهم ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

خامسًا: بيَّن القرآن الغايةَ الكبرى لخلق الإنسان ومثله الجان، فهما مخلوقان مُكلَّفان بمهمَّة، وهي مِعيارُ نجاحهما أو فشلهما ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ فالله سبحانه هو الغنيّ، وما التكليف بالطاعة والعبادة إلَّا ليتمايز الناس صالحهم عن مفسدهم، ومؤمنهم عن كافرهم.

سادسًا: ختم القرآن هذه السورة بوعيدٍ شديدٍ لمن كذَّب بالدين الحقّ، وتنكَّب الصراط المستقيم ﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ ﴾ أي: بقوَّةٍ، كذا قال ابن كثير، وقد نقَلَه عن ابن عباس ومُجاهد وقتادة والثوريّ وغيرهم من أئِمة السلف، ولم يذكر رأيًا آخر[1].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ السَّعة ضد الضيق، بمعنى أنّه تعالى قد جعل السماء واسعة، ولا يَبعُد أيضًا أن يُضاف إلى ذلك معنى التمدُّد، وهو ما بدأ العلمُ الحديثُ يتكلَّم عنه، بمعنى أنّ الكون في توسُّعٍ مُستمرٍّ، والله أعلم.

﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا ﴾ مهّدناها لعَيشِكم.

---

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٣٩٥/ دار طيبة، ط. ٢، ١٤٢٠- ١٩٩٩م، تح سامي بن محمد السلامة).

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ أثنى الله تعالى على نفسه أنّه هو من مهَّد هذه الأرض وجعلها صالحةً للعيش، وهذا يستلزِمُ الشكرَ، ونسبة النِّعمة إلى المُنعِم ﷻ.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ ذكرًا وأنثى؛ لتستمرّ الحياة، ولتتكامل بتعدُّد أصنافها وألوانها.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: الجأُوا إليه ولُوذُوا به.

﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ استفهامٌ يُفيد التعجُّب مِن تشابُه قلوب المشركين ومواقفهم من أنبيائهم، حتى كأنّهم قد تواصَوا على ذلك رغم اختلاف أزمنتهم، وتباعُد أمكنتهم.

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ﴾ جوابٌ لذاك التعجُّب؛ فالطغيان هو الذي جمعهم وشابَه بين قلوبهم ومواقفهم.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ أعرِض عنهم ولا تنشَغِل بهم.

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ على كُفرهم وعِنادهم بعد أن بلَغتَهم رسالة ربِّهم.

﴿فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ لأنَّ المُؤمن بحاجةٍ إلى التعليم والتذكير، وكذلك من كان مُستعِدًّا للإيمان بتجرُّدِه، ونقاء فِطرته، ورغبَتِه بالتعرُّف على الحقِّ، وإطلاق المؤمنين على الأول حقيقة، وعلى الثاني مجاز باعتبار ما يكون، والله أعلم.

﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ لم يَذْكُر الملائكة هنا مع أنّهم مخلوقون للعبادة أيضًا؛ لأنّ العبادة في هذه الآية عبادة الاختبار والامتحان، والتمييز والتمحيص، وهذه غايةٌ مرتبطةٌ بخلق الإنسان ومثله الجان، ففيهم الاستعداد الفطري للطاعة والمعصية، والنجاح والفشل، بخلاف الملائكة.

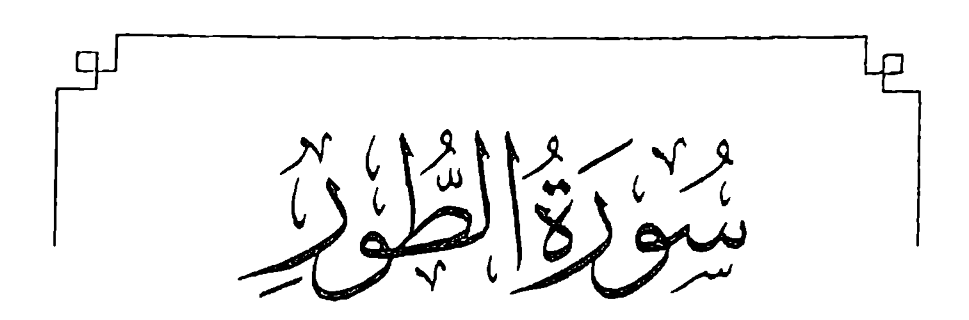
﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ فالله هو الغنيّ عن كلِّ من سواه، وهو ليس بحاجةٍ للرزق والطعام أصلًا، وإنّما هو تنبيهٌ لقُدرته سبحانه، وتعريضٌ بالآلهة المُزيَّفة وسَدَنَتها الذين يأخذون القرابين من الناس ويُرغِّبونهم في ذلك.

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ الشديد.

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا ﴾ أي: نصيبهم من العذاب، وأصلُ الذَّنُوب: الدَّلْو الكبيرة، فالكلّ ظالمٍ ذَنوبه، أي: مقداره الذي يستحقُّه من العذاب.

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ ﴾ أي: مِثْلَ نصيبِ مَن تقدَّمَهم من الأمم السابقة.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ خاتمةٌ تأخذُ بقلوب أولئك المجرمين بُغيةَ دفعهم إلى التفكير والتصحيح قبل فوات الأوان.



المجلس الأربعون بعد المائتين: إن عذاب ربك لواقع

المجلس الحادي والأربعون بعد المائتين: أم خُلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون

﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ۝٢٨﴾

إن عذاب ربك لواقع

سورة الطور لا تختلف في مضمونها عن سورة الذاريات حتى كأنّها مُتمِّمةٌ ومُؤكِّدةٌ لها، فهي تبدأ بإثبات اليوم الآخر وما فيه من حسابٍ وثوابٍ وعقابٍ، ثم توجيه الخطاب للمُشركين ومُحاورتهم بهذه العقيدة، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِم الله ﷻ بما له صِلة وثيقة بهذه العقيدة؛ ليؤكِّد صحة العقيدة نفسها ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾.

ثانيًا: يصِف الله ﷻ ذلك اليوم الذي تنقلِب فيه الأكوان ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾.

ثالثًا: يصِفُ الله سبحانه حالَ أهل النار، مُبيِّنًا السببَ الذي أوردَهم هذا المورِد ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ

ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

رابعًا: يصِفُ الله تبارك وتعالى أهلَ الجنَّة والمقام الذي هم فيه ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾، ومِن إتمام نعيمهم أنّه يلحق بهم ذريّاتهم ولو كانوا بمرتبةٍ أقل منهم ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، ثم يعرِض لجوانب من الأُنس فيما بينهم وما يتجاذبونه في مجالسهم، وما يتذكّرونه من أيام دنياهم ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱلطُّورِ﴾ هو الجبل المعروف الذي تلقَّى عليه موسى ﷺ كلامَ الله.

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ الأظهر أنّه كلام الله المُنزَّل على سيدنا موسى ﷺ، وهو التوراة بقرينة الطور، والله أعلم.

﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ ما يُتَّخَذُ للكتابة؛ كالصحف والجلود ونحوها، وهذا مُختلِفٌ باختِلاف الأزمنة، فالرَّقُّ الذي يُكتَب عليه اليوم غير الرَّقّ الذي كان يُكتَب عليه بالأمس.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ ثبَتَ في «الصحيحين» أنّ في السماء السابعة بيتًا يسمَّى البيت المعمور تعمُرُه الملائكة بالعبادة[1]، لكن هذا الحديث مع ثبوته ليس نصًّا في تفسير هذه الآية، وإنّما هو

---

(١) ذكر البيت المعمور في حديث طويل حول عُرُوج النبي ﷺ إلى السماء، وفيه: «فَرُفِعَ لِيَ البَيْتُ المَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يومٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ»، والحديث مُتفق عليه عن أنس بن مالك، عن مالك بن صَعْصَعَةَ ، ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١١٧٣/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ١٠٤/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

وجهٌ في تفسيرها؛ إذ السياق يُرجِّح أنّه هنا وصفٌ للكعبة؛ لأنّه جاء بعد ذِكرِ الطور، فيكون الأنسَب أنّه ذكر مكان نزول التوراة، ثم المكان الذي نزل فيه القرآن، والله أعلم.

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ السماء؛ إذ هي مصدرُ الوحيَين؛ التوراة والقرآن.

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ يُحتمل أنّه الممتلئ بالماء، والمقصود به: البحر الذي أغرَقَ الله به فرعون، فتكون سلسلةُ القَسَم مُتَّصِلة، أو أنّه المُسجَّر بالنار، وهو من علامات الساعة، فيكون التذكير به تذكيرًا بالساعة، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ﴾ [التكوير: ٦]، والله أعلم.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٞ﴾ أي: لنازِل وحاصِل على وجه اليقين.

﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٖ﴾ ليس بقُدرة أحدٍ أن يمنعه أو يُؤخِّره.

﴿يَوۡمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوۡرٗا﴾ تضطرِبُ اضطرابًا.

﴿وَتَسِيرُ ٱلۡجِبَالُ سَيۡرٗا﴾ تتحرَّك من أماكنها فلا تستقرُّ حتى تكون هباءً.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي خَوۡضٖ يَلۡعَبُونَ﴾ تأكيدٌ أنّ الذي يدفع هؤلاء المُكذِّبين إلى التكذيب بالبعث إنّما هو العبث واللعب، وليس النظر والتفكير الجاد.

﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يُدفعون إليها دفعًا.

﴿أَفَسِحۡرٌ هَٰذَآ أَمۡ أَنتُمۡ لَا تُبۡصِرُونَ﴾ يقال لهم هذا على سبيل التهكُّم والتوبيخ.

﴿ٱصۡلَوۡهَا فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ﴾ بمعنى أنّ أصحاب النار لا ينفعهم صبرهم، ولا ينفعهم جَزَعهم.

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، وأنّ الله سبحانه لا يظلِمُ أحدًا.

﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ١٧ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ أي: مُتنعّمين بما أعطاهم الله من أسباب النعيم.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تأكيدٌ أيضًا لعقيدة العدل الإلهي، فأعمالهم هي التي نجّتْهم، وليست أنسابهم وأحسابهم، ولا أموالهم ومناصبهم.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصۡفُوفَةٍۖ﴾ مظهرٌ من مظاهر الأُنس والبهجة بالأهل والأحباب.

﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: قرَنَّاهم بالحور العين، وليس في الآخرة تزويجٌ بالمعنى المعروف هنا في الدنيا، والحُور العين: نساء المؤمنين في الجنَّة.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ بمعنى أنّ الله يُكرِم المؤمنين ويُلحِق بهم أولادهم المؤمنين وإن كانوا في درجةٍ أقل؛ إكرامًا لوالديهم، وإتمامًا لنعمة الله عليهم.

﴿وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ﴾ أي: ما نقَصنا آباءهم شيئًا من ثوابهم، بل رفعنا أولادَهم إلى منزلتهم.

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ جملةٌ معترضة لتأكيد العدل الإلهي المطلق، فكلّ إنسان مُقترن بعمله إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم﴾ زِدناهم.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا﴾ أي: يتبادَلون ويتجاذَبون كؤوسَ الخمر، والكأس هنا مفردٌ بلفظه جمعٌ بمعناه؛ لأنّه أرادَ به جِنسَ الكؤوس لا واحدًا منها.

﴿لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ﴾ فخَمر الجنة مختلفٌ عن خَمر الدنيا، فليس هناك إثمٌ ولا لغوٌ بالباطل.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ﴾ هؤلاء هم الغِلمان الذين أعدَّهم الله لخدمة المؤمنين في الجنة، وقد وصَفَهم بما يُشعِرُ باللَّطافَة والحُسن والأُنس، وإذا كان هذا حالُ الخَدَم، فكيف بأهل الجنة وحُورها؟ واللؤلؤُ المكنونُ أي: المحفوظُ عن كلِّ شائِبةٍ.

﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾ بعد أن فرَغُوا من أكلهم وشربهم.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ﴾ إنّهم يتذكّرون الدنيا، وكيف كانوا فيها خائفين من عذاب الله، فدفعهم هذا الخوف إلى اللجوء والضراعة إلى الله حتى استجابَ الله لهم، وقَبِلَهم عنده ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۣيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

أم خُلقوا من غير شيء أم هم الخالقون

يتناول الشطر الثاني من هذه السورة حال المشركين وموقفهم من هذه الدعوة، ومُحاجَجتهم بهذه العقيدة، ثم إنذارهم ووبالَ أمرهم إنْ هم أصَرُّوا على عِنادهم وكُفرهم:

أولًا: يأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يستمرَّ بالتذكير والدعوة إلى الله مهما قال فيه المشركون، ومهما تربصوا به ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ ثم يُوصِيه بالصبر واللجوء إلى الله؛ فإنّ الله ناصِره ومحيطه بلطفه ومحبّته وعنايته ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴾.

ثانيًا: يدحض القرآن تخرُّصات المشركين وأقاويلهم الباطلة بحقّه ﷺ ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ﴾ بمعنى أنّ أقوالهم تلك لا يستَسِيغُها العقل، فليس في القرآن ما يلتَبِسُ على أصحاب

العقول بالكهانة، أو الجنون، أو الشعر، ثم كيف تجتمع هذه التُّهَم على شخصٍ واحدٍ؟ ثم أجاب القرآن بصيغة السؤال أيضًا: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ فالطغيان بما فيه من ضغينة وكِبر وحسد هو الذي دفَعَهم إلى هذا.

ثالثًا: ثم يُحاججهم في تهمةٍ أخرى ألصَقوها به ﷺ لا تختلف في نتيجتها عمّا تقدَّم من أباطيلهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ وهذا من أقوى الأدلة على بطلان دعواهم؛ إذ لو كان هذا القرآن من كلامه هو - حاشاه - ﷺ لكان بإمكانهم أن يأتوا بمثله.

رابعًا: ثم يُحاججهم في أصل الخلاف ونقطة الافتراق الأولى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ بمعنى: ما الأساس الذي يَبنُون عليه شِركهم بالله وإنكارهم لقُدرته ﷻ على بعثهم وإعادة الحياة إليهم؟ فوجُودُهم هذا لا يحتمل في القِسمة الافتراضية إلَّا واحدة من ثلاث:

- أنّ وجودهم كان مِن لا شيء، وإنّما هو محض الصدفة والعبث، وهذا ما يُنكِرُهُ المشركون أنفسهم، وهو مُستنكَرٌ بالبداهة والفطرة؛ إذ وجود الشيء من لا شيء محال.

- أو أنّهم هم الذين خلَقوا أنفسهم فهم أدرى بها وأدرى بقدرتهم على بعثها من جديد أو لا، وهذا لا يقول به المشركون أيضًا، وهو محالٌ بالبداهة؛ لأنّه يلزم تقدُّم وجودهم على وجود أنفسهم.

- بقِيَ الاحتمال الثالث، وهو أنّ ثَمَّة إلهًا حكيمًا عليمًا قديرًا هو الذي خلَقَهم، والمشركون يقولون بهذا ولا يُنكِرُونه، لكنهم يرجِعُون عنه بمنطقٍ مقلوبٍ؛ فما يرَونه مُحالًا عندهم بحسب قُدراتهم وتصوُّراتهم البشرية يجعلونه مُحالًا على الله، وبذلك يُساوُون قدرة الخالق بقدراتهم.

وتتمَّةً لهذه الاحتمالات، يذكُر القرآن احتمالًا من الممكن أن يتفرَّع عن الاحتمال الأخير: ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذا الاحتمال وإن كانوا يقولون به من حيث

الصورة؛ لأنّهم يُؤلّهون أصنامَهم، لكنهم يُنكِرون في الوقت نفسه أن يكون لأصنامهم هذه شأنٌ في خلقهم، أو في خلق السماوات والأرض، وهذا من كبير تخبُّطهم وتناقُضهم.

خامسًا: ثم يُطالبهم القرآن ببيان حجَّتهم إن كانت لهم حجَّة يستندون إليها ﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾، ﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ وفي ثنايا هذه النقطة يَذْكر القرآن مثالًا على جهلهم وقولهم على الله بغير علمٍ: ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ بمعنى أنّه لو كان عندكم شيء من العلم لما قُلتُم هذا القولَ على الله.

سادسًا: ثم يسأل الله تعالى نبيَّه ﷺ - وهو أعلم به - عمّا إذا كان قد طلَبَ منهم ما يشقّ عليهم وما يدفعهم لهذه النفرة عن الحقِّ ﴿أَمۡ تَسۡـَٔلُهُمۡ أَجۡرٗا فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ وهذا السؤال قُصِد به تنزيه الدعوة عن أيِّ غرضٍ ماديٍّ، وبيان أنّ المشركين لم يَبقَ عندهم حجّة ولا عذر إلّا العناد والمُكابرة.

سابعًا: وفي الخِتام يوجّه القرآن تحذيره الشديد لهؤلاء المشركين المعاندين إنْ هم أصرُّوا على طريق الكفر والكيد والعداوة لمحمدٍ ﷺ ولدعوته ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾، ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ﴿٤٤﴾ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ﴾ قدّم الله تعالى عنايَته بالحبيب المصطفى ﷺ، ثم نفَى عنه اتِّهام المشركين له بالكهانة، والكهانة: ادِّعاءُ معرفة الغيب باحتِكار الدين، كما هو عند بعض الفِرَق؛ حيث يدَّعُون اتِّصالَهم بالوحي عن طريق أئمَّتِهم، أو بالتواصُل مع الجنِّ، وكان هذا شائِعًا عند العرب في الجاهلية.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ حيث كان المشركون يتمنَّون موتَه ﷺ بحادثةٍ أو عارضةٍ مما يعرِض للبشر؛ كالمرض وغيره.

﴿قُلۡ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُتَرَبِّصِينَ﴾ أي: انتظِروا وأنا مُنتظِرٌ أيضًا، والصيغة تُوحِي بالتهديد والوعيد كما لا يخفَى.

﴿أَمۡ تَأۡمُرُهُمۡ أَحۡلَٰمُهُم﴾ أي: عقولهم؛ لأن سُلوكَهم لا يتناسَبُ مع مسلَك العقول.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾ أي: افتراه ثم نسبه إلى الله، والتقوُّل: نسبةُ قولٍ إلى أحدٍ لم يقُلْه.

﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمۡ هُمُ ٱلۡمُصَيۡطِرُونَ﴾ ليطَّلِعوا على حقائق الغيب وما فيه من عوالم وأسرار، بمعنى أنّه يسألهم عن مصدر هذا الجزم بنفي المعاد.

﴿أَمۡ لَهُمۡ سُلَّمٞ يَسۡتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلۡيَأۡتِ مُسۡتَمِعُهُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ تأكيد أنّ هؤلاء لا يملِكون علمًا موثُوقًا، وليست لهم القُدرة على معرفة الغيب؛ إذ ليس لهم صِلةٌ بالسماء التي هي مصدر الوحي.

﴿فَهُم مِّن مَّغۡرَمٖ مُّثۡقَلُونَ﴾ أي: هل أثقَلْتَ عليهم يا محمد بما تطلبه منهم من أموالٍ لِقاءَ دعوَتِهم ونُصحِهم؟

﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ أي: إن كانوا يسعَون في هلاكك، فإنّهم هم الهالكون.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قِطَعًا نازلة من السماء مما يُعذِّبُ الله به الظالمين، وهذا على سبيل الافتراض؛ لأنّ قُريشًا لم يُهلِكها الله بعذابٍ شاملٍ، كما أهلَكَ عادًا وثمود ونحوهما.

﴿يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ﴾ أي: يستبشِرُون به، كأنّهم في مأمنٍ من عذاب الله الذي أصاب أسلافهم المشركين، وهذا من عنادهم ومكابرتهم.

﴿فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ﴾ أي: اترُكهم حتى يصطَدِمُوا بالحقيقة الكبرى التي تنتظِرُهم، والأظهر أنّها صَعقةُ الساعة وانتهاء الحياة، والله أعلم.

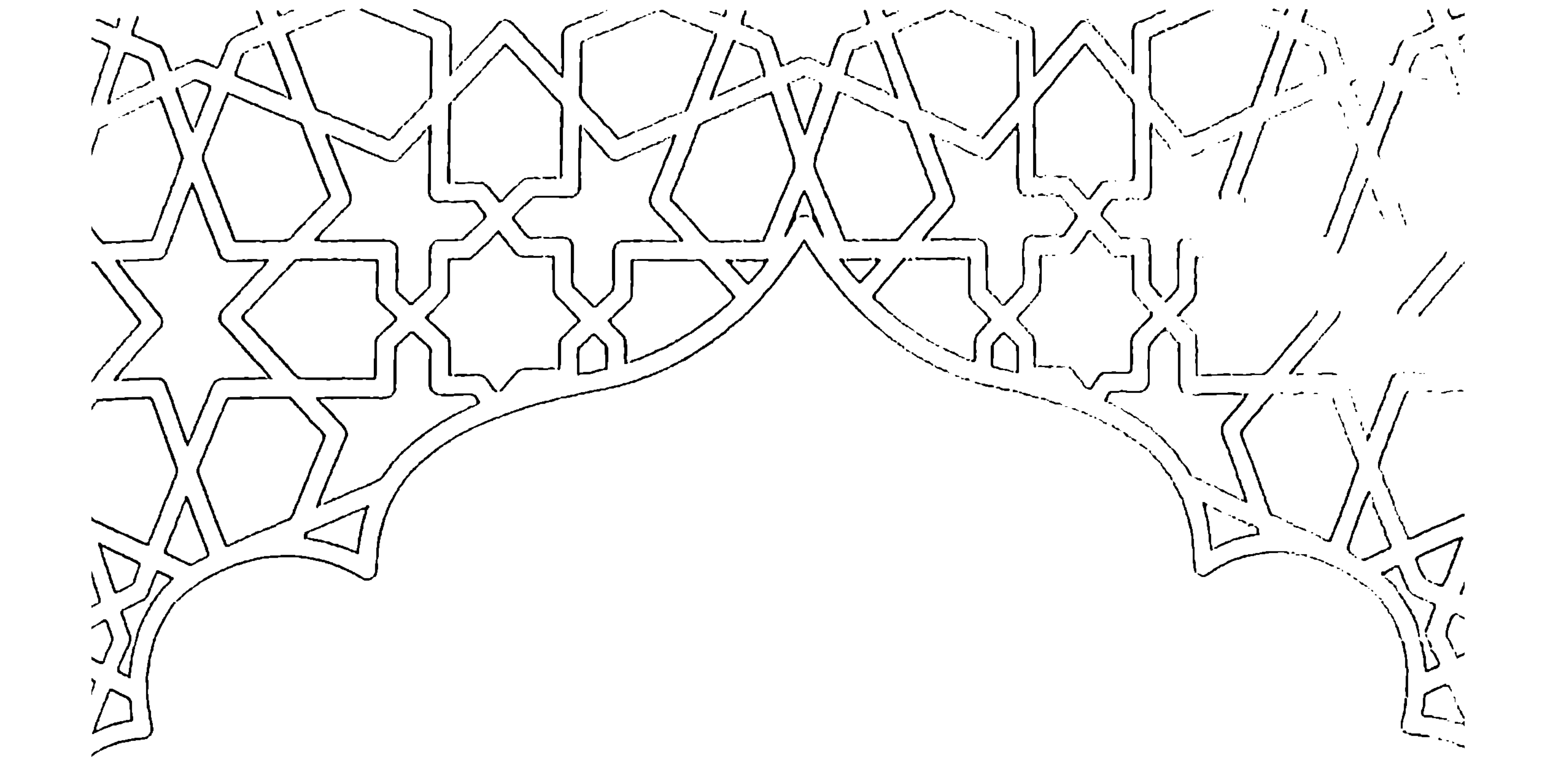
﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ عَذَابٗا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل عذاب الآخرة، والإشارة هنا إلى معركة بدر، والله أعلم.

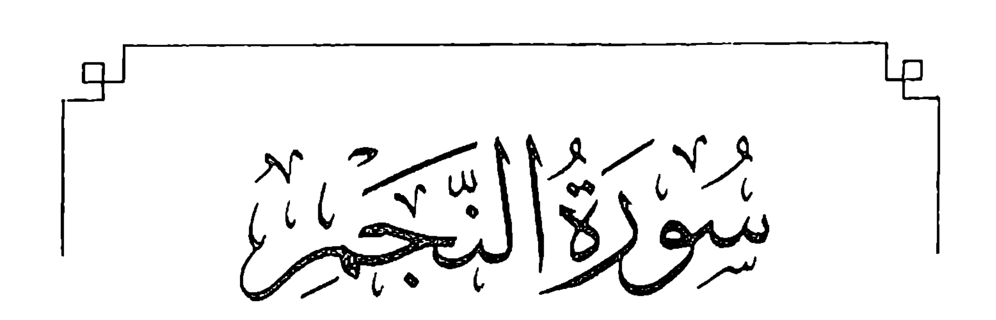
﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ ﴾ أي: لقضائه سبحانه في الوقت المُحدد لهم.

﴿فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ﴾ بحفظنا ورعايتنا وتحت مَرْأى منَّا.

﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ أي: سبِّح اللهَ مُصطحِبًا حمدَه أول نُهوضك من النوم؛ ليكون الذِّكرُ باكورةَ عمل اليوم.

﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ أي: سبِّحه في الليل وعند غياب النجوم، وهو وقتٌ يبدأ أول النهار؛ إذ هو بداية إدبار النجوم، ويتَّسِعُ إلى غُروب الشمس وظهور النجوم مُجدَّدًا، فهذا وقتٌ مفتوحٌ ومُطلقٌ للذِّكر في الليل والنهار، والمؤمن يختارُ منه ما يُناسِبُه ويُناسِبُ ظرفَه وعملَه، والله أعلم.





سورة النجم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾

وما ينطق عن الهوى

تستهِلُّ سورةُ النجم بتزكية الوحي الذي يُبلِّغُه النبيُّ الكريم ﷺ عن ربِّه، ثم تعرِض لحال المُكذِّبين به وتخبُّطهم في تصوُّراتهم عن الغيب، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِم الله ﷻ بالنجم إذا هوى على أنه ﷺ مُنزَّهٌ عن الضلالة والغواية والهوى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾.

ثانيًا: ثم يُؤكِّد ﷻ حقيقةَ ما يُبلِّغُه النبيُّ ﷺ أنّه الوحي الذي لا تشُوبُه شائِبةٌ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ وأنّ هذا الوحي نزَلَ به مَلَكُ الوحي صاحب القدرة الكاملة على تنفيذ كلّ ما يأمره الله به، ومن ذلك: اتصاله بالأنبياء وتعليمهم رسالة الله ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾.

ثالثًا: فصَّلَ القرآن هيئةَ نزول مَلَكِ الوحي على رسولِ الله ﷺ بهذا الوحي من أُفُقه الأعلى؛ حيث دَنَا شيئًا فشيئًا مِن رسول الله حتى صار قريبًا منه قُربَ الجليس من جليسه، أو

قُرب المُتعلِّم من مُعلِّمه ﴿ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾.

رابعًا: أكَّد القرآن حصولَ اليقين في قلب النبيِّ ﷺ أنّ هذا الذي رآه إنّما هو مَلَك الوحي، وأنّ الذي سمعه منه إنّما هو الوحي ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾.

خامسًا: أكَّد القرآن أنّه ﷺ بعد أن الْتَقى مَلَكَ الوحي في الأرض الْتَقاه في السماء أيضًا في ليلة المعراج؛ حيث رأى في رحلتِهِ المُبارَكة تلك آيات ربِّه الكبرى ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾.

سادسًا: شَرَعَ القرآن بعد هذا بمناقشة المشركين في أصل مُعتقَدهم ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ۝٢٠ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢ إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ۝٢٣ أَمۡ لِلۡإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾.

سابعًا: وعلى صلةٍ بما سبق، راح القرآن يدحض تخرُّصاتهم ومزاعمهم الباطلة في الملائكة ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ۝٢٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾.

ثامنًا: ثم وجَّه الله ﷻ نبيَّه ﷺ أن يُعرِض عن هؤلاء المعاندين المكذِّبين الذين لا يُريدون إلّا الحياة الدنيا، فهذا هو أصل ضلالهم ومبلغ علمهم ﴿فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾.

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ يُقسِمُ الله تعالى بالنَّجم في حالة هوِيِّه؛ بمعنى: غُرُوبه وأُفُوله، وذِكرُ هذه الحال مُناسِبٌ لبيان أنّ النجوم لا تصلُحُ آلهةً؛ لأنّها تَهوِي وتَغِيب، وفي هذا ردٌّ على تصوُّرات المُشرِكين عن بعض النجوم؛ كنَجم الشِّعْرَى الآتي ذِكرُه بعد قليلٍ، ولا يمنع أيضًا أنّه أراد الظاهرة المعروفة، وهي: ظاهرة الشُّهُب، والمقصود الكُلِّي لا يختلِفُ كثيرًا عن الأول، والله أعلم.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ﴾ عامٌّ في كلِّ ما يقوله ﷺ وينطق به؛ فهو منزَّهٌ عن الهوى في كلِّ ذلك، سواء كان ما ينطِق به قرآنًا أو تعليمًا أو موعظةً أو أي كلامٍ آخر، واجتِهاده ﷺ في بعض المسائل التي لم يتنزَّل فيها وحيٌ، لا يكون عن هوى - حاشاه -، وإنّما يتوخى مراد الله وما فيه من الحكمة والخير.

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ هذا خاصٌّ في القرآن الكريم، وتلحَق به السُّنَّة التشريعية المُؤكِّدة للقرآن، والمُبيِّنة له، والمُفصِّلة لأحكامه.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ هو جبريلُ ﵇، والقُوَى جمع قوةٍ، بمعنى أنّ لدَيه قوى مُتنوِّعة تُناسِبُ المهام التي يُكلِّفُه الله بها.

﴿ذُو مِرَّةٖ﴾ المِرَّة: القوَّة الذاتيَّة في تكوينه وطبيعة خَلقِه.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: قام مُتهيِّئًا لتلقِّي الرسالة عن الله، والكلام عن جبريل، وذلك قبل نزوله إلى الأرض.

﴿وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ أي: تلقَّى الرسالةَ عن ربِّه وهو بالعالَمِ العُلويِّ.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ أي: نزل شيئًا فشيئًا من أُفُقِهِ الأعلى إلى الأرض حتى اقترب من المكان الذي فيه رسول الله ﷺ.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ أي: اقترب منه قَدرَ قوسَين، والقوس: قدر ذراع تقريبًا، ومسافة القوسَين هي مسافة الجليس من جليسه إذا كانا مُتقابلَين، والله أعلم.

﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾ أي: أوحى الله إلى نبيِّه ﷺ ما أوحاه في ذلك اليوم عن طريق جبريل عليه السلام.

﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ بمعنى أنّه قد حصل اليقين في قلب النبيِّ ﷺ أنّ الذي رآه إنّما هو جبريل، وأنّ الذي سمِعَه إنّما هو الوحي.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أفتكذِّبُونه وتُجادِلُونه فيما رآه هو عيانًا؟

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ أي: رأى جبريل مرةً أخرى، والنَّزْلةُ واحدةٌ من النزول في المكان، بمعنى أنّه كما لقِيَه في الأرض لقِيَه أيضًا في مكانٍ آخر.

﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ هو مكانٌ علويٌّ فوق السماوات السبع، وأصل التسمية مأخوذٌ من شجرة السِّدر، وإلى هذا المكان ينتهي عِلم الخلائق، ولا يعلم ما بعده إلَّا الله، وهذا كلّه داخل في باب السمعيَّات؛ أي: الأخبار الغيبية التي لا قُدرة للعقل البشري على تصوُّرها على حقيقتها أو إدراك كُنهها وما يتعلَّق بها إلَّا بما يتلقَّاه عن الوحي.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ﴾ يعني أنّ الجنَّة في ذلك المكان، وهي الجنَّة المعروفة التي أعَدَّها الله لعباده المؤمنين وجَعلها مأوى لهم.

﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ أي: يُغطِّيها ما يُغطِّيها مما لا قِبَلَ للعقل البشريِّ بتصوُّره؛ لأنّ العقلَ إنّما يَقِيسُ الأشياءَ التي يسمَعُ عنها بما هو مخزونٌ في ذاكرته من الأشياء المعهُودة عنده، ومِن ثَمَّ كان هذا الإبهام المقصود في الآية؛ ليُدرِكَ العقلُ أنّه محدودُ المعرفة، كما أنّ عَينَهُ محدودةُ البصر، وأُذُنَه محدودةُ السمع، والله أعلم.

﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما أخطأ بصره ﷺ وما زاد على ما رأى؛ وهذا لتأكيد صِدقه ﷺ ودقَّة المعارف التي منَحَه الله تعالى إيّاها في تلك الرحلة المباركة.

﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ لم يُحدِّدها القرآن، لكن المقصود منها ظاهرٌ في علوِّ شأن نبيِّنا وسيِّدنا محمد ﷺ وتشريفه بكل تلك المقامات الجليلة، وفيها أيضًا فتحُ الآفاق الواسعة أمام الإنسان المؤمن ليستعلي على ما يُكدِّر صفوَه من محَن هذه الحياة وكدوراتها وضيق أفقها.

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ انتَقَلَ القرآن انتِقالة سريعة من ذلك العالم العلويّ إلى هؤلاء المشركين العاكِفِين حول أصنامهم الصغيرة الحقيرة: اللّات والعُزّى ومَنَاة، وقد وصَفَ مناةَ بأنّها الثالثة؛ أي: ثالثة الصنَمَين المُتقدِّمَين، وقوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ﴾ معناه: كيف ترَون أصنامَكم هذه الصغيرة الحقيرة أمام ذلك العالم العلويِّ؟

﴿ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ توبيخٌ لهم أنْ جعَلوا لله البنات مما يزعُمون مِن أصنامهم ومن الملائكة.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴾ أي: قسمةٌ جائرةٌ، وهذا تنزُّل لمستوى عقولهم؛ لأنّهم يحتَقِرون الإناث ثم ينسبون ما يحتَقِرونه إلى الله فارتكَبوا بذلك خطيئتَين، أمّا الحقيقة فإنّ نسبة الابن إلى الله لا تختلف عن نسبة البنت؛ فكلاهما بُهتان وكفر وحماقة.

﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم ﴾ بمعنى أنّ هذه الأصنام لا حقيقة لها ولا اعتبار لها؛ لأنّها ليست سوى كذبة كبيرة أطلَقتموها أنتم وآباؤكم.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾ مِن حجّةٍ أو دليلٍ.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ﴾ أي: ما يتّبِعون إلّا الوهمَ الذي هو نقِيض العلم، والهوى الذي هو نقيض التقوى، وهذان هما أصلُ الضلال.

﴿ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴾ سؤالٌ استنكاريٌّ متفرِّعٌ ممّا قبله؛ فالتمنّي ما يهواه الإنسان ويشتهيه، لكن الله يختار الأشياء ويقدِّرُ المقادير بناء على حكمته وإرادته المطلقة، وليس على رغبات البشر.

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴾ يحكم فيهما بحكمه لا بما يتمنّاه البشر.

﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴾ هذا مثالٌ على أنَّ ما يتمنّاه هؤلاء المشركون من استِشفاعهم بأصنامهم أو بالملائكة لن يُجدِيهم نفعًا؛ لأنَّ الشفاعة لا تكون إلّا بإذنٍ من الله تعالى، وحاشَا للملائكة أن يشفَعُوا لمُشركٍ، فهم لا يشفَعُون إلّا لمن رضِيَ الله شفاعَتَهم له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: يقولون عنهم: إنّهم بنات الله.

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ﴾ الظنُّ هنا معناه: الوهم؛ لأنّه جاء مُقابلًا للعلم، وقد يأتي الظنُّ بمعنى العِلم وما يقرب من العلم، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

المجلس الثالث والأربعون بعد المائتين

سورة النجم

من الآية ﴿٣١ - ٦٢﴾

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (٤٩) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى (٥٢) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى (٥٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى (٥٥) هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى (٥٦) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢)﴾

وأن ليس للإنسان إلا ما سعى

بعد تلك المقارنة بين نور الوحي وما عليه المشركون من ظلمة وضلال، شرَعَ القرآن في الشطر الثاني من هذه السورة المباركة بوضع ميزان العدل الذي تُوزن فيه أعمال الناس وما يقدِّمونه لأنفسهم في هذه الحياة، وكما يأتي:

أولًا: أكَّد القرآن الكريم أنَّ الله تعالى له ملك السماوات والأرض، وهو سبحانه الذي يتصرّف في مُلكه كيف شاء؛ بحكم أنّه هو الذي أبدع هذا الخلق، وأمدَّه بأسباب الرزق، وقدّر فيه الموت والحياة، فلا شيء إلّا وهو خاضعٌ لربوبيّته وداخلٌ في مُلكه، حتى تلك الآلهة المزيّفة ومن يعبدها **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾**، **﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى (٤٢) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٤٥) مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى (٤٦) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى (٤٧) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى﴾**.

ثانيًا: أكَّد القرآن أنَّ كلَّ إنسانٍ مجزيٌّ بعمله خيرًا كان أو شرًّا ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾، ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾.

ثالثًا: فتح القرآن بابًا واسعًا للتوبة والمغفرة، مُبيِّنًا طبيعةَ الإنسان واستِعدادَه الفِطريَّ للوقوع في الخطأ واقتِراف اللَّمَم ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ﴾.

رابعًا: أكَّد القرآن علم الله الشامل بحال الناس وما يكتسبونه أو يقترفونه من أعمالٍ، فلا مجال للظلم أو الغبْن ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾.

خامسًا: حذَّر القرآن أولئك المكذِّبين المعاندين من مصيرٍ كمصير الأمم السابقة الذين كذَّبوا أنبياءهم ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾.

سادسًا: ثم دعاهم في خِتام السورة إلى النهوض من غفلتهم ولهوهم ولعبهم، مبيِّنًا لهم طريق خلاصهم ونجاتهم، وما فيه خيرهم وعِزُّهم ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا وصفٌ للذين أحسنوا؛ فهم يعملون الحسنات، ويجتنبون المنهيات، وهذه هي حقيقة التقوى؛ فعل الحسنات، وترك السيئات.

وكبائر الإثم: كلّ ذنبٍ استوجب عقوبةً محددةً، كموجِبات الحدود والقصاص، أو

موجِبات اللعن والفسق، ودخول النار، ونحو ذلك، وأما الفواحش: فهي الكبائر المُغلّظة؛ كالزنا والقتل والسحر، وقد شاع استعمال الفاحشة في انتِهاك الأعراض خاصَّة، والله أعلم.

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ واللَّمَم: صغائر الذنوب ما بقِيَت في إطار الزلَّة والغفلة، أما المتهاوِنُ فيها والمُكثِرُ منها والمُصرُّ عليها فمُعرَّضٌ للتهلكة؛ لأنّه لا صغيرة مع الإصرار والتكرار والإكثار، فالصغائر إذا اجتمَعن صِرنَ من جملة الكبائر، والله أعلم.

﴿وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ﴾ جمع جَنِين.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ لا تمدحوا أنفسكم، وقد تُطلق النفس على الجماعة التي ينتمي إليها الفرد؛ كالحزب والقبيلة ونحوهما، فهذا داخل في النهي أيضًا.

﴿ أَفَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴾ عن الحق.

﴿ وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا وَأَكۡدَىٰٓ﴾ أي: تصدّق بالقليل ثم قطع.

﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴾ أي: هذا الذي تولَّى عن الحقِّ بعد أن أنفَقَ ما يظنُّ أنّه يُبرِئ الذمَّة، أعنده شيء من الغيب يستَنِدُ إليه؟ وهذا سلوكٌ مُتكررٌ؛ فكثيرًا ما ترى ظالمًا لا يكفُّ عن الظلم ومُناصَرة الظالمين، فإذا تذكَّر شيئًا من حديث الآخرة ذهَبَ ليبني مسجدًا، أو ليكفل يتيمًا، أو يأتي لشيخٍ يطلب منه الدعاء، ثم يُصِرُّ على نهجه الباطل مُواليًا للكافرين مُعاديًا للمؤمنين، ولا شكّ أنّ هذه الظاهرة تجمع بين فطرةٍ مشوشةٍ مضطربةٍ وبين هوًى غالبٍ وشهوةٍ طاغيةٍ.

﴿ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴾ أتم ما أمره الله به وأدّى كلّ ما عليه.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ﴾ أي: لا تحمِلُ حاملةٌ حِمْلَ غيرها، وفي هذا تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، وحضٌّ على تحمُّل المسؤوليّة، ودحضٌ لمقولة الشفعاء والوسطاء الذين يتحمَّلون عن المُذنِب ذنوبه، وعن المُجرِم جرائمه.

﴿ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ تأكيدٌ متكررٌ لعقيدة العدل الإلهي.

﴿ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ ﴾ وهذا من تمام العدل، فلا يعاقب الله الظالمَ والمجرمَ بناءً على

عِلمه سبحانه، بل بعد أن يعرِضَ له سجِلَّ أعماله حتى يراها كاملةً ويُقِرَّ بها.

﴿ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ أي: يُكافَأ على عمله بأتم الجزاء وأكمله.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ فكلّ الأمور راجعة إليه سبحانه، وكلّ الخلائق عائدة إليه كذلك.

﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴾ أي: خلق قوة الضحك في الإنسان كما خلق قوّة البكاء، وخلق أسبابها أيضًا من السرور والحزن ونحوهما، وهاتان آيتان من آيات الله في خلق الإنسان.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ أي: خلق الموت والحياة.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴾ وهذا من دلائل قُدرته وحكمته وعنايته بخلقه؛ إذ لا يمكن تصوُّر استمرار الحياة إلّا بهذه الثنائيَّة: ثنائيّة الذَّكر والأنثى في كلّ الكائنات الحيَّة، ومعلوم أنّ الذَّكر لم يصنَع لنفسه الأنثى ليكمِّل بها وجوده، ولا الأنثى كذلك، بل هناك من خلَقَهما لبعضهما، وهما غافلان لا يَدرِيان.

﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴾ أي: إذا تُقذَف في الرحم.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴾ أي: كما أنشأكم أوَّل مرة سيُنشئكم النشأة الأخرى.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴾ أي: هو الذي أمدَّ الناسَ بأسباب الرزق، فأغناهم بالمال المتداول بينهم؛ كالذهب، والفضة، والنقود، وأقناهم بالبيوت والمزارع الثابتة، فأقنَى من القُنْية والاقتناء، وهو: تملُّك الأصول الثابتة ، والله أعلم.

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴾ والشِّعرَى: كوكب عبَدَه بعض العرب في الجاهليّة واتخذوه إلهًا.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ يُذكِّر مُشركِي العرب بأسلافهم الذين أهلَكَهم الله؛ كعادٍ وثمود فلم يُبقِ منهم أحدًا.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴾ أي: القُرى المُؤتفِكة، والمُؤتفِكة المُنقلِبة بما أصابَها من العذاب، وهي قُرى قوم لوطٍ، و﴿أَهْوَىٰ ﴾ أي: أشدّ سقوطًا في العذاب من غيرها.

﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾ أي: فغطَّاها من العذاب ما غطَّاها.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾ الخطابُ لرسولِ الله ﷺ يمُنُّ عليه الله بنِعمِهِ الجليلة، وعنايته

التامَّة، وتتمارَى أي: تشُكُّ، وحاشَا رسول الله من الشكِّ، وإنّما هو نفيٌ بصيغة السؤال، أي: قد تحصَّلَ لك اليقين التامُّ بهذه الآلاء وما فيها من الدلائل.

وصيغةُ السؤال أفادَت التعريضَ بأولئك الذين يُنكِرُون حقائِقَ الأشياء، ويتنكَّرُون لنِعمةِ الله عليهم.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ كلامٌ مستأنفٌ، قُصِدَ به التذكير بما استهلَّت به السورة؛ فمحمدٌ ﷺ إنّما هو نذيرٌ ورسولٌ من جِنس الرسل السابقين، جاء برسالة الله وهو المؤتمن عليها؛ إذ لا ينطقُ عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يوحى.

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ أي: اقتربت الساعة.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ بمعنى أنّها واقعةٌ لا محالة، ولا يقدر على دفعها أحدٌ من الخلق.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ أي: أتعجَبون من هذا الوعيد والتحذير الشديد.

﴿وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ﴾ وهذا دليل غفلتهم وسكرتهم.

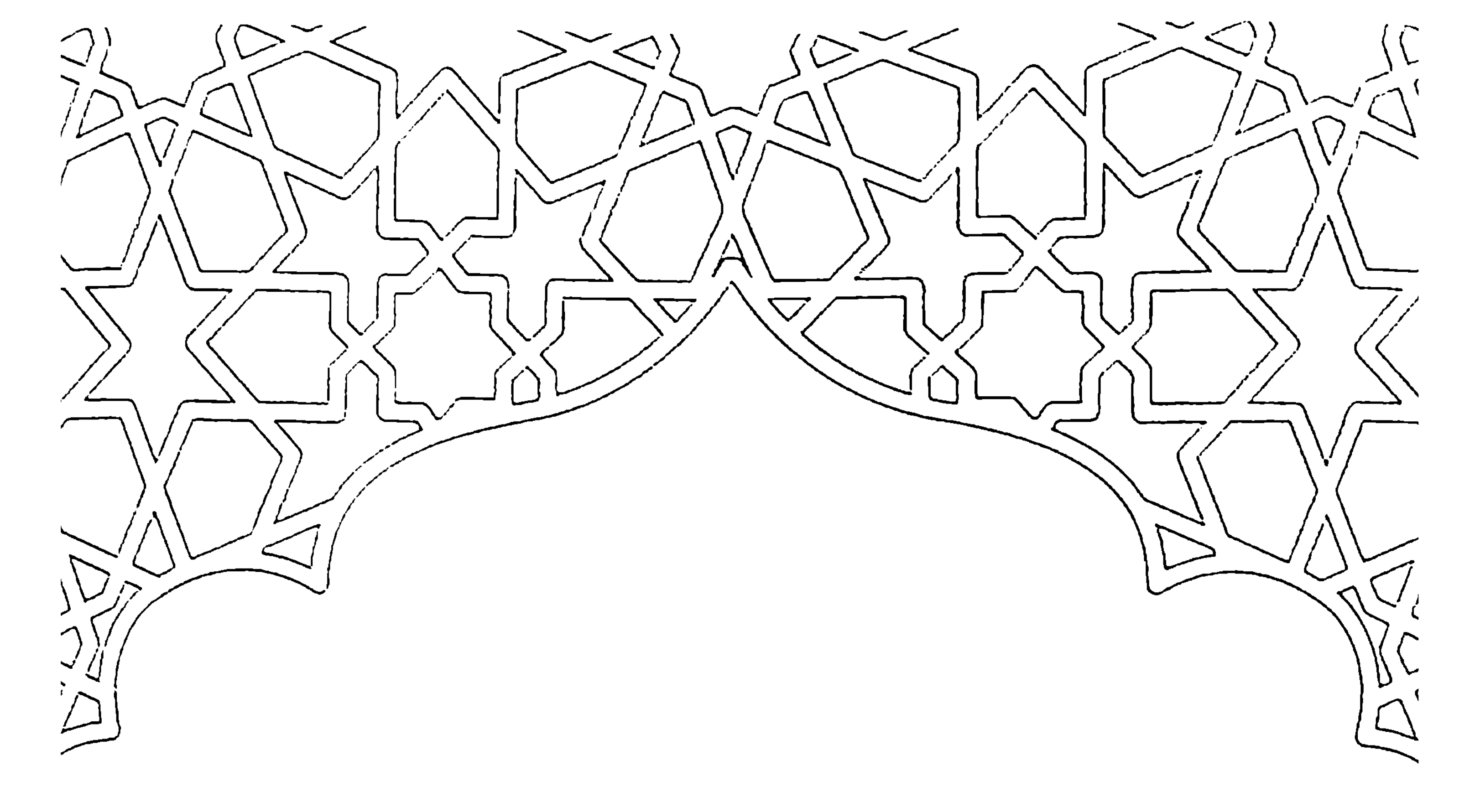
﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ لاهُون غافلون.

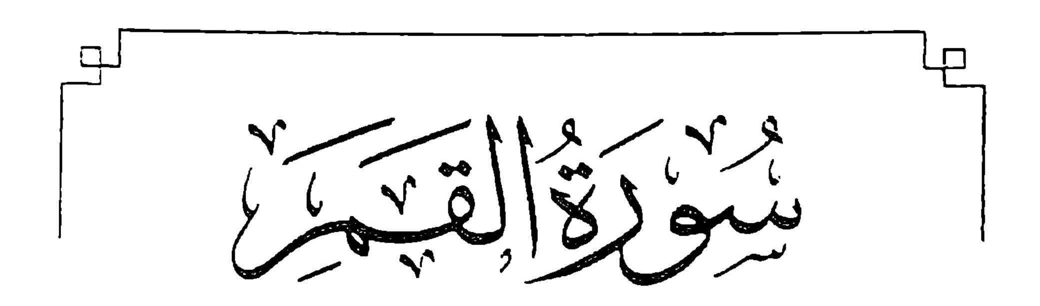
﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ هذا أمرٌ صريحٌ للمشركين بالسجود والدخول في طاعة الله تعالى، وقد جاء بصيغة الحسم والجزم بعد سلسلة من المؤثِّرات العقليَّة والروحيَّة التي اختصَّت بها هذه السورة.

وقد ورد في «الصحيحين»: أنَّ النبيَّ ﷺ سجَدَ بالنَّجم، وسجَدَ معه المسلمون والمشركون[1]، ولا شكَّ أنّ هذا دليلٌ على قوَّة القرآن الروحيَّة القادرة على تحريك الفِطرة السليمة مهما غشِيَتْها ظُلمةُ الشركِ والجهلِ.

---

(١) متفق عليه عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (قَرَأَ النبي ﷺ النَّجمَ بمكة، فسجَدَ فيها وسجَدَ من معه، غير شيخ أخَذَ كفًا من حصًى أو ترابٍ فرفَعَه إلى جبهته وقال: يَكفِيني هذا، فرَأيتُه بعد ذلك قُتِلَ كافرًا)، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٣٦٣/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٢/ ٨٨/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).





المجلس الرابع والأربعون بعد المائتين: فكيف كان عذابي ونُذُر

المجلس
الرابع والأربعون بعد المائتين

سُورَةُ القَمَرِ

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾

فكيف كان عذابي ونذر

سورةُ القمر سورةٌ تخلَعُ القلوبَ بوعيدها، وتُزلزِلُ الرواسي بتهديدها، تُخاطِبُ الظالمين وكأنّها تطرُقُ على رؤوسهم بمطارق الحديد، وتضَعُ أمامَهم صُورًا من العذاب الشديد، مِمّا

ذاقَهُ أسلافُهم في هذه الدار، أو مِمَّا أُعِدَّ لهم ولأمثالهم في تلك الدار.

السورة كأنَّها رسالةٌ واحدةٌ، وقد جاءت لغايةٍ واحدةٍ، مع ما فيها من صورٍ متنوعةٍ، وآمادٍ زمانيَّةٍ ومكانيَّةٍ مُتعدِّدةٍ، وهذه خُلاصةٌ مُركَّزةٌ لخارطتها الكليَّة، وعناصرها الجليَّة، وبحسب تسلسُلِ آياتها:

أولًا: تستهلُّ السورةُ بالإعلان عن قُرب وقوع الساعة إعلانًا مقرُونًا بعلامةٍ من علاماتها، وشرطٍ مِن أشراطها ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وهذا الاستِهلالُ هو المدخلُ الأنسَبُ لموضوع السورة كلّها الذي تتكرَّر فيه آياتُ الوعيد والتهديد.

ثانيًا: يعرِضُ القرآن حالَ المشركين وموقفهم مِن هذه النُّذُر المتنوعة والمتكررة ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾.

ثالثًا: يوجِّه القرآن النبيَّ ﷺ أن يُعرِض عنهم ولا ينشغِل بهم حتى يُلاقوا يومهم الموعود ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

رابعًا: يُذكِّرُهم القرآن بيوم الطوفان، ذلك اليوم الذي أهلَكَ الله به قوم نوحٍ ﷺ بعد أن كذَّبوا نبيَّهم وكفروا بربِّهم، وكيف نجَّى الله نوحًا منهم ومِمَّا أصابهم ﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

خامسًا: ثم يُذكِّرهم باليوم النَّحس الذي أخذ الله به عادًا بعد أن سلَّط عليهم ريحًا صرصرًا، فأحالَتْهم إلى جُثثٍ هامدةٍ كأعجاز النخيل الخاوية ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

سادسًا: ثم يُذكِّرهم بالصيحة التي أهلك الله بها ثمودَ حتى صاروا كهشيم المُحْتَظِر بعد أن كذَّبوا نبيَّهم وكفروا بربِّهم وعقَرُوا الناقةَ التي جعَلَها الله آيةً لهم ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

سابعًا: ثم يُذكِّرهم بالحاصِب الذي رمَى الله به قومَ لوطٍ فصبَّحهم بعذابٍ مُستقِرٍّ بعد أن تجاوَزُوا كل حدٍّ وتمارَوا بالنذر ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

ثامنًا: ثم يُذكِّرهم بفرعون، وما أدراك ما فرعون ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

تاسعًا: بعد كلِّ هذه التذكيرات والتنبيهات، ينتقِلُ القرآن ليوجِّه الخطاب إلى أهل مكّة الذين لا زالوا يُصِرُّون على كفرهم وتكذيبهم بنبيِّهم ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾، ثم يتوعَّدهم بعذابٍ أشدّ من هزيمة جمعهم وتولية دُبرهم ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾.

عاشرًا: يلحظ هنا تكرار هذا التعقيب المزدوج؛ إنذارٌ بالعذاب، وتنبيهٌ إلى طريق النجاة،

بعد تلك المواقف المتشابهة للأمم السابقة ﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

حادي عشر: ثم تختتم السورة بنفحةٍ من رحمات الله تخصُّ هؤلاء المؤمنين المتّقين ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَهَرٖ ٥٤ فِي مَقۡعَدِ صِدۡقٍ عِندَ مَلِيكٖ مُّقۡتَدِرِۭ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ وعلامة اقترابها ختم الرسالات برسالة محمد ﷺ.

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ هذه حادثةٌ ثبتَت في «الصحيحين» وغيرهما[1]، وهي مستفيضةٌ في كتب التفسير.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾ الظاهر من السياق أنّه توبيخٌ لقريش الذين رأَوا انشقاق القمر، فأعرَضوا وقالوا عنه: سحرٌ مُستمِرٌّ.

﴿وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾ ربط بين التكذيب وسببه، وهو اتباع الهوى، بمعنى أنّ تكذيبهم لم يأتِ من شُبهةٍ، أو عن نظرٍ واجتهادٍ.

﴿وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ أي: وكلُّ أمرٍ قدَّره الله فهو ثابتٌ، ومن ذلك: رسُوخ هذه الدعوة في الأرض رغم كَيدِ هؤلاء وتكذيبهم.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ﴾ أي: جاءَهم في هذا القرآن من الأخبار والقصص ما فيه رادعٌ لهم لو تدبَّروه وعقَلُوه.

---

(١) رُويَت عدّةُ أحاديث في معجزة انشقاق القمر، وقد بوَّب كلٌّ من الإمام البخاري والإمام مسلم لها بابًا في «صحيحيهما» وساقَا عدّةَ أحاديث، منها: حديث ابن مسعود ﷺ قال: انشَقَّ القمرُ على عهد رسول الله ﷺ فرقتَين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسولُ الله ﷺ: «اشهَدُوا».

ومنها: حديث أنس ﷺ قال: (سأل أهلُ مكّة أن يُريَهم آيةً، فأرَاهم انشِقاقَ القمر). ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٨٤٣/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م) فما بعدها، وصحيح مسلم (٨/ ١٣٢/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين) فما بعدها.

﴿حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ﴾ أي الأنباء هذه جاءتهم مُحكمة مُتقَنة وقد بلَّغها لهم رسول الله ﷺ.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يجوز في (ما) النفي والاستفهام، والمعنى مُتقارِبٌ؛ لأنّه استِفهامٌ يُفيد النفي أيضًا، أي: فما تُغني هذه النُّذُر والمواعظ في هؤلاء المُعاندين المُكابرين؟

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أعرِض عنهم ولا تنشَغِل بهم.

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ إلى شيءٍ عظيمٍ ومهُول تُنكِره النفوس وتخشاه، وهو الحشر.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ مِن الذُّل والخوف، والحديث عن هؤلاء الذين تقدَّم ذِكرهم، وهم المُشركون المُعانِدون.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ كأنّهم في كثرتهم واضطرابهم مثل الجراد المُنتشر في الأرض.

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ﴾ مُسرعين إليه مذعورين مِمّا دهاهم.

﴿يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ عسيرٌ وشديدٌ.

﴿۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: نَهَروه ومنَعوه من الدعوة.

﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ﴾ لا أقدر على هدايتهم وقد ازدجروني واستضعفوني.

﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي: فانتَصِر لي، ودعوةُ نوحٍ هذه جاءت بعد أن صبَرَ عليهم ألفَ سنةٍ إلَّا خمسين عامًا.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ أي: بمطرٍ كثيرٍ وسريعٍ ومتواصلٍ.

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أصلُه: فجَّرنا عيون الأرض، لكن صيغة القرآن تُوحي بكثرة العيون حتى كأنّ الأرض أصبَحَت كلها عيونًا.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ أي: ماء السماء وماء الأرض.

﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: مُقدَّرٌ في عِلْمِ الله لهلاكهم.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ أي: حمَلناه على سفينةٍ مصنوعةٍ من ألواحِ الخشب، ومُحكَمة بمساميرها التي تشدُّ بعضها إلى بعض.

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بحفظنا وبمرأى منَّا.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: نجَّيناه مما أصابَ قومه بحفظنا ورعايتنا جزاءً له على ما دعا وصَبَر، وقوله: ﴿كُفِرَ﴾ أي: جُحِدَ أمرُه وكُذِّب.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أي: بقِيَت السفينة يراها الناس بَعْدَهُ وفي الأجيال المُتعاقِبة، وقد ورد أنّه رأى ما تبقّى منها بعضُ الناس في صدر الدعوة المُحمَّديَّة.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: من مُتذكِّرٍ ومُعتبِرٍ.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: كيف كان هذا العذاب الذي أحاط بهم بعد إنذاري ووعيدي لهم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: للتلاوة والفهم.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: هل من مُتذكِّر، وهذه دعوةٌ لتدبُّر القرآن بإشارة أنّ هذا هو طريق الفوز والنجاة.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ كيف كان عذابي لها بعد أن أنذَرتُها إنذارًا بعد إنذارٍ.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ ريحًا شديدةً مزمجرةً.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ في يوم شؤمٍ، ومُستمِرّ صفة لنَحس.

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعهم من أماكنهم.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ كأنّهم جذوع نخلٍ منخُورةٍ ويابسةٍ.

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ السُّعُر: الجنون.

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ أي: هو كذّابٌ بطِرٌ مُعجَبٌ بنفسه.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ أخرَجَ الله لهم الناقَةَ بعد أن طلبوا من نبيِّهم آيةً خارقةً حتى يؤمنوا، فكانت الناقة اختبارًا لهم.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ قِسْمَةٌ بينهم وبين الناقة، فيحضرون ويشربون في موعدهم، وتحضر الناقة وتشرب في موعدها.

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ أي: نادَوا واحدًا منهم، وكان معروفًا بالجرأة والإقدام ليُخلِّصهم من الناقة فيعود الماء كلّه لهم.

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ أي: فتناول سيفَه وضرَبَ الناقَةَ ثم نحَرَها.

﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ كالعُشبِ اليابس الذي يُجمعُ عادةً ويُرصَف لحظائر الأغنام كالسور لها.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحًا ترميهم بالحصباء، والحَصْباء: الحَصَى.

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ أي: وقت السحر.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ إشارة إلى أنّ الشكر يزيد النِّعم ويدفع النقم.

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ شكُّوا وجادَلوا بكلِّ ما أنذَرَهم به.

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ أي: طلَبُوا منه ضيُوفَه وما علِمُوا أنّهم الملائكة.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ ذهَبنا بأبصارهم.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ أي: أوّل الصباح.

﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ عذابٌ دائمٌ حتى تم استِئصالهم.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ النُّذُر: جمع نذير، والمقصود هنا: موسى وهارون ﷺ.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ كذّبوا بالمُعجِزات التي أيّد الله بها موسى وهارون، وأنكَروا دلائلها.

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ يُثني الله تعالى على نفسه بالعزّة الكاملة والقُدرة المطلقة، ويُعرِّض بفرعون الهالك الذي كان يرَى نفسَه عزيزًا ومُقتدرًا حتى أخذه الله.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ سؤالٌ لقريش مُتضمِّن تهديدهم، بمعنى أنّكم لستم أفضل ولا أقوى مِن تلك الأقوام الهالِكة.

﴿فَطَمَسۡنَآ أَعۡيُنَهُمۡ﴾ ذهَبنا بأبصارهم.

﴿وَلَقَدۡ صَبَّحَهُم بُكۡرَةً﴾ أي: أوّل الصباح.

﴿عَذَابٞ مُّسۡتَقِرّٞ﴾ عذابٌ دائمٌ حتى تم استِئصالهم.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ ٱلنُّذُرُ﴾ النُّذُر: جمع نذير، والمقصود هنا: موسى وهارون ﷺ.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ كذّبوا بالمُعجِزات التي أيَّد الله بها موسى وهارون، وأنكَروا دلائلها.

﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ يُثنِي الله تعالى على نفسه بالعزّة الكاملة والقُدرة المطلقة، ويُعرِّض بفرعون الهالك الذي كان يرَى نفسَه عزيزًا ومُقتدرًا حتى أخذه الله.

﴿أَكُفَّارُكُمۡ خَيۡرٞ مِّنۡ أُوْلَٰٓئِكُمۡ﴾ سؤالٌ لقريش مُتضمِّن تهديدهم، بمعنى أنّكم لستم أفضل ولا أقوى مِن تلك الأقوام الهالِكة.

﴿أَمۡ لَكُم بَرَآءَةٞ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ أي: هل عندكم عهدٌ مكتُوبٌ بالأمان من الله أنّه لن يُعاقِبَكم؟

﴿أَمۡ يَقُولُونَ نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ أم أنّهم مغرُورون بجَمعهم وقوَّتهم؟

﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ وكان هذا إنذارًا لهم، وقد تحقَّقَ بالفعل في معركة بَدر، ولا شكَّ أنّ هذا من الإعجاز؛ حيث نزَلَت هذه الآيات قبل الهجرة يوم كان المُؤمنون مُستضعَفِين في مكّة.

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ أي: الساعةُ أعظمُ داهِية وأشدُّ مرارةً مما أصابَهم في بدرٍ وفي غير بدر.

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٖ﴾ أي: في تِيهٍ وجنونٍ وغيابٍ عن الرشد، هذا هو حالُهم في الدنيا والذي استوجَبُوا به عذابَ الله في الآخرة.

﴿يَوۡمَ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ﴾ إذلالًا لهم وجزاءً مناسبًا لتكبُّرهم.

﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: ذوقوا بوجوهكم حرَّ سقر، وسقر: اسم من أسماء جهنَّم، أو اسم لدَرَكةٍ من دَرَكَاتها، والعياذ بالله.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي: بتقديرٍ سابقٍ، وبأجلٍ مُحدَّدٍ وفق عِلم الله وحكمته وإرادته المطلقة.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ بمعنى أنّ ما نريده من أمر الخلق يكون بكلمةٍ واحدةٍ، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، و﴿كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ كناية عن سرعة الإيجاد والتكوين.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهكم من الكفّار.

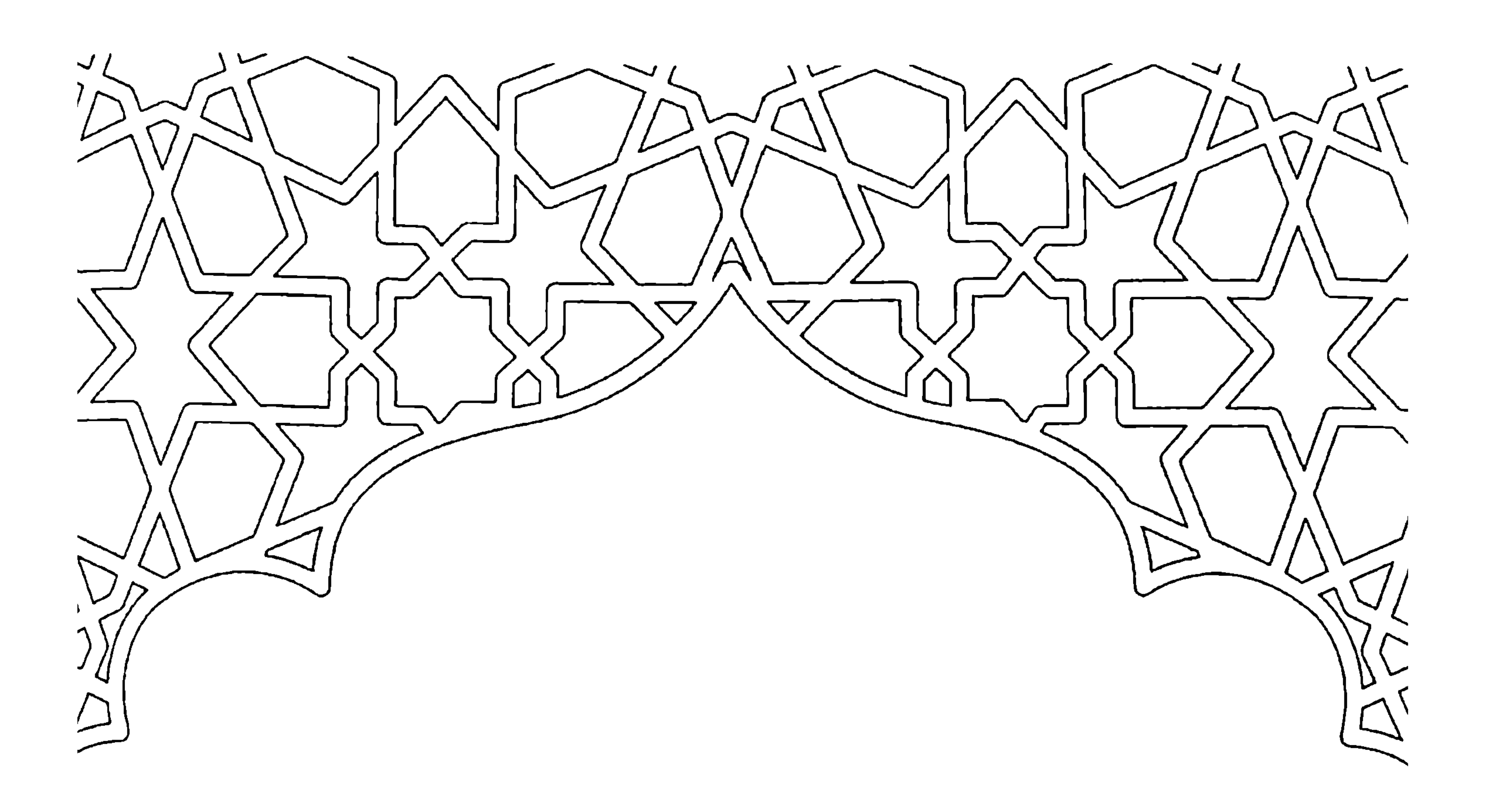
﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: محفوظ في عِلم الله، وتدوّنه الملائكة عليهم فيُجازيهم الله به.

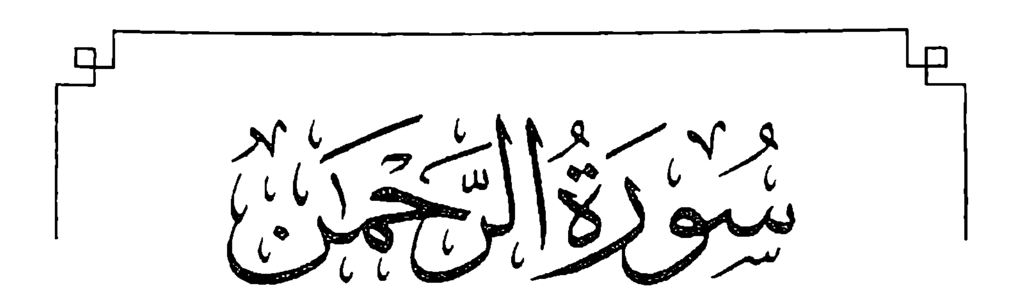
﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ تأكيد أنّ كلَّ صغيرٍ وكبيرٍ مِن شأن الخلائق، وأعمالهم محفوظٌ ومكتوبٌ.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ جاء هذا الإخبار تفريعًا عن الإخبار بعلم الله الشامل وإحاطته بأعمال البشر، وقد تقدَّم جزاء الكافرين منهم، فناسَبَ أن يذكر جزاء المتقين، وقوله: ﴿وَنَهَرٍ﴾ اسم جنسٍ يُطلق على المتعدد، بمعنى أنّهم في جنّاتٍ وأنهارٍ.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في مقامٍ صادقٍ، بمعنى أنّه تام النعمة كما وعَدَهم ربّهم.

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: في ضيافة الله المليك المُقتدِر، أي: المالك لأمر الدنيا والآخرة، المُقتدِر عليهما بربوبيّته وعلمه وقوته، فلا يُنازِعه في مُلكِه أحدٌ.





المجلس الخامس والأربعون بعد المائتين: فبأي آلاء ربكما تُكذبان

سُورَةُ الرَّحْمَٰن

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾

موضوع سورة الرحمن يكاد يكون مختلفًا تمامًا عن السورة التي سبقتها؛ فسورة القمر كانت وعيدًا وتهديدًا، وإنذارًا شديدًا، أمّا سورة الرحمن فهي آلاءٌ وجِنانٌ، وعينان تجرِيان، ونخلٌ ورمَّانٌ، وحُورٌ مقصُوراتٌ في الخِيام، لم يطمِثهنَّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ.

إنّها السورة التي تستهلُّ باسمه تعالى الرحمن، وبهذا تتكامل هذه السورة مع سابِقَتها، ترغيبًا وترهيبًا، وتشويقًا وتخويفًا، وهكذا هي طِباع الناس يحتاجون هذه ويحتاجون تلك، وهذه الخارِطة الأساس لموضوعات هذه السورة النفيسة وبحسب تسلسُل آياتها أيضًا:

أولًا: استهلَّت السورة باسمه تعالى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾؛ ليكون هذا الاسم عنوانًا للسورة، ومدخلًا لموضوعاتها، الرحمن الذي بفيُوضات رحمته نزل هذا القرآن ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ وبفيُوضات رحمته كان هذا الخلق؛ خلق الإنسان وخلق الأكوان، ثمّ ميَّز الإنسان بالبيان، وضبط حركة الكون بتقديرٍ وحُسبان ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (٤) ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ (٥) وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾.

ثانيًا: بعد هذا الاستِهلال الودود، نوَّهت السورة بقيمة العدل التي تقوم بها حركةُ الكون، وتقوم عليها حياة الإنسان ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾.

ثالثًا: ثم التفتَت السورة إلى آثار رحمة الله في هذه الأرض، وما أودع فيها من أسباب الرزق والنعمة ﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ (١١) وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

رابعًا: ثم عادَت لتُذكِّر بخلق الإنسان مقارنةً له بخلق الجان ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ (١٥) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

خامسًا: ثمّ نبَّهت إلى آثار قدرة الله ورحمته وربوبيَّته لهذا الكون، وما فيه من ناموسٍ ونظامٍ بديعٍ ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ (١٧) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ

﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

سادسًا: بعد التنويه بدقة الخلق وما فيها من إتقانٍ وإحسانٍ، ولكي لا يتوهَّم مُتوهِّم أنّ الخلق باقٍ وأنّ الإنسان سيستقرُّ في هذه الحياة، راحت السورة تُواجِه الناس بالحقيقة التي تنتظرهم جميعًا: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

سابعًا: هذه الحقيقة تكشِف أنّ الإنسان لا يستقلُّ بنفسه والخلق كلّه كذلك، بل كلّ ما في الوجود مُفتقِرٌ إليه سبحانه في كلِّ حاجاته ومتطلّبات حياته ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثامنًا: تُفصِّلُ السورة ما أجمَلَتْه آنفًا من حقيقة الفناء، واليوم الذي ستنتهي فيه هذه الحياة ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَـٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

تاسعًا: آنذاك سيلقى المجرمون جزاءهم ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

عاشرًا: أمّا المؤمنون المُتّقون فهم على مستوَيين من النعيم: المستوى الأعلى للمُحسنين الذين عرفوا مقام ربّهم، فخافوه وعبَدُوه حقّ عبادته ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَـٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ

إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

حادي عشر: أمَّا المستوى الثاني من النعيم فهو لعامَّة أهل الجنّة مِمَّن نجَّاهم الله من النار ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ثاني عشر: في الآية الأخيرة من السورة يُمجِّد الله اسمه الكريم ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فكأنَّ السورة قد اختتمَت بما ابتدأت به، والله أعلم، وهو بنا أرحم.

دقائق التفسير

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ تنبيهٌ إلى الصِّلَة الوَثِيقة بين القرآن وبين الرحمة التي هي صِفةُ الرحمن، وبين البيان الذي هو ميزَةُ الإنسان، وبه يفهَمُ القرآن، فهذه منظومة من القِيَم؛ دينٌ مُنبَثِق من الرحمة، وعِلمٌ صحيحٌ قادرٌ على أن يفهَمَ الدِّينَ ويُترجِمَه في حياته، فإذا ابتعد الدينُ عن الرحمة، كان دينًا مُشوَّهًا ومُؤذيًا، وإذا ابتعد العلمُ عن الدين، صار عِلمًا يخدم الأقوياء، ويمدُّهم بأسباب الكبرياء وإذلال الضعفاء.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ بحسابٍ دقيقٍ، وهذا الحساب ينعكس في حياة الناس؛ فيَعرِفون به يومَهم وشهرَهم وعامَهم، ويعرفون به صيفهم وشتاءهم، وهذا الحساب الدقيق في ضبط المسافات مع الأرض تُبنَى عليه ضرورات الحياة في الحرارة والأشعة وتكوين

السُّحب وما إلى ذلك.

﴿ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴾ أي: يسجُد لله ما في السماء وما في الأرض، ثم مثَّل للسماء بنجمها، وللأرض بشجرها، وهذا أَولَى من تفسيرهما بنوعَين من النبات؛ ما له ساق، وما ليس له ساق؛ وذلك لأنّ النجم المتبادر للذهن في لغة العرب هو نجم السماء، ولِوُرودِ هذا المعنى في آية أخرى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ ﴾ [الحج: ١٨].

والمقصود بالسجود هنا هو: السجود القدري، والذي يعني: الخضوعَ التامَّ للنظام الذي وضَعَه الله في هذا الكون، فهو ليس سجودًا تكليفيًّا يُبنَى عليه ثوابٌ وعقابٌ، بل هو سنَّةٌ كونيَّةٌ، وآيةٌ إيمانيَّةٌ، وعِبرةٌ لأُولِي الألباب.

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ قرَنَ رفع السماء بوضع الميزان الذي هو رمز العدل؛ إعلاءً من شأن هذه القيمة العظيمة التي لا تقوم الحياة إلَّا بها.

﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ هذه وصيَّةُ الله للبشر أن يُقيموا العدل فيما بينهم، كما أقامَه الله في السماء، وجعَلَه أساسًا في هذا الخلق.

﴿ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴾ أي: مهَّدَها لهم وجعَلَها صالحةً لعيشهم، والأنام جمع لا مفرد له، ويُطلَق على الناس كافة، وقد يُطلَق على كلِّ الخلائق التي تعيش على الأرض على اختلاف أجناسها وألوانها.

﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ الطلعُ المحفوظُ بأكمامه.

﴿ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ﴾ العصفُ: السنابل التي تخرج مع حبوب القمح والشعير ونحوهما، ثم يعصف بها بعد اكتمال الحب فتكون تِبنًا، والعصف للحبِّ كالأكمام للطلع.

﴿وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ نبات له رائحة زكيّة.

﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ هذه الآية من خصائص هذه السورة العزيزة، والخطاب مُوجَّه لفريقَين مُختلفَين جِنسًا، وهما: الإنس والجن، وهذا هو الأظهر؛ لتكرار ذِكر الجن مع

الإنس فيها، أو مُختلفَين دينًا، وهما: المؤمنون والكافرون، وقد رجَّحَه الطاهرُ بن عاشور في تفسيره[1]، والسياق بخلافه؛ إذ لم يرِد في السورة ذِكرُ الكافرين في مُقابل المؤمنين، كما أنّه ليس معهودًا في القرآن جَمعُ المؤمنين مع الكافرين في ضميرٍ واحدٍ، وأما الآلاء فهي: النِّعَم، وهي كذلك الدلائلُ على وجود الخالِق المُنعِم تبارك وتعالى.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ﴾ الصلصال: الطين اليابس الناعم أو الأملس الصقيل، والفخار معروف.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ مارِج النار: لهَبُه المختلط بدخان النار أو نحوه.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ هذه أبعاد مُختلفة؛ فما بين المشرقَين يشمل: جهةَ المشرق من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها، والمغرب كذلك، ثم يأتي البُعد الثالث ليشمل ما بين كلّ جهة الشرق وكلّ جهة الغرب؛ فيكون معنى الآية أنّ الله هو ربُّ الأرض كلّها بكلِّ جهاتها وأبعادها، والله أعلم.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ خلَطَهما، وهذا مُشاهَدٌ بتدفُّق الأنهار العَذْبة في البحار المالحة، دون أن تتغيَّر الأنهار ولا البحار؛ لأنّ المَرج في نقطة الالتقاء وهي مسافة محدودة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يطغَى أحدُهما على الآخر، ولا يمحو أحدُهما الآخر.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ وهما من أنواع الحُليِّ، والتنويهُ بهما تنويهٌ لقيمة التزيُّن، وهي قيمةٌ معتبرةٌ في الشرع، ومثلها التطيُّب.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ أي: السفن التي تجري في البحار، والمنشآت أي: أنشأها الناس مما خلقه الله لهم من شجرٍ ونحوه، والأعلام: الجبال، إشارة إلى عِظَمها وارتفاعها، وقد كانت تبدو كذلك بأشرِعَتها الضخمة والعالية، وهي اليوم أقربُ لهذا الوصف، كما هو معلومٌ ومُشاهَد.

---

(١) ينظر: «التحرير والتنوير» للعلامة محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور (ت ١٣٩٣) (٢٧/ ٢٤٤/ الدار التونسية، ط ١٩٨٤م).

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ أي: كلُّ حيٍّ على الأرض يموت، وكلُّ موجودٍ عليها يَبلَى.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: ويبقى ربُّك، ودلالة الوجه على الذات معروفة وشائعة في لسان العرب، وهناك قرينةٌ في الآية نفسها؛ إذ وصف الوجه بما يصِف به الربّ فقال: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، وذو الجلال والإكرام هو الله، وقد وصف الله به نفسه في آخر السورة فقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ فجعله وَصفًا للربِّ وليس للاسم، والله أعلم.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سؤال المُحتاج واقِعًا أو حكمًا؛ فما مِن أحدٍ من الخلق يستقل بنفسه، حتى الكافر المُعاند يسأل الله بفِطرته وطبيعة تكوينه مهما كابَرَ وعانَدَ، أمّا في الآخرة فلا يسَع أحدًا كِبْرٌ ولا عناد.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ لأنّه سبحانه هو الذي يُدبِّر أمر هذا الخلق، ففي كلِّ يومٍ له ﷻ تدبيرٌ وخلقٌ ورزقٌ، وإحياءٌ وإماتةٌ، ورفعٌ وخفضٌ، وما إلى ذلك.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي: سنُقبِلُ عليكم بالحساب إقبالَ من ليس له شغلٌ غيركم، والله سبحانه لا يشغَله شيءٌ عن شيءٍ، وإنَّما هو التمثيل بما هو مألوفٌ من حياة الناس، والثَّقَلان: الإنس والجن.

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ هذا خطاب الله لمعشرِ الجنّ والإنس، والمقصود به طغاتهم؛ لأنّه مُتضمّنٌ الوعيد والتهديد؛ فالله يتحدَّى هؤلاء أن يهربوا من قضاء الله وحكمه، والسياق يرجّح أنّ هذا في الآخرة؛ لأنّه عقّب بقوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فجهنّم تطلبهم وهي محيطةٌ بهم.

وأمّا الاستثناء الوارد: ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ فهو على سبيل التعجيز، فأيُّ سلطان عند هؤلاء المساكين يَقِيهم من سُلطان الله، ويُمكّنهم من أن يخرُجُوا عن مُلكِه وحُكمِه؟

﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ﴾ هذه من أحوال الآخرة؛ حيث تتشقّق السماء كما تتشقّق الوردة الرقيقة بطَبَقَاتها المختلفة، وينقَلِب لونُها إلى اللون الأحمر الذي هو لون الورد، فكأنّها صُبِغَت بلونه، والدهان يُطلَق على الصَّبغ والزيت وكلّ ما يُطلَى به.

﴿ فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُسۡـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٞ وَلَا جَآنّٞ ﴾ أي: في ذلك الموقف من مواقف الآخرة، وليس فيه نفيٌ للسؤال والحساب؛ لأنّ أيّام الآخرة كثيرة وطويلة، ومواقفها متنوعة، وأحوالها مختلفة، ولكلِّ يومٍ شغله ووظيفته، فما نُفِيَ في هذا اليوم قد يكون في يوم آخر.

﴿يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ﴾ تعرِفهم الملائكة بصفاتهم الظاهرة عليهم، والتي تميّزهم عن المؤمنين.

﴿فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ﴾ أي: تأخذهم الملائكة فتجمع نواصِيهم مع أقدامهم وترمِيهم في جهنّم، وهذه هيئةٌ مُهينةٌ ذليلةٌ تُناسِب ما كانوا عليه من العناد والكبر.

﴿ يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ أي: يتردَّدون بين مكان النار وبين مكان الماء المغلِي، أو يتردَّدون بين هذا وهذا تردُّدًا في اختلاف الأحوال وليس في اختلاف الأماكن، و﴿آنٍ﴾ الماء الذي اشتدَّت حرارته.

﴿ وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ إشارة إلى معرفة هؤلاء الصفوة بمقام ربِّهم وما يجب في حقّه سبحانه، بخلاف المؤمنين المُقلّدين بإيمانهم الذين يؤمنون بالله إيمانًا إجماليًّا.

﴿ ذَوَاتَآ أَفۡنَانٖ﴾أي: ذواتا أغصانٍ كثيرةٍ، كناية عن كثرة أشجارهما.

﴿بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ وهو الحرير السميك الغليظ.

﴿وَجَنَى ٱلۡجَنَّتَيۡنِ دَانٖ﴾ أي: ثمر الجنّتَين قريبٌ منهم وفي مُتناول أيديهم.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ الحُور العين، وقصرُ الطرف كنايةٌ عن الحياء والرقّة.

﴿لَمۡ يَطۡمِثۡهُنَّ إِنسٞ قَبۡلَهُمۡ وَلَا جَآنّٞ﴾ أي: لم يمسهنّ إنسٌ ولا جانٌّ؛ إذ لم يكن لهنّ من قبلُ أزواج.

﴿ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴾ وصف لجمالِهنَّ وصفائهِنَّ.

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ أي: كلّ هذا الذي في الجنّتين إنّما هو ثوابٌ للذين أحسَنوا في حياتهم الدنيا، وفيه تأكيدٌ للعدل الإلهي؛ إذ هذا جزاء العمل والجهد الذي يتفاوت فيه الناس ويتنافسون، بخلاف ما لو كان على أساس الجنس واللون والحسب والنسب.

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ هاتان جنتان أُخريان، دون الجنَّتَين السابقتين.

﴿ مُدْهَآمَّتَانِ ﴾ أي: عَلَتْهُما دُهْمة من كثافة ظلِّ الشجر فيهما، والدُّهمة: سوادُ الظلِّ الكثيف.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴾ أي: فوّارتان بالماء.

﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ دليل أنّ هاتَين الجنَّتَين دون الأُولَيَين في الرتبة؛ لأنّه في الأولَيَين قال: ﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴾.

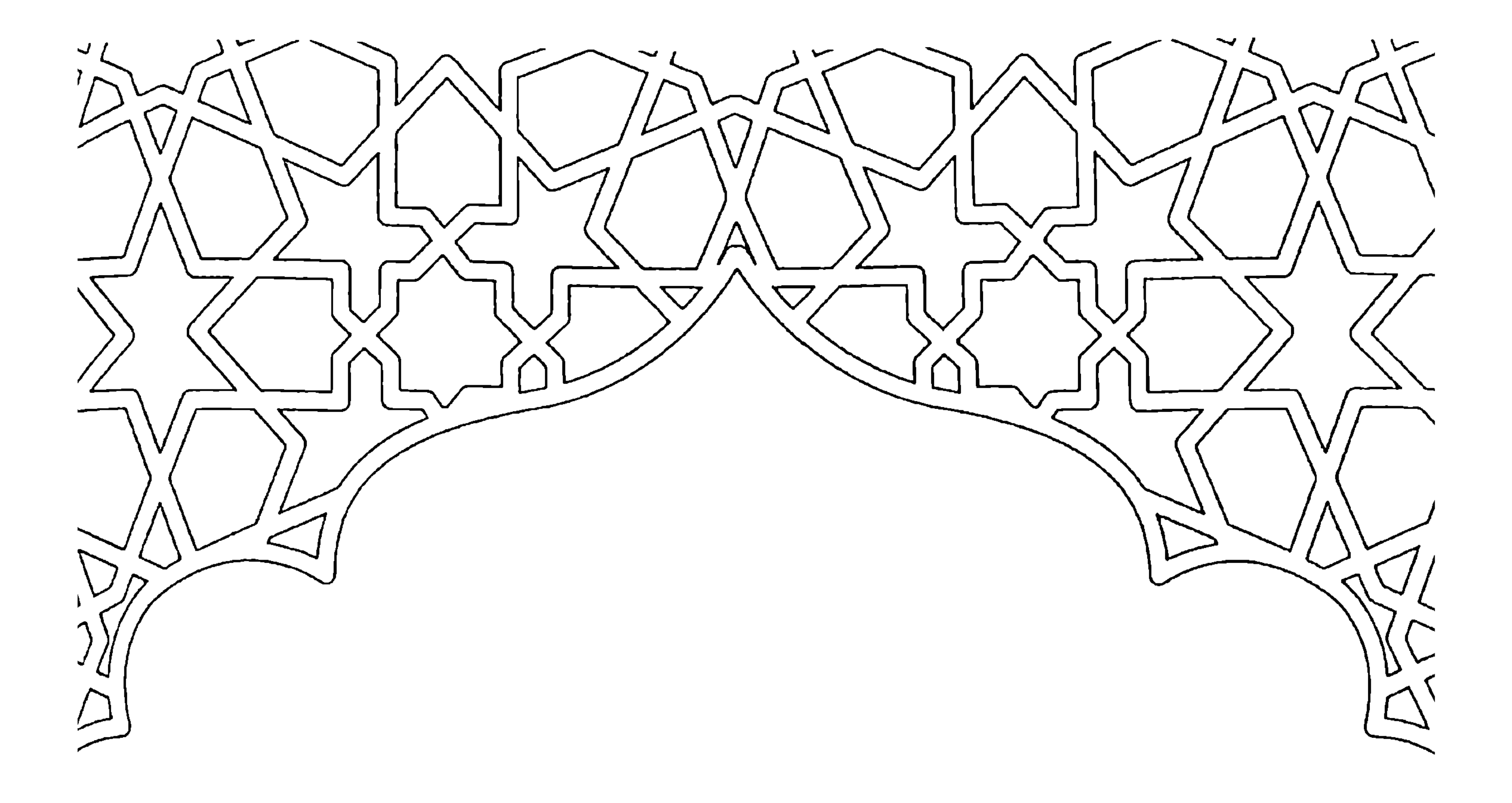
﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ عَدَل من المُثنّى إلى الجمع؛ إشارة إلى أنّ الصفات الآتية تشترك فيها الجِنان الأربع.

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ تفسيرٌ للخيرات الحسان، أو تمثيلٌ لها، و﴿ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴾ أي: مقصُوراتٌ في بيوت أزواجهنَّ، ولا يتشوَّفن لغيرهم.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ ﴾ على وسائدِ خضر، والخضرة لون يسرُّ الناظر.

﴿ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴾ فُرُش نفيسة وحسناء، والعبقري: النادر المتميِّز من كلِّ شيءٍ.

﴿ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ أشار بالاسم إلى اسمه: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ الذي استهلَّت به السورة، والله أعلم.




سورة الواقعة

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا (٦) وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً (٧) فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ (٨) وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (٩) وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ (١٠) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ (١١) فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ (١٩) وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٢٤) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا (٢٦) وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧) فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً (٣٥) فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ (٤٠) وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦)﴾

إذا وقعت الواقعة

تتناول سورة الواقعة موضوعَين أساسَين: أولها - وهو موضوعُ هذا المجلس -: وصفٌ مُفصَّلٌ لأحوال الآخرة، وانقِسام الناس فيها بحسب ما قدَّمُوه لأنفسهم، والجزاء الذي تستحِقُّه كلّ فِئةٍ منهم، وكما يأتي:

أولًا: صوَّر القرآنُ الساعةَ وأحداثَها، والانقلابَ الكونيَّ الذي سيعصِفُ بهذه الأرض ويُغيِّر معالِمَها حتى تكون هباءً مُنبثًّا ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا (٤) وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا (٥) فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾.

ثانيًا: بيّن القرآن أنّ الناس جميعهم سينقَسِمُون على ثلاث فِئاتٍ: ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾.

ثالثًا: بدأ الحديث عن الفئة الأعلى والأسمى، وهم السابقون السابقون ﴿ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾ ثم أخذ بتفصيل النعيم الذي أعدَّه الله لهم ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ﴾.

رابعًا: ثم ثنَّى بالفئة الثانية، وهم أصحاب اليمين ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾.

خامسًا: ثم ثلَّث بالفئة الثالثة ﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾، وقد خصَّ هذه الفئة ببيان السبب الذي استحقُّوا به هذه العاقِبةَ البئيسَةَ؛ لتأكيد عقيدة العدل الإلهي، وللتحذير وأخذ العِبرَة منهم ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴾.

سادسًا: ثم عاد القرآن ليؤكِّد عقيدة البعث وأنّ الناس أجمعين سيُحشرون إلى الله، موجِّهًا الخطاب بصورةٍ مباشرةٍ إلى أولئك المُكذِّبين المُعاندين يُحذِّرهم ويُنذِرهم ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن

زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إذا قامَت الساعة، وسمَّاها الواقعة؛ لتحقُّق وقوعها، ثم أكّد هذا التحقُّق بقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ بمعنى أنَّها ستقع يقينًا، ولن تجد لها آنذاك نفسًا تُكذِّبها.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ أي: تخفض أقوامًا بكُفرهم وظُلمهم، وترفع آخرين بإيمانهم وصالح عملهم.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: زُلزِلت زِلزالًا، كما قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١].

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فُتِّتَت، وهذا بعد أن يضرِبَها الزلزال الشديد.

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الهباء: ما لا وزن له مِمَّا تحمِلُه الريح؛ كالغُبار، والدخان، ومُنبَثًّا أي: مبثُوثًا في الفضاء لِخفَّته.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي: أصنافًا ثلاثة، بمعنى أنّ الناس كلّهم سيكونون على ثلاثة أصناف.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ هؤلاء الذين يُعطَون كتبهم بأيمانهم علامةً على رضا الله عنهم، والسؤال لجَلب انتباه السامع أو القارئ وتهيئته للجواب.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ هؤلاء الذين يُعطَون كتبهم بشمالهم علامةً على شقاوتهم وسخط الله عليهم، والعرب تتيمَّن باليمين، وتتشاءم بالشمال، ومن ثَمَّ أطلق المشأمة على الشمال؛ ولذلك قال في الآخر عن هؤلاء أنفسهم: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ وهؤلاء صفوة مختارون، طارُوا فوق الحساب والكتاب، هؤلاء هم قادة الهُدى، الدالُّون على الله، المُعرِّفون به، والداعُون إليه، والمجاهدون في سبيله، هم الأنبياء والمرسلون، ومن ورِثَ عنهم هذه الأمانة فنابَ عنهم في تبليغها، إنّهم المُصلِحون الذين لا يكتَفُون بصلاح أنفسهم، إنّهم الذين قال فيهم ﷺ: «**إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»[1].

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ والثُّلَّةُ تُوحِي بالكثرة، خاصَّةً أنّها جاءت في مُقابِلِ القِلَّة، وقد استشكَلَ هذا كثيرٌ من المُفسِّرين؛ إذ كيف يكون لأمةِ مُحمدٍ ﷺ النصيب الأقل من هؤلاء الأخيار؟!

والذي شرَحَ الله صدري إليه وتشهد له القرائن الكثيرة: أنّ الأولين هم السابقون في كلِّ أمّة، والآخرين هم الآخرون من كلِّ أمة، فالصحابة الذين كانوا مع النبيِّ ﷺ هم مَنْ يكثر فيهم هذا الصنف، ثم يقِلُّ شيئًا فشيئًا في الأجيال اللاحقة، وهكذا القول في أصحاب موسى وعيسى وكلّ الأنبياء السابقين ﷺ، ويشهد لهذا حديث: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الذِيْنَ يَلُونَهُمْ ...**»[2] الحديث.

---

(١) حديث: «إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ» جُزءٌ من حديثٍ رواه أبو داود (٣/ ٣٥٤/ دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد)، والترمذي (٥/ ٤٨/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، وابن ماجه (١/ ٨١/ دار الفكر، تح محمد فؤاد عبد الباقي)، وغيرهم، وقد ذكره البخاري في «صحيحه» بغير سندٍ ضمن أبواب كتابه ولم ينسبه كحديثٍ، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٣٧/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

والحديث قال عنه الحافظ ابن حجر العسقلاني ﷺ: (ضعَّفَه الدارقطني في العلل، وهو مضطربُ الإسناد. قاله المُنذري) ينظر: «التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير» (٣/ ٣٣٨/ مؤسسة قرطبة - دار المشكاة للبحث العلمي، ط. ١، ١٤١٦ - ١٩٩٥م، تح حسن عباس قطب)، وقال السخاويُّ ﷺ: (صحَّحَه ابن حبان والحاكم وغيرهما، وحسَّنه حمزة الكنَّاني، وضعَّفه غيرُهم بالاضطراب في سنده، لكن له شواهِدُ يتقَوَّى بها؛ ولذا قال شيخُنا: له طرقٌ يُعرف بها أنَّ للحديث أصلًا) ينظر: «المقاصد الحسنة في بيان كثيرٍ من الأحاديث المشتهرة على الألسنة» (ص ٤٥٩/ دار الكتاب العربي، ط. ١، ١٤٠٥ - ١٩٨٥م، تح محمد عثمان الخشت).

(٢) متفق عليه من رواية عبد الله بن مسعود وعِمران بن حُصَين ﷺ، ورُوِي بعدَّة ألفاظ، ينظر: صحيح البخاري (٢/ ٩٣٨)، وصحيح مسلم (٧/ ١٨٥/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوۡضُونَةٖ ﴾ أي: منظومة في أماكنها بنسَقٍ يُناسِب الراحةَ والسَّمَر، وقيل: إنّها منسُوجَة بالذهب ومُزَيَّنة به.

﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ﴾ لخدمتهم.

﴿ بِأَكۡوَابٖ وَأَبَارِيقَ وَكَأۡسٖ ﴾ هذه أواني الشراب المعروفة.

﴿مَّعِينٖ﴾ منبَع لا ينقَطِع.

﴿ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنۡهَا ﴾ لا يُفرَّقُون عنها، بل هم مُجتمعون عليها متى أرادوا.

﴿وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ أي: لا يُصرَفون عنها، بمعنى أنّها موفُورة لهم متى شاءوا، والله أعلم.

﴿ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴾ أي: المحفوظ في صدَفِه فلا تمسُّه شائبة.

﴿ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ تأكيدٌ للعدل الإلهي الذي لا يظلم أحدًا، ولا يُحابِي أحدًا.

﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴾ أي: لا يسمعون إلّا ما يسرّهم ويُؤنسهم.

﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴾ استثناءٌ منقطعٌ، أي: يقال لهم: سلامًا سلامًا.

﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ مُثقلٍ بالثمر وخالٍ من الشوك.

﴿ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ﴾ وموزٍ مصفوف بعضه على بعض.

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ أي: وظلٍّ متصل؛ لاتصال شجر الجنَّة وكثافته.

﴿ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴾ أي: جارٍ ومتدفِّق، كأنّه يتحدَّر من الأعالي.

﴿ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴾ على الأسِرَّة.

﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ﴾ أي: الحُور العين، والعبارة تُوحِي بالعناية التامَّة بخَلقهنَّ وتكوينهنَّ.

﴿أَبۡكَارًا ﴾ لم يقربهنَّ أحد.

﴿ عُرُبًا ﴾ جمع عَرُوب؛ وهي المرأة المتحبِّبة لزوجها.

﴿أَتۡرَابٗا ﴾ أي: مستوِيات في السنِّ، ولا تفاوُت بينهنّ بكِبَرٍ أو صِغَرٍ.

﴿ لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴾ أي: في كلِّ أُمّةٍ من أتباع النبيين مجموعة من أهل اليمين في الأولين، ومجموعة منهم في الآخرين؛ وعلى هذا فأهل اليمين هم عامَّةُ أهل الجنّة، أمّا خواصُّهم فهم المقرّبون الذين يكثُرون في صدر كلِّ أُمّةٍ مؤمنةٍ، ويقلُّون في أواخرها.

﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ هم أنفسهم أصحاب المشأمة الذين تقدَّم ذِكرهم في صدر السورة.

﴿سَمُومٍ﴾ الريح الحارة.

﴿وَحَمِيمٍ ﴾ الماء الحار.

﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحۡمُومٍ ﴾ من دخانٍ.

﴿ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴾ وصفٌ للظلِّ الذي هو مِن يَحمُوم.

﴿ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴾ تعليلٌ لما هم فيه من العذاب بأنّهم كانوا في الدنيا مُترفين الترَفَ الذي أنساهم ذكرَ الله، وأشغَلَهم عن الاستعداد لهذا اليوم.

﴿ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ أي: يُصِرُّون على الشِّركِ وإنكارِ الآخرة، وسمَّاه حِنثًا؛ لأنّهم كانوا يُقسِمُون عليه وما كانوا صادقين.

﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ تقدّم معنى (أَوَ) وأنّها مُركَّبة من: واو العطف، وهمزة الاستفهام؛ فأصلُ الكلام: وَأآباؤنا، فقُدِّمت الهمزةُ على الواو؛ تخفيفًا في النُّطق، والله أعلم.

﴿مِّن زَقُّومٍ﴾ من شجرةٍ خبيثةٍ أُعِدَّت طعامًا لأهل النار.

﴿ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ﴾ الهِيْم: الإبل التي أصابها داء يُقال له: الهُيام، فيجعلها تشرب ولا ترتَوِي.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: هذا ما أعَدَّه الله لهم يوم القيامة، وأصلُ النُّزُل: ما يُقدَّم للضَّيف.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَٰكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾

نحن خلقناكم فلولا تصدّقون

هذا هو الموضوع الثاني الذي تتناوَله هذه السورة، وفيه مناقشة مُفصَّلة مع أولئك المكذِّبين؛ ليبيّن لهم طريق الحقّ بأدلَّتِه وشواهِدِه حتى يُقيمَ الحُجَّة عليهم، فلا يبقَى عُذرٌ لُمعتَذِر:

أولًا: تذكير هؤلاء بخلقهم ونشأتهم الأولى: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

ولا شكَّ أنّ خلق الإنسان أوّل مرّة يُزيلُ اللَّبسَ تمامًا عن إمكان خَلقه مرّةً ثانيةً، وإذا كان الإنسان يُنكِر ذلك على جهة الاستِبعاد؛ لأنّه لا يمكنه تصوُّر الكيفيَّة التي سيخلق فيها من

جديد، فإنّ خلق الإنسان الأوّل لا يعرف عنه شيئًا أيضًا، وليست لديه صورة علميَّة أو عقليَّة يمكن الاطمِئنان إليها، ولا زالَ العلمُ إلى اليوم يتخبَّط في ذلك، لكن الإنسان موجود، وهذا دليلٌ أنّ مُوجِد هذا الإنسان أكبر من قُدرات العقل وتصوُّراته؛ إذ هو خالِقُ العقل نفسِه.

ثانيًا: تنبيههم إلى دورة الحياة التي يلمَسُونها بأيديهم؛ وهذا هو الذي يسمَّى بالدليل الحسِّي؛ فدورة النبات في الطبيعة من بذرةٍ إلى ثمرةٍ، ثم تنتهي الثمرة وتبقى البذرة، ومن البذرة تعود الثمرة من جديد، هذه صورة تُقرِّب الحياة الأخرى للبشر ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾.

ثالثًا: تنبيههم إلى عنصر الحياة الأساس: الماء، وكيف جعَلَه الله مناسبًا لحاجة أجسامهم، فلو اختلَّ لاختلَّت الحياة، ولو انعدم لانعدمت الحياة، فمن ذاك الذي قدَّر حاجةَ الحياة إلى الماء فأوجده على هذا المقياس والميزان الدقيق؟ ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

رابعًا: يُنبِّهُهم إلى عُنصرٍ آخر من عناصر الحياة: النار، والتي تعني اليوم: الوقود الذي يُحرِّك عجلة الحياة كلِّها، أمَّا حينما كانت الحياة بدائيَّة فكان الإنسان لا يستغني عن النار في صورتها البدائيَّة أيضًا؛ فهي الدفءُ، والطَّهوُ، والأُنسُ، وهي التي يُنقِّي بها حُلِيَّه ونقودَه، ويصنع بها سلاحه وحديده، ولم يكن آنذاك له من مصدرٍ لها إلا الشجر ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

أمّا اليوم فقد صار الإنسان يَحصلُ على النار من باطن الأرض؛ من غازها ونفطها وكبريتها، وكل ذلك من صُنع الواحد الأحد، كأنه يدَّخِر لهذه الحياة ما يَفِي بأغراضها جِيلًا بعد جِيلٍ.

خامسًا: بعد هذه التنبيهات، جاء التأكيد القرآني الحاسِم أنّ هذا القرآن لا يُمكن أن يكون إلَّا مِن الله ربِّ العالمين وخالِق الخلق أجمعين؛ فدلائل صدقه ظاهرة في آياته، وفيما يُخبِرُ به عن أسرار هذا الوجود ممَّا لم يكن لأحدٍ من البشر من علم به ﴿ ۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾.

سادسًا: ثم يتحدَّى القرآن هؤلاء المُكذِّبين أن يرُدُّوا قَدَرًا من قَدَر الله، وأن يدفعوا الموتَ عن أنفسهم، إنّه يُقرِّرُهم بحقيقة عَجزِهم وضَعفِهم، فالناس يُولَدون ويمُوتون، أجيالٌ تأتي وأجيالٌ تذهب، وليس منهم واحدٌ قد اختارَ يوم ولادته، ولا أن يَمُدَّ في أجَلِه ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾.

سابعًا: ثم يختم القرآن هذه السورة بما استهلّت به؛ مُذكِّرًا بالفئات الثلاث، والمصير المحتوم الذي ينتظر البشر من أوّلهم إلى آخرهم ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ﴿٩٣﴾ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴾.

دقائق التفسير

﴿نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ﴾ فهلَّا تُصدِّقون! وهي أداة من أدوات الطلب.

﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ﴾ بمعنى إن كنتم لا تُصدِّقون الخلق الأول - أي: خلق آدم - فانظروا في خلقكم المُتكرِّر من المنيِّ الذي تتناسَلُون منه.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ فخَلْقُ الإنسان من هذه النُّطَف السابِحة في ماء المنِيِّ آيةٌ من آيات الله الظاهرة والمتكررة في هذه الحياة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ وما نحن بعاجزين أو مغلوبين.

﴿أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي: أن نُبدِّل بكم أمثالَكم، وهو تهديدٌ يتضمَّنُ استِئصالَهم وإهلاكَهم، كما قال في موضعٍ آخر: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ نشأة غير نشأتكم هذه، بصفاتٍ وأحوالٍ لا تعلمون منها شيئًا.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: علِمتُم خَلقَكم الأوَّل في الأرحام، وهذا كافٍ لكم في إثباتِ قُدرة الله على الخَلق الثانِي.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ عبَّرَ بالحرث وأرادَ الزرعَ؛ فالناس يحرثون الأرض ثم يزرعونها بالبذور.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ عبَّرَ بالزرع وأرادَ الإنباتَ؛ لأنّ دورهم ينتهي بحَرث الأرض وإيداع البذور فيها، أمّا كيف ستنمو هذه البذور وتتفتّح حتى تشقّ الأرض وتنضج، فهذا كلّه مما لا دخل للبشر فيه، وإنّما هي سنّة الله المودعة في هذه الحياة.

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ لا ينمو ولا ينبُت، فيذهب حُطامًا لا فائدة منه.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ الأصلُ في التفكُّه أنّه علامة على السرور، والشعور بالأُنس والراحة، ولعلَّه جاء هنا على سبيل التهكُّم، كقوله في ذلك الشقيِّ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]، والله أعلم.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ أي: خاسِرُون ومحرُومُون من الرزق، وهذا تعبيرٌ عن حَسرَتِهم وخَيبَتِهم.

---

(١) تكرّر هذا النصُّ الكريمُ في القرآن الكريم مرّتَين: في سورة إبراهيم/ ١٩، وسورة فاطر/ ١٦.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ۝٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ﴾ لأنّ الماء العذب الذي في الوِديان والغدران والأنهار وحتى العيون والآبار مصدره المطر، فهو الذي يُغذِّي كلّ هذه المنابع، وليس للبشر في تكوين المطر نصِيب، بل هو من سُنن الله وآياته الظاهرة.

﴿لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا﴾ مالحًا فلا يصلُح للشرب.

﴿فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ فهلّا تشكُرُون، أي: يطلب منهم الشكر، وهو الغنيُّ عنهم سبحانه.

﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تُوقِدون.

﴿ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ﴾ وهي ظاهرةٌ من ظواهر هذه الحياة؛ حيث تؤول الأشجار بعد أن كانت زاهية الخضرة إلى حطبٍ يابسٍ تُستعمَل في الوقود.

أمّا الحديث عن وجود شجرتَين يُؤخَذ غصنٌ من هذه وغصنٌ من هذه فتتّقِدُ النار، فلا مانع منه، ولكن السياق يتحدَّث في إطار أوسع؛ فاتخاذ الوقود من الشجر ظاهرة حياتيّة عامة معروفة لدى كلّ شعوب الأرض، بخلاف هذه الحالة النادرة التي لا يعلَمُها أكثر الناس، والمقام مقام مُحاججة، والمُحاججة لا تكون إلّا بالدلائل الظاهرة، والله أعلم.

﴿نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ﴾ أي: جعلنا النار تُذكِّركم بنار جهنم، وتُقرِّب صورتها لكم، وكذلك تُذكِّركم بقدرة الله ودقّة النظام الذي أودَعَه في هذا الكون، وتعاضد عناصره وتكاملها من ماءٍ وهواءٍ ونارٍ وترابٍ.

﴿وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ﴾ أي: الذين يسيرون في الأرض القفر، فهم بحاجةٍ إلى دفءِ النار وضوئها، ولا أحد مثل البدو وسكّان الصحراء يعرفُ قيمة النار وفوائدها، مع أنّها ضرورة لكلِّ الناس بدوهم وحضرهم، مقيمهم ومسافرهم.

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ صيغةٌ معروفةٌ من صيغ القسم، و﴿فَلَآ﴾ ليست نافية، بل مُؤكِّدة بدلالة قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ومواقع النجوم: أفلاكها ومساراتها.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لِعظمة النجوم هذه ودقَّة حركتها على كثرَتِها التي لا تُحصَى، حتى إنّ الأرضَ بكلِّ ما فيها ليست إلا هباءة صغيرة في مُقابل هذه النُّجوم.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ أي: هذا الذي يُتلَى عليكم، والجملة واقعةٌ في جواب القسم.

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ أي: محفوظٍ من الزيادة والنقصان.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ يحتمل فيها الإخبار، أو النهي بصيغة الإخبار؛ فعلى الأوّل يكون المعنى: ألّا يمسّ القرآنَ المحفوظ عند الله في اللوح المحفوظ إلّا الملائكةُ المُطهَّرون، وعلى الثاني يكون المعنى: لا يَمَسُّه أحدٌ منكم أيها المؤمنون إلّا على طهارة، والمعنى الأوّل أقرب للسياق، والمعنى الثاني أحوَط للتعبُّد وتعظيم القرآن، ثُمّ إنّ وصف الملائكة في هذا الموضع بأنّهم مُطهَّرون يعني أنّ هذه الصفة مناسبة للقرآن فيحسُن التخلّق بها، والله أعلم.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾ أي: أبهذا الحديث العظيم أنتم مُتهاونون ومُكذِّبون، ليتقرَّب بعضُكم من بعض بهذا التهاون، وهذا التكذيب؟ وهذا سببٌ معروفٌ وشائعٌ من أسباب الضلالة والاستمرار عليها؛ حيث يقول المرء ما لا يعتقده حقيقةً؛ طمعًا في التقرُّب إلى مَن معه في حزبه أو قبيلته.

﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: وتجعَلون تكذيبَكم للقرآن سببًا لدوام رزقكم ومنافعكم، واستمرار تجاراتكم فيما بينكم؛ لأنّهم كانوا يرَون أنَّ الإيمان يقطَع علاقاتهم، والآيةُ مُتَّصلةٌ بما قبلها ومؤكِّدةٌ له، وقد ذَكَرَ المفسّرون هنا أقوالًا بعيدة عن السياق، وإن كانت صحيحة في ذاتها، كقولهم: إنّ المقصود به أولئك الذين ينسبون المطر إلى الأنواء وليس إلى رحمة الله، والله أعلم.

﴿فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ﴾ أي: فهَلّا إذا بلغت روح المحتضر إلى الحلق فدخل في غرغرة الموت وسكراته.

﴿وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ﴾ أي: تنظرون إلى ميّتِكُم وهو بهذه الحال.

﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ﴾ أي: أعلمُ به وأقدرُ عليه منكم، ولكنّكم لا تُبصِرون شيئًا، لا الروح التي تُنزَع منه، ولا الملائكة المُوكَّلين به وبقبض روحه.

﴿فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: فهلّا إذا كنتم غير خاضِعِين لإرادة الله خضوعًا قدريًّا في حياتكم وموتكم تُرجِعُون روحَ صاحبكم، وتمنَعُون الموتَ عنه، وهذا على سبيلِ التعجيزِ والتحدِّي.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٌ وَرَيۡحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ أي: إذا كان الميِّت من أولئك المُقرّبين الذين تقدَّم ذِكرهم ووصفهم في صدر السورة فله الرَّوْح، أي: الحياة الطيّبة، وله الرَّيحان، وهو النبات العطر، والمقصود به تأكيد الحياة الطيّبة، وأنّ له جنّة النعيم.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: من الصنف الثاني والمرتبة الثانية بعد المقرَّبين، وقد تقدَّم ذِكرهم ووصفهم في صدر السورة أيضًا.

﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: تُبشِّرهُ الملائكة وتقول له: سلامٌ لك؛ أنت من أصحاب اليمين.

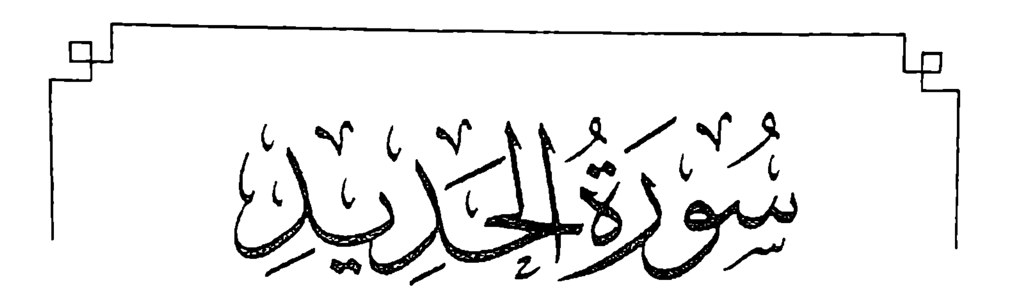
﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: من الصنف الثالث، وهم أصحاب الشمال، وقد تقدّم ذكرهم ووصفهم أيضًا.

﴿فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: أوّل ما يُقدَّم لهم الماء الحار، والنُّزُل: ما يقدّم للضيف، لكن هذا بِئسَ الضيف، وهذا هو النُّزُل الذي يليقُ به.

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: يدخل في الجحيم ويَصْلَى فيها.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ أي: هذا الحديث الذي فيه الوعدُ للمؤمنين، والوعيدُ للكافرين هو الحقُّ الثابت الذي لا شكَّ فيه ولا ريب.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ هكذا خُتِمَت السورة بتمجيدِ الله وتعظيمِه، والأمر بتسبيحِه وتنزيهِه؛ فذلك طريقُ النجاة.



سورة الحديد

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّٰهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ الْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَٰفِقُونَ وَالْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌۢ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَىٰكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَىٰكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾

سورةُ الحديد سورةُ القوَّة؛ قوَّة الإيمان، وقوَّة اليقين، وقوَّة الولاء والانتماء، وقوَّة العهد والميثاق، وقوَّة المال، وقوَّة الحديد، وقوَّة الحقِّ والعدل، إلَّا أنّ الموضوع الذي تكرَّر بشكلٍ لافتٍ هو موضوع الإنفاق، والإنفاق الوارد في هذه السورة مرتبطٌ بكلِّ معاني القوّة تلك، وكما سنرى:

أولًا: تستهلُّ السورة بتسبيح الله وتمجيده وأنّه سبحانه العزيز الحكيم، وهو الأوّل والآخر والظاهر والباطن، وهو القدير العليم، هو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يملِكهما ويُدبِّر أمرهما، وهو الذي استوَى على العرش سبحانه ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢ هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٣ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٤ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٥ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۚ وَهُوَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

هذه المعاني تُشكِّل القاعدة الإيمانيَّة الصلبة والمُتماسِكة، والتي تقوم عليها الملَّة والأُمّة؛ فالأُمّة المحمَّديَّة تنطلِق من هذه القاعدة في كلِّ قِيَمها وتصوُّراتها وسُلُوكها وتعامُلها اليومي مع مُفردات الحياة.

ثانيًا: بعد هذه القاعدة يتوجَّه القرآن بالخطاب إلى المؤمنين بثلاث مفرداتٍ جوهريَّة: الإيمان، والاستخلاف، والإنفاق، والاستخلاف هو الرابط بين المفردتَين الأُخرَيَين؛ إذ من معاني الإيمان إفراده ﷻ باعتقاد أنّه مالك السماوات والأرض وما فيهنّ، وعليه فإنّ المال الذي بيدِ الإنسان ليس ملكه على الحقيقة، وإنّما هو مُستخلَفٌ فيه عن الله على وجه التخويل المتقيّد زمانًا ومكانًا، وتصرُّفًا وحالًا.

من هنا يكون الأمر بالإنفاق هو أمرٌ من المالك الحقِّ إلى هذا العبد المخوَّل؛ وبهذا لا يكون المُنفِق مُتفضِّلًا، بل مطيعًا ووفيًّا؛ وبهذا يستحقُّ الثواب ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا

جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾، ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ ﴾.

ثالثًا: يُؤكِّدُ القرآن صِلَةَ الإيمان بالميثاق الذي يجمع المؤمنين، ويُميِّزهم عن الكافرين والمنافقين وأهل الكتاب في الدنيا والآخرة ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۙ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ ﴾، ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ مَأْوَاكُمُ النَّارُ ۖ هِيَ مَوْلَاكُمْ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ ۖ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾.

رابعًا: يربط القرآن بين الإنفاق وبين بناء الدولة المسلمة والجيش القويّ الكفيل بحمايتها وردِّ الأشرار عنها ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾.

خامسًا: يَعِدُ القرآن المُنفِقين والمُنفِقات بالأجر الكريم ومضاعفة الحسنات، ويجعل ما يقومون به كمن يُقرِض الله قرضًا، والله سبحانه أحقُّ بالوفاء، وهذا وعدٌ عظيمٌ لو تدبَّره المُنفِق وتدبَّرته المُنفِقة ﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾، ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾.

سادسًا: يُزهِّدُ القرآنُ المؤمنين بالدنيا ويُرغِّبُهم بالآخرة، وفي هذا دفعٌ لهم ليُنفقوا من أموالهم باندفاعٍ وإقدامٍ، وليُقدِّموا ما يستطيعون من دار الممرِّ إلى دار المقرِّ، ومن دار الفناء إلى

دار البقاء ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

سابعًا: يُثبِّتُ الله قلوبَ المؤمنين، ويمدُّهم بأسباب القوة واليقين، ويُبيِّنُ لهم الحكمةَ من الابتلاءات والمصائب التي تعترِضُهم ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

ثامنًا: يعود القرآن إلى الإنفاق محذِّرًا المؤمنين من عاقبة البخل ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ استفتاحٌ بخضوع كلِّ هذا الكون لله تعالى، وتنويهٌ بصفتَين عظيمتَين من صفات الله تعالى: العزة والحكمة، ومناسبتهما لموضوع السورة لا تخفى.

﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ تأكيدٌ لمعنًى أساس من معاني التوحيد، وهو الاعتقاد الجازم أنّ هذا الكون كلّه بمن فيه وما فيه مملوكٌ لله، يتصرَّف فيه بإرادته المُطلقة وبمقتضى عدله وحكمته، ثم نوَّه بصفةٍ ثالثة لله، وهي صفة القدرة، ومناسبتها لا تخفَى أيضًا.

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ فلا شيء قبله، ولم يكن ثَمَّة شيء معه؛ لأنّه موجودٌ وجُودًا ذاتيًا لا يفتقِر في وجوده إلى أحدٍ، بخلاف كلّ الموجودات التي يتصوَّر العقلُ وجودَها وعدَمَها، وهي التي

تُسمَّى المُمكِنات، فهذه لا بُدَّ أن يكون لها سببٌ وعِلَّةٌ في وجودها، ثم لا بُدّ أن ترجع كلّ هذه الممكنات وأسبابها وعللها إلى موجودٍ ذاتيٍّ، يستنِدُ الوجودُ كلّه إليه.

أما إحالة الممكن إلى ممكنٍ آخر، والسبب إلى سببٍ آخر إلى ما لا نهاية، فهذا لا يتصوَّرُه العقل، ومِن ثَمَّ كان الوجود الذاتي - وهو المسمى عند الفلاسفة (واجب الوجود) أي: بخلاف (الممكن الوجود) - ضرورة عقليَّة قبل أن تكون عقيدة دينيَّة.

﴿وَٱلْآخِرُ﴾ وهذا من لوازِم اسمه تعالى (الأوّل)، ومعنى (الآخر) هنا: الذي ليس لوجوده نهاية، كما لم يكن له بداية، بخلاف الممكن الذي طرأ عليه الوجود؛ إذ سيطرأ عليه العدم أيضًا.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ بآياته ودلائل وجوده وآثار قدرته وعلمه وحكمته.

﴿وَٱلْبَاطِنُ﴾ حيث لا تُدرِكُهُ الأبصار، ولا تُحيطُ بحقيقته وكُنهه الأفكار.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هي ليست من أيَّامنا؛ لأن يومنا هو حصيلة دوران الأرض حول نفسها أمام الشمس، ولكلِّ كوكبٍ يومه، فكيف باليوم الذي كان قبل خلق السماوات والأرض؟ فذلك لا يعلمه إلَّا الله، والمقصود بالإخبار عن تلك الأيّام إنّما هو التقدير على مراحل كما هي سنَّة الخلق كلّه.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استواء يَليقُ بعظمة الله وجلاله، وعلوِّه وغناه عن جميع خلقه؛ العرش وما سوى العرش، وهذه من الأخبار الغيبيَّة التي نؤمن بها كما ورَدَت، ونُحجِم عن الدخول في كيفيّاتها وصورتها؛ لأنّ العقل لا يملك الأدوات القادرة على ذلك، ثم نتدبَّر المقصود من إخبارنا بها، وهو مقصودٌ يسيرٌ على من يسَّره الله عليه؛ فالنصّ يُوحي بكمال المُلك والسلطان والعظمة والعلو المطلق، وهذا يكفي ويُريح عقولنا وقلوبنا من الجدل الذي لا نتيجة له.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يعلم ﷻ كلّ ما يدخل في الأرض وينزل فيها.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: ويعلم كلّ ما يخرج من الأرض؛ كالزروع وينابيع المياه والمعادن ونحوها.

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ويعلم كلّ ما ينزل من السماء؛ من الوحي، ومن الملائكة، ومن الظواهر الكونيّة؛ كالمطر والشُّهب والصواعق.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ أي: ويعلم كلّ ما يصعد في السماء؛ من أرواحٍ مقبوضةٍ، وأعمالٍ مرفوعةٍ، وملائكةٍ تعرج بأمره ﷻ.

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ أي: بإحاطته علمًا بكلِّ شأنكم أينما كنتم، فعِلمُ الله تعالى ليس مُقتصِرًا على المُشاهَدات مما يَلِجُ ويخرُجُ من الأرض، وما ينزل من السماء، بل هو معكم في تفكيركم وما يدور في خواطركم .

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ تأكيدٌ لعلم الله الشامل والكامل، ودعوةٌ إلى إتقان العمل وتنقيته عن كلِّ شائبةٍ.

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بحكم أنَّه هو الذي خلَقَه، فصانِعُ الشيء أحقُّ بملكيَّته، وهذه من معاني التوحيد العظيمة والمُكرَّرة في القرآن الكريم.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار حتى يختلط فيه وذلك وقت المغرب، ويدخل النهار على الليل وذلك وقت الفجر، في دورةٍ يوميَّةٍ متصلةٍ بحياة الناس وطريقة عيشهم ونومهم.

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تأكيدٌ آخر لعلمه تعالى الشامل والكامل، ودعوةٌ لتنقية النوايا وما تُخفِي الصدور.

﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطاب للمؤمنين تأكيدًا لمعاني الإيمان فيهم، وتأسيسًا لتقبُّل أمر الله تعالى لهم بالإنفاق.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ أي: أَنفِقُوا من مال الله الذي جعله بأيديكم على سبيل التخويل والاختبار والاستخلاف.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ هذا ليس على سبيل النفي، بل هو على سبيل الامتنان، أي: ماذا يمنعُكم مِن الإيمان، والرسول بينكم يدعوكم ويُذكِّرُكم؟

فالخطاب من الأصل للمؤمنين، وليس للكافرين، والسياق لا يحتمل غير هذا؛ بدلالة دعوتهم إلى الإنفاق، ولقوله: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ولتذييله على هذا الامتنان بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فالخطاب كلّه للمؤمنين، يمتنُّ عليهم بالإيمان، ويحثّهم على الإنفاق الذي هو ثمرةٌ من ثمرات الإيمان.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَـٰقَكُمْ﴾ العهد الذي قطَعَه المسلمون على أنفسهم مع رسول الله ﷺ، والذي يتضمَّن السمع والطاعة، والجهاد بالنفس والمال.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا ترغيبٌ آخر بالإنفاق، وتذكيرٌ بأنّ المُلك الحقّ إنّما هو لله وحده، وفي هذا طمأنةٌ أيضًا أنّ الرزّاق هو الله مالِكُ المُلك، فلا تمنعنّكم خشيةُ الفقر عن الإنفاق.

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ الآية صريحةٌ في أنَّ الذين فازوا بالسبق والثواب الأعظم هم السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار؛ حيث كان الكفر مهيمنًا، والظلم منتشرًا، وكان الذي يقول كلمة الحقّ يخشى على نفسه وأهله، فالذين ثبَتُوا وواصَلُوا الدعوة والعمل للإسلام، وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم في تلك الأيام العصيبة لا شكّ أنّهم أقرب لله، وأرفع درجة عنده مِمّن آمَنَ بعد فتح مكّة وأنفق وقاتل.

وإذا كان هذا التفاضُل بين المؤمنين وهم كلّهم حول رسول الله ﷺ، فإنّ فضل الصحابة على عامّة المسلمين إلى يوم الدين أظهَر وأولَى، فرضِيَ الله عنهم وأرضاهم، وجمَعَنا وإيّاهم في دار المقامة عنده.

أمّا من يُحاول الانتقاص من الصحابة الذين أسلَموا بعد الفتح، فهو مردودٌ بنصّ قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ ففضلُ هؤلاء الأصحاب على عامّة المسلمين ظاهرٌ وإن كانوا هم دون السابقين الأوّلين رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَـٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: مَثَلُ المُنفِق في سبيل الله

كمَثَلِ من يُقرِضُ الله قرضًا حسنًا فينتظر مِن الله أن يرُدَّ إليه قرضه، وغايةُ التمثيل: حضُّ المؤمنين على الإنفاق، وطمأنتهم أنّ نفقتهم لا تذهب سُدى، بل ترجع إليهم أضعافًا كثيرة، مع عظيم الثواب وجزيل الفضل.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ذاك يوم القيامة؛ إذ يكون للمؤمن نورٌ يسعى أمامه، وهذا النور نورٌ على الحقيقة، ولتعلّق الآية بما قبلها إشارة إلى أنّ هذا النور من آثار الصدقة وعظيم ثوابها عند الله.

﴿وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ أي: ويكون نورهم عن جهة أيمانهم أيضًا، ولعلَّ المقصود: اليمين والشمال، لكنَّه اكتفى بذكر اليمين؛ تشريفًا لها، والله أعلم.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ أي: يُقال لهم: بُشراكم، بمعنى أنّ الملائكة تُرحِّبُ بهم وتُبشِّرُهم بالجنَّات.

﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ هذه صورةٌ من صور الآخرة تُظهِرُ خيبةَ المنافقين؛ حيث يرَون نورَ المؤمنين أمامهم وعن جوانبهم وهم ماشُون إلى جنَّاتهم، فتأخذهم الحسرة، ويأخذون بمُناداتهم: أن تريَّثوا وتمهَّلوا لعلَّنا نستضِيءُ بنوركم، لعلَّنا نلحَق بكم، وهؤلاء المنافقون يعرفون المؤمنين؛ لأنّهم كانوا معهم في الدنيا؛ إذ كانوا يُظهِرون لهم إيمانهم، ويصلُّون معهم، ويعيشون معهم.

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ يُقالُ لهم: ارجعوا القهقرَى، والتمِسُوا نورًا آخر غير نور هؤلاء المؤمنين، وليس هنالك من نورٍ، وإنّما يُقال لهم ذلك على سبيل التهكُّم.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ﴾ بحائلٍ يحول بين المنافقين والمؤمنين، فلا يصِلُون إليهم بعدُ ولا يرَون نورهم.

﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ﴾ الذي هو من جِهة المؤمنين.

﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ الذي هو من جِهة المنافقين.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ هذا نداءُ المنافقين للمؤمنين، يقولون لهم: لقد كنّا معكم في الدنيا.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ هذا جواب المؤمنين للمنافقين؛ أنّكم كنتم معنا لكنّكم كفرتم بعد إيمانكم، وتربَّصْتُم بنا الشرّ، وشكَكتم بالبعث ويوم الحساب، وغرَّتْكُم الحياة الدنيا، وغرَّكُم الشيطان عن طاعة الرحمن، حتى جاءكم الموت وأنتم على ذلك.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هذا على سبيل التيئيس والتوبيخ؛ فليس هناك عندهم ما يُقدِّمونه فِدية عنهم، وهذا بخلاف المتصدِّق الذي يُقدِّم مالَه ليكون له ثوابًا ونورًا مبينًا في هذا اليوم.

﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الخطاب للمؤمنين قَطعًا، وليس للمُنافقين ومرضَى القلوب.

وقد أشكَلَ هذا على بعض المُفسِّرين، والذي يَطمئِنُّ إليه القلب: أنّ هذه الآية في مقام التربية الروحيَّة، وهو مقامٌ عالي المراتِب، مُتدرِّج المنازل، لا يفقَهُه إلا قليل، فمِعراج التربية لا يقف عند حدٍّ، والهِمَم العليَّة دائمًا تتطلَّعُ للمعالي مهما بلَغَتْ من الدرجات، والذي لا ينتبه لهذا المقام سيُشكِل عليه كثيرٌ من آياته، من مثل قوله تعالى بحقِّ صفيِّه وحبيبه ومُجتباه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾[1] فأيُّ ذنبٍ ذاك الذي يرتكبه رسولُ الله ﷺ؟

إن مقام العبوديَّة يستوجِبُ شعورَ العبد بالذنب والتقصير والعجز دائمًا وأبدًا، حتى لو قام الليل وصام النهار، وكفَى بالعبد عقوقًا أن يظنَّ في نفسه أنّه قد أدّى ما عليه وأَوفَى ما بذمَّته، والصحابة ﷺ إنّما أرادَ الله أن يأخذ بأيديهم في هذا المقام العالي، لا أن يلُومَهم على ترك الخشوع، ولستُ أدري مَن مِن الصحابة كان يقرأ القرآن ولا يخشَع، وقد كان المشركون أنفسهم تتصدَّع قلوبُهم لفصاحته وبيانه، حتى قالوا عنه أنّه سحرٌ، وأنّه شِعرٌ.

﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ هذا تحذيرٌ للمؤمنين عامّة من أن يطُولَ بهم الأمد فتقسُو قلوبهم؛ إذ طول الأمد دون تعاهُدٍ للقلب بالذِّكرِ

(١) ورد هذا النصُّ الكريمُ مرتّين في القرآن الكريم: في سورة غافر/ ٥٥، وفي سورة محمد/ ١٩.

والخشية، والمحاسبة والمراقبة، والصحبة الصالحة مِن شأنه أن يُقسِّي القلوبَ ويُصيبها بالجفاف، والصحابة كانوا قريبًا عهدهم بالقرآن وهم بين يدَي رسول الله ﷺ، فهم أبعَد الناس عن هذه القسَاوَة التي يُسبِّبُها طولُ الأمد.

﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ هذا مَثَلٌ مِن الواقع؛ قُصِدَ به تقريبُ صورة القلوب التي تحيَا بنور الوحي بصورة الأرض التي تحيَا بماء السماء؛ فالسياق التربويُّ لا زال مُتَّصِلًا، والخطاب للمؤمنين لا زال قائمًا.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ﴾ الذين يشهَدون على الناس، ويشهَدون على الأمم الأخرى، ويشهَدون للرُّسل ﷺ أنّهم قد بلَّغُوا ما أمرهم الله بتبليغه، وأقاموا الحجة على خلقه.

وهناك صلةٌ لطيفةٌ بين ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ و﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾؛ إذ الذي يُعطِيه الله مرتبةَ الشهود على الناس لا بُدَّ أن يكون صادقًا معرُوفًا بالصدق ومُشتهِرًا به.

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ قصرُ الدنيا على هذه الأخبار من اللعب واللهو والزينة والتفاخر والتكاثُر هو قَصرٌ لأحوال الناس في الدنيا، فهذه هي اهتِماماتهم ومجالات تنافُسهم، والله يُريدُ لهم غيرَ ذلك؛ فالدنيا خُلِقَت لمقصدٍ أسمى وأعلى؛ إنّه الاستخلاف عن الله، والتنافُس في القُرُبات، والاستعداد فيها ليوم الحساب والجزاء.

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ أي: حال هؤلاء وهم يتنافَسُون على متاع الدنيا كحال (الكفَّار)، وهم هنا الزُّرَّاع الذين يستبشِرُون بالغيث، ثم بما ينبُتُ منه، ثم يهيجُ هذا النبات حتى يتحوَّل لونُه من الخُضرة إلى الصُّفرة، ثم يكون هشيمًا مُحطَّمًا.

وهذا التمثيلُ والتصويرُ إنّما قُصِد به: تزهيدُ الناس في الدنيا، وتشجيعهم على الصدقات؛ لأنّ الصدقة أبقى وأنفع لهم من الحطام الزائل الذي يجمعونه ثم يتركونه وراءهم.

﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ﴾ فهذه عاقبة جهد البشر في هذه الحياة؛ إمَّا عذابٌ أليم، أو نعيمٌ مقيم، وعلى العاقل أن يختار لنفسه.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: سارعوا قبل أن يحكم الأجل، ويغلق باب العمل.

﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ العرض هنا: السعة، وليس هو الذي يُقابل الطول، بمعنى أنّ سعتها سعة السماوات والأرض.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ أي: كلّ ما يحدث لكم في هذه الحياة وما يحدث على الأرض إنّما هو مدوّنٌ في عِلم الله ومحفوظٌ عنده.

﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أي: نخلقها ونُظهرها للوجود لكم، بمعنى أنّ صورة الخلق كاملة وشاملة بكلِّ تفاصيلها موجودةٌ في علم الله، فإنّما يجري الخلقُ على علمٍ مِن الله سابِق، وإنّما يتفاجَأ البشر؛ لعدم معرفتهم بالغيب، ولا بما قدّره الله لهم.

﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ بمعنى أنّ الله يُخبركم بذلك تربيةً لكم حتى لا تحزَنوا ولا تيأَسُوا على ما فاتَكم مما تتمنَّونه من الخير، ولا تفرَحُوا الفرحَ الذي يُنسِيكم الشكر، ويُنسِيكم القيام بواجباتكم إذا جاءت الأقدار على وفق رغباتكم، ثم حذَّر أكثر من الوقوع في هذا الخُلق السيِّئ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ والمُختالُ: المُتكبّر، وأصلُه من الخيلاء، والفخور: الذي يُفاخِرُ الناس بما عنده.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ الذين يبخلون بما عندهم فلا يؤدُّون ما عليهم من صدقاتٍ ونفقاتٍ واجبة، ثم ينهَون غيرهم كأنّهم ينصَحونهم أن يحتفظوا بأموالهم، خاصَّةً إذا كانوا من أقربائهم أو أصدقائهم، وهذه ظاهرةٌ موجودةٌ ومتكررةٌ في السلوك البشري، لكن خطورتها تكمُن حينما تنبُع عن قصدٍ سيِّئ؛ كمَن لا يُريد لمشاريع الخير أن تنتشر، ولا أن يرَى أموال المسلمين تُصرَف فيما فيه خيرُهم وعزّتهم ومنَعَتهم، فهذا لا شكّ آيةٌ من آيات النفاق، والعياذ بالله.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومَن يُعرِض عمّا افترضه الله عليه، وهو هنا: الإنفاق.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ جواب الشرط، بمعنى أنّه تعالى مُستغنٍ عن صدقة هؤلاء، وإنّما يكلِّفهم بها جَريًا على سنَّته في الاختبار وتمييز الناس مُصلِحهم عن مُفسِدهم، والحميد: الذي يستحقُّ الحمد سبحانه بحكم ربوبيّته، وتفضّله على خلقه بالرزق وغيره.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾

ليقوم الناسُ بالقسط

بسياقٍ مُتَّصِل تستمِرُّ السورةُ ببناء المجتمع المؤمن القويِّ الذي يُقيم العدل بالبيِّنات، ويحميه بالسلاح، ويتَّقِي الله في حركاته وسكناته، ويرى في نفسه امتدادًا لدعوات النبيين على مرِّ الأجيال والسنين:

أولًا: يُبيِّن القرآن الأسُسَ التي ينبغي أن يقوم عليها المجتمع المؤمن ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

إن هذه المفردات: البيِّنات، الكتاب، الميزان، القِسط، الحديد، البأس الشديد، المنافع للناس، النصر، القوَّة، العزَّة، هذه المفردات تُشكِّل منظومةً قِيَميَّةً مُتكاملةً لبناء المجتمع والأمة المؤمنة، وقد جُمِعَت كلها في آية واحدة؛ تأكيدًا لشدَّة الترابُط فيما بينها، وليتمكَّن المؤمنُ من استِحضارها في ذِهنِه جملةً واحدةً، وواسِطةُ العِقد في هذه القِيَم: أن يقوم الناس

بالقسط؛ القسط في علاقة الإنسان بربِّه، وعلاقته بأخيه الإنسان، وهذا القسط لا يتحقَّق بالأماني، ولا بالدعاوى والشعارات، وإنما بالإيمان والميزان والعلم والقوّة ونصرة الحق.

ثانيًا: يُذكِّر القرآن هؤلاء المؤمنين بدعوتَين كريمتَين، ورسالتَين عظيمتَين: رسالة نوح ورسالة إبراهيم ﷺ؛ ليؤكِّد العمق الإيماني والتاريخي لهذه الدعوة، وهذه لا شكَّ من أهم أسباب القوة المعنويَّة، فأمّةٌ بلا جُذور ولا تاريخ تشعر بأنها أمّة ضائعة أو طارئة ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾.

ثالثًا: يُذكِّر القرآنُ برسالة عيسى ﷺ، ويُفرِدُها بمزيدٍ مِن العناية؛ لأنها الرسالة الأقرب زمنًا إلى الرسالة المحمّدية، ولأن الجزيرة لا زال فيها من ينتمِي لهذه الرسالة مع كل التحريف والتشويه الذي حصل لها، ولأن في النصرانية الحاضِرة أيام البعثة المحمدية مُعتقَدَات وأعرافًا قد تُثيرُ بعضَ الشبهات أو التساؤلات، ومن ذلك: موضوع الرهبانية واعتزال الحياة والمال والزواج، ولا شكَّ أن هذا بمُجمَلِه يُضعِفُ من بنية المجتمع المسلم ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

دقائق التفسير

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالآيات الواضِحات، والحُجَج الظاهرات.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ الكتاب يشمَل الكتب السماويَّة كلها، والميزان: المِعيار الذي يعرف فيه الحق من الباطل، والصحيح من الخطأ،

وغاية الكتاب والميزان: تحقيق القسط بين الناس، والقسط: العدل في كل شيء.

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ لأنه المعدن الذي يصنع منه السلاح، والبأس: القوَّة.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: ليظهر ما كان في علم الله من نصر المؤمنين للحق، وأما الله تعالى فليس بمُحتاجٍ لنُصرة أحد، وليس بمُتضرِّرٍ مِن ظلم - تبارك ربُّنا وتعالى -، وقوله: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: الذي ينصُرُ اللهَ ورسلَه إيمانًا بالغيب، وطلَبًا لثوابِ الآخرة، وليس بقَصد الغنيمة أو الشُّهرة وما إلى ذلك.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾ أي: أردَفنا وأتبَعنا نوحًا وإبراهيم ومَن معهما بالرسل الذين جاءوا من بعدهم.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أتبَعنا أولئك الرسل أيضًا بعيسى بن مريم ﷺ.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ الرهبانية: نوعٌ من التديُّن المُبتدَع في النصرانية، يدعو إلى الانقطاع عن الدنيا وملذَّاتها حتى الزواج، للتفرُّغ للعبادة، وأثر البدعة فيه واضح؛ إذ لم يُؤثَر عن الأنبياء السابقين مثل هذه الدعوة؛ حيث كان النبيُّون - ومنهم أولُو العزم - يتزوَّجون ويعمَلون للدنيا، والآية صريحةٌ في ابتِداعها.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما كتَبنا عليهم إلا ما فيه ابتِغاء رِضوان الله، فيكون المعنى كله هكذا: ورهبانية ابتَدَعوها من أنفسهم ما كتَبنَاها نحن عليهم، وإنما كتَبنا عليهم ما فيه رِضوان الله.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: لم يقوموا بما ألزَمُوا أنفسَهم به؛ من التفرُّغ للعبادة والإخلاص لله، فهنا أعَابَ عليهم الرهبانيّة؛ لأنها بدعة منهم، وأعَابَ عليهم النكوث عن دعواهم بإخلاص العبوديَّة لله والتجرُّد له، بل دخَلُوا في دين مُلُوكهم، وحرَّفُوا رسالةَ نبيِّهم.

﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ هذا احتِرازٌ مِن توهُّم التعمِيم في الحكم؛ فالنصارى ليسوا كلهم سواء، فمنهم المؤمن الثابت الذي لم ينحرِف بعقيدته، فهؤلاء

لهم ثوابهم وأجرهم، ومنهم الذي انحرَفَت به جادَّتُه، وزلَّت به قدَمُه، فعليه إثمه وخطيئته، وفي هذا التقسيم تمهيدٌ لدعوة المؤمنين منهم كما سيأتي.

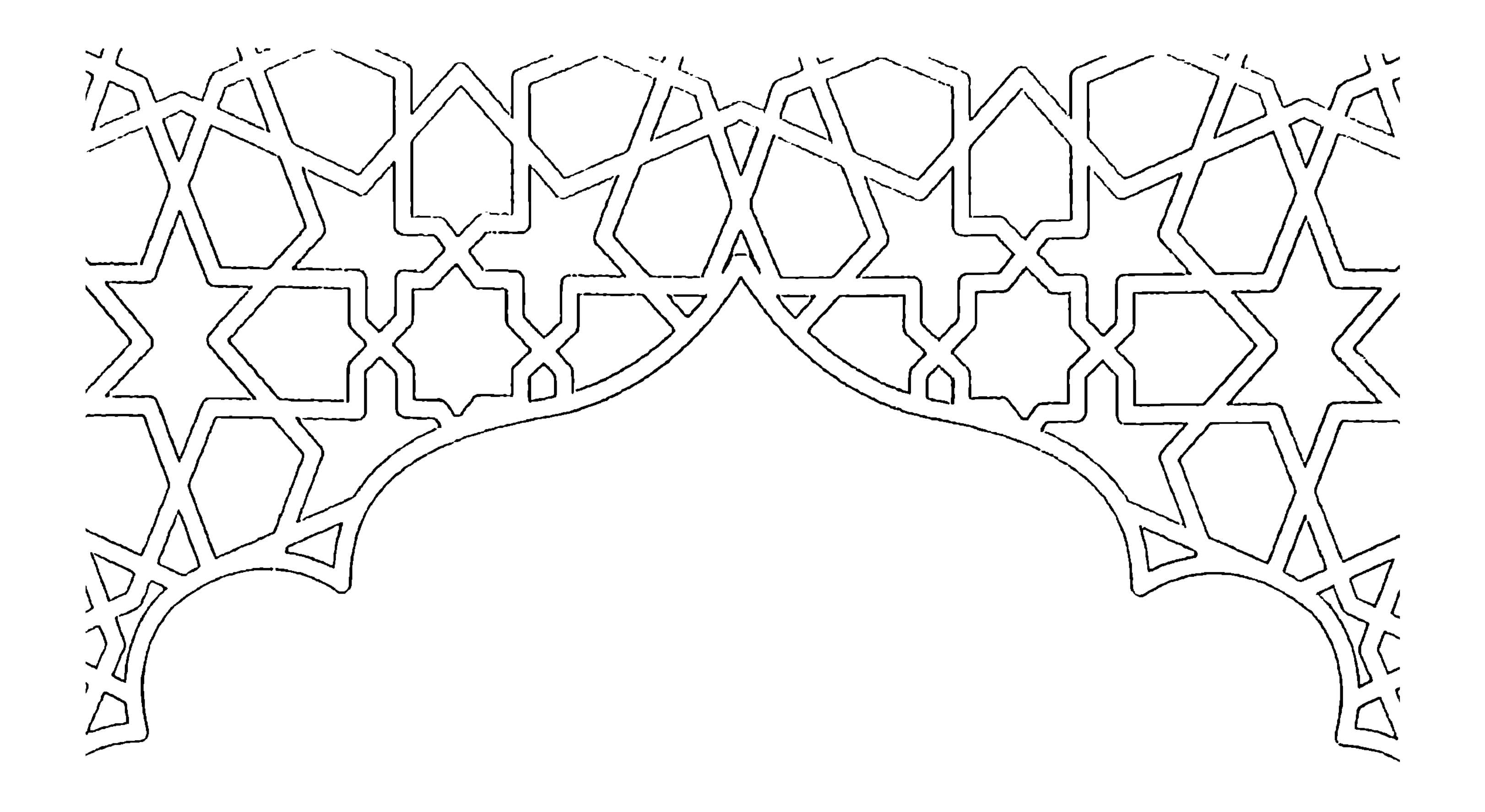
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ هذا تفريعٌ عمّا تقدَّم؛ فالنصارى الذين امتدَحَهم الله، وأثبَتَ لهم الإيمان، وبرَّأهم من الفِسق، دعاهم هنا للإيمان برسوله محمدٍ ﷺ، وحثَّهم على استحضار التقوى، وهي: الخشيةُ من الله حتى لا ينحازُوا لعصبيَّةٍ، ولا يستَسلِمُوا لدواعِي الحَسَد، ثم رغَّبَهم بمُضاعَفَة الأجر.

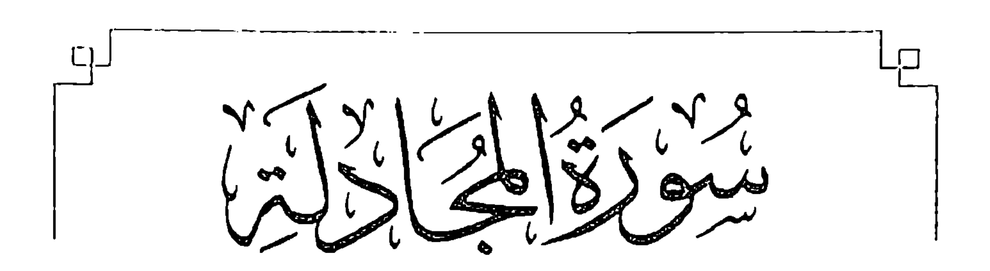
وقد ورد في الصحاح ما يُعضِّد أنهم هم المقصودون بهذا الخطاب؛ حيث قال ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ يُؤْتَونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَينِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَآمَنَ بِي، فَلَهُ أَجْرَانِ ... الحديث**»[1].

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وأهل الكتاب هؤلاء هم الذين أصَرُّوا على كُفرهم، ولم يُؤمنوا بمحمدٍ ﷺ؛ إذ الذين آمنوا منهم دخلوا في اسم المؤمنين ولم يعُد يُطلق عليهم اسمُ أهل الكتاب، بل هم مؤمنون عندهم علم الكتاب.

ومعنى اللام في ﴿لِّئَلَّا﴾ سيكون للعاقبة، بمعنى أن أهل الكتاب سيبقَون على جَهلهم وعِنادهم، ولا يعترفون بهذا الفضل لمن آمَن منهم بمحمدٍ ﷺ، فهم لا يعلَمُون أنهم لا يَقدِرون على شيءٍ من فضل الله؛ لتوهُّمِهم أنَّ هذا الفضلَ لهم وحدهم، ولكن الفضل لله وحده يهَبُه من يشاء، ويسلبه عمَّن يشاء.

(١) متفق عليه عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وتمامُهُ بلفظ مُسلم: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَينِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَأَدْرَكَ النَّبِيَّ ﷺ فَآمَنَ بِهِ وَاتَّبَعَهُ وَصَدَّقَهُ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ أَدَّى حَقَّ الله تَعَالَى وَحَقَّ سَيِّدِهِ، فَلَهُ أَجْرَانِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَغَذَاهَا، فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا، ثُمَّ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ». ينظر: صحيح البخاري (٣/ ١٠٩٦/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ٩٣/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).




سورة المجادلة

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

من فقه الأسرة والمجتمع المسلم

سورةُ المُجادلة سورة مدنيَّة جاءت جوابًا على بعض التساؤلات والمشكلات المتعلِّقة بالعلاقات الأسريَّة والاجتماعيَّة، وجاءت أيضًا لموضوعٍ آخر متعلِّق بظاهرة النفاق، والتي لما تأثيرها السيِّئ في بنية المجتمع المسلم وتماسُكه.

أمّا ما يتعلق بالفقه الذي يخصُّ الأُسرةَ المسلمة والعلاقات الاجتماعيَّة الداخليَّة، فيمكن تلخيصه في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: في حكم الظِّهار، وهو نوعٌ من الطلاق المُتعارَف عليه في الجاهلية؛ حيث يقول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظَهْرِ أُمِّي، أي: يُحرِّمُها على نفسه، وقد جاءت امرأةٌ مسلمةٌ إلى رسول الله ﷺ تشكو له زوجَها الذي ظاهَرَ منها ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

فنزل الوحيُ مُندِّدًا بهذا السلوك المنكر ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، ثم بيَّن حُكمَ الله في حالة الرغبة بالصُّلْح والعودة عن الظهار: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، فإن لم يجِد الرَّقَبة أو لم يتمكَّن من تحريرها انتقل إلى الصيام ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ﴾، فمَن كان لا يَقوَى على الصيام، وجَبَ عليه إطعام ستِّين مسكينًا ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

المسألة الثانية: في النجوَى، ومعناها الشرعي: أن يتناجَى مجموعةٌ من المسلمين بأمرٍ عام دون بقيَّة المسلمين بما يشقُّ الصفَّ، ويُثيرُ الفتنةَ والبلبلةَ، وقد مهَّد القرآن لتناوُل هذه المسألة بالتذكير أنّ الله يعلم ما يدور في كلِّ نجوى.

والقصد من هذا: تحفيز جانب المراقبة الذاتيَّة والخوف من الله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

ثم قطع القرآن بتحريم النجوى، مُشعِرًا بأنّ مَن عادَ لها بعد التحريم فإنّما هو مُنافقٌ مُستوجِبٌ للنار ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ

وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

ثم وجَّه الخطابَ للمؤمنين ينصَحهم ويوجِّههم، ويشرح لهم مخاطرَ النجوى وآثارها السيّئة في المجتمع المسلم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾.

المسألة الثالثة: في آداب المجالس، ومنها: التوسُّع في المجلس إذا دعَت الحاجة، ومنها: أدب الانصراف، ومنها: تقديم ذوي العلم والفضل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾.

المسألة الرابعة: في أدب مُناجاة الرسول ﷺ؛ حيث كان الصحابة يُحبُّون الجلوس معه والحديث معه، والتعلُّم منه في كلِّ وقتٍ، وكان ذلك يُثقِل على رسول الله ﷺ، فاقتَضَى تنبيهُهم بتشريعٍ جزئيٍّ يُناسب المقام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾، فلما أدرك الصحابة ﷺ مغزَى هذا التشريع وتوقّفوا عنده، خفَّفَ الله عنهم تكلفة الصدقة ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

تجدرُ الإشارة هنا أنّه في وسط هذه المسائل، جاء التحذيرُ من الذين يحادُّون اللهَ ورسولَه، ويعملون بخلاف هذا الهدي، فالله رقيبٌ عليهم، وهو يُحصِي عليهم أعمالهم، وسيَجزي كلّ عاملٍ بما عمل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾.

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ هي خَوْلَةُ بنت ثعلبة، ظاهَرَ منها زوجُها أَوسُ بن الصامت ﷺ، ثم ندِمَ، فجاءَت تستَفتِي رسولَ الله ﷺ، وفيه: جواز المجادلة والمحاورة بين الرجل والمرأة الأجنبية، وأنَّ صوت المرأة بذاته ليس بعورة.

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ يُظاهرون مِن ظَاهَرَ إذا قال لامرأته: أنتِ عليَّ كظَهر أُمِّي.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ﴾ أي: ليس نساؤهم أُمَّهات لهم، إنّما أُمَّهاتهم اللائي ولَدْنَهم، بمعنى أنّ هذا كذِب؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ﴾.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ أي: يندَمُون على قولهم، ويرجعون إليه يُريدون إبطاله.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ هذه هي كفارة المُظاهِر إذا أرادَ العودةَ إلى زوجته، وتظهر فيها رغبة الإسلام بتحرير العبيد؛ إذ لا مُناسبةَ بين الظِّهار وبين هذه الكفَّارة سِوَى ذلك.

﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ﴾ أي: عليه تحرير الرقبة قبل أن يقَع بينهما جِماع.

﴿ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ﴾ أي: هذه الكفارة من شأنِها أن تعِظَكم وتزجُرَكم عن الظِّهار الذي هو منكرٌ وزورٌ.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ﴾ ويلزم من هذا: امتِناعُه عنها شهرين كاملَين إضافةً إلى الأيَّام التي كانت قبل أن يبدأ بالصيام، ولا يحتسب فيها صوم رمضان؛ لأنّ صوم رمضان فرضٌ مُستقلٌّ بنفسه.

﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ﴾ فيه حِرصُ الإسلام على التكافُل، والتخفيف من مُعاناة الفقراء والمساكين، ويلحظُ هنا أنّه لم يُحرِّم مُعاشَرَتها قبل الإطعام كما حرَّمَها في العتق والصيام، وهذا هو الأظهر، والله أعلم.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الإيمان الذي يُنتج الامتثال لحكم الله تعالى، وفيه تأكيد صلة الإيمان بالعمل، وأنّ قبول حكم الله داخلٌ في مُسمَّى الإيمان.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ أحكامه تعالى البيّنة القاطعة.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ دليلٌ على أنّ الرافض لأحكام الله القاطعة خارجٌ من مُسمَّى الإيمان داخلٌ في مُسمَّى الكفر، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ الْكَٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وهذا الحكم يخصُّ المُنكِر الرافِض لحكم الله، بخلاف المُقِرّ الذي تغلِبُه شهوته وهو مُعترفٌ بذنبه وتقصيره، فهذا يقال له: عاصٍ، ولا يقال له: كافر، والله أعلم.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَآدُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: يُحاربون الله ورسوله ويعادونهما، ويرفضون الامتثال لأمرهما.

﴿كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الكبتُ الخزي والإذلال، أي: سيُصيبهم ما أصابَ الذين مِن قبلهم من العذاب الذي فيه خِزيُهم وإذلالُهم.

﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا﴾ ليخزيهم ويُقيمُ الحجة عليهم.

﴿أَحْصَىٰهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ أحصى الله عليهم كلَّ أعمالهم بعلمه سبحانه الشامل، وبما تُدوِّنُه الملائكةُ عنهم.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي: شاهدٌ فلا يغِيبُ عنه شيءٌ.

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ أي: لا يتناجَى ثلاثةُ نفَرٍ فيما بينهم إلَّا كان اللهُ شاهدًا عليهم.

﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ أي: قلُّوا عن الثلاثة أو زادوا إلى أي عددٍ فالله معهم بعلمه، ولا تفوته منهم همسةٌ، ولا لمزةٌ، ولا كلمةٌ، وقد جاء في صدر السورة ما يؤكِّد هذا؛ إذ سمِع الله حوارَ خولةَ ﵂ مع رسول الله ﷺ ومجادلتها له، وأنزل في ذلك تشريعًا.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ﴾ وهي التناجي المُثير للفتنة والبلبلة، والمفرِّق للصفّ.

﴿وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ﴾ أي: قلُّوا عن الثلاثة أو زادوا إلى أي عددٍ فالله معهم بعلمه، ولا تفوته منهم همسةٌ، ولا لمزةٌ، ولا كلمةٌ، وقد جاء في صدر السورة ما يؤكِّد هذا؛ إذ سمِعَ الله حوارَ خَوْلَةَ ﷺ مع رسول الله ﷺ ومجادلتها له، وأنزل في ذلك تشريعًا.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ وهي التناجي المُثير للفتنة والبلبلة، والمفرِّق للصفِّ.

﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ أي: مُصرِّين عليه، وهؤلاء هم المنافقون الذين يتناجَون فيما بينهم، ويتناجَون مع اليهود لإيذاء المسلمين والكيد بهم ﴿وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: يسلِّمون عليك سلامًا لم يسلِّم عليك الله به، والظاهر أنّ سلامَهم هذا يحملُ المعاني السيئة، ورُبَّما قلَّدوا في هذا اليهود الذين كانوا يقولون: السام عليك يا محمد، والسام هو: الموت، وسياق الآيات عن المنافقين وليس عن اليهود.

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: لو كان محمدٌ نبيًّا حقًّا لعذّبَنا الله بما نقوله فيه من سبٍّ وشتمٍ وما نُخفِيه في لَحن القول.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ هذا توجيهٌ للمؤمنين، وفيه تفريقٌ بين النجوى المُحرَّمة والنجوى المشروعة.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾ أي: النجوى المُحرَّمة.

﴿لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بمعنى أنّ المنافقين يتناجَون بهذه النجوى المُحرَّمة؛ لإدخال الغمِّ والحزن في قلوب المؤمنين بما يُثيرونه من فتنٍ وإشاعاتٍ، وشكوكٍ وسوء ظنٍّ.

﴿وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ إشارةٌ إلى أهميّة التوكل على الله لتحصين المجتمع المسلم من مخاطر هذه النجوى وآثارها؛ فالمجتمع المتوكِّل على الله لا

تضرُّه هذه النجوى بشيءٍ، وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ استِثناءٌ قَدَريٌّ على وفق سُنَنه تعالى، فإذا قصَّرَ المُسلِمون بوَعيِهم وتماسُكهم وحماية أنفسهم، فقد تعرَّضُوا للضرَر والخطَر.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا﴾ أي: توسَّعوا للقادم الذي لا يجِد مكانًا، فهذا من إكرام القادم، وهو من الأخلاق الاجتماعيَّة التي تُحبِّبُ المجتمع بعضه إلى بعض، ويتأكَّدُ هذا الأدب إذا كان القادم من أهل العِلم والفضل، وكذلك من يكون له شأنٌ مع صاحب المجلس، أو كان ممن له شأنٌ في الشورى ونحوها إذا كان المجلس عُقِدَ لأمرٍ مُعيَّنٍ، فهذا ينبغي أن يُوسَّعَ له في المكان المناسب، والله أعلم.

﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ ترغيبٌ لمن يهتَدِي إلى هذا الأدب أن يكون مقبُولًا عند الله، موسَّعًا له في الخير، ويُفسَح له في الجنَّة، ويُفسَح له قبل ذلك في المحشر حيث الضيق والزحام الشديد.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا فَٱنشُزُوا﴾ إذا قيل لكم: انهضوا لقادمٍ، أو لانتهاء المجلس لأي طارئٍ كحضور الصلاة مثلًا، أو لشغل صاحب المجلس، فهذا كلُّه ينبغي أن يُراعَى، ولا ينبغي لأحدٍ - لا صاحب المجلس ولا أحدٍ من الجالسين - أن يشعر بالحرج، فالتبسُّط هنا وحُسن الظنِّ ورفع التكلُّف من شأنه أن يُديم المحبّة، ويُديم التواصل والتعاون.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ يرفع الله مقام المؤمنين الذين يفقَهون هذه الآداب، ويمتثِلُونها في سلوكهم، وفيه إشارةٌ إلى تقديم هؤلاء المعروفين بالفقه والطاعة والأدب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ هذا تأديبٌ من الله لذلك الجِيل المؤمن، وتعليم لهم في أدقِّ الأمور؛ فتقديم الصدقة قبل الدخول إلى بيت الرسول ﷺ مُشعِرٌ بضرورة مراعاة مكانة هذا البيت واحترام خصوصيَّته، وتقدير أنه لو كان كلّ مسلمٍ يحبُّ أن يجلس إلى رسولِ الله ﷺ يأتي ويطرُق الباب، لتحوَّل بيتُه ﷺ إلى ما يُشبه المجلس المفتوح، من هنا جاء هذا التنبيهُ التربوي الدقيق.

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه رخصةٌ لمَن لا يجِد ما يتصدَّقُ به.

﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ ﴾ هذا الخطابُ لفئةٍ من المؤمنين كانوا يُكثِرون من الترَدُّدِ على رسول الله ﷺ، فلما نزَلَت آيةُ الصدقة أحجَمُوا؛ إذ ستكثُر عليهم لكثرة ترَدُّدهم، فكان هذا التنبيهُ كافِيًا لهم، والله أعلم.

﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فرفَعَ الله هذا الحُكمَ، وأبقَى عليهم الزكاةَ؛ حيث أدَّى هذا التشريعُ غرَضَه فيهم، والله أعلم.

﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٥) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٧) يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٨) اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٩) إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ (٢٠) كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١) لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٢٢) ﴾

التحذير من النفاق والمنافقين

هذا هو الموضوع الثاني الذي تناوَلَته السورة، وقد جاء لتشخيص حالة النفاق التي ظهرت بعد أن قوِيَت شوكة المسلمين، وأصبحت حالة النفاق تُشكِّلُ ما يُشبِهُ الجيب المؤذي داخل المجتمع المسلم، ومحطة لإثارة الفتن فيه، وشبكة من العلاقات الخفيَّة مع الأعداء، ويمكن تلخيص ما ورد في هذه السورة حول هذه الظاهرة بما يأتي:

أولًا: أنّ هؤلاء المنافقين قد تولَّوا أعداءَ المسلمين وانحازُوا لهم ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ ﴾.

ثانيًا: أنهم قومٌ مُخادِعُون مُراوِغُون كذّابُون ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والعَجَبُ أنهم سيحلِفُون بهذه الأَيمان أمام الله في يوم المحشر ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾.

ثالثًا: أنهم مُستحِقُّون للنار وغضب الجبَّار ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾.

رابعًا: مع عذابهم الأخروي، أكّد القرآن خسارتهم في الدنيا، وأنّهم مهزومون مغلوبون ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾.

خامسًا: في مقابل هؤلاء المنافقين، بيّن الله موقف المجتمع المؤمن وما يتميّز به من ولاءٍ صادقٍ لله ولرسوله، وبراءةٍ صادقةٍ من كلِّ مَن يُعادِي اللهَ ورسولَه ولو كانوا أقربَ المُقرَّبين ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ﴾.

فلما رأى الله صِدقَ هؤلاء المؤمنين في ولائهم له ولرسوله، كتَبَ لهم التأييدَ في الدنيا، والسعادة الأبديَّة في الآخرة، لقد تولّاهم كما تولَّوه، ونصَرَهم كما نصَروه، وأحبَّهم كما أحبُّوه، والجزاء من جنس العمل ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ نزلت في التنبيه إلى خطر المنافقين؛ حيث ارتبطوا بولاءاتٍ خفيَّةٍ مع اليهود.

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ بمعنى أنّ اليهود ليسوا منكم، وليسوا من المنافقين، والتعجُّب هنا من أنَّ هؤلاء المنافقين والَوْا قومًا لا يجتمعون معهم في دينٍ ولا في نسبٍ على قومٍ تجمَعُهم بهم أواصِرُ النَّسَب، وإن اختلفوا في الدين.

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: يحلفون لكم أنّهم منكم، لكنّهم كاذبون ويعلمون أنّهم كاذبون.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَـٰنَهُمۡ جُنَّةً﴾ أي: اتّخذوا أيمانهم الكاذبة لكم وقايةً لهم عن مُعاقبتهم.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: كان بقاؤهم معكم للصدِّ عن سبيل الله بتخذيل المؤمنين، وإشاعة الشكِّ والوهن فيما بينهم.

﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ﴾ أي: يحلفون لله يوم الحساب أنّهم كانوا مؤمنين، كما يحلفون لكم اليوم، وهذه حماقةٌ ما فوقها حماقة، وجهالةٌ ما فوقها جهالة.

﴿ٱسۡتَحۡوَذَ عَلَيۡهِمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ﴾ غلَبَ عليهم وتمكَّن منهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱلشَّيۡطَـٰنِۚ﴾ أعوانه وجنده وأنصاره.

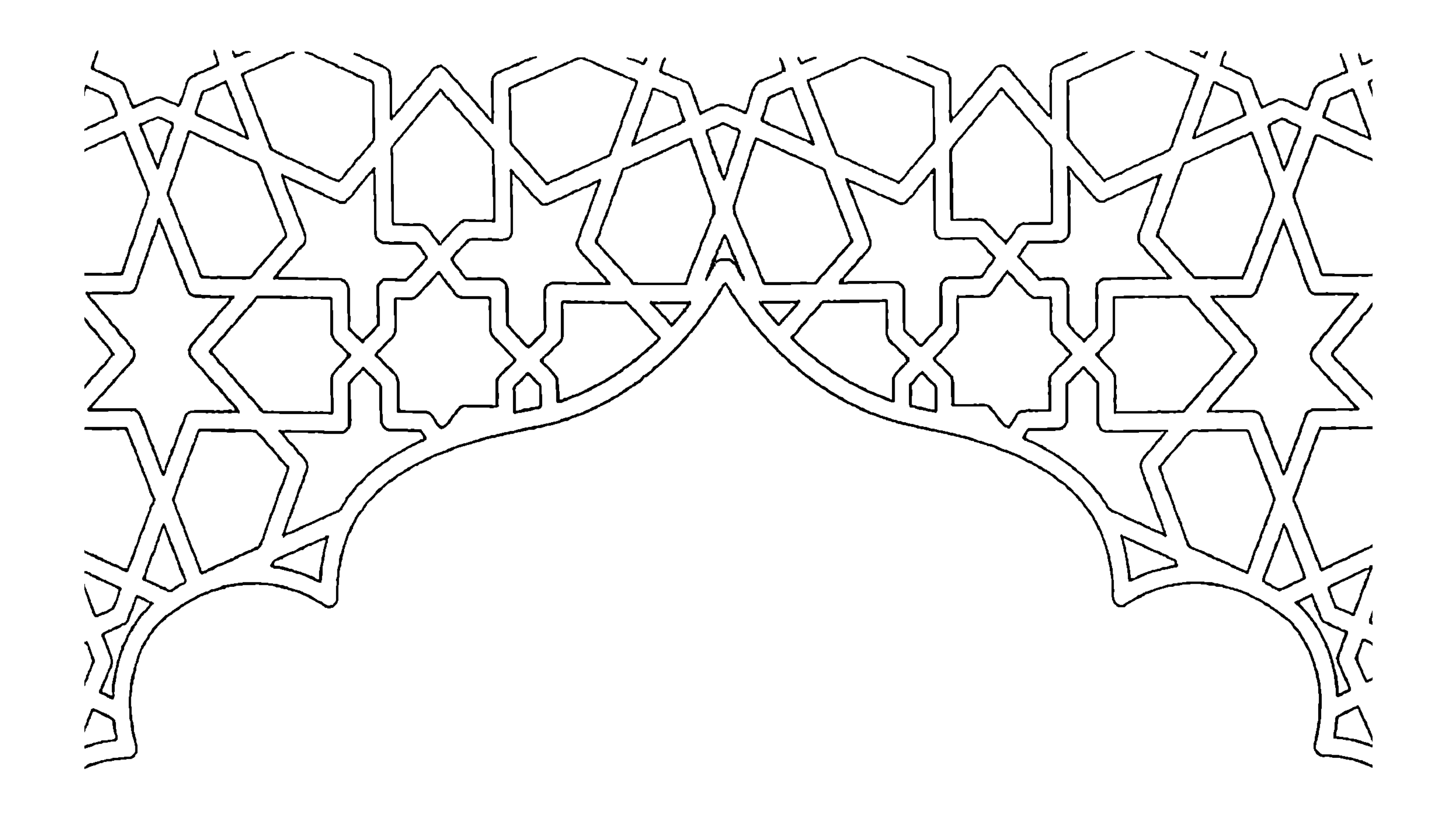
﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ أي: قضى الله بالنصر والغلبة لدينه ولرسله ﷺ، وقضَى بالهزيمة والخسران على حزب الشيطان.

﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ﴾ بمعنى أنّ المؤمن الصادق لا يمكن أن يُحبَّ الذين يحاربون الله ورسوله ولو كان فيهم أبوه، وهذا ليس عامًّا في كلِّ الكافرين، بل في المُحارِبين منهم والمُعادِين لله ولرسوله، أمّا الكافر المسالم فالأَولَى إدامة الصلة معه، ومعاملته بالحسنى علَّ الله يهدي قلبه لهذه الدعوة المباركة.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ أي: هؤلاء الذين امتُحِنوا في آبائهم وأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم فاختاروا الله ورسوله، هؤلاء ثبَّتَ الله في قلوبهم إيمانهم، وأيّدهم بمدَدٍ من عنده.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: أنصار الله وأحبابه وأولياؤه.

﴿أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ الفائزون في الدنيا والآخرة.




سورة الحشر

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢) وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ (٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤) مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٩) وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠) ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١١) لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (١٢) لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٣) لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (١٤) كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٥) كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (١٧)﴾

وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله

نزلت سورة الحشر في بني النضير، وهم إحدى قبائل اليهود التي استوطَنَت المدينة قبل البعثة المحمّديَّة، وكان بينها وبين المسلمين عهدٌ وميثاقٌ مُدوَّنٌ ومكتوبٌ؛ يأمَنون فيه على

وجودهم وأرضهم وديارهم وحقوقهم المدنيَّة كاملة مُقابل التِزامهم بدستور المدينة، والحفاظ على أمنها واستقرارها، لكنّهم نكَثوا العهد وغدَروا، وحاولوا قتله ﷺ، فكانت هذه المواجهة، والتي انتَهَت بجلائهم دون قتالٍ، وقد خُصِّصت هذه السورة لبيان تلك المواجهة وآثارها وما اتصل بها من أحكامٍ ومسائل، وكما يأتي:

أولًا: استهَلَّت السورة بتسبيح الله وتمجيده، وأنّه سبحانه مالِك المُلك بيده مقاليد السماوات والأرض، وهو العزيز الحكيم ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

ثانيًا: صوَّرَت السورةُ حالةَ إجلاء بني النضير من دِيارهم بعد خُضُوعهم لحكم المسلمين فيهم، وكيف أنّهم كانوا يتمنَّعون بحصونهم، لكنّها لم تُغنِ عنهم من الله شيئًا، فأخذوا بتخريب بيوتهم وما لا يقدِرُون على حمله من مُمتلكاتهم؛ لئلَّا تكون غنيمة للمسلمين ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

ثالثًا: بيَّنَت السورة أنّهم بهذا الجلاء قد حَمَوا أنفسهم من القتل الذي كانوا يستحِقُّونه على غدرهم ونكث عهودهم ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

رابعًا: بيَّنَت السورة حُكمًا جزئيًّا من أحكام الحرب؛ حيث عمَدَ بعض الصحابة إلى قطع نخلاتٍ من نخيل بني النضير قبل استِسلامهم، وقد عابَ اليهودُ على المسلمين ذلك، ورُبَّما تحرَّج بعض المسلمين أيضًا، فنزل هذا البيان من الله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾.

والمقصود: أن قطع الشجر أو تركه متروكٌ إلى تقدير الجيش ومدى حاجته إلى ذلك؛ فإن كان فيه تسهيلٌ لحركته وتقليلٌ من خسائره فله ذلك، وإلَّا فالمحافظة على المال أصلٌ من

أصول الشرع، ومقصدٌ من مقاصده، لكن هذا المال ليس بأعزّ من دماء الجند، والله أعلم.

خامسًا: تناوَلَت السورة حكمَ أموال بني النضير بعد أن تركوها للمسلمين من دون قتالٍ ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم قرَّرَت حكم الله في هذا المال وفي كلِّ مالٍ يحصُل عليه المسلمون من أعدائهم بغير قتالٍ ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بمعنى أنّه لا يقسَّم بين المقاتِلين، بل يذهب للدولة، والدولة تصرفه في هذه المصارف، وقد كان رسول الله ﷺ يصرفه في ذلك بعد أن يأخذ منه كفايته هو وأهل بيته بما خصَّه الله وقدَّرَه له، ثم جاء تعليل هذا الحكم وبيان الحكمة منه: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ﴾ بمعنى أنّ رجوعه للدولة وصرفه في هذه الأصناف يُحقِّق قدرًا من المساواة والتكافل، ولا يُبقِي المال حكرًا بيد الأغنياء والأقوياء.

والإشارة هنا إلى المقاتلة؛ لأنّهم قد يرَون أنّهم أولَى بهذا الفَيءِ من غيرهم؛ لأنّه كان بسببهم وإن لم يحصل القتال الفعلي، ومن ثمّ نبَّهَ القرآن إلى هذا الهاجِسِ من خلال هذه القاعدة الكليّة الكبيرة ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾.

سادسًا: في هذا السياق جاء التذكير بالمهاجرين الذين أخرَجَتْهم قريش من أرضهم، وسلَبَت منهم أموالهم فأصبحوا فقراء، ثم إنّ هؤلاء المهاجرين هم الذين نصَرُوا الله ورسوله، وسبقوا إلى التمكين لهذا الدين بما قدّموه وما بذَلُوه ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

ومناسبة التذكير بالمهاجرين هنا: أنّهم داخلون في مصارف هذا الفيء؛ لفقرهم الناتج عن تضحيتهم بأموالهم، وكلّ ما يملكونه أثناء الهجرة، ولما قدَّمُوه ولاقَوه على طريق الجهاد والدعوة.

سابعًا: بعد ذكر المهاجرين وبيان فضلهم وحقّهم، جاء التذكير بالدور الكبير لأهل الدار الذين آوَوا ونصَروا وفتَحوا بيوتهم وقلوبَهم للمهاجرين ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾، وليس في الآية ما يُشير إلى أنّ لهم الحقّ بهذا الفيء، إلّا مَن كان منهم فقيرًا، أو مسكينًا، أو عابر سبيل، والله أعلم.

ثامنًا: بعد ذِكر هؤلاء الصفوة لم تُغفِل السورةُ الناسَ الذين التَحقوا بهذا الرَّكب مِن ذلك الجيل إلى آخرِ مُؤمنٍ أو مُؤمنةٍ على هذه الأرض ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾.

وهذا الربطُ بين أوَّل الأُمّة وآخرها له مغزًى كبيرٌ في صياغة هويَّة الأمّة ووحدتها وانتمائها، وواضحٌ أيضًا أنّ السياق خرج عن موضوع الفيء وتقسيم الأموال إلى الأفق الأوسع، وهذه طريقة قرآنيَّة في ربط الجزئيَّات بكليَّاتها، وربط الأحكام الدقيقة بالأصول الكبيرة، والله أعلم.

تاسعًا: بعد ذِكر هذه الوشائج والروابط الإيمانيَّة التي تجمَعُ المسلمين مهاجرين وأنصارًا وكلّ من اتبعهم إلى يوم الدين، التَفتَت السورة إلى الجهة المقابلة؛ حيث ذلك التحالف الآثم الكاذب بين المنافقين وبين بني النضير وغيرهم من اليهود ﴿ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

عاشرًا: بيَّنَت السورة وَهنَ ذلك التحالُف، وعَجْز اليهود عن مواجهة المسلمين ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾

حادي عشر: ربطت السورة بين ما أصاب بني النضير وما أصاب إخوانهم من قبلهم بني قينقاع؛ حيث أجلاهم النبيُّ ﷺ بسبب غدرِهم أيضًا ونقضهم للعهد ﴿ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن

قينقاع؛ حيث أجلاهم النبيُّ ﷺ بسبب غَدرِهم أيضًا ونقضهم للعهد ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَرِيبٗاۖ ذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

ثاني عشر: شبَّهَت السورة حالَ المنافقين مع بني النضير بعد أن تخلَّوا عنهم ساعةَ المواجهة وتركوهم للجلاء بحال الشيطان الذي يُغرِي الإنسانَ بالكفر، ثُمَّ يتخلى عنه يوم الحساب ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ﴾ نزَلَت في بني النضير بعد أن غدروا بالمسلمين، وخانوا عهدهم، فحاصَرَهم المسلمون، وأنزَلوهم على حُكم رسول الله ﷺ فأمرهم بالجلاء.

﴿لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ﴾ أي: في أوّل جلاءٍ لهم، وسمَّى الجلاء حشرًا؛ لأنّه كان عامًّا في كلِّ بني النضير، فحُشِرُوا جميعًا ثم أُجلُوا.

﴿مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ﴾ لأنّ المسلمين رُبَّما كانوا يظنُّون أنّهم سيتمسَّكون بأرضهم وسيُقاتِلون عنها.

﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: مِن عقاب الله لهم بأيدي المسلمين.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ﴾ أي: فأتاهم الله بعذابه من الجهة التي لم يظنُّوا أنَّ العذاب آتيهم منها.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَۚ﴾ هذا تفسيرٌ لما قبله، أي: أنّ العذاب الذي أصابَهم دخل عليهم من قلوبهم، وهذه هي التي تُسمَّى اليوم بالهزيمة النفسية التي تجعَلُ صاحب العُدَّة والعَتَاد ينهارُ أمام عدوِّه مع ما عنده من عُدَّةٍ وعتادٍ.

﴿يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ﴾ حتى لا تكون غنيمةً للمسلمين.

﴿وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا كان قبل استِسلامهم؛ لأنّ تخريبَ البيوت من قبل المؤمنين بعد أن ورِثُوها لا داعِيَ له.

وفيه إشارةٌ أنّهم لم يستسلِمُوا إلّا بعد أن شعروا بالخطر يحدق بهم ويقترب منهم، ولم يكن هذا إلّا بهَدمِ بعض المنازل المُتطرِّفة، وقطع النخيل التي تحُولُ دون تقدُّم المسلمين إليهم، والله أعلم.

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أي: اتَّعِظوا يا أهل العقول، والخطاب - وإن كان عامًّا - إلّا أنّ الإشارة لمن بقِيَ من اليهود في المدينة - وهم بنو قريظة - واضحة ولا تخفى.

﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي: لسلَّط عليهم سيوف المؤمنين.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ﴾ أي: ذلك الذي أصابهم كان لأنّهم خالفوا الله ورسوله وناصبوهما العداء.

﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ ما قطعتم من نخلةٍ.

﴿أَوۡ تَرَكۡتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ فيه تحسينٌ لصورة النخل الذي يبقى على أصوله، إشارة إلى تجنُّب قطعه من غير ضرورةٍ.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ﴾ أي: وما منحه الله لرسوله من أموالهم، وأصل الفيء: الرَّدّ، بمعنى أنّ الله ردَّ أموال بني النضير إلى رسوله ﷺ.

﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ أي: فما حرَّكتم عليه خيولكم، بمعنى أنّه جاء باستسلام من العدو، وليس بسبب قتالكم له.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ النضير وغيرها؛ كخيبر وفدك، بمعنى أنّه حُكمٌ عام في الفيء، وليس خاصًّا بالنضير.

﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بمعنى أنّ الفيء لا يُخمَّس كما تُخمَّس الغنائم، فليس للجُند في الفيء نصيبٌ؛ لأنّه جاء من غير قتالٍ، وذو القربى هم قرابته ﷺ؛ لأنّهم حُرِموا من الصدقة، فكان هذا تعويضًا لهم، وابن السبيل: المسافر الذي يحتاج أن

يبلغ محلّه لنفاد ما عنده من مالٍ ولو لم يكن فقيرًا في الأصل.

تجدُرُ الإشارة هنا إلى أنّ مسائل الغنائم والفيء ومصارفهما محل اجتهادٍ وخلافٍ طويلٍ بين الفقهاء، فليرجع إلى مظانّه من أراد التوسُّع.

﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ الدُّولَة من التداوُل، بمعنى أنّ هذا المال ينبغي أن يكون مُتداوَلًا في المجتمع لحل مشاكله الماليّة؛ كالفقر ونحوه، لا أن يكون مُتداوَلًا بين الأغنياء فقط؛ لأن الفَيءَ أكبر بكثيرٍ من حاجة الجُند، فلو قسّمت البلاد المفتوحة على الجند لاحتكرت ثروة الأُمَّة عندهم.

ومِن ثَمَّ رفض عمر بن الخطاب ﷺ تقسيمَ العراق كما تُقسَّم الغنائم، ومن هنا كان لا بُدَّ من وجود ضابطٍ كلّيٍّ وموجِّهٍ عامٍّ للدولة المسلمة في تعامُلها مع هذه المسائل، فجاء هذا التعليل مُنبِّهًا إلى هذا الضابط أو الموجِّه؛ فهناك فرقٌ بين مال الدولة الذي ينبغي أن تسدّ به حاجة مؤسساتها وأفرادها، وتعالج به مشاكلها، وتسدّ به نقصها، وبين المال الذي يُعطى للمقاتِل مكافأةً وتشجيعًا له، وهذا الضابط يتجاوز مسألة الفيء إلى كلّ ما يقَع تحت سلطان الدولة، حتى الغنائم التي تزيد عن المألوف في مُسمَّى الغنائم، وهذا يستدعي اجتهادًا واسعًا أكبر ممّا يَتحمَّله هذا المختصر، والله أعلم.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾ نزلت تذييلًا على ما شرَّعَه الله في الفيء، لكنّها أوسع من ذلك؛ لأنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فالرضا بكلِّ ما يقوله الرسول ﷺ وبكلِّ ما يقسم به، أمرًا أو نهيًا، عطاءً أو منعًا هو أصلٌ من أصول الإسلام، وهو الفيصلُ العمليُّ الحقُّ بين الإيمان والنفاق.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ تعليلٌ لدخول المهاجرين في مصارف الفيء، وبيان لسبقهم وفضلهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾ أي: استوطنوا المدينة واتخذوها سكنًا لهم، وعطْف الإيمان على الدار قُصِد به: ثباتهم على الإيمان وتمسّكهم به، كما ثبتوا في أرضهم واستقرُّوا بها.

وقرن الدار بالإيمان في تنويهٍ عظيمٍ على مكانة المدينة عند الله والتي شرَّفَها الله بخاتم

الرسل ﷺ، وتنويه أيضًا بمكانة أهل الدار عند الله؛ وهم الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم.

﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ هذه ميزةٌ عظيمةٌ للأنصار، وهي أنّهم لم يُقدِّموا ما عندهم للمهاجرين من باب الصدقة وتخفيف المعاناة، وما يُسمَّى اليوم بالتكافل الاجتماعي، بل ارتَقَوا في معارِجِ الكمال الروحي والأخلاقي فوق ذلك بكثيرٍ، فكانت قلوبهم تعمر بمحبَّة المهاجرين إلى مستوى أنّهم كانوا يُؤْثِرونهم على أنفسهم، بمعنى أنّ الأنصاري كان يرَى أن يكون ماله عند المهاجر خيرًا له من بقائه عنده رغم حاجته الشديدة إليه، كما سيأتي.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ أي: لا يجِد الأنصار حزازةً في قلوبهم على إخوانهم المهاجرين أن خصَّهم الله دونَهم في هذا الفَيء.

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي: يُقدِّمون المهاجرين على أنفسهم ولو كانت بهم حاجة شديدة لهذا المال.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: ومَن يُسلِّمه الله مِن داء الشحِّ وهو البخل فهو من الناجِحين الفائزين.

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ هؤلاء المؤمنون إلى قيام الساعة، يُخبِر القرآن أنّهم يستغفرون للمهاجرين والأنصار، وهو إخبارٌ فيه معنى الأمر والتوجيه، والمؤمن مدفوعٌ بفطرته لهذا الوفاء؛ إذ كانوا ﷺ السبب في وصول الإسلام إلى كافَّة الأصقاع إضافة إلى هذا التوجيه القرآني، ومِن ثَمَّ كان الذي يسبُّ الصحابة ويتبرّأُ منهم خارجًا عن معاني الفطرة السليمة، ومخالفًا لصريح القرآن، وقطعًا أنّه لن يجِد نفسه في المهاجرين، ولا في الأنصار، ولا في التابعين لهم، وهذه هي أصنافُ المؤمنين التي اعتَمَدَها القرآن في هذا السياق.

﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا﴾ أي: غِشًّا وحِقدًا.

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ

لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ مقارنة ضمنيّة بين واقع المجتمع المؤمن من المهاجرين والأنصار والتابعين؛ حيث المُودَّة والإيثار والاستغفار، وبين هذا المجتمع البغيض الذي تسُوده الأثرة والمصالح الشخصية والتغرير بالباطل؛ فالمنافقون كانوا يعِدون اليهود بأن يكونوا معهم إذا أُخرِجوا وإذا قوتِلوا، بمعنى أنّهم معهم على كلِّ الاحتمالات، لكنهم كذَبوا عليهم، فلم ينصروهم، ولم يخرجوا معهم ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ تعليلٌ لتخلُّف المُنافقين عن مُناصَرَة حُلفائِهم اليهود أنّهم يخشَون المسلمين أكثر من خشيَتهم لله؛ وما ذاك إلا لكفرِهم بالله وجهلِهم بمقامه العظيم تبارك وتعالى.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ﴾ بعد بيان حال المنافقين، شَرَعَ في بيان الطرف الثاني من هذا الحِلف، وهم اليهود، فهؤلاء لا يجرؤون على مواجهة المسلمين في القتال، بل يتحصَّنون بحصونهم، ويختبِئون خلف جُدُرهم، وكلُّ قريةٍ منهم تُقاتل لوحدها؛ إذ لم يجتمع اليهود على قتال المسلمين.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ﴾ تعليلٌ لعدم اجتماعهم على قتال المسلمين، بمعنى أنّهم - أي: اليهود - كانوا مُختلفين فيما بينهم، ولا يثِق بعضهم ببعض.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ﴾ الخطاب ليس لمُعيَّنٍ، بل جارٍ مجرَى المثل، بمعنى: تحسَبُهم أيها الناظر إليهم، أما النبيُّ ﷺ فلم يكن يحسَبُهم جميعًا، بل هو أعلَمُ بحقيقتهم؛ ولذلك قاتَلَ كلَّ قبيلةٍ منهم على حِدة.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ﴾ أي: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، يُشبِّهُ حال بني النضير بحال من سبقهم وهم بنو قينقاع، فقد كانت لهم حصُونهم أيضًا، ثم أجلَاهم النبيُّ ﷺ كما أجلَى هؤلاء، والله أعلم.

﴿ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ أي: ذاقوا سوء عاقبة غدرهم.

﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكَ﴾ أي: يقول الشيطان ذلك يوم القيامة، وجاء بالفعل الماضي؛ لتأكيد تحقُّق هذه البراءة ذلك اليوم، وقد أكَّد هذا المعنى قوله تعالى في سورة إبراهيم: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّۖ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ﴾ أي: الغاوِي والمَغوِي، الشيطان ومن اتَّبع الشيطان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤)﴾

يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله

في خِتام هذه السورة المباركة توجَّهَ القرآنُ بالخطاب إلى المؤمنين يُذكِّرهم بالله وبأسمائه وصفاته، ويُذكِّرهم بعظمة هذا القرآن، ويحثّهم على استحضار التقوى في كلِّ ما يعملون، ويعِدُهم على ذلك بالجزاء الأَوفَى، وكما يأتي:

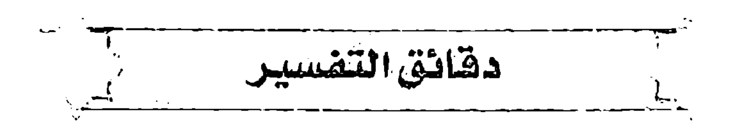
أولًا: يذكِّرُ القرآن الكريم الذين آمنوا بالتقوى ومحاسبة النفس، والعمل لما بعد الموت، وهذه أُسُس التزكية التي يعتمدها القرآن في صَقل النفوس وتهذيبها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

ثانيًا: يذكّرهم القرآن أيضًا بأنَّ تميُّز المؤمنين عن أولئك الغافلين الكافرين في هذه الدار هو الذي سيُميِّزهم هناك في دار الجزاء ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

ثالثًا: يدعوهم إلى التفكُّر بعظَمَة هذا القرآن وما يستلزِمُه هذا التفكُّر من تحصيلِ الخشية والخوفِ من الله ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ

ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾.

رابعًا: ثم يَختِم ببيانِ بعضٍ من أسماء الله الحسنى وصفاته العُليا؛ لربط القلوب بالله، وتنبيهها إلى عظمته سبحانه، وعلمه وقدرته، وسعة رحمته حتى تتنوَّر بنوره، وتأنَس بحضوره.



دقائق التفسير

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ أي: ولتنظُر كلُّ نفسٍ منكم أيها المؤمنون إلى عملها الذي قدَّمَته لآخرتها، وهذا انتِقالٌ للخِطاب، ومُناسبته أنّ الله تعالى بعد أن امتَنَّ على المؤمنين بجلاء بني النضير ذكَّرَهم بحقِّ الله عليهم أن يتَّقُوه في السرِّ والعَلَن، وأن تتعلَّق قلوبُهم بالآخرة؛ فهي الغايةُ الكبرى التي يعمل لها العاملون، ويتنافس فيها المتنافسون.

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ يُحذِّر الله المؤمنين من أن ينسَوا عهدهم مع ربِّهم، فتكون عاقبتهم كعاقبة هؤلاء اليهود؛ إذ كانوا أهل دينٍ وإيمانٍ وكتابٍ، لكنّهم نسُوا عهدهم هذا وما فضَّلَهم الله به، فأوكَلَهم الله إلى أنفسهم واستبدَلَ غيرهم بهم.

﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ جاءت هذه الآية في سياق المُقارنة بين الذين نكثوا عهد الله، ونقضوا ميثاقه وهم اليهود ومن شاكلهم من أهل الكتاب والمنافقين، وبين المهاجرين والأنصار ومن اتبعهم من هذه الأمة الثابِتِين على العهد والحافظين لحدود لله، وفي الآية ترغيبٌ للمؤمنين أن يستقيموا على ذلك، وألا ينحرفوا كما انحرف أولئك الخاسرون.

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ هذا مَثلٌ قُصِد به التشنيع على أولئك الكاذبين المُكذِّبين بالقرآن، الصادِّين عنه والغافِلِين عمّا فيه من الهدى والنور، والوعد والوعيد، يقول لهم أنّه لو خُوطِبَ الجبل - وهو مضرِب المثل بالقوة والتماسُك - بهذا القرآن، وهذا هو معنى افتِراضِ إنزال القرآن عليه، أي: افتِراض تكليفه

بحمل هذا القرآن والعمل به، فلو كان أهلًا للتكليف ووَعَى طبيعةَ هذه الأمانة، لأحسّ بثقلها ورأيته خائفًا من التقصير بحقِّها، مُتشقِّقًا مصدومًا من هول ما كُلِّف به.

وقد أشار القرآن إلى أن المغزى من هذا إنّما هو التمثيل لتقريب عظمة القرآن، وثِقَل الأمانة التي ينبغي أن يستشعرها هذا الإنسان ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ بدأ بذِكْرِ اسم الله العَلَم، الذي هو الجامع لكلِّ أسمائه وصفاته ﷻ؛ فما من اسم إلّا وله معنًى مُشتق عن صفةٍ من صفاته تعالى إلّا هذا الاسم (الله) الذي هو عَلَمٌ على الذات الإلهيَّة، لا يحمل صفةً معيّنةً، بل يحمل الصفات كلّها، ثم ثنّى بالوحدانيَّة؛ لأنّها أساس الدين كلّه.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلَم ما يغيب عنكم أيُّها الناس من العوالم الغيبيَّة؛ كالملائكة والجنّ، والسماوات السبع وما فيهنّ وما فوقهنّ، ويعلم مستقبل الحياة مِن آجالكم وما ينتظر كلّ واحدٍ منكم، وأحوال الآخرة، ثم هو أيضًا يعلَم ما تشاهدونه ويقع تحت إدراككم وحواسّكم واستنتاجاتكم، وأعمالكم وأقوالكم.

ولا شكّ أنّ هذه المعاني تترك في نفس المؤمن حِسًّا عظيمًا من الرقابة الذاتيَّة، وثقةً لا حدود لها بأحكام الله وتشريعاته؛ إذ لا يمكن أن يعترِيها نقصٌ، أو ميلٌ، أو خللٌ، وتبعث طمأنينة بعدل الله الذي يعلَم كلَّ عاملٍ وما عمل، وتوكُّلًا جميلًا؛ لأنّه تعالى يرى عبده، وهو أعلم بحاجته وشكواه، وما يحيط به.

﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ تكرار صفة الرحمة بهذَين الاسمَين المباركَين واقتِرانهما ببعضهما يُوحي بالأُنس والطمأنينة؛ فالله الذي يعلَمُنا ويعلَمُ كلّ أحوالنا لا يعلَمُ ذلك علمًا مُجرَّدا، بل هو عِلمٌ ممزوجٌ بالرحمة، الرحمة التي لا حدود لها.

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إعادةٌ وتأكيدٌ لاستحضار كلّ أسماء الله وصفاته في اسمه الجامع (الله)، ولاستحضار كلّ معاني الإيمان والإسلام في التوحيد الذي هو أساس الدين.

﴿ٱلْمَلِكُ﴾ اسمٌ من أسمائه تعالى، بمعنى أنّه سبحانه له السلطان المطلق على هذا الوجود،

وكلّ مُلكٍ أو سلطانٍ آخر إنّما هو على سبيل التخويل والاستخلاف والاختبار.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ المُنزَّه ﷻ تنزيهًا تامًّا عن كلِّ صفةٍ لا تَلِيقُ به، واقتِرانُ هذا الاسم الشريف بالاسم الذي قبلَه إشارةٌ إلى تنزُّه الله عن الصِّفات التي تشِينُ ملوكَ الأرض في العادة؛ من الظلم، وقلَّة الاكتِراث بأحوال العباد وحاجاتهم ومصائرهم.

﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ﴾ صفتان لله تعالى واسمان من أسمائه الشريفة تُوحِيَان بأنّ الله تعالى هو مصدر السلام، ومصدر الأمن والطمأنينة في هذا الكون بما أودَعَه فيه من نظامٍ، وما أقامَه فيه من سُننٍ ونواميس، فكلّ الكون يجري بنظامٍ وأمانٍ، وبنسقٍ يضمن الهدوء والاستقرار، ولو اهتدى هذا الإنسان في مجاله التكليفي إلى شريعة الله لوجدها متناغمة ومنسجمة مع نظام الله الذي يضبط حركة هذا الكون من مجرَّاته وأفلاكه إلى نطفة الحياة، وبذرة النبات، وقطرة الماء، ونسمة الهواء، ورحيق النحل، وعبير الورد، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ أي: الحافظ الرقيب المقتدر الذي تخضع له كلُّ ذرَّات هذا الوجود؛ فهو القائم سبحانه على شؤون خلقه، فلا يغيب عن علمه منها شيءٌ، ولا يخرج عن سلطانه منها شيءٌ.

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي له العزَّة سبحانه فلا يغلِبه أحدٌ، ولا يحول بينه وبين ما يريد أحدٌ.

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ المقتدر على خلقه فلا يخرج أحدٌ منهم عن إرادته، فكلّ الملوك وجبابرة الأرض - فضلًا عن غيرهم - محكومون بحُكمه، خاضِعون لجبروته، من لحظة تكوينهم في بطون أمهاتهم، إلى لحظة خروجهم من هذه الحياة مجرَّدين عن كلّ شيءٍ، وأمّا ما يملكونه في أيّام حياتهم فما هو إلا متاعٌ زائلٌ قُصِد به اختبارهم، ثم مجازاتهم على أعمالهم.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي له الكبرياء، بمعنى الجلال والعظمة المطلقة، فليس مِن عظيم إلّا وهو ذليلٌ أمام عظمته، وليس مِن موجودٍ إلّا وهو مخلوقٌ بإرادته، ومُنصاعٌ لنواميسه الحاكمة وسُننه.

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فيه التشنيع الشديد على من يقرِن الله بأحدٍ من خلقه؛

فكلّ هؤلاء المعبودون من دونه ليسوا سوى خلق من خلقه، وعبيد من عبيده.

﴿هُوَ ٱللَّهُ﴾ تأكيد أنّ اسمه الشريف هذا هو الأصل لكلّ الأسماء، والجامع لكلّ الصفات.

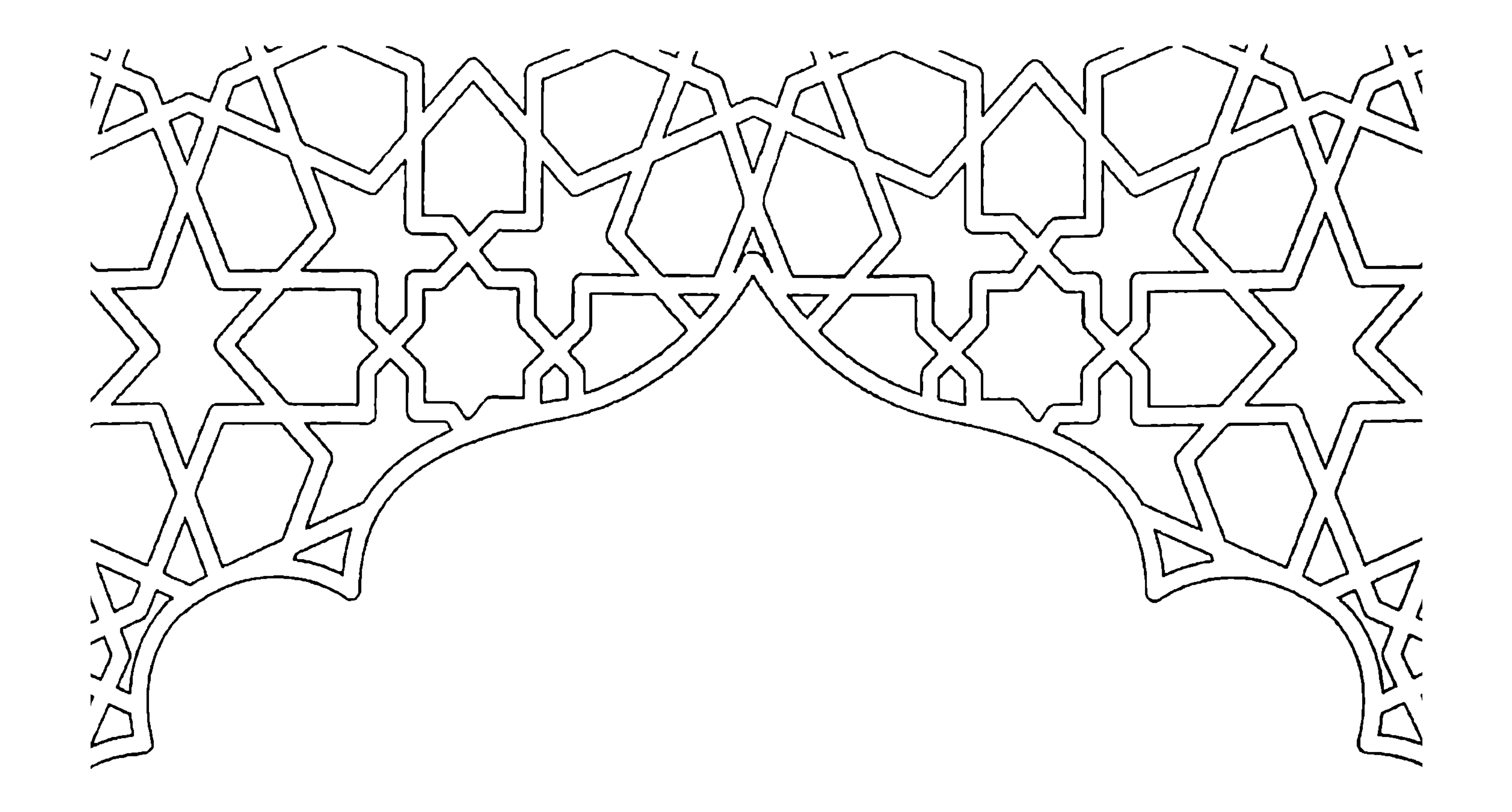
﴿ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ﴾ والخالق أي: المُوجِد الذي أوجد كلّ هذه المخلوقات من العدم المحض، ثم بنظام التكاثر والتناسل الذي أودَعَه في هذا الخلق، والبارئ أي: الذي برَأ كلّ مخلوقٍ بما يميِّزه عن غيره في الأجناس والآحاد، ومن المُفسِّرين مَن يخصُّه في خلق الإنسان خاصَّة، ومنه (البريَّة) أي: الناس، والله أعلم.

وأمّا المصوِّر فهو: الذي أعطى لكلِّ مخلوقٍ شكله وصورته وحجمه ولونه، فهذه ثلاثة أسماء مُتَّصلة في معانيها، مُتسلسلةٍ في ترتيبها يكمِّل بعضها بعضًا، ويعضِّدُ بعضها بعضًا.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: له سبحانه الأسماء المعروفة بغاية الحُسن في جمالها وجلالها وكمالها، بألفاظها ومعانيها وآثارها.

ومعلومٌ أنّ هذه السورة قد خصَّها الله بجمع هذه الأسماء الشريفة بتسلسلٍ واحدٍ في خواتيمها، ومعلومٌ أيضًا أنّ هذه ليست كلّ أسمائه تعالى، لكنّها تذكِّر بها جميعًا؛ لوجود الصلة بين كلِّ اسمٍ ذَكَرَتْهُ هذه السورة وبين عددٍ من أسمائه تعالى الأخرى؛ فاسمُ الله تعالى (القويّ) مثلًا حاضرٌ في اسمه تعالى (العزيز) واسمه تعالى (الجبار)، وإن لم يُذكَر بلفظه، واسمه تعالى (الرؤوف) حاضرٌ في اسمه تعالى (الرحمن) واسمه (الرحيم)، وكذلك أسماؤه تعالى التي تدلُّ على الوحدانيَّة جمَعَها قولُه تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، وهكذا.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ كرَّر اسمَه تعالى (العزيز) لكنّه قرَنَه هذه المرّة باسمه (الحكيم)، بإشارةٍ أنّ صفتَي العزة والحكمة تتكاملان، والمؤمن الذي يسعى إلى أن يتخلَّقَ بأسمائه تعالى عليه أن يُراعِي هذا التوازُن؛ فعِزَّة الإنسان من غير حِكمةٍ قد تنقَلِبُ إلى غُرورٍ وتهوُّرٍ، وحكمته من غير عِزَّةٍ قد تنقَلِبُ إلى ضعفٍ وذلَّةٍ، وهكذا ينبغي مُراعاة التوازن في كلِّ أسمائه تعالى، بمعنى مُراعاة انعكاسها وتأثيرها في حياة المسلم، فلا يطغى معنًى على معنًى، ولا جانبٌ على جانبٍ.



سورة الممتحنة

المجلس الرابع والخمسون بعد المائتين: فقه الولاء والبراء

سورة الممتحنة

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١) إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (٢) لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣) قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٤) رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٥) لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦) عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٧) لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠) وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ (١١) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (١٣)﴾

فقه الولاء والبراء

علاقة الأُمّة الإسلاميّة بغيرها من الأُمَم بابٌ واسعٌ تشتبك فيه مسائل العقيدة بمسائل الفقه، والعلاقات الاجتماعيّة بالعلاقات السياسيّة، وتلتبِس فيه مُتطلَّبات الدعوة بمُتطلَّبات الجهاد، وفقه السِّلمِ بفقه الحربِ، وقد وضَعَت هذه السورة المباركة بعض القواعد والأحكام التفصيليّة في هذا الشأن، وكما يأتي:

أولًا: نهى الله ﷻ المؤمنين نهيًا قاطعًا أن يتخذوا أعداء الله أولياء بأيِّ نوعٍ من أنواع الولاية، وأن يلقوهم بالمودَّة بالسِّرِّ أو العَلَن، فهذا من ولايتهم أيضًا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ثانيًا: علَّل القرآن هذا النهي الحاسم منبِّهًا إلى خطورة التهاوُن في هذا النوع من العلاقات إنْ لم تكن بميزانٍ دقيقٍ وواضحٍ ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقد تقدَّم قوله تعالى مُبينًا إحدى جرائم المشركين هؤلاء: ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ وهذا التعليل بيَّن أنَّ هذا الصنف من الكفار الذين يحرُم ولاؤهم بأيِّ صورةٍ من الصور هم الأعداء المعتدون، الذين يُخرِجون المسلمين من أرضهم، ويُعلِنون لهم العداء بأقوالهم وأفعالهم.

ثالثًا: نبَّه القرآن المؤمنين إلى نموذجٍ من قصص النبيين يظهر فيه معنى الحزم في إعلان البراءة من هؤلاء المشركين ولو كانوا أقارب أو أرحامًا ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

والاستِثناء الوحيد هنا هو: استِغفارُ إبراهيم لأبيه بعد إصراره على الشرك ومُعاداته للمؤمنين ومنهم إبراهيم الذي أرادَ حرقَه بالنار، لولا أنَّ الله جعلها عليه بردًا وسلامًا.

رابعًا: فتَح القرآن بابًا للأمل بإمكانيَّة أن يعود هؤلاء إلى رُشدِهم، لتعود العلاقة معهم على ما يحبُّ الله ورسوله، في إشارةٍ أنَّ ذاك الحكم الحازم كان هو المناسب لعداوتهم التي أظهَروها للمسلمين بالقول والعمل ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

خامسًا: ميَّز القرآنُ بين الكافرين أنفسهم، ولم يعمَّهم بحكمٍ واحدٍ مع اشتِراكهم في مسمَّى الكفر ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

سادسًا: بيَّنَ القرآنُ الأحكام الخاصة بالنساء المؤمنات اللائِي يَفِدْن إلى المسلمين من مُعسكر العدو المشرك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ﴾.

سابعًا: في المُقابل بيَّنَ حُكم الزوجة الكافرة المشركة التي تكون تحت الرجل المؤمن إذا أصرَّت على كُفرِها وشِرْكِها ﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾.

ثامنًا: بيَّنَ القرآن أركانَ بَيعة النساء للرسول ﷺ بعد دخولهنَّ في الإسلام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

تاسعًا: ختم القرآن هذه السورة بما استهلَّت به؛ فأكَّد نهيَ المؤمنين عن مُوالاة هؤلاء الكافرين، وألحَق بهم اليهود؛ لأنَّهم ناصَبوا المؤمنين العداء أيضًا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوْاْ

﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾.

دقائق التفسير

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ نزلت هذه الآيات في حاطِبِ بن أبي بَلْتَعَة.

وقد أخرج الشيخان في تفسير هذه السورة: عن عليٍّ ﷺ قال: بعثَني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال ﷺ: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةٌ مَعَهَا كِتَابٌ، فَخُذُوهُ مِنْهَا**».

قال: فانطَلقنا تَعادَى بنا خَيلُنا، حتى أَتَينَا الروضة، فإذا نحن بالظَّعِينَة، قُلنا لها: أَخرِجِي الكتابَ، قالت: ما مَعِي كِتابٌ، فقُلنا: لتُخرِجِنَّ الكِتابَ أو لنُلقِيَنَّ الثِّياب، قال: فأخَرَجَتْه من عِقاصِهَا.

فأتَينَا رسولَ الله ﷺ، فإذا فيه: مِن حاطِبِ بن أبي بَلْتَعَة إلى ناسٍ بمكَّة من المشركين، يُخبِرُهم ببعضِ أمرِ رسولِ الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**يَا حَاطِبُ! مَا هَذَا؟**». قال: يا رسول الله! لا تَعجَلْ عليَّ، إنِّي كُنتُ امرءًا مُلصَقًا في قريش - يقول: كُنتُ حَلِيفًا ولم أكُن من أنفسها -، وكان مَن معك من المُهاجِرين مَن لهم قَرَابات يَحمُون أهلِيهم وأموالَهم، فأحبَبتُ إذ فاتَنِي ذلك من النَّسَبِ فيهم أن أتَّخِذَ عندهم يدًا يَحمُون قَرابَتِي، ولم أفعَلهُ ارتِدادًا عن دِينِي، ولا رِضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُمْ**».

فقال عمر: يا رسول الله! دَعنِي أضرِبُ عُنقَ هذا المُنافِق، فقال: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى مَنْ شَهِدَ بَدْرًا فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»، فأنزَلَ الله السورةَ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

---

(١) متفقٌ عليه عن عليِّ بن أبي طالب ﷺ، ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٥٥٧/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م) واللفظُ له، وصحيح مسلم (٧/ ١٦٧، ١٦٨/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

ومن الواضح في القصة أنَّ ما فعله حاطِبٌ كان في ظرفٍ عسكريٍّ مُشدَّدٍ، ومع قريش التي كانت علاقتها بالمسلمين علاقة حربٍ، وهذا كلّه ينبغي أن يُؤخذ في الاعتبار، فلا يصحُّ تعميم ما نزل في هذه الحالة على أصل علاقة المسلمين بغيرهم.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ بيان أنّ هؤلاء المشركين ليسوا كبقية الكافرين، بل هم كفارٌ مُحاربون، جمعوا مع إعلان الكفر إعلان العداوة، وقد كانت عداوتهم مبكِّرة من الأيام الأولى للبعثة حتى أكرَهوا المسلمين على الخروج من مكّة، ثم استمروا بعداوتهم هذه حتى نزول هذه الآيات.

﴿أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ تعليلٌ لعداوتهم للمسلمين، بمعنى أنّهم لم يُعادُوكم ولم يُخرِجُوكم من دياركم إلّا لأنّكم آمَنتُم بالله ربِّكم.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى﴾ شرطٌ، وجوابُه مُقدَّرٌ ومعلومٌ من صدر الآية، أي: فلا تتخذوا عَدُوِّي وعَدُوَّكُم أولياء.

﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ إشارةٌ إلى نُصح حاطِب لهم لئلَّا يأخذهم المسلمون على غِرَّة، وهذا فعل الناصح المُودّ، وإن كان قد قصَدَ شيئًا آخر.

﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ أي: إن يظفَروا بكم.

﴿يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي: يُحاربوكم ويُقاتلوكم بأيديهم وألسنتهم، ولن تنفعكم مودَّتكم لهم.

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ فأهل الجنَّة لا يلتَقون بأهل النار ولو كان بينهم في الدنيا ما كان من الرَّحِم والقرابة.

﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: تبرَّأنا منكم ومن كُفرِكم وشِركِكم بالله، وبُرَءَاءُ: جمع بَرِيء.

﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ﴾ وصفٌ لطبيعة العلاقة التي كانت بين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ومَن معه من المؤمنين وبين قومهم المشركين.

﴿حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ إذ كان الخلاف في التوحيد ودفاع المشركين عن أصناهم هو منشأ العداوة بين الفريقَين.

﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ فهذا مُستثنى من عموم التأسِّي بهم، ومسألة استغفار المؤمن للمشرك مسألةٌ فقهيَّةٌ وليست من مسائل العقيدة، وخلاصةُ القول فيها: أنَّ استغفار المسلم لغيره إن كان بمعنى طلب الهداية له، فهذا أمرٌ مشروعٌ ولا غُبار عليه، وإن كان بمعنى طلب العفو عنه مع بقائه على الشرك، أو أنّه قد مات على الشرك فهذا محظورٌ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] وعلى هذا يُحملُ قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٣، ١١٤].

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: لا تُمكّنهم منَّا فيفتنونا في ديننا، ويحتمل أيضًا أنّه: لا تجعَلنا سببًا في فتنتهم، أي: في بُعْدِهم عن الهداية، واستمرارهم في الضلالة؛ إذ الخصومة من شأنها أن تُوغِر الصدور فلا تدَع الخصم يسمع من خصمه ولو كان كلامه في مصلحته.

وعلى المعنى الثاني يكون التنبيه إلى أنّ المسلم لا يجوز له مُجاوزة الحدِّ في الخصومة بغير الأدب الشرعي، فلا ينتقص من المُعادي ولا يكذب عليه، ولا يشتم أباه وأُمَّه؛ لأنّ هذه تُبعِده عن طريق العودة والتوبة.

﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ بمعنى أنّ هذه العداوة طارِئة بسبب موقف قريش منكم ومن دعوتكم، فإن تغيَّر موقفهم منكم ومن دينكم رجَعَت العلاقة إلى أصلها.

وفي الآية إشارتان:

الأولى: خبريَّةٌ تحملُ البشرى بإيمان قريش، وقد تحقَّقت هذه البشارة بفتح مكّة دون قتالٍ،

---

(١) تكرّر هذا النصّ الكريم مرتين: في سورة النساء، الآيتان ٤٨، ١١٦.

ودخول الناس أفواجًا في دين الله.

والثانية: تشريعيَّةٌ بإطفاء الثارات وما يحصل بين المُتعادِين والمتخاصمين من شحناء وبغضاء، وهذا يتطلَّب حلمًا عظيمًا من قِبل المسلمين الذين اضطهدتهم قريش، واغتصبت ديارهم وأموالهم.

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ هذا تأكيدٌ أنّ العداوة والبغضاء لها سببٌ مباشرٌ، وليس مُجرَّد الاختلاف في الدين؛ لأنَّ اختلاف الدين يُوجِب على المسلمين الدعوة وترغيب الآخرين في الإسلام، هذا هو الأصل في العلاقة، بل وهذا هو علَّةُ الرسالة كلّها ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، فالكفار الذين لم يُعلِنوا عداوتهم للمسلمين ولم يقترفوا بحقِّهم إثمًا ولا ظلمًا فواجب المسلمين تجاههم القِسط والعدل، ولهم أن يزيدوا على ذلك بأنواع البرِّ؛ كالصدقة على محتاجهم، ومعاونة ضعيفهم، وعيادة مريضهم، فكلّ ذلك من الأخلاق الحسنة التي ينبغي أن يحمِلَها المسلمون إلى غيرهم.

﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ هذا حصرٌ للجهة المُستثناة، وهي الجهة التي دخَلَت في حالة حرب مع المسلمين، فهذه لها أحكامها الخاصَّة والمناسبة لفقه الحرب، ولا شكّ أنّ مودّة هؤلاء ومبرَّتهم والتقرُّب إليهم حتى لو كان بذريعة الدعوة هو إضعافٌ للصف، وإرباكٌ له، وتهوينٌ من عزيمته؛ ولذلك توعَّد الله من يُوالِيهم بهذا الوعيد الشديد: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ﴾ هذه من المسائل الدقيقة التي أفرَزَتها حالة العداء بين المسلمين وقريش؛ إذ كانت المرأة المسلمة تفِرُّ بدينها من مكّة وتلجَأ إلى المسلمين، وكان من بنود الحديبية أنّ على المسلمين أن يرُدُّوا من لجَأ إليهم من مكّة، فأوضَحَت الآية أنّ المقصود بالبند هذا: الرجال دون النساء، ولأنّ صيغة البند للمُذكَّر، لكن يبقى على المسلمين التأكُّد من صدق هؤلاء

النساء، ومن هنا طلب القرآن امتحانهنَّ بما مِن شأنه أن يحصل العلم بِصدقِهنَّ، وحُسنِ توجُّهِهنَّ.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذا حكمٌ آخر ينهي العلاقة الزوجيَّة بين المؤمنات وأزواجهنَّ، ومُؤدَّاهُ تحريم الزواج بين المسلمين والمشركين بأي وجهٍ، كما سيأتي بيانه وإتمامه.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ﴾ أي: آتوا أزواجهنَّ ما أنفقُوه عليهنَّ من المَهْرِ، أو ما كان لهم في ذِمتِهنَّ، وهذا من العدل الذي يُؤسّس الإسلام للتعامُل به حتى مع الكافر المُحارب.

﴿وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ الكوافِر: جمع كافِرة، والمقصود: أنَّ المسلم المتزوج من مشركةٍ عليه أن يُخلِّي سبيلها ولا يتمسَّك بها، إلَّا إذا اختارت الإسلام.

﴿وَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ﴾ أي: اطلبوا منهنَّ أو من ذويهنَّ المهرَ الذي دفعتموه لهنَّ.

﴿وَلْيَسْـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ تأكيدٌ لمبدأ العدل؛ فللمُشرك أن يطلب من المسلمين مهرَ زوجته المؤمنة إذا ترَكَتْه وهاجَرَت مع المسلمين، وفي الربط بين حقّ المشرك في المطالبة بمهر امرأته المؤمنة وحقّ المؤمن بالمطالبة بمهر امرأته الكافرة أنّ هذا يجب أن يكون بالاتفاق بين الفريقَين، بمعنى أنّ المشركين لو أبَوا أن يُعطوا للمسلمين مهورَ نسائهم المشركات، فللمسلمين أن يحجِزوا من أموال المشركين، أي: من مهور نسائهم المؤمنات ما يكفي لسدِّ النقص، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُواْ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُواْ﴾.

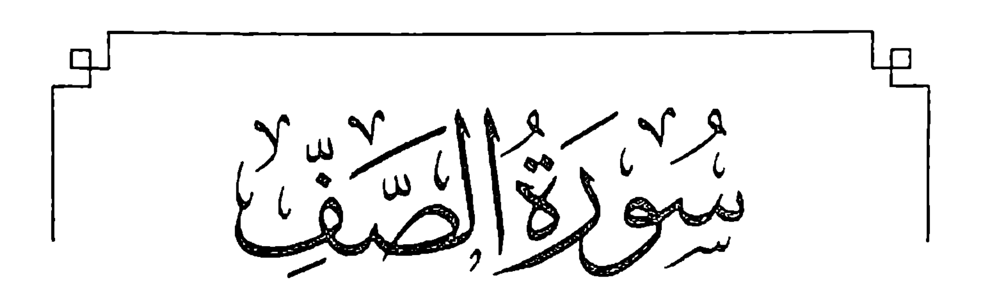
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فالمرأة المهاجرة عليها أن تلتزم بالطاعة والخضوع لنظام الدولة المسلمة، وهذا الخضوع يكون مُوثّقًا بالبيعة الصريحة للنبي ﷺ والمتضمنة نبذ الشرك، وتجنُّب السرقة، والزنا، وقتل الأولاد، وله صورتان: وأد البنات، وهي عادة جاهلية معروفة، وإجهاض الأجِنَّة للتخلُّص منها بأي طريقةٍ كانت، وتجنُّب البهتان، وهو عامٌّ في

كلّ باطلٍ، ومنه: القذف ونسبتها لزوجها ولدًا ليس منه؛ بأن تلتَقِطَه فتدَّعِيه لها كأنّها هي من ولَدَتْه، وأخيرًا التعهُّد بطاعة الرسول ﷺ في كلِّ ما يأمر به أو ينهى عنه، فالتِزامُ المرأة بهذه الشروط يؤكِّد صدقها وحُسن إسلامها، ومِن ثَمَّ يُبايعها الرسول ﷺ، فتدخل في جملة المؤمنين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ ختمت السورة بما استهلّت به من تحريم موالاة المؤمنين لكلِّ كافرٍ مُعادٍ لله ولرسوله وللمسلمين، وقد ألحقَت اليهود بالمشركين؛ لاشتراكهما في الكفر وفي عداوتهما للمؤمنين.

﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ هذه صِفةٌ أُخرى يشتَرِكُ فيها اليهودُ مع المُشركين، وهي أنّهم يائِسُون من نعيم الآخرة كما يئِسَ الكفَّار من موتاهم أن يعودُوا للحياة.

ومعنى أنّ اليهود يئِسوا من الآخرة، أي: هم محرُومون منها يقينًا، وليس معناه أنّهم يكفرون بها، فهم مع مخالفتهم للكفار في إنكار البعث، إلَّا أنَّهم مُشتركون معهم في العذاب؛ نتيجةً لظلمهم وعداوتهم لله ولرسوله، ومُعاونتهم للمشركين على شِركهم وظلمهم، والله أعلم.



المجلس الخامس والخمسون بعد المائتين: والله مُتم نوره ولو كره الكافرون

المجلس الخامس والخمسون بعد المائتين

سورة الصف

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ (٣) إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ (٤) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٧) يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ۖ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤)﴾

والله مُتم نوره ولو كره الكافرون

نورُ الله الذي أوحاه إلى الأنبياء السابقين، ثم أتمَّهُ بمحمدٍ عليه وعليهم الصلاة والسلام، قَبِلَه مَن قَبِلَه، ورفَضَه مَن رفَضَه، والصراعُ بين النور والظُّلمة مُحتدِمٌ ما بقِيَ الليل والنهار.

وقد جاءت هذه السورة لتضَع معالم من مسيرة النور، ووعَدَ الله بإتمامه، ومسؤوليَّة أهل الإيمان في نُصرته وتبليغه للناس كافَّة، وكما يأتي:

أولًا: استهلَّت السورة بتسبيح الله تعالى وتمجيده تعالى لنفسه بذِكر الصفتين الجليلتَين لله: العزّة والحكمة، وهما صفتان تكرَّرتا مقرونتَين كثيرًا في القرآن الكريم، وتكرَّرَتا في هذا الجزء تكرارًا بيِّنًا، وهو الجزء الذي يُعالِجُ في الغالب مسائِلَ الصراع بين الحقِّ والباطِلِ.

ثانيًا: حثَّت السورةُ المُؤمنين على الوفاء ببيعَتِهم لله ولرسوله، وإتْبَاعِ القولِ بالعمل

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ثالثًا: حثَّت السورةُ المؤمنين على أن يكونوا صفًّا واحدًا مُوحَّدًا مُتماسِكًا تماسُك البُنيَان المرصُوص في مُواجهة المُعتَدين ومكائِدهم ومُخطَّطاتهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾.

رابعًا: ذَكَّرَ القرآن بموقف موسى ﷺ من قومه الذين آذوه مع عِلمهم بنبوَّتِهِ وصِدْقِ رسالته ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ وفي الآية تحذيرٌ للمسلمين أن يؤذوا رسول الله ﷺ ولو عن غير قصدٍ؛ فمقامه ﷺ أَولَى بأن يحتاط فيه المسلم ولو بمستوى الصوت وطريقة المناداة أو المناجاة.

خامسًا: ذَكَّرت السورة أيضًا برسالة عيسى ﷺ والتي جاءت مُصدِّقةً بالرسالة التي قبلها، وهي التوراة، ومبشِّرةً ببعثة النبيِّ الخاتم سيدنا محمدٍ ﷺ ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

سادسًا: ندَّدَت السورة بأولئك الكاذبين المُكذِّبين المُعاندين لأنبياء الله، والباذِلين كلّ جهدهم لإطفاء نور الوحي، وطمس الرسالات السماويَّة ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

سابعًا: أكَّدَت السورة وعد الله الحقّ بالتمكين لهذا الدين، ونشر نور الله في الأرض ولو كره الكافرون ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾.

ثامنًا: عادَت السورة لتحثّ المؤمنين على الصبر والمُصابرة والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، مع وعْدهم بالحسنيَين: نصرٌ من الله وفتحٌ قريبٌ في الدنيا، ونعيمٌ خالدٌ وسعادةٌ أبديَّةٌ

في الآخرة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

تاسعًا: ذكَرَت السورة أصحابَ محمدٍ ﷺ بحواريِّي عيسى ﵇ في انتِصارهم للحقِّ والْتِفافهم حول نبيِّهم، حتى أيَّدَهم الله على عدوِّهم، وهذا تنبيهٌ تربويٌّ، وتعليمٌ بالنموذج والمثال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ أي: نزَّهَهُ عن كلِّ صِفةٍ لا تَلِيقُ به.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ نزَلَت في مَن كان يسأل عن الجهاد ويتشوَّق له فلَّما فُرِضَ تقاعَس، كما حصل في يوم أُحُدٍ، والثلاثة الذين خُلِّفوا وغيرهم؛ فالفارق بين ما يتمنَّاه المرء ويرغب به وبين تلبُّسِه به يجِده غالِبُ الناس في كثيرٍ مما يتمنَّونه؛ ذلك لأنّ التمني يستحضِر الصورة المرغوبة والمُجرَّدة عن كدرِها ومشقَّتِها، فإذا جدَّ الأمر قلَّت الرغبةُ لها.

والسياق يُشيرُ إلى أنّ هؤلاء النفر قد اختَلَف حماسُهم في الأقوال والأمنيات عن مستوى رغبتهم في الامتثال اختلافًا يقتضي التنبيه له، ومعالجته بهذه الطريقة الجادّة والحاسمة، خاصَّةً أنّه يتعلَّق بمصير هذه الدعوة ومُستقبلها.

هذا وقد شاعَ عن بعض الوُعَّاظ أنّ الآية تتحدَّث عن الآمِرين بالمعروف والناهِين عن المنكر إذا وقَعُوا في الزلَل، حتى قلَّلوا الرغبةَ عندهم في الإصلاح تحرُّزًا من الوقوع فيما تذمُّه الآية وتوبِّخ عليه، والأمرُ ليس كذلك؛ فالزلل مُتوقَّع من كلِّ أحدٍ، ولو كان الزلل ذريعةً

صحيحةً لترك الإصلاح والابتِعاد عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحسم هذا الباب من أساسه، والصحيحُ أنّ العاقل يستمر بأداء واجب الإصلاح وتغيير المنكر، ويُحاسب نفسه على الزلل، لا أن يستمرَّ على الزلل ويحاسب نفسه على الدعوة والإصلاح.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: عظُم عند الله بغضه وكراهيته لأَن يقول الإنسان ما لا يريد فعلَه، وحقيقةُ البغض مُنصبَّةٌ ليس على قول الحقّ، بل على ترك العمل به، فلو كان هؤلاء قد ترَكُوا الجهاد في سبيل الله وترَكُوا التحدُّث به لما نقص مقتُ الله لهم، بمعنى أنّ المقتَ إنّما هو مُنصبٌّ على ترك الجهاد في سبيل الله مع العلم بوجوبه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ بمعنى إن كنتم تسألون عن العمل الذي يُحبُّه الله فهذا هو، وتشبيهُ المؤمنين بهذه الصورة فيه أكثر من دلالة؛ منها: وِحْدَةُ الكلمة، ووِحْدَةُ الراية والقيادة، ووجود السمع والطاعة، ووجود التعاون والتكافل، ونحو هذا.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ هذه شكوى موسى ﷺ من المؤمنين به، وهم بنو إسرائيل؛ إذ كانوا يُؤذُونه ببعض العصيان والمخالفات، ومن ذلك قولهم: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

والتذكير بشكوى موسى هذه لا تخفى صلته بالسياق؛ فالذين تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ في بعض الغزوات، والأعراب الذين رفَضُوا الخروجَ معه يوم الحديبية، هؤلاء يلحقون الأذى به ﷺ، والتذكير بقصة موسى فيه تنبيهٌ لهم، وتسليةٌ له ﷺ.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: لما تكرَّر منهم العصيان حتى زاغُوا عن الحقِّ، أزاغَ الله قلوبهم عن الأوبة والتوبة، وأشغَلَهم في أنفسهم، وسلَبَهم الخيريَّة التي كانت لهم، والأمانة التي شرَّفهم الله بحملِها ثم أعطاها لغيرهم، وفي هذا تحذيرٌ شديدٌ لهذه الأُمَّة إن هي زاغَت عن هَدي نبيِّها، وتخلَّت عن أمانتها.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ تأكيدٌ لعدل الله في خلقه؛ فالله لا يضلُّ أحدًا إلَّا وهو

مُستحقٌ للضلال، طالبٌ له، حريصٌ عليه.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم﴾ لم يقُل لهم كما قال موسى: يا قومي؛ لأنه لم يكن له أب منهم كما لموسى ﷺ، وفيه أنَّ رسالة عيسى رسالة خاصَّة لقومٍ مخصوصين، وهم بنو إسرائيل، وهذا ما تَشْهَدُ به الأناجيل الموجودة اليوم رغم ما اعتراها من تحريفٍ، وإنّما تحوَّلَت إلى العالميَّة على يد بُولس، وفي رسائل بولس تصريحٌ بهذا التحوُّل، وليس هنا محل التفصيل.

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ وهذه البِشارة موجودة بمعناها في الأناجيل الموجودة بين أيدينا، ومؤكَّدة في أكثر من موضعٍ، وقد ترجم موضع الاسم المُبشَّر به إلى كلمة (المُعزِّي)، أمّا أصلُها عندهم في اللغة القديمة - والتي لا زالت موجودة أيضًا - فهو (الفارقليط).

ومهما اختلف القساوسة في تفسير أصلها أو في ترجمتها؛ فإنَّ هناك معنًى لا ينبغي الخلاف فيه، وهو وجود البِشارة بمَن يأتي بعد عيسى ويبلِّغ الناس الحقّ كلَّه الذي يسمعه من الله، ولا يأتي به من نفسه، وهذا ما تنصُّ عليه بعض الأناجيل.

وفي رؤيا يوحنَّا اللاهوتي المطبوعة في نهاية الإنجيل: أنّ المُبشَّر به صادِقٌ، وأمينٌ، وتُحارِبُ معه ملائكةُ السماء.

والسؤال هنا: مَن هذا الذي تتحدَّث عنه الأناجيل؟ ومتى سيأتي؟ ولماذا لا يُبشِّرُ به القساوِسةُ اليوم؟

أما السِّرُّ في أنه ذَكَرَ اسمَه (أحمد) وليس (محمدًا)، فهذا دليلٌ على صِدقِه ﷺ فيما يُبلِّغُه عن ربِّه؛ لأنّه ﷺ يعرِفُ أنَّ اسمَه العَلَم الذي يُنادِيه الناسُ به هو (محمد) وليس (أحمد).

وإنّما سبب الإشكال عند من يراه إشكالًا هو فَهمُ أنَّ اسم (أحمد) هو اسمُ عَلَمٍ، والحقيقةُ أنّه وصفٌ للمُسمَّى، ودلالةُ الاسم على المُسمَّى شائِعٌ في العربية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾[1] أي: واذكر ربَّك، فتكون بِشارة عيسى ﷺ ببعثة نبيٍّ بعده هو الأكثر حمدًا من

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم مرتين في القرآن الكريم: في سورة المزمل/ ٨، وفي سورة الإنسان/ ٢٥.

غيره، بمعنى الفاعليَّة أي: أكثر الناس حَمدًا لله، أو المفعوليَّة بمعنى أنّه الذي يحمَدُه الناس أكثَرَ مِن غيره، وكلاهما مُتحقِّقٌ في رسولِ الله ﷺ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ الأوفَق أن يعود الضمير المُقدَّر في ﴿جَآءَهُم﴾ إلى الرسول الذي تقدَّمت بِشارة سيدنا عيسى به، وهو محمدٌ ﷺ، ومبعث التعجُّب: أنّه رغم وضوح البشارة وعلامات النبوَّة اتّهموه بالسحر، والضمير في قالوا ليس شرطًا عَوده على بني إسرائيل، أي: الذين بشَّرَهم عيسى ﷺ بأعيانهم، وهذا مثل قول العرب: (عندي درهم ونصفه) أي: ونصف مثله.

﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ﴾ أي: لا أحد أظلَم منه.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تأكيدٌ لعدل الله في الخلق؛ فالله لا يُضلُّ إلَّا مَن يستحقُّ الضلالة ويسعَى لها.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ أي: يُريدون أن يطمسوا نور الوحي بأقاويلهم وشُبهاتهم.

﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ بإتمام النعمة وإكمال الرسالة حتى تبلغ ما بلغ الليل والنهار.

﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ أي: أرسل محمدًا ﷺ بالدِّين الذي هو دينُ الهُدى فليس فيه ضلالةٌ، ودينُ الحقِّ فليس فيه باطلٌ.

﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي: ليُعليَ شأنَه، ويُقيمَ حُجَّتَه على كلِّ ما يتديَّن به الناس.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ عاد القرآن إلى المؤمنين يستحثُّهم على الاستعداد للدفاع عن هذا الدين والجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

﴿تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ تفسيرٌ للتجارة الرابحة التي دعاهم إليها.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ﴾ تفسيرٌ للربح المرجوّ من تلك التجارة، ثم أكَّد هذا المعنى في ختام الآية: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾.

﴿وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ هذا رِبحٌ مُضافٌ على أصل الرِّبح، وهو الرِّبحُ الذي

يُحرِزُه المؤمنون في الدنيا، ولا شكَّ أنّ هذا الرِّبح مهما كان عزيزًا ومرغُوبًا، فحقُّهُ التأخيرُ قِياسًا برِبحِ الآخرة.

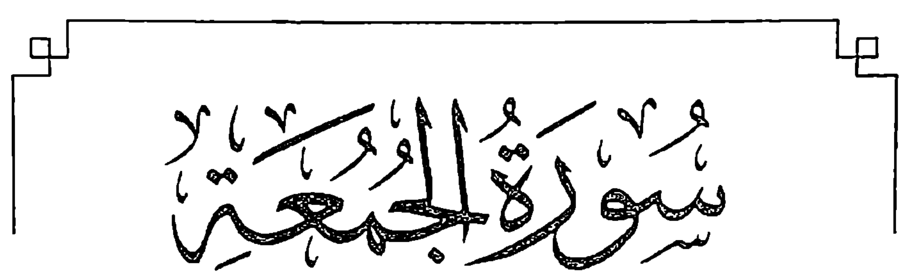
﴿كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ ترغيبٌ آخر بالجهاد نُصرةً لدين الله، أمّا الله ﷻ فلا يحتاج من أحدٍ نُصرة، ونصر الدين هو جزءٌ من مُتطلَّبات عقيدة الاختبار.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ والحواريون هم: الخُلَّص من أصحاب عيسى ﷺ، وقد اختارَهم الله هنا نموذجًا للتأسِّي، كما اختارَ إبراهيمَ وقومَه في السورة السابقة؛ تأكيدًا لوحدة الرسالات السماويَّة، وأنّها من مِشكاةٍ واحدةٍ.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ أي: استجابوا له، وهنا تعريضٌ بمن تخلَّف عن رسول الله ﷺ وتقاعس عن الجهاد.

﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ﴾ أي: آمَنَت برسالة عيسى ﷺ طائفةٌ من بني إسرائيل، وكفَرَت به أخرى.

﴿فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ أي: رفع الله شأنَ المُصدِّقين برسالة عيسى ﷺ، وخفَضَ شأن اليهود الذين كذَّبوه، وهذا مُلاحظٌ وملموسٌ؛ حيث كان النصارى هم بناة الدول والحضارات، وبقِيَ اليهود يعيشون في الظلِّ، ويعملون في الخفاء، ويُهجَّرُون من مكانٍ لآخر، ولا يستقلُّ أمرُهم ويستقرُّ إلَّا بالاعتِماد على غيرهم.



المجلس السادس والخمسون بعد المائتين: هو الذي بعث في الأميين رسولًا منهم

سُورَةُ الجُمُعَة

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾﴾

هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم

تتناول سورة الجمعة بعثة النبيِّ ﷺ في هذه الأُمَّة الأُميَّة التي اختارها الله بعد انحراف بني إسرائيل عن حمل الرسالة الموسويَّة، ونقضهم لميثاق ربِّهم، وقد بيَّنت السورة ما تحتاجه هذه الأُمَّة مع تنبيهٍ تربويٍّ عمليٍّ من واقع تجربتهم البشريَّة الجديدة، وكما يأتي:

أولًا: استهلَّت السورة بتسبيح الله تعالى وتمجيده لنفسه أنّه هو الملك القدوس العزيز الحكيم ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾.

ثانيًا: يمتَنُّ الله تعالى على هذه الأُمّة الأُميّة أن بعث فيهم نبيًّا منهم يتلُو عليهم آيات الله، ويُزكِّي أنفسهم، ويُعلِّمهم القرآن والحكمة بعد أن كانوا في ضلالٍ وجهلٍ لا يقرؤُون ولا يكتبُون ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

ثالثًا: أكَّدت السورة أنّه ﷺ وإن بُعث في الأُميين، إلّا أنّ بعثته لكلِّ الناس الآخرين من شتّى الأمم والأقوام ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

رابعًا: ندَّدَت السورة ببني إسرائيل الذين شرَّفَهم الله بحمل رسالته إلى الأرض، لكنّهم نُكسوا على رؤوسهم، وتخلّوا عن هذا الشرف العظيم ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

خامسًا: حاجَجَت هذه السورة اليهود الذين يدَّعون أنّ الميثاق لا زال معهم، وأنّهم أولياء الله وأحباؤه، بأن يتمنَّوا لقاء الله، وهذه مُحاججةٌ تدخل في عُمق نفوسهم، وتستنطق حقيقة ما يعتقدونه في وجدانهم وضمائرهم؛ فأولياء الله لا ينبغي لهم أن يفِرُّوا من لقاء الله لو كانوا مُوقِنين بذلك، فإذا عُلِم أنّ اليهود من أكثر الناس حِرصًا على الحياة والتشبُّث بها، بانَ أنّهم كاذبون فيما يدَّعون ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

سادسًا: بيَّنَت السورة للمؤمنين حُكمًا من أحكام شريعتهم يتعلَّق بأهم شعيرة جامِعة من شعائِر عباداتهم، والتي فيها إعلان هويَّتهم، وترسيخ عقيدتهم، وتوثيق صِلَتهم بربِّهم ومع أنفسهم وإخوانهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

سابعًا: وقَفَت السورة وقفة تربويَّة مع هؤلاء الأُميِّين تُعلِّمهم درسًا من دروس حياتهم العمليَّة، وهذه ميزة التربية القرآنيَّة أنّها تربية تعيش مع الناس في واقعهم وتجاربهم، وليست

تربية فلسفيَّة، أو نظريَّة مُجرَّدة ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ يُنزِّهُه تعالى عن كلِّ صفةٍ لا تَلِيقُ به.

﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أربع صفاتٍ لله تعالى مُترابطة ومُتكاملة:

فالله (الملِكُ) بمعنى أنّه سبحانه له السلطان المُطلَق على هذا الوجود، وكُلُّ ملكٍ أو سلطانٍ آخر إنّما هو على سبيل التخويل والاستخلاف والاختبار.

وهو سبحانه (القدُّوس) المُنزَّه تنزيهًا تامًا عن كلِّ صفةٍ لا تليق به، واقتران هذا الاسم الشريف بالاسم الذي قبله؛ إشارةً إلى تنزُّه الله عن الصفات التي تشِين ملوك الأرض في العادة؛ من الظلم وقلَّة الاكتِراث بأحوال العباد وحاجاتهم ومصائرهم.

وهو سبحانه (العزيز) الذي له العِزَّة فلا يغلِبه أحدٌ، ولا يُحُول بينه وبين ما يُريد أحدٌ.

وهو سبحانه (الحكيم) أي: العليم بخلقه وما يصلُح لهم، وقد ظهَرت آثارُ حكمته في هذا النظام الذي أقامَ عليه الكون، وفي هذه الشريعة القادرة على تنظيم حياة الناس بدقَّةٍ وتوازُنٍ، فلا تُغفِل جانبًا، ولا يطغَى فيها جانبٌ على جانبٍ.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ أي: في العرب، وسمَّاهم الأُميين؛ لأنَّهم ما كانوا يُحسِنون الكتابة ولا القراءة من كتابٍ، بخلاف غيرهم من الأُمم المجاورة، والعبرة في هذا بالعموم الغالب؛ فقد تجد عربيًّا متعلّمًا، وقد تجد غيره أُميًّا.

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّه تعالى لم يقُل: بعث إلى الأُميين، بل قال: ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾؛ لأنّه ﷺ مبعوثٌ إلى الناس أجمعين، وإن كان مبعثه في الأُميين.

﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ أي: من أنفسهم، بمعنى أنّه ﷺ عربيٌّ معروفٌ حسبه ونسبه فيهم.

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يقرؤها عليهم، ويبلِّغُها لهم كما أُنزلت عليه.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من التزكية؛ وهي كلمةٌ جامعةٌ لكلِّ معاني التهذيب والتربية، بصَقل النفوس وتطهيرها، وتنقية الآحاد والمجتمعات عن كلِّ صفةٍ ذميمةٍ، أو خُلقٍ مشينٍ، باستنهاض معاني الخير في الإنسان، ومحاصرة دوافع الشرِّ فيه.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ يُعلِّمُهُم القرآن وبيانه وكيفيَّة العمل به وتنزيله في حياتهم، وكلِّ ما يحتاجونه في شؤونهم العامَّة والخاصَّة.

﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كانوا في جاهليَّةٍ ووثنيَّةٍ وضلالٍ عن طريق الحقِّ.

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ بمعنى أنَّ بعثته ﷺ لم تكن للعرب خاصَّة، بل هي للناس أجمعين.

وفي الآية بِشارة بدخول أُممٍ آخرين في هذا الدين؛ لأنَّ ﴿لَمَّا﴾ النافية مُشعِرةٌ بقرب تحقُّقِ ما نفَتْه، وأمّا كلمة: ﴿مِنْهُمْ﴾ فمعناها أنّ الذين يلحقون بالعرب هم أيضًا ممن كانوا في ضلالٍ مبينٍ، ومِمَّن بعث ﷺ ليتلُو عليهم آيات الله ويُزكِّيهم ويُعلِّمهم، وهذا هو واقعُ الدعوة المحمديَّة، وما تُؤكِّده مُحكَماتُ القرآن مِن مثل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ مهَّدَ بهذه الجملة لما يأتي بشأن بني إسرائيل الذين شرَّفهم الله بحمل الرسالة ثم تخلَّوا عنها، فاستبدل الله بهم غيرهم.

﴿حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ أي: شرَّفهم الله بحمل التوراة والعمل بها، لكنَّهم لم يحمِلُوها، وهذا الحكمُ ليس عامًّا في كلِّ الذين حمَّلَهم الله هذه الأمانة؛ فقد حمَلَها موسى وهارون ومن معهما من صالح قومهما، وحمَلَها من بعدهما أنبياء كُثُر، وصالحون آخرون لا يُحصَون عددًا، فمنهم الذين قاتَلوا مع طالوت ففتَحَ الله عليهم، ومنهم الذين أقاموا مع داود وسليمان مُلكَهم العظيم، فالظاهر أنّ المقصود بهذا الحكم هم اليهود الذين عاصَرُوا البعثة المُحمَّديَّة، وتنكَّروا لميثاق ربِّهم حسدًا من عند أنفسهم.

﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ هذا تشبيهٌ لحال اليهود عند مبعَث النبيِّ ﷺ؛ إذ كانوا

يُفاخِرُون غيرَهم بما معهم من التوراة، لكنّهم لا يَهتَدُون بهَديِها، ولا يَعمَلُون بها، فكان مَثَلُهم كالحِمار الذي يَحمِلُ الكتب على ظهره، ولكنّه لا يَعِيها ولا يفهمها ولا يدري ما فيها.

وهذا مثالٌ بليغٌ ينبغي أن يقِف معه كلّ مُدَّعٍ للعلم لكتبٍ ورِثَها من أبيه، أو شهادةٍ حمَلَها عن مدرسته وجامعته؛ فالعبرة ليست بكثرة الكتب، ولا بكثرة الشهادات، وإنّما العبرة بالقدرة على الانتفاع بها، وتقديم الخير للناس منها.

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بمعنى أنَّ هذا المثل الذي يحمل دلالةً بائسةً وسيِّئةً هو المثل الأنسَب الذي يُشخِّص سوءَ حال هؤلاء القوم الذين كذَّبوا برسالة محمدٍ ﷺ ولم ينتفعوا بما عندهم من التوراة التي تبشِّر به، وفيها وصفُه وعلامة ظهوره.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى أنّ هؤلاء اليهود إنّما كذَّبوا برسالة محمدٍ ﷺ بظلمهم وحسدهم وسوء طويَّتهم، وليس عن نظرٍ أو اجتهادٍ خاطئٍ.

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ أي: يا أيُّها اليهود، وأصل كلمة (هادَ) أي: عادَ ورجعَ، وهي كلمة مدح؛ لأنّها مُستعملة في الأصل بمعنى: الرجوع إلى الحقِّ، ومُخاطبتهم بهذا الاسم؛ لصِلَته بادِّعائهم أنّهم أولياء الله، وهو موضوعُ المُحاجَجة.

﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ إشارةٌ إلى ما يزعُمُونه في أنفسهم أنّهم شعبُ الله المختار، وأنّهم أبناء الله وأحباؤه، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

﴿فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: تمنَّوا لقاء الله إذا كنتم صادقين في دعواكم تلك.

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من تحريفٍ لكتاب الله، وصدٍّ عن سبيل الله، وتكذيبٍ لرسول الله، فبأي وَجهٍ يَلقَون الله؟

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ﴾ فهذا قَدَرُ الناس جميعًا، وليس أمامكم مهرب عنه أو ملجأ.

﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في هذا وعيدٌ لهم وتهديدٌ، فالله لا تخفى عليه منهم خافية، وسيُجازِيهم على كلِّ ما اقترفوا.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هذا أمرٌ للذين آمنوا أن يسعَوا إلى صلاة الجمعة إذا نُودِي لها.

والنداء هنا: الأذان، وصِلةُ هذه الصلاة بموضوع السورة: أنّ في صلاة الجمعة تلاوة للآيات، وتزكية للنفوس، وتعليمًا للقرآن والحكمة، بمعنى أنّ صلاةَ الجمعة وسيلةٌ أسبوعيةٌ متكررةٌ لتحقيق مقاصد البعثة المحمّديَّة، كما أنّ اجتماع المسلمين في مساجدهم كلّ أسبوعٍ يعزِّز فيهم وحدتهم وانتماءَهم لهويَّتهم الجامعة؛ وهذه شرط قيامهم بحمل أمانتهم التي شرَّفَهم الله بها بعد أن نَزَعَها عن بني إسرائيل.

﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ مؤقَّتًا بقَدر ما تؤدُّون فيه هذه الفريضة، ويُقاسُ على البيع كلّ عملٍ يشغل عن صلاة الجمعة ولو كان بذاته مشروعًا أو قُربةً من القُرُبات، فمَن اشتغل مثلًا بتعليم أولاده القرآن وقت صلاة الجمعة فهو آثِم، وكذا مَن اشتغل بالتهليل والاستغفار، أو بتقديم صدقةٍ، أو عيادة مريضٍ، أو صلة رحمٍ، فالوقت هذا لا يتَّسِع لغير صلاة الجمعة، إلّا من عذرٍ بيّنٍ.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: ارجِعوا إلى أعمالكم واطلُبوا من الله الرزق، وهكذا يجمَعُ القرآن بين العمل للدنيا والعمل للآخرة، ولكن لكلٍّ منهما وقته المُناسِب له.

﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ هذا الذِّكرُ المطلقُ الذي يُستحبُّ للمؤمن ألّا يغفل عنه حتى وهو يبيع ويشتري؛ لأنّ هذا الذِّكر يُصفِّي القلوب، ويبعد البائع والمشتري عن الغش والبُهت، والظلم صغُر أو كبُر.

﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَـٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ هذا تعقيبُ القرآن على حادثةٍ معيَّنةٍ؛ فقد جاء في «الصحيحين»: أنَّ النبي ﷺ كان يخطُبُ قائمًا يوم الجمعة، فجاءت عِيرٌ من الشام، فانْفَتَل الناس إليها حتى لم يبقَ إلّا اثنا عشر رجلًا، فأُنزِلَت هذه الآية التي في الجمعة

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾[1].

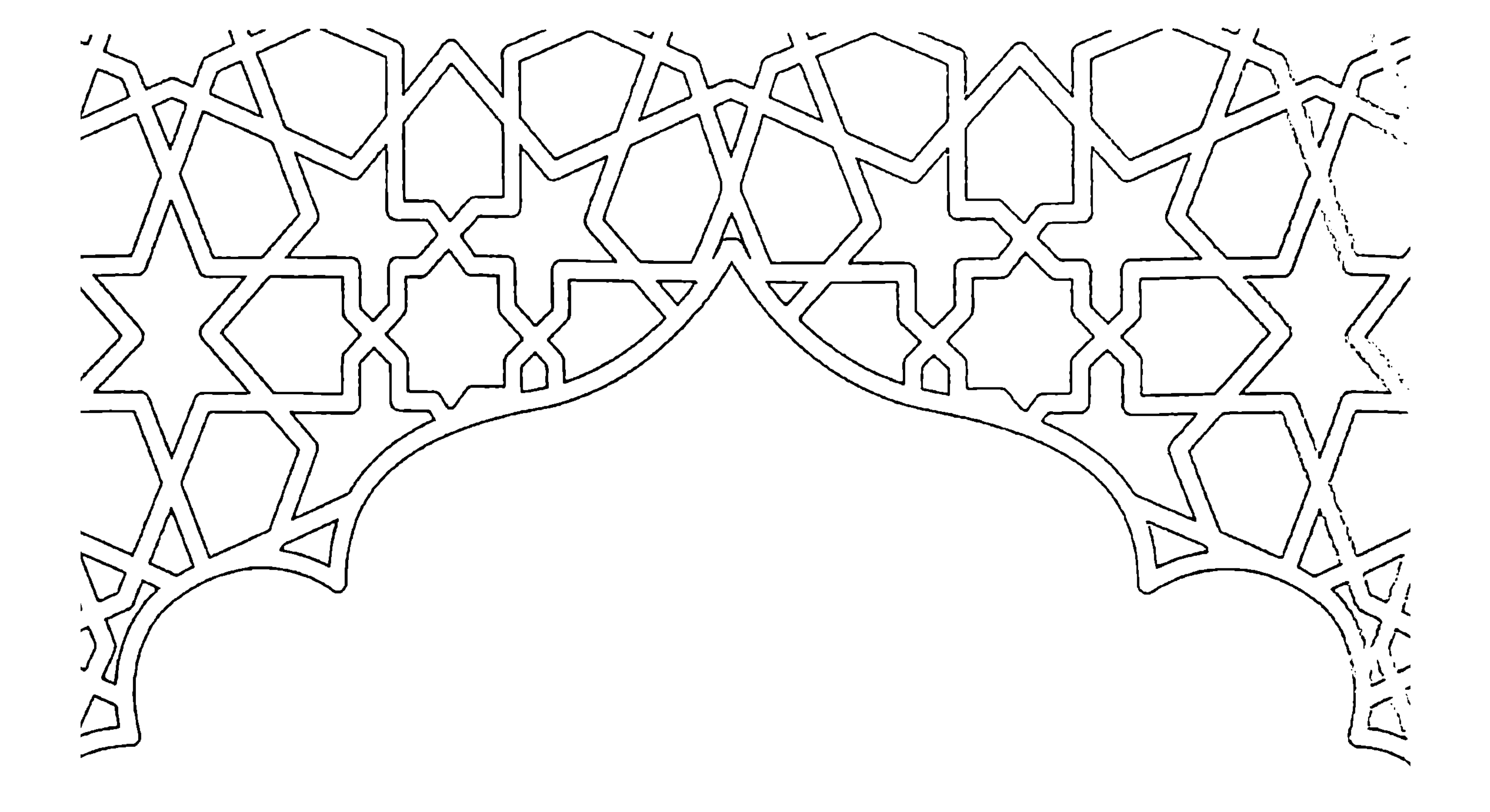
وهذه طريقة القرآن في التربية؛ فالناس لازالوا يتعلَّمون منه ﷺ، وقد كانوا في جاهليَّة عمياء لا يعرفون شيئًا، وهذا الدرس العملي هو جزءٌ من أساليب هذه الدعوة المباركة في تحقيق مقاصد البعثة النبويَّة في التعليم والتزكية، وفيه إشارةٌ إلى حلمه ﷺ، وهذا تعليمٌ للمُعلِّم أيضًا أن يكون واسِع الصدر لتلاميذه، يترفَّق بهم، ويتدرَّج معهم.

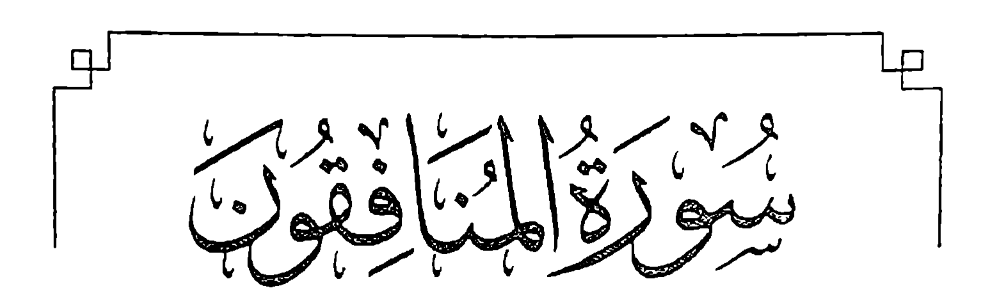
﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ أي: ما أعدَّه لكم في صلاة الجمعة من تعليمٍ، وتزكيةٍ، وثوابٍ عظيم خيرٌ مما انصَرفتم إليه.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ختَمَ بهذه الحقيقة؛ تحرُّزًا مِن توهُّم أنّه لمَّا فضَّلَ الصلاةَ على التجارة في هذا الوقت أنَّه يُريد منهم تَركَ العمل للدنيا، وتَركَ السعي في طلب الرزق؛ فالإسلامُ دينٌ ودنيا، لا يرضَى بدينٍ من غير دنيا، ولا دنيا من غير دينٍ.

---

(١) متفق عليه عن جابر بن عبد الله ﷺ، واللفظ لُمسلم، ينظر: صحيح البخاري (١/ ٣١٦/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧– ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (٣/ ٩/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).





المجلس السابع والخمسون بعد المائتين: إن المنافقين لكاذبون

سُورَةُ المُنَافِقُون

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ (١) اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٣) ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٤) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٥) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٦) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (٧) يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١١)﴾

إن المنافقين لكاذبون

حركةُ النِّفاق مِن أخطر التحدِّيات التي واجهَتْها الدعوة الإسلامية في المدينة، وقد مرَّ معنا في كثير من آيات القرآن المدني تفصيلٌ لأخبارهم وصفاتهم ومواقفهم، وسبل التعامل معهم، والتوقِّي من دسائسهم ومكائدهم.

وهذه السورة تأتي بهذا السياق لتشخيص حالهم، ووضعهم في ميزان الله الذي لا يظلم أحدًا:

أولًا: بدأت السورة ببيان أسلوب من أساليب النفاق الملتوية والمُضلِّلة؛ حيث يمارسون الكذب بأوسع نطاقه وفي أخطر مجالاته؛ إذ يُظهِرون إيمانهم، ويُبطِنون كفرهم، ويشهدون أنّ محمدًا رسول الله، وهم يكيدون به ويتآمرون عليه ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ

ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

ثانيًا: أكَّدت السورة بما لا يقبلُ مجالًا للشكِّ أو التردُّد أنّ المنافقين كافرون تمام الكفر، وقد طُبِعَت قلوبهم على ذلك ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

ثالثًا: بيَّنَت السورة أنّ المنافقين مُعتَنون بمظهرهم الخارجي، مُهتمُّون بمنطقهم وأسلوب حديثهم، وبهذا يكونون أقدَرَ على الخداع والتأثير، مع أنّها مظاهر فارغة تفتَقِر إلى الرجولة والشجاعة وقوَّة الشخصيَّة، وكلمات جامدة تفتَقِر إلى الصدق والنُّبْل والنيَّة الشريفة ﴿۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ﴾

رابعًا: أكَّدت السورة أنّهم أعداء، لا فرقَ بينهم وبين الأعداء المكشوفين إلَّا من حيث الأسلوب وطريقة المراوغة والمخادعة، ولأنّهم يعلمون أنّهم أعداء للمسلمين فهم في ترقُّبٍ دائمٍ وتخوّفٍ مِن أيِّ حركةٍ ليست معلومة لديهم ﴿يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾.

خامسًا: أكَّدت السورة كِبرهم واستعلاءهم الباطل، واستنكافهم من الاستغفار؛ ولذلك عاقبهم الله بألا يقبل استغفار مُستغفر لهم، ولو كان رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾.

سادسًا: بيَّنَت السورة بعضًا من مواقفهم التي تُظهر ما أضمروا من كراهيتهم لهذا الدين، ورغبتهم في انفضاض الناس عنه ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ﴾.

سابعًا: وكان من أخطر تلك المواقف: موقف زعيمهم ابن أُبيٍّ بن سَلول الذي شتَمَ فيه رسولَ الله ﷺ وفِداه آباؤنا وأمهاتنا، وهدَّد بإخراجِهِ من المدينة! ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى

ﭐلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

ثامنًا: تختتم السورة بتوجيهات ربَّانيَّة للمؤمنين، تُحذِّرُهم بها من الانشغال بمتاع الحياة الدنيا عن ذكر الله والتمسُّك بشريعته، وتحثُّهم على الإنفاق والصدقة من قبل أن يحين الأجل فتُطوى الصحف، ويُقطع العمل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾.

والإشارة في هذه التوجيهات إلى أنّ إيثار الحياة الدنيا ومتاعها وبهرجها على ما عند الله هو السبب في ضلال الضالِّين، ونفاق المنافقين، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ المنافقون: جمع منافق، وهو الذي يُبطِنُ الكفر وعداوة المسلمين ويُظهِرُ خلاف ذلك، وهم فئة تشكَّلت بعد أن قوِيَت شوكة المسلمين في المدينة بعد الهجرة.

﴿قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ هذا ممَّا كانوا يُظهرونه، والحقيقة عندهم بخلافه؛ ولذلك عقَّب الله عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ فشهادتهم منقُوضة بشهادة الله عليهم، ولدفع التوهُّم في تكذيب الله لشهادتهم، قدَّم القرآن تأكيده بصدق الرسول ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾.

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ﴾ أيمانٌ: جمع يمين، وهو هنا: الحَلِف، والجُنّة: التُّرس وما يتخذ للوقاية، والمقصود أنّهم اتخذوا كذبهم بادّعائهم الإسلام وتكرار حلفهم على ذلك؛ ليدفعوا عن أنفسهم العقاب والحكم عليهم بالردّة أو الكفر المُطلَق، وما ينبَني على هذا الحكم.

﴿فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: صدُّوا أنفسَهم عن الدخول الصحيح في الإسلام، وعملوا على صدِّ الناس أيضًا بتهوين شأن الإسلام، وإثارة الشبهات، ونحو هذا.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ﴾ أي: آمنوا بألسنتهم، ثم استمرُّوا على الكفر، ولا يبعُد أن يكون بعض المنافقين قد آمَنَ في بداية الأمر ثُمَّ لامه قومه وأصدقاؤه من المنافقين فأضلُّوه؛ إذ المنافقون ليسوا على سجيَّةٍ واحدةٍ، بل هم أشكالٌ وأشتاتٌ من حيث بواعث نفاقهم، وشدّة عداوتهم، وغير ذلك.

﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ خُتِمَ عليها بالكفر، فهم لا يؤمنون ولا يُرجى إيمانهم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من أثرِ التنعُّم وحُسنِ الهيئة والمظهر.

﴿وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ أي: إنَّ قولهم من شأنه أن يُسمَع لفصاحته، وحُسن نظمه، وقوّة إقناعه.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ الخُشُبُ: جمع خشبة، ومُسنَّدة أي: لا تقف بنفسها، بل تسند إلى حائط ونحوه، فهم كالتماثيل الأنيقة التي لا روح فيها، ولا وعي عندها، ولا يُرجى منها خير.

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ بمعنى أنَّهم قَلِقون خائفون مُتوجِّسون من أيَّةِ حركةٍ يقوم بها المسلمون، خشية أن يكونوا قد افتضح أمرهم، وانكشفت سريرتهم.

﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ صنَّفهم القرآن على أنَّهم أعداء، ثُمَّ لم يأمر بأكثر من الحذر منهم، فلم يأمر بقتالهم مثلًا كما يأمر بمقاتلة الأعداء الآخرين، ولم يأمر بإخراجهم كما أخرج بني النضير؛ وفي هذا حكمةٌ بالغةٌ في التعامل مع الأحزاب والجماعات التي تُظهر الإسلام لكنّها تُخفي خلافه، وقد تظهر دلائل ذلك من بعض التصرُّفات ولحن المقولات، فلا تصح مُقاتلتهم ولا إخراجهم إلا بتمرُّدِهم المُسلَّح على سلطان الدولة، وهذا ما لم يفعَله المنافقون، فأمِنُوا على أنفسهم وأموالهم في دولة الإسلام.

﴿قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ هذا القول ليس حكمًا بقتالهم، بل هو قولٌ مسُوق مساقَ الدعاء عليهم، وغايته الإنكار والتشنيع عليهم وعلى أفعالهم.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يُصرَفون عن الحقِّ، والعبارة تفيد التعجُّب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ هذا قول الناصحين لهم ممَّن يظنُّ أنّ زلَّاتهم هذه لا تُخفِي وراءها نفاقًا، فينصَحُونهم بالاعتِذار عند رسولِ الله ﷺ.

﴿لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أدارُوا رؤوسهم، وأعرَضوا بها استكبارًا واستنكافًا.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ لأنّ قلوبهم مطبوعة على الكفر والنفاق، فلا ينفَعهم نصحٌ، ولا ينفعهم استغفارٌ، وفيه إشارةٌ إلى حرصه ﷺ على هدايتهم وتوبتهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ بمعنى أنَّ الله لا يُكرِه أحدًا على الإيمان، وهذا من تمام العدل في تحقُّق معنى الاختبار؛ فمن يطلُب الهداية يهتدي، ومن يطلُب الضلالة يضلُّ، وكلٌّ مجزِيٌّ بعمله.

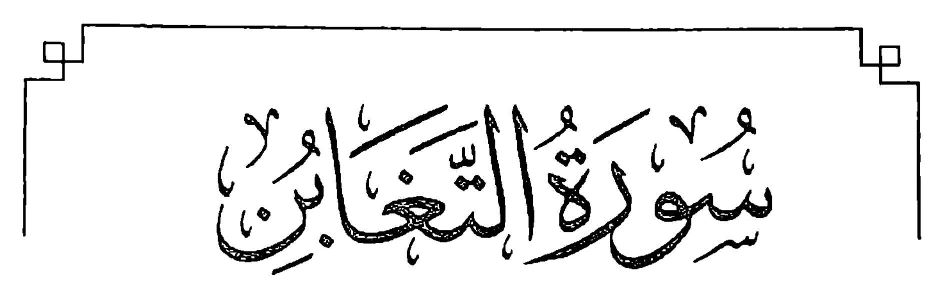
﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾ أي: كانوا يتواصَون بينهم بالكفِّ عن الإنفاق على من حَول رسول الله ﷺ من الفقراء والمساكين حتى لو كانوا من أقربائهم أو ذوي رحِمِهم بُغيةَ أن ينفضُّوا عنه ويترُكُوه.

﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ هذه مَقُولةٌ لزعيم المنافقين ينالُ بها من رسول الله ﷺ ويتوعَّده، ومع معرفته ﷺ بهذه المَقُولة وبقائلها وتمكُّنه منه تمام التمكُّن، إلَّا أنّه عفا عنه وصفح، وهذا من حِلمِهِ ﷺ، وتعليمه للمسلمين كيفيَّة التعامل مع مثل هذا الصِّنف من الناس، والسياق يُظهِر أنَّ هذه المقُولة الوقِحَة كانت في إحدى الغزوات؛ حيث كان رسول الله ﷺ خارج المدينة ومعه أصحابه وعامَّة المسلمين، وكان معهم ابن أُبيٍّ بن سَلول هذا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هذه وصيَّةٌ

للمؤمنين ألا ينشغِلوا بمتاع الدنيا عن ذِكر الله، والذِّكرُ الذي لا يجوز الانشغال عنه بالمُباحات إنّما هو الذِّكرُ الواجب؛ كالصلوات الخمس، وحضور الجمعة، ومناسك الحج، وتعلُّم فرائض الدين، والتعريض هنا بالمنافقين الذين صدَّتهم الدنيا عن الإيمان وعن ذِكرِ الله الذي هو القرآن.

﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ﴾ هذا نَدَمُ المُقصِّر مع نفسه، والذي يترُك وراءَه مالًا وكان قادرًا على أن يتصدَّق به في حياته، فلما حِيلَ بينه وبينه، ورأى الموتَ أمامَه تمنَّى أن لو يرجِع قليلًا ليتصدَّق من ماله هذا الذي ادَّخَرَه، لكن سنَّةُ الله بخلافِ ذلك، فيأتِيه الردُّ: ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.



المجلس الثامن والخمسون بعد المائتين: يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن

سُورَةُ التَّغَابُنِ

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤) أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٦) زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٠) مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٢) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٦) إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ (١٧) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨)﴾

يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن

سورة التغابن وإن عدَّها الجمهور سورة مدنيَّة، إلَّا أنَّ موضوعها الأساس أشبَه بالموضوعات التي تتناولها السور المكيَّة، ليس الموضوع فقط، بل حتى الأسلوب وصِيَغ المُحاورة والمُحاججة، إنّها تُناقِش المشركين في مسألة البعث، وتذكِّرهم بما أصاب أسلافهم، وما ينتظرهم من حسابٍ وعقاب.

ثم تلتفت السورة إلى المجتمع المؤمن لتحذِّره من مزالق الفتنة، وهي التفاتةٌ ليست في الخطاب فقط، بل كأنّها نقلةٌ من أجواء مكّة إلى أجواء المدينة، ومِن ثَمّ رجّح بعض العلماء أنّ السورة مكّيَّة كلّها إلَّا ما بعد هذه الالتِفاتة التي تبدأ بمخاطبة المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾.

وهذه خُلاصةٌ للمسائل التي تناوَلَتْها السورة:

أولًا: تستهلُّ السورة بتسبيح الله تعالى، وأنَّه مالك الملك المستحقُّ للحمد، والذي هو على كلِّ شيءٍ قدير ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثانيًا: تؤكِّد السورة ربوبيَّة الله وحده لهذا الكون، فهو سبحانه الذي خلَقَ الإنسان؛ المؤمن والكافر، وهو الذي خلق السماوات والأرض، وهو الذي يعلم ما يكون في هذا الكون، وما يُعلِنه الإنسان وما يُخفيه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

ثالثًا: تُذكِّر السورة المشركين المُكذِّبين بهذا الدين بما أصابَ أسلافهم ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾.

رابعًا: تردُّ السورة على المكذِّبين بالبعث، مؤكِّدةً أنَّه آتٍ لا محالة، وأنَّ الناس سيُجمَعون جمعًا أمام الله، وكلٌّ مجزيٌّ بعمله؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ (٧) فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٨) يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (٩) وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾.

خامسًا: تُؤكِّد السورة أنّ طريق النجاة إنّما هو الإيمانُ بالله والتوكُّل عليه وحده، وطاعته سبحانه وطاعة رسوله المُبلِّغ عنه ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١) وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٢) ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

سادسًا: تتوجَّه السورة إلى المؤمنين تُحذِّرهم من عدوٍّ قريبٍ منهم، وما هو بالعدوِّ المقاتل

المحارب، وإنّما العدو الذي يُغرِي بالنار وطريقها، ويُبعد عن الجنَّة ونعيمها، وهذا بالميزان الإيماني أشدُّ خطرًا وأكثر عداوة من حامل السلاح الذي غاية ما يملِكُه أن يدفع بالمؤمن شهيدًا إلى الجنَّة، إنّه العدو الذي يكون سببًا في الفتنة والردَّة عن طريق الحقِّ والخير ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾.

سابعًا: تحثُّ السورة هؤلاء المؤمنين على الثبات على التقوى وطاعة الله ورسوله، وأن يتصدَّقوا مِن ماهم ليُطهِّروا قلوبهم من داء الشحِّ والتعلُّق بالدنيا الفانية، وأنَّ الله سيجزيهم الثواب مُضاعفًا، والله هو الشكور الحليم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيۡرٗا لِّأَنفُسِكُمۡۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٦ إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ١٧ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾.

دقائق التفسير

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ يُنزّه الله عن كلِّ صفةٍ لا تلِيقُ به سبحانه.

﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾ قرَنَ الحمدَ بالمُلك؛ للتنبيه أنّ مُلك الله تعالى لهذا الخلق هو مُلكُ عدلٍ ورحمةٍ، وليس مُلك ظلمٍ وعذابٍ، ومِن ثَمّ فالله مُستحِقٌّ للحمد مع المُلك، بخلاف ملوك الأرض الذين يتسلَّطون على من تحت أيديهم بالتعسُّف والطغيان.

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾ أي: خلقكم وأودعَ فيكم القدرةَ على الاختيار؛ فمنكم من اختار الإيمان بإرادته، ومنكم من اختار الكفر بإرادته، وما ربّك بظلامٍ للعبيد.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي: بالعدل والسُّنن الثابتة التي تحفظ استقرارها واستمرار الحياة فيها.

﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ﴾ يمتنُّ الله على بني آدم أن خلَقَهم على هذه الصورة التي لا مثيل

ها في المخلوقات، وهي صورةٌ تُمكّنُ الإنسان من وظيفته في إعمار الأرض، وصنع الحضارات، فقوام الإنسان كلّه وكلّ أعضائه مُركّبة بها يخدم الإنسان ليكون سيّد هذه الأرض، إضافةً لما في هذا القوام من حُسنٍ وجمالٍ.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي: بما هو مكنونٌ في الصدور من النوايا والخواطر، وما يكتمه الإنسان من حُبٍّ وكرهٍ، وحُسن نيّةٍ، أو سوء طويّةٍ.

﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ أي: ذاقوا العذاب الذي هو عاقبة أمرهم في هذه الدار.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة.

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ استنكروا أن يبعثَ الله إليهم رسُلًا من البشر، ولم يستنكِرُوا على أنفسهم أن يتّخِذوا آلهةً من الحجر!

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ بيّنَ لهم طريقَ الخلاص والنجاة؛ وهو أن يؤمنوا بالله المرسِل، وأن يؤمنوا بمحمدٍ الرسول، وأن يؤمنوا بالقرآن الرسالة، وهو النور الذي أنزَله على قلبِ محمدٍ ﷺ.

﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ هو يوم القيامة، سُمِّي بيوم الجمع؛ لأنّ الخلائق كلها من أوّلِها إلى آخرها وعلى مرِّ أجيالها تُجمَع فيه، وسُمّي يوم التغابن؛ لأنّه يوم الغَبن، والغَبن: الخسران؛ حيث سيرى أهل النار خسارتهم، وذهاب ما كانوا يعوِّلون عليه ويتخذونه وليًّا وشفيعًا.

وجاء الاسم بصيغة التفاعُل (التغابن) وهي صيغة المشاركة؛ لأنّهم كانوا شركاء في هذا الخسران؛ حيث كانوا يتواصَون بالباطل، فكلٌّ واحدٍ منهم يغوِي صاحبه، ويُزيِّن له طريقَ الكفر والضلال.

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: ما يقَع من مُصيبةٍ إلّا بإذن الله ووفق حكمته وسُنّته في الحياة، ومناسبة التذكير بهذه الحقيقة: أنّ المسلمين الذين أصابَهم المشركون بالأذى في مكّة كانوا يسألون: متى يُنزِلُ الله عقابَه في هؤلاء الظالمين؟ وكانت قريش تقول: لو كان

هؤلاء على الدِّين الذي يحبُّه الله لدافع عنهم، فهذه صورةٌ من صور الصراع بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

وقد جاء الجواب أنّ كلّ هذا الذي جرَى للمسلمين كان بعلمِه سبحانه، ولحكمةٍ يعلمُها هو، وفي هذا تسليةٌ للمؤمنين، وبشارةٌ ضمنيَّةٌ لهم أنّ الله لا يريد بهم إلّا خيرًا.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ لهذا الفَهم، فيُسلِّم لله ويطمئن إلى قضائه وحكمه.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ وطاعة الرسول هي من طاعة الله؛ لأنّه ﷺ لا يأمُر بشيءٍ من نفسه، بل هو المبلِّغ عن الله؛ ولذلك جاء بعدها: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ نزَلَت هذه الآية في بعض المسلمين الذين أرادُوا الخروجَ من مكّة فمنَعَتْهم نساؤهم وأولادهم، فأنزل القرآنُ هؤلاء الأزواج والأولاد منزلةَ العدوِّ؛ لأنّهم كانوا السبب في حِرمانهم من خيرٍ كثيرٍ كان المهاجرون قد سبقُوهم إليه، فتعلَّموا القرآن، وعايَشُوا نزولَ الوحي، وجاهَدُوا في سبيل الله، والعدوُّ إنّما هو الذي يُريد شرًّا بعدوِّه، وإن كان بلباسٍ آخر، وتحت عنوانٍ آخر.

﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لأنّ هؤلاء بعد أن رأَوا كيف شرَّفَ الله إخوانَهم المهاجرين بفَهم القرآن، وأكرَمَهم بأجر الجهاد، وهم قد تخلَّفوا عن كلِّ ذلك همُّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم، فرغَّبهم الله في العفو والغفران.

﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ الفتنة هنا: الاختبار، وليس فيها ذمٌّ للمال والولد؛ إذ كلّ الحياة - وبكلّ ما فيها - إنّما هي فتنةٌ؛ الغنى والفقر، والصحة والمرض، وإنّما العبرةُ بعاقِبة الأمر.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ لأنّ الله لا يكلِّف نفسًا فوق وسعها، والتقوى هي: اسمٌ جامعٌ لكلِّ عملٍ يُحبُّه الله، وهي في قلبِ المؤمن تعنِي: الرقابة والحسّ المُرهَف الذي يحُولُ بين المرء وبين ما يُغضِب الله، ومن التقوى مخافةُ الله، والحذرُ مما يُغضِبُه تعالى في تعامُل المسلم مع أمواله وأهل بيته.

﴿وَٱسۡمَعُواْ وَأَطِيعُواْ﴾ لأنّ الطاعة الحقّة لا تكون إلّا بأمر، فسماع الأمر وفهمه أولًا ثم العمل به؛ فمَن سمِعَ الأمر ولم يعمل به كان سماعه حجّة عليه، ومن عمل ما يظنّه قُربَى من غير معرفةٍ بالأمر كان عملُه مُبتدعًا وليس بطاعة؛ إذ لا يتصوَّر في الطاعة تجرُّدها عن الأمر، ومن هنا كانت خطورة الابتداع في الدين؛ لأنّ المبتدع إنّما يُطيع نفسه، ولا يُطيع الله.

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي: ومن يسلِّمه الله من داء الشحّ فأولئك عند الله هم الفائزون.

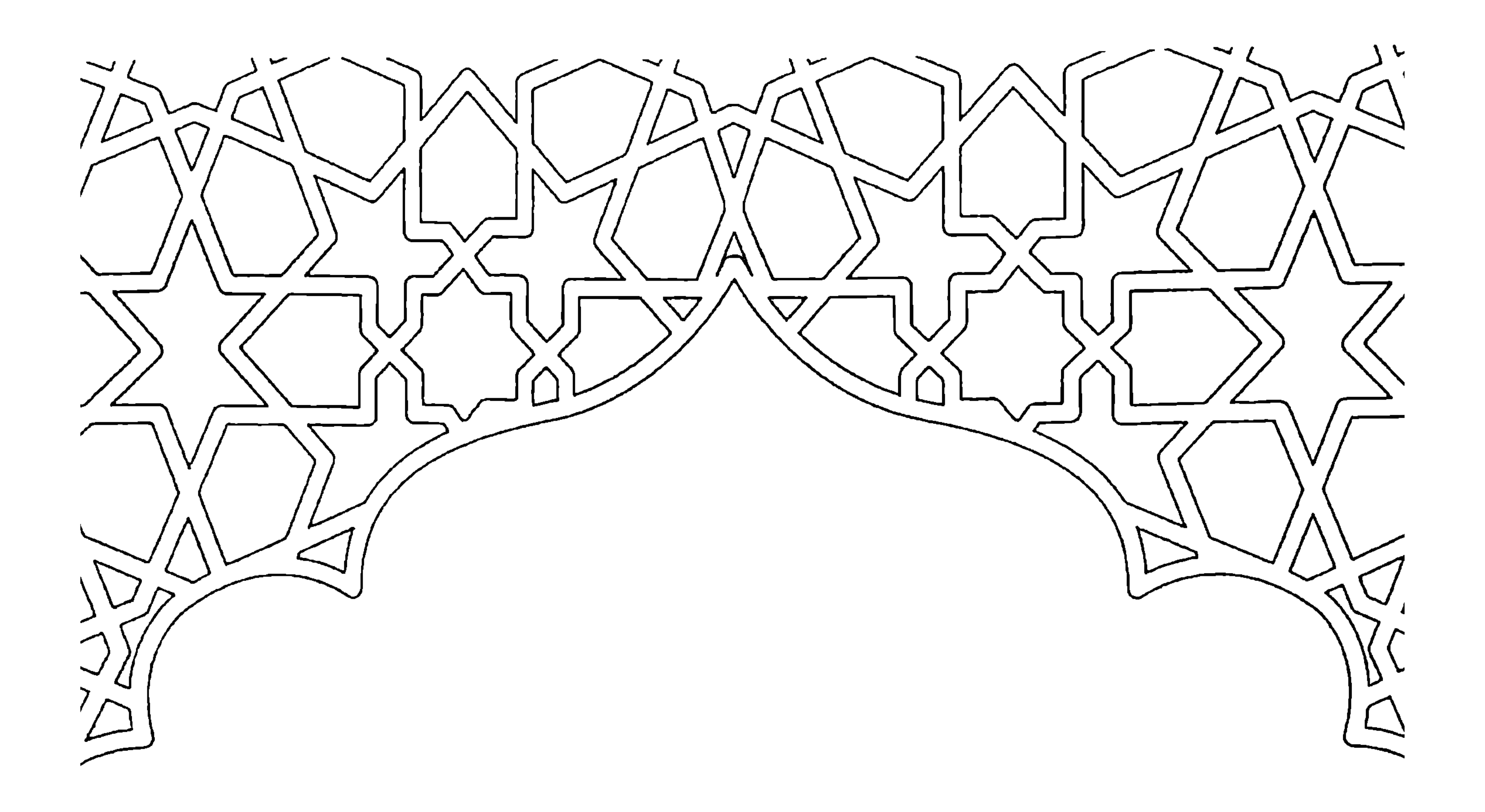
﴿إِن تُقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ شبَّه الصدقةَ بالقرض الحسن؛ لأنّ المتصدِّق ينتظر الثواب على صدقته، كالمقرض الذي ينتظر الوفاء بقرضه.

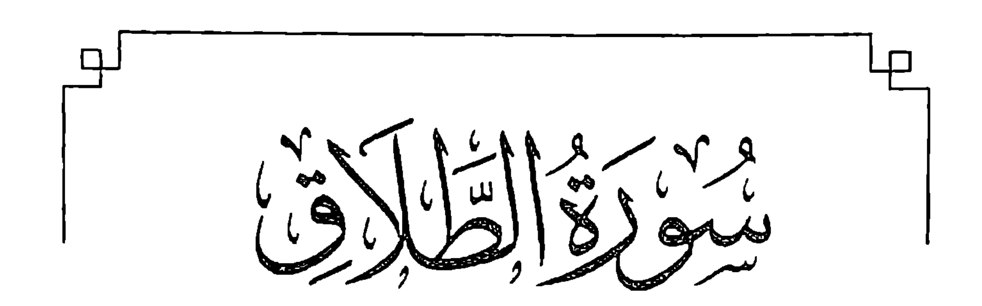
﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ﴾ أي: يُضاعف أجركم فيه.

﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يشكرُ لكم عملكم الصالح، ويُثيبكم عليه.

﴿حَلِيمٌ﴾ اسمٌ من أسمائه تعالى يدلُّ على الحلم، ومعناه هنا ألا يُعجِّل بعقوبة المقصِّر أو المسيء، بل يُمهله لعلَّهُ يتوب.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ فلا يفوته شيءٌ سبحانه، ولا يُعجِزُه شيءٌ، وكلُّ شيءٍ عنده بميزان عدلٍ مستقيم.





المجلس التاسع والخمسون بعد المائتين: فقه الطلاق

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا (١) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (٣) وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (٤) ذَٰلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا (٥) أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ (٦) لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ ۖ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ۚ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (٧) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا (٨) فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا (٩) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا ۚ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا (١٠) رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا (١١) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (١٢)﴾

فقه الطلاق

الأصل في الزواج أنّه عقدٌ دائمٌ بين رجلٍ وامرأةٍ لتأسيس حياةٍ مُشتركةٍ تقوم على الاستقرار والسكينة، والمودّة والرحمة، لكن هذا يعتمد على التوافُق النفسي والعاطفي بين الطرفَين، وعليه فرُبَّما يكتشف الطرفان أو أحدهما أنّ الحياة المشتركة هذه لا يمكن لها أن تستمر لتنافر الطبائع، أو لأمرٍ آخر يجعل استمرار العلاقة متعذِّرًا، أو لا يحقق سكنًا ولا مصلحة.

مِن هنا شرّع الإسلام الطلاق؛ لكي لا يُجبِر الطرفين أو أحدهما على الاستمرار في حياة لا يراها صالحة له، ومع هذا فقد جعل الطلاق على مراحل مُتدرِّجة، ووضع له ضوابط مُحدَّدة،

وبنَى عليه حقوقًا مُعيَّنة؛ ليطمئنّ أنّه جاء نتيجة قرارٍ واعٍ، ورأيٍ مُستقرٍّ، وليس بسبب فَورة غضبٍ، أو ردَّة فعلٍ طارئةٍ، وأنّهما بعد الفراق يأخذ كلّ واحدٍ منهما حقَّه دون مَيلٍ أو ظلمٍ، وكما يأتي:

أولًا: حدَّد القرآن وقتًا مُعيّنًا للطلاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ واللام هنا للتوقيت؛ كما قال في الصلاة: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: عند دُلوك الشمس، والوقت المُحدَّد للطلاق أن تكون في حالة طُهرٍ لم يُجامعها فيه، فلا يجوز تطليقها وهي حائض.

وقد ورد أن ابن عمر ﵄ كان قد طلَّق امرأته وهي حائض، فأمره النبيّ ﷺ أن يَرُدَّها حتى تَطْهُر، فإن شاء طلَّق أو أمسك(١).

ثانيًا: حدَّد القرآن وقتًا تنتظر المرأة فيه وتمكُث في بيتها فلا يجوز إخراجها منه، وهذا الوقت هو عِدَّةُ المُطلَّقة ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، وقد فسَّرت آية البقرة هذه العِدَّة: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، أي: ثلاث دوراتٍ شهريّةٍ، وهذا وقتٌ كافٍ للتفكير والمراجعة وتدخُّل أهل الخير للإصلاح، فللزوج في هذا الوقت أن يرجع إليها، فإن لم يرجع حتى انتهاء الوقت كان هذا أمارةً على أنّ الطلاق لم يكن لفَورة غضب، أو ردَّة فعلٍ طارئةٍ ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾.

ثالثًا: أمرَ القرآن بتوثيق أمرهما، سواء كان إمساكًا أو فراقًا، والتوثيق يكون بالإشهاد ﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ

---

(١) رواه البخاري وغيره بألفاظ مختلفة، ينظر: صحيح البخاري رقم (٥/ ٢٠١٣/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

ٱلْآخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ وفائدة الإشهاد هنا: ضمان حقّ الطرفين، وضمان ألا يقع خلافٌ آخر بينهما؛ فلو ادَّعى مثلًا أنّه راجَعها في العِدَّة ونفَت ذلك أو العكس، فسيكون هذا مثارَ نزاعٍ آخر لا يُريدُه الإسلامُ لهما، والله أعلم.

رابعًا: فصَّلَ القرآن - إتمامًا لموضوع العدَّة ومقدارها - حُكمَ المرأة التي لا تَحِيضُ، كأن تكون بلَغَت سنَّ اليأس، فإنّها تعتَدُّ بثلاثةِ أشهُر ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَۚ﴾.

وأمّا المرأة الحامل - والتي هي حالة ثالثة - فلها عدَّتها الخاصّة بها ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾.

خامسًا: فصَّل القرآن أيضًا بعض الأحكام والتوجيهات المُتمِّمة لحقوق المُطلَّقة، ومن ذلك: أن يضمَن لها زوجها سكنها المناسب لها بحسب استطاعته ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ﴾.

ومنها: تحريم الإضرار بهنّ والتضييق عليهنّ بأيِّ شكلٍ من الأشكال ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّۚ﴾.

ومنها: وجوب النفقة على المطلّقة الحامل، وإعطائِها الأجر على رضاعة الولد من يوم ولادته، فإن اختلَفَا في ذلك اختِيرَت له مُرضِعة أخرى ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾.

سادسًا: رغَّب القرآنُ بالنفقة على المطلَّقات المُعتدَّات بما يُغنِيهنّ ويسدُّ حاجتَهنَّ، وكلٌّ بحسب وسعه ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

سابعًا: في ثنايا أحكام الطلاق هذه، كرَّر القرآن الوصيَّة بالتقوى، ووعد المتقين بالسعة

وإصلاح الحال ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ﴾، ﴿ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا (٢) وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا (٤) ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾، وحذَّر من الظلم والجور ومجاوزة الحدِّ ﴿وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ﴾.

وهذا التأكيد يُقصَدُ به: ضمان حقوق الطرفَين بدوافع إيمانيَّة أخلاقيَّة، أمَّا اللجوء في كلِّ شيءٍ إلى القضاء مُكابرةً ومُغالبةً فهذا ليس من شأن المتّقين؛ إذ القاضي إنّما يحكم بما يستقصِيه من أدلة وقرائن، فهو لا يعلم الغيب، وحياةُ الزوجين أكبر وأوسع من أن تستقصيها أدلة القاضي وقرائنه، ومِن ثَمَّ كان الذي يعلَم أنّه آخِذٌ حقّ غيره ولو كان بحكم القاضي آثمًا ظالمًا.

ثامنًا: بعد هذا التفصيل في أحكام الطلاق، عاد القرآن إلى الأصل الذي يقوم عليه المجتمع، وهو الإيمان بالله ورسله وما أنزل من البيِّنات والهدى، مُحذِّرًا في البداية من الخروج عن هذا النهج المستقيم ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا (٨) فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا (٩) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا﴾.

ثُمّ يوجِّهُ خطابه إلى المؤمنين ليتّقُوا الله، وليتمسَّكُوا بهَدْيِه والنور الذي أنزلَه إليهم ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا (١٠) رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾.

ثُمّ يُرغِّبُهُم في ذلك ويعِدُهم بجناتٍ تجري من تحتها الأنهار ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا﴾.

ومُناسبة هذه التوجيهات وتلك التحذيرات لما تقدَّم من أحكام الطلاق لا تَخفَى على مُتدبِّرٍ؛ فكلُّ تلك الأحكام إنّما هي فَرعٌ لهذا الدين، وخَيطٌ من نوره المبين، وهي المحلُّ

الدقيقُ لاختبار إيمان المؤمنين، وتديُّن المُتديِّنين، فمَن ظلمَ وطغى وتجاوز الحدَّ في حقوق امرأته أو مطلَّقته، كيف نأمَنُه على حقوق الآخرين وأعراضهم وأموالهم؟

إنّها المؤشِّر على مستوى الإيمان العملي، والتديُّن الفعلي، أمّا الإكثار من الركعات والسجدات، وتكرار العُمرات مع هذا الظلم الواقع في المعاملات، فليس ذاك سوى تغرير بالنفس، وتشويه للدين.

تاسعًا: تختتم السورة بالتذكير أنّ الله سبحانه خالق السماوات والأرضين، وهو صاحب الأمر فيهنَّ، وهو المُقتدر عليهنَّ، والعليم بما يجري فيهنَّ، فلا يُعجزه منهن شيءٌ، ولا يغِيبُ عن علمه شيءٌ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾.

دقائق التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ الخطاب للأُمّة في شخص نبيِّها ﷺ؛ لأنَّ هذا من التشريع العام لكلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ.

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي: في الوقت المُحدَّد للطلاق، وهو الطُّهْر الذي لم يحصل فيه جِماع، واختيار هذا الوقت له أكثر من فائدة:

منها: أنّ المرأة في حالة الحيض تمرُّ بوضعٍ نفسيٍّ مختلفٍ؛ فقد تصدر منها ألفاظ أو تصرُّفات تُثير الرجل، فلو طلَّقها في حَيضَتها لكان مُتعجِّلًا ومُتهوِّرًا وظالمًا لها.

ومنها: أنّ تحديد الطلاق بوقتٍ مُعيَّنٍ يمنَحُ الفرصةَ للتريُّث والتفكير، وكلّ هذا يؤكِّد أنّ الإسلام لا يُريد التسرُّع بالطلاق، بل هو حريصٌ على استِقرار الأسرة، واستِمرار الحياة الطبيعية فيها.

﴿وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ الإحصاء معناه: العدُّ والضبط، فالمُعتدَّة ينبغي لها أن تعدّ أيام عِدَّتِها بدقةٍ لما ينبَنِي عليها من أحكامٍ دقيقةٍ.

﴿لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ أضافَ البيتَ لها وإن كان مِلكًا لزوجها؛ لأنَّه من حقِّها أن تستقرَّ فيه حتى انتِهاء عِدَّتها، وفي العبارة من اللُّطف بها ومن المُراعاة لوضعها النفسي والاجتماعي ما لا يَخفَى.

﴿وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾ هذا استِثناءٌ مِن حقِّها في السُّكنَى في بيت زوجها؛ إذ للبيت حُرمته، وانتِهاكها لهذه الحُرمة يحرِمُها مِن حقِّها هذا، وفي الحقيقة هذا حكمٌ عامٌّ في المُطلَّقة وغيرها، لكن التنبيه على حالة الطلاق؛ لأنَّ الزوج المُطلِّق لم يعُد مُنتبهًا لها كما كان، ومدَّة العِدَّة قد تطول إلى ثلاثة أشهرٍ، وقد تكون المرأة ضعيفة الدين، قليلة الحياء؛ فوقوعُها في الإثم وارِدٌ، فوجَبَ الاحتياط والتنبيه، والله أعلم.

﴿لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا﴾ أي: أمرًا فيه الخير لهما، وفي هذا تعليلٌ لما شرَّعَه الله للمُطلَّقة من المكُوث في بيتها مُدَّة العِدَّة؛ فإن ذلك مظنَّة الصُّلح والتراجُع، بخلاف ما لو خرَجَت فور سماعِها لكلمة الطلاق، فإن دواعي الصلح تكون أبعَد، والله أعلم.

﴿فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قارَبنَ انتهاء العِدَّة.

﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ﴾ أي: لكم أن تُراجِعوهن وتتمسَّكوا بِهنَّ، فتحسب هذه طلقة رجعيَّة.

﴿أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ﴾ فيمضي الطلاق على حاله من غير تراجُع، فيكون بائِنًا بينونةً صُغرى لا يحقُّ له إرجاعها إلَّا بعقدٍ جديدٍ.

﴿وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ﴾ أي: أَشْهِدُوا على الإرجاع أو الفراق بشاهدَين عدلَين، درءًا لخلافٍ آخر قد يقَع بينهما، وتوثيقًا لحقِّهما حتى لا يظلِمها ولا تظلِمه.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ﴾ أمرٌ للشاهد أن يؤدِّي شهادته وقت الحاجة إليها كما شهِدها، وأمرٌ للمختلفَين أيضًا أن يحرِصَا على الحقِّ ولا يخرُجَا عن مضمون الشهادة الحقَّة بمطلٍ، أو حيلةٍ.

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا﴾ وعدٌ إلهيٌّ لمن يتوخَّى حقَّ الله ولا يتجاوَز حدوده حتى مع

من اختَلَف أو اختَصَم معه؛ فالرجل التقيُّ إن أمسك أو فارَقَ عن قصد التقوى، وليس غضبًا أو حميَّةً فالله يكتب له الخير، وكذلك المرأة إن التَزَمَت بتعاليم دينها، وبقِيَت في بيتها صابرةً مُحتسبةً حتى يتبيَّنَ أمرها، فهي إلى خيرٍ، والله لن يضيّعها.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافِيه ومُغنِيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: مُنفِّذ حُكمه في خلقه كما يشاء سبحانه.

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: أجلًا وغايةً ووقتًا مُحدَّدًا، بمعنى ألا تستبطِئوا فرَجَ الله، فالله بالغ أمره، ولكن لكلِّ أمرٍ وقته وأجله.

﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ أي: بلَغنَ السن الذي لا تحيض فيه المرأة.

﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ هذه إضافةٌ بيانيَّةٌ لحالةٍ تعترض المرأة الكبيرة من أنّها ترى دمًا، فلا تدري أهو من الحيض أم لا، أو أنّها تحيض حَيضات متقطِّعة وغير مُنتظمة، فإن كانت في مرحلةٍ قريبةٍ من سنِّ اليأس، فحُكمُها حكم اليائسة، أي: تعتَدُّ بثلاثة شهورٍ، والله أعلم.

تجدُرُ الإشارةُ هنا أن عبارة (سن اليأس) يُقصَد بها اليأس من المَحِيض لا غير.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ لصِغَرهنَّ، أو لأي سببٍ آخر، فعدَّتهنَّ ثلاثةُ أشهرٍ كعِدَّة اليائسة من المحيض.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أي: أسكنوهنَّ عندكم، وفي هذا ترغيبٌ لهما بالصلح، والله أعلم.

﴿مِّن وُجْدِكُمْ﴾ أي: مما تجِدونه من سعتكم.

﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ﴾ أي: ولا تؤذوهنَّ لتُضَيِّقوا عليهن حتى يخرُجن، فالسُّكنَى حقٌّ لهنَّ، وإخراجُهنَّ بطريقةٍ مباشرةٍ أو غير مباشرةٍ إثمٌ وظلمٌ.

﴿وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ خصَّ الحامل بالذِّكر من بين المطلّقات؛ لأنّ مُدَّة الحمل قد تطُول، فاقتَضَى التنبيه على أن نفقَتَها واجبةٌ مهما طالَت مُدَّتها، وأيضًا فإنّ الحامل تستحقُّ النفقة حتى لو كانت مُطلَّقة طلاقًا بائِنًا، بخلاف غيرها؛ فإنّ غير

الحامل لا تستحقُّ النفقة إلَّا إذا كانت مطلَّقة طلاقًا رجعيًّا.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ بمعنى أنّها بولادتها تُصبح بائِنًا حتى لو كان طلاقها رجعيًّا؛ لأنّ مُدَّة المراجعة انتَهت، وفي هذه الحالة أصبَحَت امرأة أجنبيَّة تستحقُّ الأجرَ على إرضاعها.

﴿وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: تشاوَروا بما فيه مصلحة الرضيع.

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ﴾ أي: إن اختلفتم في أجر الرضاع.

﴿فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ﴾ بمعنى أنَّ الرضيع لا يُترك من غير مُرضعةٍ اتفقتم أو اختلفتم.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ ترغيبٌ للغنيِّ بالتوسّع في النفقة على مُطلَّقته، وفي أجرها الذي تستحِقُّه مُقابل إرضاعها لولده.

﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ توضيحٌ لحكم الفقير المُكلَّف بالنفقة على المُطلَّقة أو المُرضِعة، فلا ينبغي الإضرار به، ومعنى هذا أنَّ النفقة الواجبة تختلِف باختِلاف اليُسرة والعُسرة، وعلى المجتمع - وكذلك القاضي - إن بلغت المسألة عنده أن يُقدِّر ذلك.

﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ وعدٌ إلهيٌّ بتيسيرِ الأمور لكلِّ صادقٍ سَمحٍ قاصدٍ للحقِّ، وفتحٌ لباب الأمل والفأل الحسن.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أي: وكثيرٌ مِن القرى.

﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: تمرَّدَت على شريعة الله وأحكامه، والتعريض هنا بمَن يتمرَّد على الأحكام المُتقدِّمة في الطلاق وما يتعلق به من عِدَّةٍ ونفقةٍ ونحوهما.

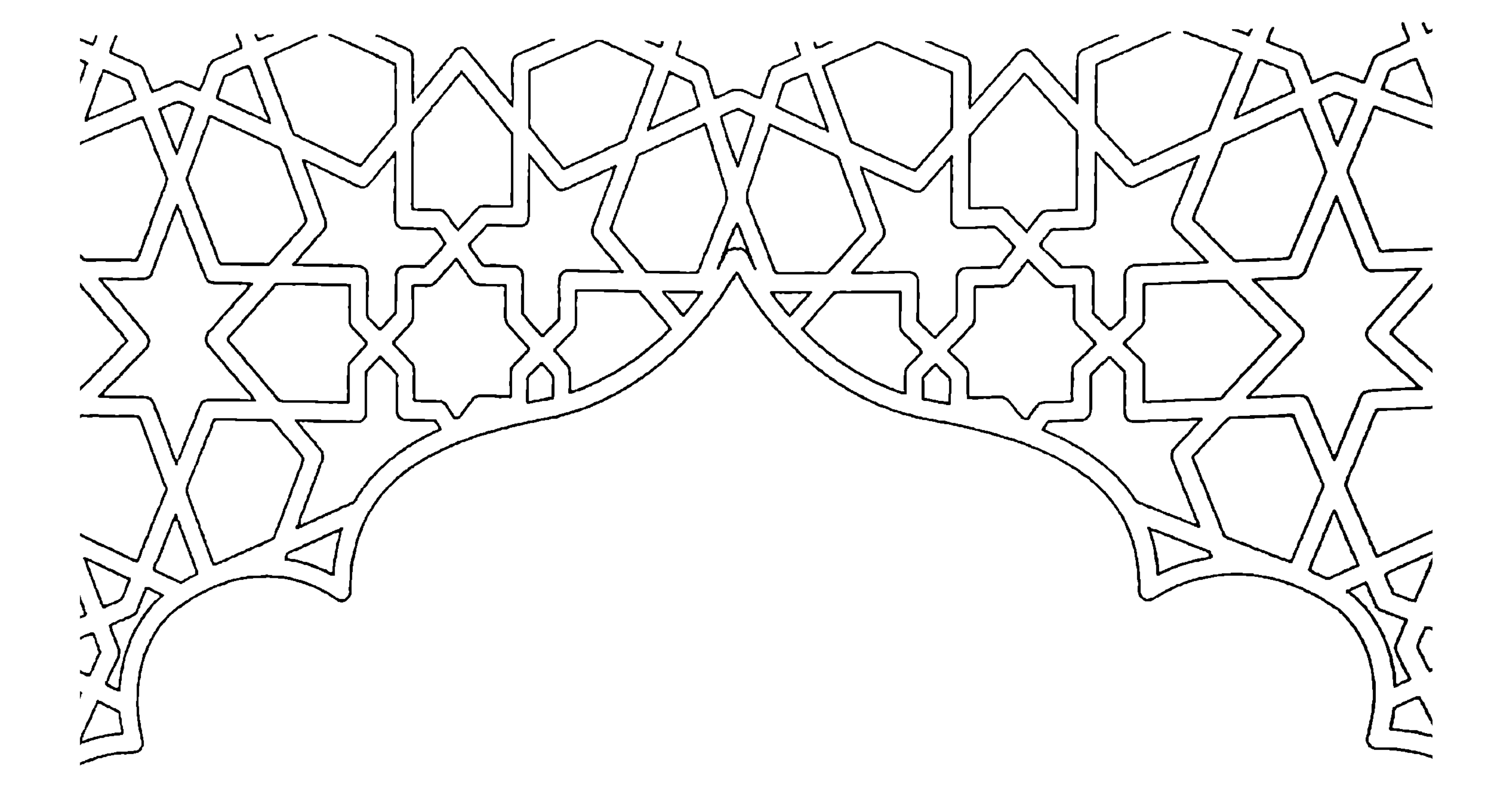
﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: فذاقَت عقوبة الله لها على تمرُّدها.

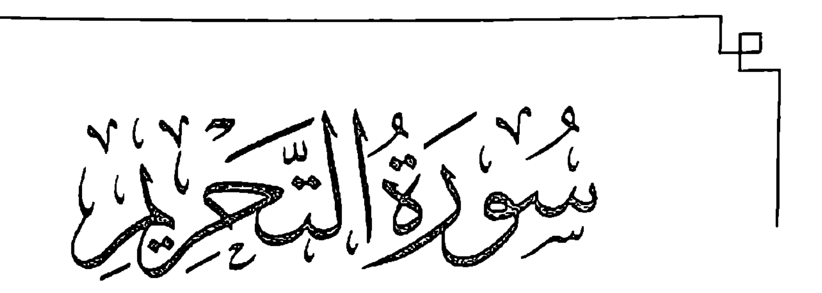
﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ بأخذ العبرة من هذه القرى المُتمرِّدة الهالكة.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي: في العدد، أمّا في غير العدد فبينهما من التفاوُت ما لا يعلمه إلّا الله.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ أي: يتنزَّل الوحي من السماء إلى الأرض، وهذا إشعارٌ بجديَّة تلك التشريعات التي أنزَلَها الله تعالى في هذه السورة العزيزة، وأنّها من الوحي المعصُوم من الخطأ أو الزَّلَل.

﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ أي: لتتذكَّروا قُدرةَ الله عليكم؛ إذ هو الذي خلق هذا الكون بسماواته وأرضيه، وتتذكَّروا عِلمَه المحيط بكم؛ إذ هو الذي يُسيِّرُ أمورَ هذا الكون، ولا يخفَى عليه منه شيءٌ، فهذا أدعَى للالتزام بأمرِهِ ونهيِهِ، ومراقبته والخشية منه سبحانه على كلِّ حالٍ، وفي كلِّ مقالٍ.





المجلس الستون بعد المائتين: لِمَ تُحرِّم ما أحلَّ الله لك

المجلس
الستون بعد المائتين

سورة التحريم

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٨) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (١٠) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (١٢)﴾

لِمَ تُحرِّم ما أحلَّ الله لك

من حدثٍ جزئيٍّ في بيت النبوَّة يَبني القرآن قاعدة كليَّة ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ هذا هو موضوع السورة الأساس، ثم توسَّعت السورة لتشرَحَ ما انبَنَى على هذا الحَدَث من أحكامٍ وتوجيهاتٍ تفصيليَّة، مُذكِّرة بنماذج من العلاقات الزوجيَّة في قصص النبيين لمحل الحدث الذي هو سبب نزول السورة، والذي يَخُصُّ أُمّهات المؤمنين:

أولًا: استهلَّت السورة بسؤالٍ مُوجَّه إلى النبيِّ الكريم ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ وهذا السؤال الذي جاء بصيغة التعجُّب إنَّما يهدِفُ إلى تأسيس قاعدةٍ كبيرةٍ تضمُّ كثيرًا

من الصور والتفريعات والمستجدَّات؛ حيث يكون من المعتاد في السلوك الديني التورُّع عن إباحة المحرّمات.

أمّا تحريم المباحات فقد يُنظر له على أنّه بابٌ من أبواب الورع والتمسُّك بالدين، فترى بعض الفتاوى التي تتساهَل في تحريم المباحات من غير دليلٍ ولا حتى شُبهة دليلٍ، وقد يكون التحريمُ بدافع الزهد، والتقلُّل من مشاغل الدنيا، وقد يكون مُجاملةً لعُرفٍ فاسدٍ أو لجماعةٍ لها توجُّه فكري أو سياسي معين؛ لكلِّ هذا وغيره ولخطورة المسألة هذه، اختارَ الله تعالى هذا الحدَثَ الجزئيَّ في حياته ﷺ مع زوجاته الطاهرات؛ حيث كُنَّ يتنافسنَ على التودُّد له والتقرُّب منه، وقد يدفعهنَّ هذا إلى مُضايقَته في بعض التصرُّفات التي تنتُج عن غَيرة معروفة عند النساء.

فكان من ذلك: أنَّ زوجته زينب كانت قد سقَتْه شيئًا من العسل، فعلِمَت بذلك عائشة، فتواطأت مع حفصة رضي الله عنهما على مقولةٍ يُنفِّرنَه ﷺ من العسل، حتى لا يمكُث وقتًا أطوَلَ مع زينب، فدخل على حفصة أوَّلًا فقالت له: إنِّي أجد منك رائحة المغافِر- وهي رائحةٌ غير مُحبَّبَة -، قال: بل شربتُ عسلًا عند فلانة، ولن أعُود له، وأوصاها أن لا تُخبِر أحدًا[1].

والحقيقة أنّ النبيَّ ﷺ لم يُحرِّم ما أحلَّه الله تحريمًا تشريعيًّا - حاشا لله -، وإنّما امتَنَع عنه امتناعًا، ومع هذا جاء هذا العتاب الربَّاني؛ لتتعلَّم الأُمّة كلّها منهجيَّة التعامل مع ما شرَّعه الله تحليلًا أو تحريمًا.

وقد جاء في سورة المائدة ما يؤكِّد هذه القاعدة الجليلة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ [المائدة: ٨٧]، وقد بيَّنت سورة التحريم هذه علاقة أُمّهات المؤمنين رضي الله عنهن

(١) وقد وردَت هذه الواقِعة في «الصحيحين»، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبيَّ ﷺ كان يمكُثُ عند زينب بنت جَحشٍ، ويشرَبُ عندها عسَلًا، فتواصَيتُ أنا وحفصةُ أنْ أيّتنا دخَلَ عليها النبي ﷺ فلتقُل: إنِّي أجِدُ فيك رِيحَ مغافِير، أكَلتَ مغافِير، فدخَلَ على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَنْ أَعُودَ لَهُ»، فنزَلَت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ إلى ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ الآية، لعائشة وحفصة؛ إذ أسَرَّ النبيُّ إلى بعض أزواجه لقوله ﷺ: «بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا».
ينظر: صحيح البخاري (٥/ ٢٠١٦/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م) واللفظُ له، وصحيح مسلم (٤/ ١٨٤/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

بما جرى: ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثانيًا: ذكَرَت السورة بحكم الله في التحلُّل من القَسَم، وهو ما يُشيرُ إلى أنه ﷺ قد أقسَمَ ألا يشرب العسل ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ۚ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ ۖ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، والتَّحِلَّةُ هنا: الكفارة التي ورَدَت في سورة المائدة: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ﴾ [المائدة: ٨٩]، مع مُلاحظة أن التَّحِلَّةَ تعني: التحلُّلَ من القَسَم قبل الحِنْث.

ثالثًا: تناوَلَت السورة جانبًا آخر من القصَّة يتعلَّق بإفشاء المرأة لسرِّ زوجِها، والمقصود بهذا: السيدة حفصة التي أسَرَّ لها النبيُّ ﷺ بشُربِه العسل في بيت السيدة زينب، وطلَبَ منها ألا تُخبِر به أحدًا، فأخبرَت به السيدة عائشة رضي الله عنها؛ لأنهما كانتا قد تواطَأَتَا قبل ذلك.

وهذه هفوَةٌ منهما؛ فإفشاءُ سِرِّ الزوج لا يصِحُّ بحالٍ، فكيف إذا كان هذا الزوج هو رسول الله ﷺ؟ من هنا كان عِتابُها مع حليفتها عتابًا شديدًا بلَغَ مبلَغَ التهديد: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾.

ولا شكَّ أنَّ هذا كلّه جاء في مقام التربية والتعليم، من خلال الحركة والتجربة، والتعليم هذا ليس لعائشة وحفصة فقط، بل هو درسٌ للمُجتمعات الإسلاميَّة إلى قيام الساعة، ومِن ثَمَّ حظِيَت القصة بهذا الاهتمام والعناية القرآنيَّة الفائقة والمُفصَّلة.

رابعًا: انتقَلَت السورة بعد هذا الدرس الميداني العميق لتوجُّه الخطاب للمجتمع المسلم على امتِداد الزمان والمكان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذا تأكيدٌ أنّ تعليقَ القرآن على قصَّة التحريم هذه والمنافسات التي كانت بين أُمَّهات المؤمنين لم يكن المقصود به معالجة تلك المشكلة المحدودة، وإنّما هي نموذجٌ قُصِد به التأسيس لمنهجيَّة عمليَّة في كيفيَّة التعامل مع مثل هذه المشكلات وإن اختلفت بأشخاصها وبتفاصيلها.

خامسًا: نبَّهَت السورة إلى الطرف المعادي والمتربِّص، والذي رُبَّما يستفيد من مثل هذه المشكلات لإثارة الفتنة، وبثِّ الشائعات: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾.

سادسًا: بعد هذا النموذج العملي في التربية والتعليم ومن بيت النبوَّة، قدَّمَت السورة نموذجًا من التاريخ مما ينبغي الحذر منه والتنبُّه إلى خطورته، وهو نموذج المرأة الكافرة في علاقتها مع زوجها المؤمن ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾.

سابعًا: ثم قدَّمت السورة نموذجًا للمرأة المؤمنة تكون عند الرجل الكافر، وهذا نموذجٌ معكوسٌ عمّا قبله ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾.

ثامنًا: ثُمّ قدَّمت السورة نموذجًا مُقاربًا يتمثَّل في المرأة الشريفة العفيفة النقيَّة التقيَّة ﴿وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ أي: لِمَ تمتنع عمّا أحلّ الله وتحلِف على ذلك، وكان ﷺ قد حلَفَ ألا يشرب العسل، كما تقدَّم.

﴿تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ وهذا من حِلمِه ﷺ، وعظيم خُلُقه وتواضُعه، وليس منقصةً في الزوج أن يبتَغِي مرضاةَ زوجَتِه؛ فالعِتابُ مُوجَّهٌ لنقطةٍ واحدةٍ فقط: أن يُحرِّم النبيُّ شيئًا مُباحًا على نفسه، وهو الأُسوةُ الحسنةُ لكلِّ المؤمنين معه ومن بَعده.

﴿تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ﴾ أي: التحلُّل من الأَيمان بالكفارة المعروفة، والأَيمان جمع يمين؛ وهي الحلِف.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ﴾ أي: أخبرَت غيرَها بما أسرَّهُ النبيُّ ﷺ لها.

﴿وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ﴾ أي: أَطْلَعَهُ على ما كان بين حفصة وعائشة ﵄.

﴿عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ﴾ أمَّا الذي عرَّفَه - أي: أبدَاه - فهو الذي أبدَاه لحفصة، مُعاتِبًا لها على إفشاء سِرِّه بعد أن أمَرَها بكَتمِه، وأمَّا الذي أعرَضَ عنه - أي: لم يُبدِه لها -، فلم يذكُره القرآن، ولم يَأتِ بسُنَّةٍ صحيحةٍ؛ فالأَولَى الإعراضُ عن الخَوضِ فيه، لكن الذي يُستفادُ منه أنّ التغافل وغضّ الطرف عن بعض الزلَّات يُعينُ على مُحاصَرَتها وحلِّها.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ الخطاب لعائشة وحفصة ﵄ يحثُّهما على المُبادَرة بالاعتِذار والتوبة، وقوله: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ أي: إن تُبتُما فقد مالَت قلوبُكما إلى الخير، وإلى البقاءِ مع رسول الله ﷺ.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ﴾ أي: تُصِرَّان على المناجاة بينكما، وتتعاوَنَا فيما لا يُرضِيه ﷺ.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ الجملةُ واقعةٌ في جواب الشرط، ومعناها أنّ الله ناصِرُه ومُؤيِّده، ثم جبريل والمؤمنون في الأرض والملائكة في السماء، وهذا كلُّهُ لإظهارِ شرَفِ رسولِ الله ﷺ وعظيم مكانته عند ربِّه، وتأديبٌ للمسلمين عامَّة، وتهديدٌ لِمَن حول المسلمين من يهود ومشركين ومنافقين، بمعنى أنّ الجواب

وإن كان مُتعلِّقًا بمناسبةٍ جزئيّةٍ، لكن مدلوله أكبر وأوسع من تلك المناسبة ومُلابساتها.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ هذا تنبيهٌ مُستأنَفٌ لكلِّ زوجاته ﷺ، وليس خاصًّا بهما، أن يُحافِظن على هذا الشرَف العظيم الذي حبَاهنَّ الله به، وكونهنَّ أُمّهاتٍ لكلِّ المؤمنين.

﴿أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ في حالة تولِّيهنَّ عن تلك المكانة العظيمة بارتكابهنَّ ما يُغضِبُ الله ورسوله، وهذا الافتِراض لم يقَع، فدلَّ على أنهنَّ كُنَّ كما يُريد الله، وكما يحبُّ رسولُه، فهنَّ الأحبُّ إلى رسول الله، والأليَقُ له من كلِّ نساء الأرض، وأمّا الهفوة التي حصَلَت من بعضهنَّ فكانت درسًا بليغًا لهنَّ، وموعظةً للمسلمين والمسلمات عامّة في التأدُّب مع رسول الله ﷺ، والهفوةُ هذه لم تكن إلّا بدافع حُبهنَّ له، وغيرتهنَّ عليه.

﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ هذه الصفات هي التي يُريدها الله في أُمّهات المؤمنين، والخطابُ بالإشارةِ لهنَّ أن يكُنَّ بهذه الصفات، وإن كانت الصيغة لنساء أُخريات، ولكنهنَّ نساء مُفتَرَضات؛ لأنّ الله تعالى يعلَمُ أنّه لن يُطلِّقهنَّ، فعُلِمَ أنّ تحقُّق هذه الصفات هو المطلوب، وقد تحقَّقَت في أُمّهات المؤمنين ﵅، والقانِتات: الطائِعات، والسائِحات: الصائِمات، أو المُخلِصات لدين الله، المُنقَطِعات إليه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ هذا تذكيرٌ للمؤمنين أن يحافظوا على إيمانهم، وأن يقوموا بمُتطلَّبات هذا الإيمان من أداءٍ للواجبات، وابتعادٍ عن المُحرَّمات، وكان الدرس المأخوذ من بيت النبيِّ ﷺ مناسبة للتذكير أيضًا بمسؤوليَّة تعهُّد كلّ مسلمٍ لأهل بيته بالنصح والموعظة، والتذكير بالآخرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ هذه انتِقالةٌ من السياق لنقل صورةٍ من عذاب النار التي أمَرَ الله المؤمنين أن يَقُوا أنفسَهم وأهلِيهم منها.

وذِكرُ الكافرين هنا يُوحي بأنّ النار خُلِقَت للكافرين؛ بحيث إنّ القرآن حتى وهو في سياق مخاطبة المؤمنين وتحذيرهم من النار جاء بمشهدٍ يخص الكافرين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ هذا أمرٌ بالتوبة، والأصل في الأمر:

الوجوب، والتوبة: الاعتِرافُ بالذنب والندمُ عليه، وطلبُ العفو والمغفرة، وإرجاعُ الحقِّ إلى أهله، والعزمُ على ترك الذنب وعدم العودة إليه، والتوبة النَّصُوح: هي التي لا غِشَّ فيها، بمعنى أنّها توبةٌ صادقةٌ ومُستوفيةٌ لشُروطها.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ عسى هنا للرجاء المُتحقِّق؛ فمن تابَ توبةً نَصُوحًا قبِلَ الله تعالى توبته بوعده تعالى وفضله وكرمه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جَمَعَ الكفار والمنافقين تحت حكم الجهاد، وهذا من المُجْمَل الذي فصَّله القرآن في آياتٍ أخرى، وفصَّلته السُّنة؛ فجهاد الكافر على ضربَين: إن كان مُقاتِلًا وعدوًّا مُحاربًا فيُجاهَد بالقوة، وإن كان مُسالِمًا فيُجادَل بالتي هي أحسن، ويُدعى إلى الإسلام بالرفق واللين.

وأمّا المنافق فلا يُجاهَد بالسيف، وسيرتُه ﷺ كلّها شاهدة على ذلك، وإنّما جهادهم بمراقبتهم والحذر منهم، وكشف مُخطَّطاتهم، ومُحاصرة نِفاقهم بالتربية الصحيحة، ونشر الوعي والفكر الصحيح بين المسلمين.

﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: واغلُظ على مَن يستحقُّ الغِلظة، وهو الكافر الحربيُّ، والغِلظة صفة في الجندي المجاهد، وهي ضرورةٌ له ولا مناصَ عنها، بخلاف الداعية الذي يكون سلاحُه العلم والحكمة والرِّفق حتى مع الكافرين ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ لمّا تقدّم الحديث عن الذين آمنوا والذين كفروا، شاءَ الله ﷻ أن يُقدِّم أمثلةً من سيرة الذين مضَوا قبلَنا فيها نماذج للكفر، وفيها نماذج للإيمان، والنماذج الميدانية هذه أقربُ لتشخيص الحالة وقياس الحاضر عليها.

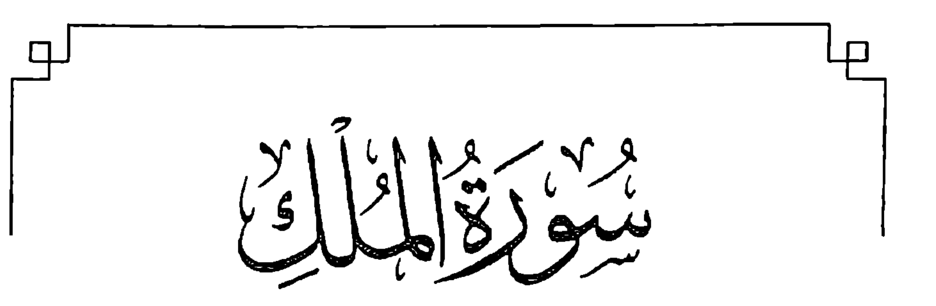
فمن الذين كفروا، اختارَ الله امرأتَين كافرتَين لم ينفَعهما أنّهما تحت نبيَّين من الأنبياء، بل ازدادَتا إثمًا وبُعدًا ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ أي: كانتا مع قومهما الكافرين على زوجَيهما، فهي خيانةٌ في الدين والموقف، وليست خيانةً في العِرض

والشرف؛ لأنّ هذا قادحٌ في مقام النبوّة.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ لأنّ الكافر لا تُغني عنه شفاعة، ولا يُقبَل منه فِداء، وهذا تأكيدٌ لعدله تعالى الذي لا تشوبه شائبة.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهذا المثل المقابل لامرأة نوحٍ وامرأة لوطٍ؛ إذ كانتا كافرتَين تحت رجُلَين صالحَين، وهذه امرأةٌ صالحةٌ كانت عند زوجٍ كافرٍ، وفي هذا إشارةٌ تربويَّةٌ عميقةٌ؛ وهي أنّ الإنسان مسؤولٌ عن ذاته وعن خياراته، وأنّ الأسرة والبيئة إنَّما هي عناصر مساعدة.

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ وهذا مثلٌ آخر للذين آمنوا؛ مريم التي جعلها الله وابنَها آيةً للعالمين، وهي المثَلُ الأعلى للمرأة المؤمنة التي تُحافظ على عِفَّتها، وتتمسَّك بدينها، وتصبِر على تخرُّصات أعدائها واتهامهم لها، حتى رفعها الله في الدنيا والآخرة.



المجلس الحادي والستون بعد المائتين: ليبلوكم أيكم أحسن عملًا

المجلس
الحادي والستون بعد المائتين

سورة الملك

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ۝١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ۝١٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ۝١٩ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ۝٢١ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٢٢ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ۝٢٣ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٢٤ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٥ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٢٦ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٢٨ قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢٩ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ۝٣٠﴾

ليبلوكم أيكم أحسن عملا

تتناول هذه السورة المُباركة المقصد العمليّ الأساسَ لخَلْقِ الإنسان ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ﴾ فالإنسان مخلوقٌ لهذا الاختبار الكبير، وأمامه ميدان واسع للتنافُس والتسابُق، وقد زوَّدَه الله بكلِّ أدوات هذا الميدان؛ فأعطاه العقل، وأعطاه الإرادة، وركَّبه بالصورة المناسبة لهذا العمل المطلوب منه، وسخَّر له كلَّ ما يحتاج إليه في هذه الأرض، ثم حدَّد له الأُسُس التي ينطلِق منها، والمعايير التي يُحاكم عليها.

تتناول السورة هذه الأُسُس وهذه المعايير، مُحذِّرةً من مزالق الخسران وأسباب الضلال والحِرمان، وكما يأتي:

أولًا: تضَعُ السورةُ القاعدةَ الإيمانيَّةَ الكُبرى التي تنبَثِقُ منها كلُّ تلك الأُسُس، وكلُّ تلك المقاصِد، وكلُّ تلك المعايير ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فالله الذي بيده مُلك السماوات والأرض وما فيهنَّ هو الذي خلق هذا الخلق وصنَّفه، وجعل لكلِّ جنسٍ أو صنفٍ وظيفته التي تناسبه.

ثانيًا: ثمّ تُفصِّل السورةُ تلك القاعدة مُبيِّنة معالم تفرُّده سبحانه في هذا الخلق، وفي هذا المُلك، فهو سبحانه خالق الحياة والموت ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، وهو خالق هذه السماوات التي تُحيط بنا وبأرضنا أنّى اتجهنا، وأنّى نظَرنا، وهي على سعتها وعظمتها جاءت بهذا الإتقان البديع ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

ثالثًا: وفي ضوء تلك القاعدة وتفريعًا عنها، حدَّدت السورة المقصد الأساس لخَلْقِ الإنسان: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ مُؤكِّدةً أنّ الله تعالى هو الذي اختارَ الإنسانَ لهذه الغاية، وهو الذي زوَّده بأدواتها، ومهَّد له الأرض وما فيها ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾، ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

رابعًا: أكّدت السورةُ أنَّ الناسَ سيكونون على فريقَين في هذا الاختِبار الكبير: فريق يعرف طريقه إلى النجاة والفوز، وفريق غافل ساهٍ لا يدري سِرَّ حياته، ولا الغاية من وجوده ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مُبيِّنة عاقبة كلّ فريقٍ؛ فأمّا المهتدون الطائعون ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾، وأمّا الضالُّون المُكذِّبون ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ

تَفُورُ﴾، ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾.

خامسًا: تُبيِّن السورة الأسبابَ التي أودَت بهؤلاء الهالكين، في حوارٍ تنقُله لنا من تلك الدار؛ دار الحساب والجزاء ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إنّهم عطَّلوا في أنفسهم أدوات المعرفة التي خلقَها الله لهم، فلم ينتَفِعوا بعقولهم، ولم ينتَفِعوا بما يسمعونه من هَدي نبيِّهم.

سادسًا: تُؤكِّد السورة أنّ الله تعالى هو العليم بخلقه، يعلم ما يُسرُّون وما يُعلنون، وبالتالي فإنّما يُحاسبهم على عِلمٍ، وهذه قاعدةٌ من قواعد الاختبار العادل الذي لا غَبن فيه، ولا جهالة، ولا مُحاباة ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾، وأنّه سبحانه هو القدير عليهم الذي لا يُعجِزه أحدٌ منهم ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

سابعًا: بعد كلّ هذا التبيين لطبيعة الاختبار وأُسُسه وما ينتُج عنه، راحَت السورة تُهدِّد أولئك الضالِّين المُكذِّبين وتُنذِرهم وتتوعَّدهم لعلَّهم يعودون إلى رشدهم، ويفكِّرون بما ينتظرهم ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾.

ثامنًا: ثم راحَت السورة تأخذهم في هذا الملكوت الواسع وما فيه من آياتٍ ودلائل، وتطُوف بهم في جوانب حياتهم، لعلَّهم يتنبّهون لآلاء الله ونعمه المبثوثة لهم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾، ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تقدَّسَ وتعظَّمَ.

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فلا مالِك غيره على الحقيقة، وكلّ مُلكٍ سواه إنّما هو على سبيل التخويل والاستخلاف والاختبار.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليختبِرَكم.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ مجالٌ غيرُ مُحدودٍ للتنافُس والتسابُق في مراتِبِ الكمال.

﴿طِبَاقًا﴾ بعضها فوق بعض.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ لأنّه صنعة الرحمن، فلا تجد فيه خللًا، ولا تناقضًا.

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي: أعِد النظر مرَّةً أخرى إن كنت ترى خللًا لم تُبصِره في المرّة الأولى، والقصد من هذا: تنبيهُ العقول إلى دقَّة الصنعة، ودقَّة النظام الذي يحكم هذا الكون، مما لا يدَع مجالًا للرَّيب أنّ وراء هذا الكون خالقًا عظيمًا، حكيمًا قديرًا ﷻ.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: دقِّق النظرَ مرَّةً بعد مرَّة، وكرَّةً بعد كرَّة، وهذا طلَبٌ وتأكيدٌ للطلب على سبيل التحدِّي؛ ولذلك كان جوابُه:

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: خائبًا؛ لأنّه لم يجِد ما يطلُبُه.

﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كليلٌ مُتعبٌ من كثرة التحديق والتأمل في هذه السماء دون أن يجِد فيها صدعًا أو تفاوتًا.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ بعد ذِكره لقيمة الإتقان والإحكام في بناء السماء، ذَكر قيمة الجمال والزينة، ومَن تأمَّل السماء ليلًا وهو في الصحراء بلا أضواء ولا ضوضاء، ليس له إلّا أن يقول: تبارَكَ الله.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ هذه من الأخبار الغيبيّة التي نُؤمِنُ بها كما جاءت، فلا يتحصَّل في الذهن صورتها ولا كيفيّتها، لكنّ مقصودها بيِّنٌ جليٌّ؛ فالسماء محروسةٌ لا يمكن أن يصِل إليها شيطان، ومُؤدَّى هذا الإخبار: سلامة الوحي من عبَث الشياطين، وإثبات كذب

السحرة والمشعوذين في ادِّعائهم معرفة الغيب عن طريق الجنِّ.

﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ﴾ هذه صورةٌ سمعيّةٌ لجهنّم - أعاذَنا الله والمسلمين منها -؛ إذ تُصدِر صوتًا شبيهًا بصوت الهواء المُتردِّد في صدر الإنسان لغَيظِه وشدَّة غضَبِه، ويكون هذا الصوت مُصاحِبًا لفوَرَانها وغلَيَانها.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ أي: تكاد تتقطَّع من الغضب، والقرآن يُشبِّهُ النار كأنّها كائنٌ حيٌّ ينفعلُ بما حوله ويحسُّ ويغضبُ، وليس هذا بمُستبعَدٍ؛ فأحوال الآخرة لا تُقاسُ على أحوال الدنيا، والله أعلم.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾ جماعةٌ من الكافرين.

﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ أي: حُرَّاسها يسألون الكافرين الذين يلقون فيها:

﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ يسألونهم هذا السؤال توبيخًا لهم.

﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ وهذا التكذيب لم يكن عن نظرٍ وتفكيرٍ جادٍّ، وإنّما عن هوى وضلالة؛ ولذلك قال لهم خزنة جهنّم: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وقد كانوا يسمَعون، لكنّهم عطّلوا حاسّة السمع عندهم عن سماع الحقِّ، وقد كانوا يعقِلون، لكنّهم عطَّلوا عقولهم عن التفكير في الحقِّ، وها هم اعترَفوا بذنبهم، ولكن في الوقت الذي لا ينفَع فيه اعتراف ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ قدّم المغفرةَ؛ تطمينًا لقلوبهم، وإذهابًا لخوفهم مما ارتكَبُوه أيّام جاهليتهم، أو مِمَّا أصابُوه من ذنبٍ وزلَلٍ لا يخلُو منه إنسانٌ في العادة، ثم بشَّرَهُم بالأجر الكبير.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ﴾ فكلاهما سيَّان في علمِ الله ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ استِنكارٌ وتعجُّبٌ مِمَّن يشكّ بعلمه الشامل ﷻ؛ إذ كيف لا يعلم أحوال الخلق وهو الذي خلَقَهم؟ فخلق الشيء يستلزم العلمَ به بالضرورة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: مُذلَّلة ومُهيَّأة لكم.

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ أي: اسعَوا في جنَباتها وطرقها وأطرافها، فكلُّها مُسخَّرة لكم.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ ربطٌ لطيفٌ بين المشي في مناكب الأرض وبين الرزق، بإشارةٍ أنّ الرزق بحاجة إلى السعي والبحث في مسالك الأرض ظاهرها وباطنها، وفي كل ما أودَعَه الله فيها.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: بعثُكم وحشرُكم ومرجِعُكم.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: أأمنتم عذاب الله؟ والله لا تحويه أرضٌ ولا سماءٌ، وإنّما هي صفة العلوِّ المُطلق لله تعالى، والتي نُردِّدُها في كلِّ سجدةٍ نسجدها: «**سبحان ربي الأعلى**»، وعلوُّ الله ليس كعلوّ البشر؛ كما أنّ كلَّ صفاته العَليَّة ليست كصفات البشر.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب، وهذا التهديد إنّما هو للمُشرك الذي يُنكِر خضوع هذا الكون كلّه لناموس الله ونظامه الموحّد، ويُنكِر تسخير هذه الأرض لهذا الإنسان ليؤدِّي عليها وظيفته، كأنّه يقول له: فماذا أنت فاعلٌ لو خُسِفَت بك هذه الأرض وماجَت واضطربت، مَن الذي ترجوه، ومَن الذي تدعوه؟

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ هذا تهديدٌ آخر قُصِدَ به التنبيه إلى دلائل قُدرة الله في السماء، وكيف ينزل منها الماء الذي به قوام الحياة، وتُزَيَّنُ بالشمس والقمر وهذه النجوم والكواكب، فماذا لو تغيَّرَت الحال - والخطابُ للمُنكِرين والمُكذِّبين - فأنزَلَت السماء الحجارةَ عليكم بدل الماء، فمَن ترجونه آنذاك، ومن تدعونه؟

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: نذيري، بمعنى: ستَرَون كيف إنذاري لكم، وكيف سيتحقَّقُ فيكم.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: فكيف كان نكيري عليهم، وهذا تذكيرٌ لُمشركي مكّة بما أصابَ أسلافَهم في القرون الماضية؛ حيث أنكَرَ الله عليهم كفرهم وعنادهم حتى أهلكهم، والتذكير هذا يحملُ التهديد والتخويف لهم؛ لأنّ مبناه القياس والاعتبار.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ يُنبِّهُ القرآن هذه العقول إلى النظر في جنس

الطيور، وهي من لحمٍ وعظمٍ ودمٍ؛ كيف تطير فوق الناس كأنّها تتحدَّاهم وتحلِّق عاليًا في كبد السماء، تصُفُّ أجنحتها في منظرٍ مستقرٍّ مهيبٍ وجميلٍ، ثم تقبِضُها إذا أرادَت أن تُسرع في حركتها، هكذا يراها الإنسان وهو العاجز عن تقليدها، ثم لا يسأل نفسه مَن الذي زوَّد هذا الطائر بأدوات الطيران، ومَن الذي فتح له هذه الأجواء فيتنفَّس منها، ويعوم فيها كما يشاء.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: ما يُمسِك هذه الطيور في هذا الفضاء ويمنعهنَّ من السقوط إلّا الرحمن تبارك وتعالى، فهو برحمته الذي يسَّر لها كلّ ذلك لتُضفِي على هذا الكون حالةً من الأُنس والسكينة والجمال.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هذا تهديدٌ آخر يُناسب عنادهم وغرورهم، وسؤالٌ لهم على جهة الاستنكار عن هذا الذي يمكن أن يكون جُندًا لهم ينصرهم ويدفع عنهم بأسَ الله إذا جاءهم، ومجيء اسم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ هنا - والمقام مقام وعيدٍ وتهديدٍ - يُوحِي بأنّ الله لا يحبُّ لهم العذاب، بل هم الذين يجلبونه لأنفسهم؛ فإنّ الذي يُزيِّنُ السماء بكلِّ تلك الزينة؛ زينة الكواكب وزينة الطيور، ويسخِّرُ لهؤلاء الناس كلّ ما يحتاجون إليه لا يمكن أن يُريد بخلقه شرًّا ولا بعباده عذابًا، ﷻ وهو أرحم الراحمين.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ وغرورهم هذا هو الذي أهلكهم.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ فالله يرزقهم على كفرهم، وهو لو شاء سبحانه لحبس عنهم ماء السماء، ولمنع عنهم نبات الأرض، ولابتلاهم بالقحط والجوع، فمن ذاك الذي سيمطر لهم السماء أو ينبت لهم الأرض؟

﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ تمادَوا في عنادهم وخصومتهم للحقِّ.

﴿فِى عُتُوٍّ﴾ في طغيانٍ وتكبُّرٍ.

﴿وَنُفُورٍ﴾ وإعراضٍ عن الحقِّ.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هذا مثَلٌ ضرَبَه الله يُقارِنُ فيه حالَ الكافرين وهم حيارَى يتخبَّطُون ويتلمَّسُون مواطِئَ أقدامهم؛ لشدَّة حيرَتهم، وظُلمة

طريقهم، بحال المؤمنين المُطمئنِّين الذين يَسِيرُون على الجادَّة المُستقِيمة البيِّنَة برؤوسٍ مرفوعةٍ، وقاماتٍ مُعتَدِلةٍ لا تخشَى التعثُّر.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ بمعنى أنَّ الله الذي خلقكم قد زوَّدكم بأدوات المعرفة؛ مِن سمعٍ وبصرٍ وعقلٍ، ولكنكم أهمَلتموها ولم تشكروا اللهَ عليها، فالشكرُ كما قال الجنيد: (ألّا تستَعِينَ بنِعَمِ الله على معاصِيهِ).

وهؤلاء وظَّفوا سمعَهم وبصَرَهم وعقولَهم في الصدِّ عن سبيل الله، وفي الآية توبيخٌ لهم على قولِهم السابق: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كثَّركم فيها فكنتم شعوبًا وقبائل.

﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: عِلم يوم القيامة؛ فهو إلى الله وحده، وإنّما يعلم الرسول ما يعلمه عن طريق الوحي، فليس للرسول أن يعلمَ الغيب من نفسه، ولا أن يُبلِّغَ شيئًا لم يأمره الله بتبليغه.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ فلما رأوا يوم القيامة بأهواله وعذابه حالًّا عندهم وقريبًا منهم.

﴿سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ جواب (لمّا)، أي: لمّا رأوا العذاب أصابهم السوء، أي: الغَمُّ حتى ظهر على وجوههم.

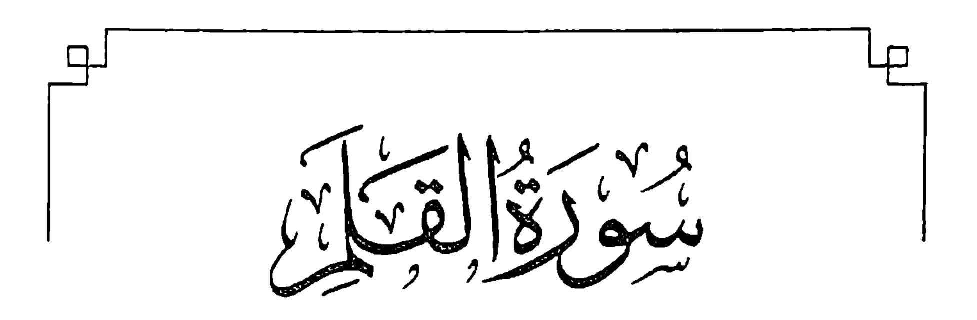
﴿وَقِيلَ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ﴾ أي: هذا الذي كنتم تُكذِّبون به وتدَّعون أنّه لن يكون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ فقد كان المشركون يتمنَّون موته ﷺ، فيقول له الله سبحانه: قل: ماذا لو أنّ الله أماتَني وأماتَ معي كلّ أصحابي، أو أبقانا برحمته لتستمرَّ هذه الدعوة، فهذا أمرُ الله وإرادته التي لا رادَّ لها، لكن هل هذا سينفعكم وسيدفع عنكم عذاب الله الذي ينتظركم؟ ﴿فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ كلامٌ مستأنَفٌ، يُعلِن عن عقيدة هذه الأُمّة عقيدة التوحيد الخالصة: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ﴾ فلا ربّ غيره، ولا خالق ولا رازق سواه، آمنَّا به وحده، وتوكّلنا عليه وحده.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائرًا في الأرض لا تستطيعون له طلبًا ولا تصِلون إليه.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ ظاهر وجارٍ بين أيديكم، والسؤال استنكاري بمعنى أنّه إنْ منع الله عنكم الماء، فلن تقدر أصنامكم على أن تأتيكم به، والمقصود بكلّ هذا: التنبيه على دلائل قُدرة الله ووحدانيّته ورحمته بهذا الخلق.



المجلس الثاني والستون بعد المائتين: وإنَّك لعلى خُلُق عظيم

سُورَةُ القَلَم

﴿نٓ ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ الْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ الْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾

وإنك لعلى خُلُق عظيم

تتناول سورة القلم شؤونَ الدعوة المكيَّة، خاصَّةً أنها من أوائل سور القرآن نزولًا، مُركِّزَةً الحديثَ في الجانب الأخلاقي، بدءًا بتزكيةِ النبيِّ الكريمِ ﷺ، ثم ببيانِ سُوء أخلاقِ مُكذِّبيه ومُعانِديه، ثم بتقديمِ نموذجٍ من قصص الماضِين يُبيِّنُ تأثيرَ الإيمان في أخلاق الناس، مع محاججات لمشركي مكّة، ثم تختتم السورة بتوجيهاتٍ للنبي الكريم ﷺ بالصبر على عناد قومه ونفورهم عنه، وأخذ العبرة من قصة يونس عليه السلام لما ضاق ذرعًا بقومه حتى تركهم، ثم

أرجعه الله إليهم، وكما يأتي:

أولًا: تبدأ السورة بتزكية النبي الكريم ﷺ تزكية شاملة مؤكِّدة ذلك بالقسم ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾؛ فقد زكَّاه الله تعالى في عقله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وزكَّاه في دينه ومكانته عند ربه: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾، وزكَّاه في خُلُقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

ولقد كانت قريش تنال منه وتطعن في عقله حتى اتهموه بالجنون، وتطعن في دينه حتى اتهموه بالسحر والافتراء على الله، وتطعن في خُلُقه حتى رموه بالكذب، واتهموه في قصده ونيّته؛ كلّ ذلك لينفّروا الناس عنه، خاصّة أولئك البعيدين عن مكّة، والذين رُبَّما يفدُون إليها للحج أو التجارة، فكانت هذه الكلمات تؤثِّر فيهم، وكان ردُّ القرآن واضحًا ومباشرًا، وقادرًا على أن يصِل لكلِّ أحدٍ بكل يُسرٍ.

ثانيًا: تؤكِّد السورة أنه سيأتي اليوم الذي تنكشف فيه الحقائق انكشافًا حتى يتبيَّن للناس مَن كان أَولَى بهذه التهم الباطلة، ومَن هو المُهتدي الماشي على الصراط المستقيم، ومَن هو الضالُّ التائهُ الحائدُ عن الصراط ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

ثالثًا: تعرِض السورة صفات أولئك الكاذبين المُكذِّبين، والمستوى الأخلاقي المَهين الذي يرتكِبُون فيه، ومِن ثَمَّ تدعو النبيَّ ﷺ - والخطاب عامٌّ لكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ - ألا يكترث لهم، ولا يضعف أمامهم ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾.

رابعًا: تُقدِّم السورة نموذجًا فيه الدرس البليغ، وفيه الربط الوثيق بين الإيمان والأخلاق، وخلاصته أنّ إخوة كان لهم بستانٌ مُثمِرٌ، وقد حان قِطاف ثمره، فاتفقوا بينهم أن يخرجوا في الصباح الباكر خفيةً حتى لا يعلَم بهم الفقراء الذين كانوا ينتظرون هذا اليوم لعلَّهم يحظَون منهم بشيءٍ، فلمَّا حسَموا أمرهم بحِرمان الفقراء، حسَمَ الله أمرَ بستانهم، وحرمهم من

قِطافهم ومصدر رزقهم، فاعتبروا بذلك وندِموا ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ (٢٢) فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ (٣٠) قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾.

خامسًا: تُحذِّر السورة هؤلاء المشركين المُكذِّبين من مغبَّة الاستمرار في عنادهم وتكذيبهم، وتطلُب منهم أن يُقدِّموا بُرهانهم على ما يدَّعونه، أو شاهِدًا يشهد لهم، أو إن كانوا قد أخذوا من الله موثِقًا فهم مُطمئنّون إليه، أو إن كانوا مُتبرِّمين من ثِقَل الأجر الذي يطلبه منهم رسولُ الله لقاء دعوته لهم، وتعبه معهم ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ (٣٣) إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾.

سادسًا: تدعو السورة النبيَّ ﷺ إلى أن يصبِر على أذى قومه له وإن كانوا قد بلغوا في أذاه كلّ مبلغ، وأن يأخذ العبرة من نبيِّ الله يونس ؛ إذ ضاق ذرعًا بقومه، فخرج عن غير إذنٍ من ربِّه، فعاتَبه الله ثُمّ أرجعه إليهم ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (٥٠) وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿نٓ﴾ من الأحرف المقطَّعة، وقد تقدَّم الكلام فيها وبيان القول الراجح في تفسيرها أوَّل سورة البقرة.

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ يُقسِم الله بأداة توثيق العلم؛ وهي القلم، ويُقسِم بما يكتبه الكاتبون؛ وهو العلم نفسه، وفي هذا إعلاءٌ من شأن العلم وأهله، ولم يُفصِّل القرآن في مضمون هذا القَسَم، فهو يصدُق على العلم الذي يدوِّنه الملائكة في السماء، والعلم الذي يدوِّنه العلماء في الأرض، والله أعلم.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ أي: ما أنت مع ما أنعم الله عليك من النعم وخصَّك به من النبوة وسائر الكمالات بمجنون، بمعنى أنّ نعمة الله عليك ظاهرة بكمال العقل والخُلُق والحكمة، فكيف يقال عنك مجنون؟

﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: أجرُك عند الله دائمٌ غير مقطوع، وفي هذا بيان لكمال دينه وعظيم منزلته عند الله.

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ والخُلق عامٌّ في كلِّ السجايا والشمائل المرغوبة، واستعمل فيها كلمة (على) التي تُفيد التمكُّن التام، بمعنى أنّه ﷺ قد تمكَّن تمكُّنًا تامًّا من كلِّ معاني الأخلاق حتى تحقَّق فيه الكمال من كلِّ وجهٍ.

﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾ أي: ستعلَم يا محمد، وسيعلمون في ذلك اليوم - وهو يوم القيامة - الذي تنكشف فيه الحقائق، وتظهر فيه الخبايا.

﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ الفتنة هنا تعني: الاضطراب بسبب جنون العقل، أو سوء الخُلُق، بمعنى أنّه يوم القيامة سيعلَم الناس مَن الذي كان مفتونًا بعقله ودينه وخلقه.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ تفسيرٌ للمفتون، وهو التائه والخارج عن جادَّة الصواب.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ في إشارة إلى إمام المُهتدين سيدنا محمد ﷺ ومن سارَ على هَديه إلى يوم الدين.

﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ أي: تمنّى المشركون لو تُداهِنهم وتلين لهم فلا تُسفِّه دينهم، ولا تعِيب عليهم أصنامهم، فيلِينون لك هم كذلك، فلا تسمع منهم مثل هذه الشتائم.

والمُداهَنة التي يرفضها الشرع هنا هي المداهنة في تغيير العقائد، وتحريف الأحكام، أمّا لو كانت المُداهَنة بمعنى اللِّين في القول، والمبرَّة بالخُلق، والتعاوُن في وجوه الخير؛ كنجدة المظلوم، وإغاثة اللهفان فلا حرج في هذا.

وقد مرَّت معنا آيات كثيرة في هذا، مِن مثل قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقول الله تعالى لموسى وهارون ﵉: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحلف، والمراد به هنا: المُكثِر من الكذب فيما يحلف عليه.

﴿مَّهِينٍ﴾ ضعيفٌ في رأيه، حقيرٌ في خُلقه.

﴿ هَمَّازٍ﴾ كثير الهمز؛ وهو الطعن في الآخرين بالغيبة وغيرها.

﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ كثير النميمة.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ شحيح لئيم لا يحبُّ الخير للآخرين.

﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز للحدِّ بعدوانه على الحقّ وأهله.

﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الإثم.

﴿ عُتُلٍّۭ﴾ غليظ الطبع، ظلوم جهول.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ أي: وفوق كلِّ الذي مرَّ من الصفات القبيحة فهو زَنيمٌ؛ بمعنى أنّه لصيقٌ بقريش وليس منهم، وهذه الصفة تعني أنّ القرآن قصد معيَّنًا لكنّه لم يُسمِّه، والأَولَى السكوت عن ذلك؛ إذ لا فائدة في تعيينه الآن.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ تعليلٌ لغِلظته وشدَّته في الباطل، وغروره وتكبّره.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطّره الأولون من قصصٍ وحكاياتٍ لا تستندُ إلى علمٍ ولا دليلٍ.

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أي: سنضربه على أنفه، وهذا كنايةٌ عن إذلاله غاية الإذلال؛ إذ الأنف عند العرب رمزٌ للكبرياء والأَنَفَة، ورُبَّما كان هذا الشقيُّ ممَّن قُتِل في بدر، والله أعلم.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: اختبَرناهم كما اختبَرنا أصحابَ البُستان، والاختبار هنا يعني أنّه تعالى أمهَلَهم وأمدَّهم بما يتمتَّعُون، حتى يرَى مُحسِنَهم من مُسيئِهم، وكان هذا التشبيهُ مدخلًا لطيفًا لقصَّة أصحاب البُستان هؤلاء.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: عزموا على أن يَجُذُّوا ثمارَها فجرًا، حتى لا يعلَمَ بهم أحدٌ من الفقراء الذين كانوا ينتظِرُون منهم شيئًا في يوم جذاذِها، كما كانت سُنَّة أبيهم في رعايته للفقراء.

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ أي: لا يتركون من ثمرها شيئًا إلَّا أخذوه.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾ أي: فنزل بها من أمر الله ما نزل وهم نائمون، ورُبَّما كان ذلك صاعقة من السماء.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالرماد الأسود؛ وهذا أنسب التفاسير إن كانت قد هلَكَت حرقًا بالصاعقة التي ضربتها، والله أعلم.

﴿فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا عند الصباح ليمضوا فيما عزموا عليه.

﴿أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أي: بكِّروا وامشوا إلى بستانكم.

﴿إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ﴾ أي: إن كنتم عازمين على قطف الثمار، والشرط هذا ليس على سبيل التعليق؛ إذ لا وجه للتعليق هنا، بل هو لحثّهم على الإسراع، كأنّ قائل هذا القول قد استبطأهم.

﴿فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ﴾ يتهامسون فيما بينهم كي لا يسمع بهم أحدٌ.

﴿أَن لَّا يَدۡخُلَنَّهَا ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكُم مِّسۡكِينٞ﴾ إذ هذه هي غايتهم المبيَّتة والمتفق عليها بينهم.

﴿وَغَدَوۡاْ عَلَىٰ حَرۡدٖ قَٰدِرِينَ﴾ أي: أصبحوا قادرين على منع المساكين مما ينتظرونه.

﴿فَلَمَّا رَأَوۡهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ أي: لما رأوها مُحترقةً قد ذهبت معالمها، قالوا لأوَّل وَهلَتِهم: إنَّا لتائِهُون.

﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أدركوا الحقيقة أنّهم أرادُوا حِرمانَ المساكين، فحَرَمَهم الله.

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: قال لهم أحكمُهم وأعدلُهم رأيًا: ألم أنصحكم بأن تذكروا الله وتسبِّحوه؟ والظاهر من السياق أنّه يلومهم على فِعلتهم مع أنّه كان معهم، بمعنى أنّه لم يكن راضِيًا بما بيَّتُوه تجاه المساكين، لكنّه لم يجِد بُدًّا من الذهاب معهم؛ لأنّ البستان بستانهم جميعًا.

﴿قَالُواْ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ أي: اعترفوا بخطئهم، وآبُوا لرُشدهم.

﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ﴾ والتلاوُمُ عادة البشر في مثل هذه الأحوال، حتى لو اشتركوا في الفعل، فالذي انقَدَحَت في ذهنه الفكرة وأشارَ عليهم بها يتحمَّل اللومَ أكثر، ثُمّ مَن سارَعَ في تأييده، وهكذا.

﴿قَالُواْ يَٰوَيۡلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ تأكيدٌ لاعترافهم، لكنّه اعترافٌ ممزوجٌ بالندم والحسرة.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرٗا مِّنۡهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ﴾ بعد أن استيقَظَ الإيمان في قلوبهم، وأقرُّوا بخطَئِهم، راحُوا يسألونَه سبحانه أن يُبدِلَهم خيرًا منها، وهذا هو طريقُ المُؤمن حينما يهفو ويقَع في الذنب؛ أن يعترِف أولًا ولا يُكابِر أو يُعانِد، ثم يُصحِّح مسيرتَه، ويفتَح بابَ الرجاء والأمل الواسع مع ربِّه، فهو سبحانه الغنيُّ عن مُعاقبة عبيده، لكنَّه يُربِّيهم ويُنبِّههم ليردَّهم إليه.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾ أي: هكذا يكون العذاب إذا أراد الله أن يعجِّل به لأحدٍ في الدنيا، وفي هذا تهديدٌ لمُشركي قريش أن يُصيبَهم عذابٌ قريبٌ قبل عذابهم الأخروي الذي هو أشدّ وأكبر.

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هدَّدهم بالعذاب، ثمّ رغَّبهم بالنعيم، وهكذا هي طريقة القرآن تجمَع بين الترغيب والترهيب.

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ سؤالٌ استنكاريٌّ، وفيه تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي، فإنَّما التمايز بالإيمان والعمل، وليس بشيءٍ آخر.

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أنكر عليهم طريقتهم في الحكم على الناس، ومعاييرهم وموازينهم التي يحكمون بها، ويقيسون عليها.

﴿أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ يسألهم عن مصدر معاييرهم تلك: هل كانت من كتاب قد نزل عليهم، وفيه كل هذا الذي يتخيّرونه ويشتهونه؟ والقرآن يؤكِّد أنَّ هؤلاء لا يستندون إلى شيءٍ مكتوبٍ وموثّقٍ، وإنّما هو الهوى والطغيان.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ أي: إذا لم يكن عندكم كتابٌ على وفق ما تشتهون، فهل كان لكم عهدٌ ثابتٌ ودائمٌ مع الله أن يُعطيكم كلّ ما تحكمون به؟

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: من هو كفيلكم عند الله الذي يتكفَّل لكم بكلِّ هذا الذي تتمنّونه وتشتهونه، ويعلم كلّ تلك الأَيمان والمواثيق؟

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ أي: إن لم يكن عندهم كُفَلاء يكفلُون لهم حقَّهم الذي يزعُمُونه عند الله، فهل يعتَمِدُون بذلك على أصنامِهم؟ أو هل يرَونَ أن أصنامَهم هذه ستأخُذُ لهم حقَّهم من الله؟ إذن فليأتوا بها يوم القيامة! وهذا غايةُ التهكُّم بعقولهم وطريقتهم البائسة في التفكير.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ ذاك يوم القيامة الذي سيُحشرون فيه هم وآلهتهم المزيّفة، وسينكشف لهم الأمر تمام الانكشاف، والساق هنا كناية عن عمود الأمر، وأصل الخلاف الذي كان بينهم وبين المسلمين، فتتَّضِحُ فيه الحقائق، ويشتدُّ الخَطبُ عليهم، وقد تكون هناك حقائِق أخرى من عالم الآخرة ستنكشِف، وهذا موكولٌ إلى الله وحده.

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ

﴿سَٰلِمُونَ﴾ هذا مشهدٌ من مشاهد الآخرة؛ حيث يُدعَى الناس إلى السجود لربِّهم، وهم محشورون جميعًا في أرض المحشر مؤمنهم وكافرهم، فيسجد كلُّ من كان مؤمنًا ساجدًا لله في حياته الدنيا، ويبقَى هؤلاء الأشقياء لا يستطيعون السجود، فتُصيبهم الذلّة والحسرة، ويتذكرون كيف كان النبيُّ يدعوهم إلى الإيمان بربِّهم والسجود له، وقد كانوا يستطيعون ذلك، لكنّهم أعرَضوا واستكبَروا.

وقد جاء في «الصحيحين»: «**فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ، فَلاَ يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ للهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللهُ لَهُ بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ**»(١).

والحديث الشريف يُشير إلى أن هناك حقائق أخرى لا نعلَمُ عنها شيئًا ستنكَشِفُ لنا، والله سبحانه أعلم بها وبكيفيَّتها.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: اترك أمرَ هؤلاء المُكذِّبين وكِلْهم لي.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الاستِدراج: أخذهم من حالٍ إلى حال حتى يصِلوا إلى ما فيه هلاكُهم، والاستِدراج لا يكون إلَّا بالشرِّ، وهو من مكرِ الله بالطغاة؛ حيث يُمهِلهم ويمدّهم بالنعم وبأسباب القوة حتى يأخذهم من حيث لم يحتسبوا، ويُؤكِّد هذا قوله تعالى:

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾أي: أُمهِلهم ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: شديد، وهو على سبيل المُشاكَلَة التي تُناسِبُ كيدَهم في الدنيا.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ أي: هل أثقَلتَ عليهم يا محمد بما تطلُبُه منهم من أموالٍ لقاء دعوتهم ونصحهم؟ وهذا السؤال قُصِدَ به تنزيه الدعوة عن أيِّ غرضٍ ماديٍّ، وبيان أنّ المشركين لم يَبقَ عندهم حجّة ولا عُذر إلا العناد والمكابرة.

---

(١) متفق عليه عن أبي سعيد الخدري ﷺ، واللفظُ لمسلم، وقد رواه مسلمٌ مُطوَّلًا، وأورده البخاري مُختصرًا. ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٨٧٠/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧- ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ١١٥/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿أَمۡ عِندَهُمُ ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ﴾ أي: هل وصل سلطانهم إلى الغيب فهم يكتبون فيه ما يشاؤون ويشتهون؟ وهذه غايةٌ في الازدراء والتهكُّم بعقولهم.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ أي: امض في طريق دعوتك، واصبِر لأمر الله ولحكمه تعالى فيهم، فلكلِّ أجلٍ كتابٌ.

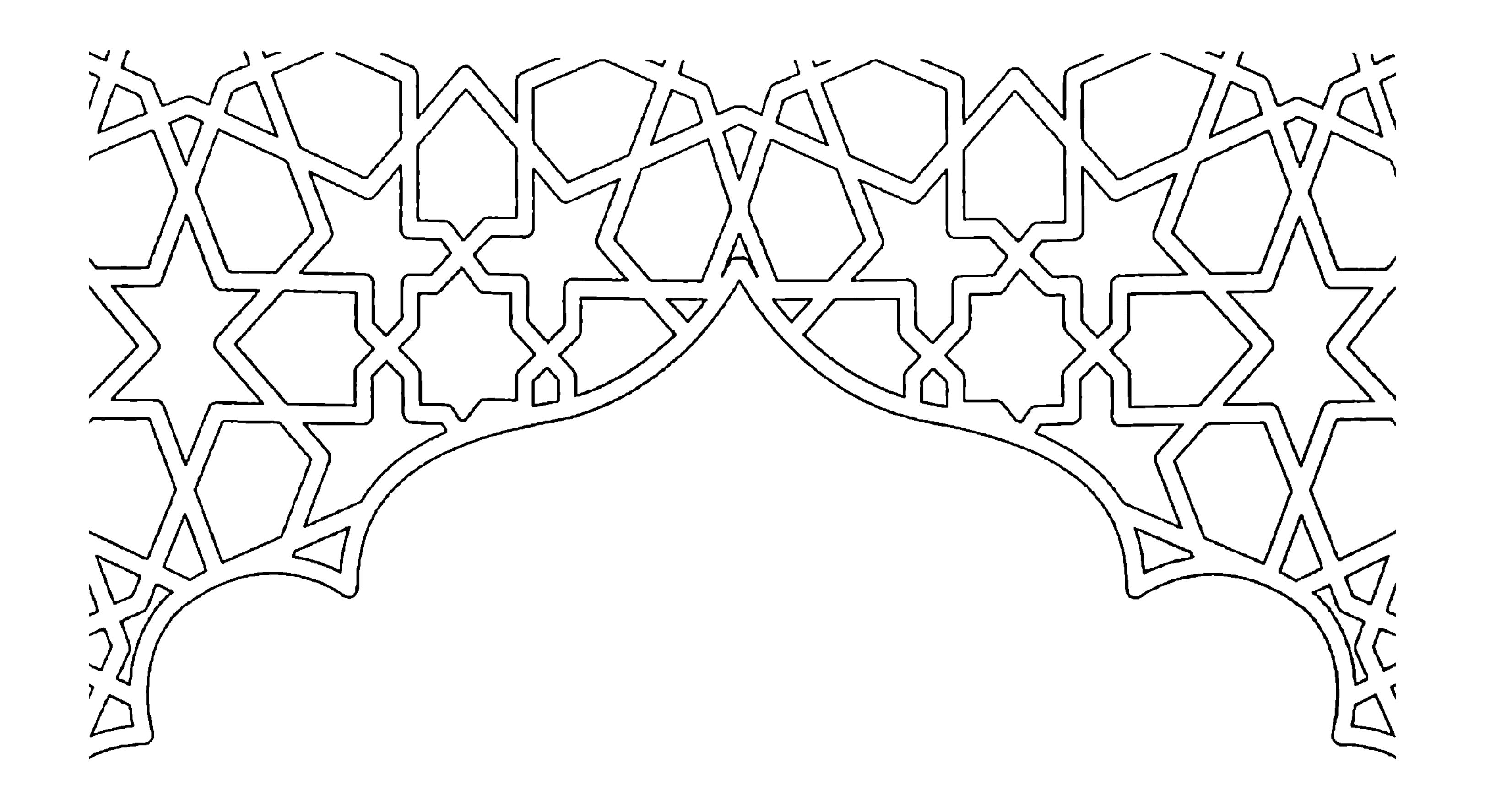
﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ وهو يونس على نبيِّنا وعليه الصلاة والسلام، أي: لا تكن مثله في عدم صبره على قومه.

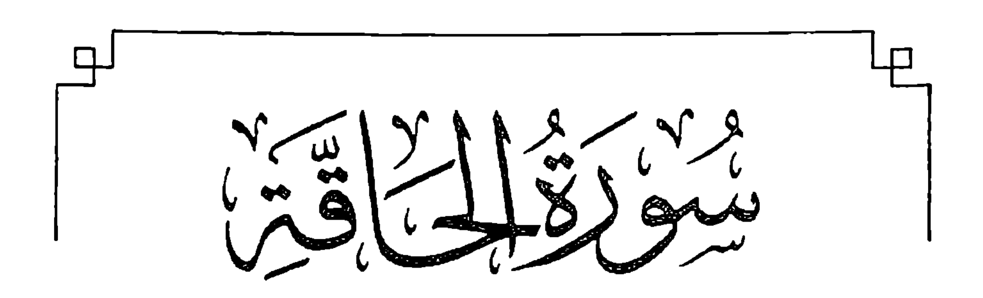
﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ أي: نادَى اللهَ وتضرَّعَ إليه وهو مهمومٌ، ومُغلَقٌ عليه في بطن الحوت.

﴿لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ أي: لولا نعمة الله عليه واستجابته لندائه وتضرُّعه لألقَاه الحوتُ في العراء، فتُرك هناك بلا مأوًى ولا زادٍ حتى يموت، لكن الله تولّاه ونجّاه من هذه المحنة، وأتمَّ عليه نعمته ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾ عاد القرآن في الختام إلى ما ابتدأت به السورة، مُذكِّرًا بموقف قريش من الرسول الكريم ﷺ واتهامهم له، ومكرهم به، وحقدهم عليه، وهو إنّما يدعوهم لما فيه ذِكرهم وخيرهم، وقوله تعالى: ﴿لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾ أي: ينظرون إليك نظرًا بغيضًا، ويتمنّون لو أنّهم كانوا قادرين على إسقاطك أرضًا بشزر أعينهم، كما يسقط الذي يزلق في الطين ونحوه.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن هذا الذي أغاظَهم ودفعهم إلى هذه العداوة إنما هو القرآن الذي فيه ذِكرهم وذِكر العالمين أجمعين، يذكِّرهم بالحق ويدعوهم إليه، ويرفع من شأنهم وقدرهم به في الدنيا والآخرة لو كانوا يعقِلون.





المجلس الثالث والستون بعد المائتين: يومئذٍ تُعرضون لا تخفَى منكم خافِية

المجلس
الثالث والستون بعد المائتين

سورة الحاقة

﴿الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (٨) وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ (٩) فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً (١٠) إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (١١) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ (١٢) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧) فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ (٣٨) وَمَا لَا تُبْصِرُونَ (٣٩) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١) وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٣) وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ (٤٩) وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ (٥١) فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٥٢)﴾

يومئذٍ تُعرضون لا تخفى منكم خافية

اليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ وأحوالٍ هو موضوع هذه السورة، تعرِضه السورة من ذلك اليوم الذي تُدكُّ الجبال فيه دكًّا، وتنشقُّ السماء شقًّا، إلى اليوم الذي يُعرَض فيه الناس ليرَوا نتائج أعمالهم؛ فمنهم المبشَّرون بالجنة، ومنهم المعذَّبون بالنار، ويتخلَّل هذه المشاهد تذكيرٌ بالهلاك الدنيوي الذي أصابَ الأممَ المكذِّبة، ومحاجة للمُكذِّبين المُعاصرين لنزول السورة وهم أهل مكّة، وكما يأتي:

أولًا: تستهِلُّ السورةُ بالتذكير بذلك اليوم العَسِير، لافِتة الأنظارَ إلى ترقُّبِ أخبارِه ﴿الْحَاقَّةُ

﴿ٱلۡحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلۡحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ﴾ إنّه عنوانُ السورة، وقد أتبع بأسئلة تستفِزُّ العقلَ، وتستثِيرُ الوِجدان، ثم يتأخّر الجواب حتى تبقى الأذهان مُتحفّزة، والأبصار مشدودة، فيُعرِّج القرآن إلى موضوعٍ آخر قبل أن يعودَ إلى الجواب.

ثانيًا: يعرض القرآن لأحوال الأُمم السابقين المُكذِّبين بدعوة المرسلين، وما أصابهم جرّاء هذا التكذيب، وفي هذا تهديدٌ لا يخفَى لمُشرِكي مكّة، تبدأ السورة بثمود وهم قوم صالحٍ ﷺ ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾، ثم تُثنّي بعادٍ وهم قوم هودٍ ﷺ ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾، ثم تُثلِّث بفرعون والمؤتفكات وهي قرى قوم لوطٍ ﷺ ﴿وَجَآءَ فِرۡعَوۡنُ وَمَن قَبۡلَهُۥ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتُ بِٱلۡخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوۡاْ رَسُولَ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً﴾، ثم تختتم بقوم نوح ﷺ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةٗ وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾. وكأنَّ القرآن قدَّم هذه المشاهد؛ لأنها تُقرِّب صورةَ الدمار الأكبر الذي سيكون عند قيام الساعة، وهي الحاقَّة، عنوان هذه السورة وموضوعها الأساس.

ثالثًا: عاد القرآن ليُفصِّل في معنى الحاقَّة بعد أن قرَّبها للأذهان بصور الدمار والخراب التي أهلَكَ الله بها الأُمم السابقة، عاد القرآن ليرسُم صورةً لذلك اليوم المهُول الذي يبدأ بنفخ الصور؛ وهو الإعلانُ الإلهي الحاسِم بانتهاء هذه الحياة لتبدأ الحياة الثانية كما وعد الله تعالى وقدَّر: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ۝١٣ وَحُمِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةٗ وَٰحِدَةٗ ۝١٤ فَيَوۡمَئِذٖ وَقَعَتِ ٱلۡوَاقِعَةُ ۝١٥ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ ۝١٦ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ۝١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾.

رابعًا: في ذلك اليوم الذي يُعرَض الناس للحساب ولا تخفَى فيه خافية مهما صغُرَت؛ فكلُّ أعمال الإنسان محفوظة ومسطورة، هنا ينقسم الناس على فريقين: الفائزين بالجنان والرضوان ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ۝١٩ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠ فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ۝٢١ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٖ ۝٢٢ قُطُوفُهَا دَانِيَةٞ ۝٢٣ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي

ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾.

وأمَّا فريق التُّعساء الخاسرين فهذا هو مصيرُهم ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾.

خامسًا: وفي خِتام هذه السورة، يلتفت القرآن إلى مُشركي مكّة يدعوهم إلى أن يُفكِّروا في هذا الوحي ودلائل صدقه، وقوَّة حجَّته، وأن يتركوا ما يتشبَّثون به من الشُّبهات والتُّرَّهات الفارغة، ثم لينظروا في المصير الذي ينتظرهم قبل أن يندموا فلا ينفع الندم، ويتحسَّروا فلا تنفعهم الحسرة ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ اسمٌ من أسماء اليوم الآخر، وأصله وصفٌ للساعة، أي: الساعة الثابتة التي لا شكَّ فيها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ أي: كذَّبوا بيوم القيامة، والقارعة اسمٌ من أسماء القيامة، بمعنى أنّها تقرع القلوب بأهوالها.

﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ أي: بالصيحة الطاغية، بمعنى أنّها صيحة متجاوزة للحدِّ الذي يعرفه البشر، أو هي التي طغَت على كلِّ شيءٍ، وأهلكت كلَّ شيءٍ.

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ أي: بريحٍ شديدةٍ لها صوتٌ، والعاتية بمعنى: الطاغية.

﴿حُسُومًا﴾ من الحسم، وهو الاستئصال، بمعنى أنها استأصلَتْهم فلم تُبْقِ منهم باقية.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ أي: كانت جثامينهم كأصول الجذع الخاوية والمُنقعرة.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ أي: ومن تقدَّمه من الطغاة.

﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قرى قوم لوطٍ.

﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ أي: بالفعلة الخاطئة.

﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي: إن كلَّ قومٍ من هؤلاء عصَوا رسول ربِّهم الذي أرسله إليهم.

﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ والرابية بمعنى: الطاغية والعاتية، أي: أهلكهم إهلاكًا زائدًا عمَّا يعرفه الناس.

﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ أي: السفينة الجارية في الطوفان، والخطابُ في ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ لكافّة البشر؛ لأنَّ البشر جميعًا من ذُرِّيَّة نوحٍ ﷺ الذي نجَّاه الله بتلك السفينة.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ أي: ليتذكَّرها الناس ويأخذوا منها العبرة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ والأُذُنُ الواعِية هي التي تُصغِي وتفهم وتستنتج، وهذا تعريضٌ بالمشركين الذين يسمَعون مثل هذه القصص فيمرُّون عليها لاهِين عابِثين.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ لتنتهي الحياة كلّها بهذه النفخة، ومعلومٌ أنَّ للصور نفخة ثانية هي نفخة البعث والنشور.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ ذاك حينما ينزع الله هذا النظام الكوني الذي يضبط حركة الأفلاك، فتضطرب الأرض، وحملها يُشير إلى خروجها عن مدارها وارتطامها بجرمٍ آخر، ومن هنا يكون دكّها وجبالها.

﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ والواقعةُ اسمٌ من أسماء القيامة أيضًا، وقد مرَّ معنا ذلك في سورة الواقعة.

﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ﴾ فالتغيُّر الكوني سيكون شاملًا للأرض والسماء.

﴿وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ الملَكُ أراد به جِنسَ الملائكة، وليس واحدًا منهم، و﴿عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ﴾ أي: في جنبَات السماء وأطرافها كأنَّهم يستعِدُّون لأمرٍ ما، وهذه صورةٌ من صور ذلك اليوم الرهيب.

﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾ هذا من الأخبار الغيبيَّة التي لا مجال للعقل أن يُحيط بها، أو أن يُحصِّل صورتها كما هي في عالم الغيب، وليس ذلك مطلوبًا، وإنَّما المطلوب استشعار عظمة ذلك اليوم ورهبته، ثم الاستعداد والتهيُّؤ له.

﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ أي: تُعرَضون على الله كما أنتم بذواتكم، وخلَجَات صدوركم وما قدَّمتم لأنفسكم، ولن تخفَى على الله نَفْسٌ منكم، ولا معلومة عنكم مها كبرت أو صغرت.

﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهذه علامة الفوز والفلاح.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ﴾ يقول ذلك لإخوانه المؤمنين؛ لشدَّة فرحه وسروره، ويا لها من فرحةٍ، ويا له من سرورٍ، و﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعلٍ بمعنى: خُذُوا، أي: خذوا كتابي وانظروا فيه.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ﴾ الظنُّ هنا بمعنى: التيقُّن، بمعنى أنِّي كنتُ مُتيقِّنًا أنِّي سأُلاقِي هذا اليوم، فحسِبتُ له حسابَه.

﴿هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ أي: هنيئًا لكم هذا النعيم الذي نِلتموه بما قدَّمتم لأنفسكم من أعمالٍ جليلةٍ في حياتكم الماضية.

﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ وهذه علامة الشقاء والخسران، والعياذُ بالله.

﴿يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ﴾ يتمنَّى أن لو لم يَرَ كتابه أبدًا.

﴿وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ﴾ هذا من التمنِّي أيضًا، بمعنى أنَّه يتمنَّى أن لو لم يكن من أهل الحساب، أو أنَّه لم يُبعَث.

﴿يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ﴾ تأكيدٌ لما سبق، يتمنَّى أن لو كانت موتَته موتةً قاضية لا بعث بعدها.

﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ﴾ يتذكَّر ماله الذي جمعه من حلال وحرام، ما الذي يُغني عنه اليوم؟

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ ذلك السلطان والجاه الذي كان يُضحِّي في سبيله بكلِّ شيءٍ؛ يُحارِبُ من أجله المؤمنين، ويُوالِي في سبيله الكافرين، أين هو الآن؟ لقد هلك وهلك معه كلّ شيء.

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ أي: ضَعوه في الأغلال.

﴿ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ أي: أدخَلوه في الجحيم ليصلَى نارها.

﴿ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾ أي: لفُّوها عليه لفًّا حتى يكون كأنّه في داخلها.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ تعليلٌ بأهم ما أودَى بهذا الشقيّ في هذا المصير البائس: كفره بالله، وتقصيره بحقِّ المساكين، وهذا الربط ذو دلالاتٍ عميقةٍ؛ حيث يقرِن القرآن بين حقِّ الله تعالى وحقِّ المسكين، ويجعلهما كأنّهما في مستوًى واحدٍ، الله الذي بيده ملكوت السماوات والأرض مع المسكين الذي لا يملِك شيئًا، إنّه تأصيلٌ لمفهوم الدين الحقّ، الدين الذي ينظر إلى التقصير بحقِّ الإنسان كالتقصير بحقِّ الله! لأنّ الدين الحقّ إنّما هو دين الرحمة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

أمّا أولئك الذين يُكثِرون من العبادات، ويُقصِّرون في المعاملات، ويتورَّعون عن نواقض الوضوء، ولا يتورَّعون عن نواقض القِيَم، فهؤلاء ما فهِمُوا الدين، وما سلكوا طريق الناجِين، كيف والله تعالى جعل تحقير اليتيم والمسكين علامةً لمن يُكذِّب بهذا الدين؟ قال تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

﴿فَلَيۡسَ لَهُ ٱلۡيَوۡمَ هَٰهُنَا حَمِيمٞ﴾ فليس له في جهنم قريبٌ يُواسِيه أو يدفع عنه.

﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنۡ غِسۡلِينٖ﴾ طعامٌ خبيثٌ يُقدَّم لأهل النار، لا يُتصوَّر بالاشتقاق اللفظي؛ لأنّه من الأخبار الغيبيَّة التي لا سبيلَ للعقل لتصوُّرها على ما هي عليه في عالم الغيب، ويكفي استحضار المقصود منها، وهو التنفير وحصول الاشمئزاز.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ هذه صيغةٌ من صيغ القسَم المؤكّد، والمُقسَمُ به

نوعان: ما يُبصِره الناس؛ كالشمس، والقمر، والجبال، والبحار، وما لا يُبصرونه؛ كالعرش، والكرسي، والملائكة.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا هو جواب القسم، أي: المقسَم عليه، وهنا ينتقل السياق من الحديث عن الآخِرة وأهوالها إلى الحديث عن القرآن الذي هو رسالة الله الأخيرة، والذي هو طريق النجاة والفوز، والرسول الكريم هو محمّد ﷺ، بمعنى أنّ القرآن هو هذا الذي يتلُوه عليكم الرسولُ الذي يُبلِّغكم ما يُوحَى إليه من ربِّه.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ﴾ لأنّهم يعرِفون الشعر وأصوله، والقرآن لا يُمكِن أن يكون شِعرًا كما يدَّعُون ويفتَرُون، ثم لو كان شِعرًا فهم أهلُ الشِّعر، فما الذي يمنَعُهم أن يُعارِضُوه، وأن يأتوا بمِثلِه؟

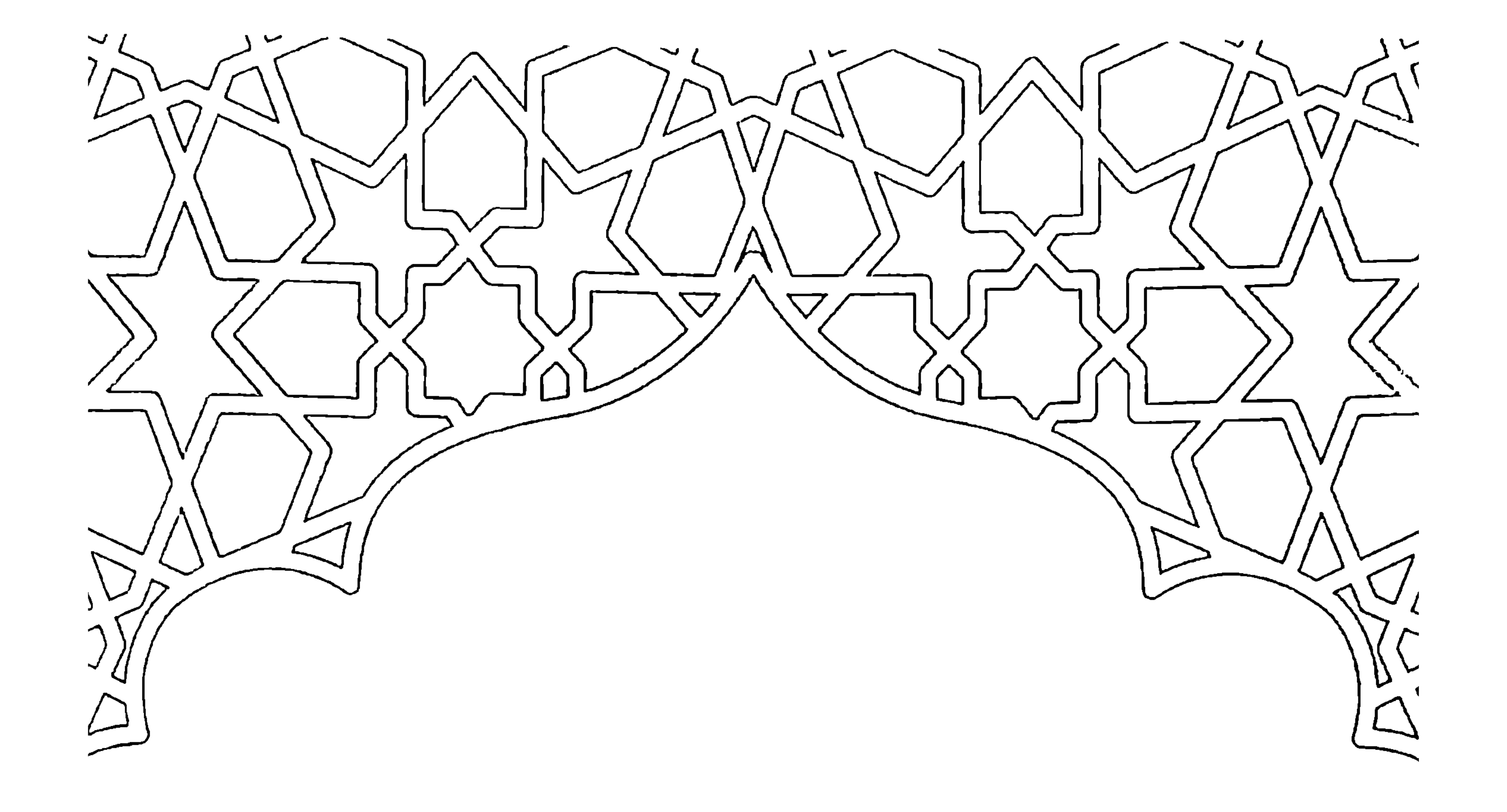
﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ﴾ فالكَهَنة موجودون ومنتشرون في طول الجزيرة وعرضها، وليس في كلامهم ما يُشبِهُ القرآن لا في أخباره، ولا في أحكامه، ولا في أسلوبه، ولا في بيانه، ثم ما الذي يمنع هؤلاء الكَهَنة أن يقبلوا التحدِّي فيأتوا بمثل هذا القرآن؟

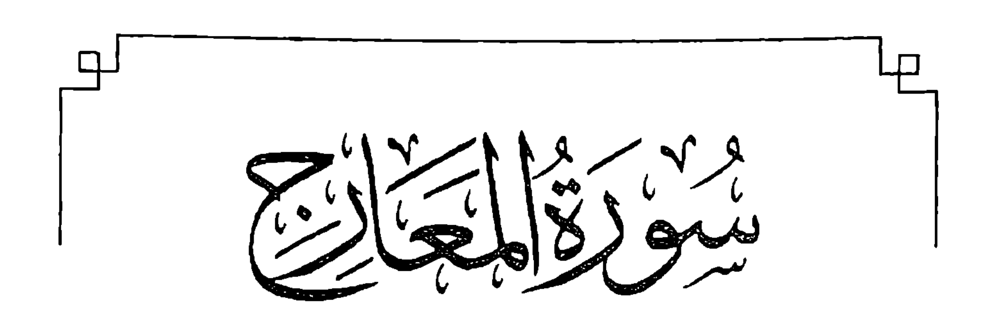
﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ هذا افتراضٌ قُصِدَ منه: تأكيد سلامة القرآن من الزيادة والنقصان، وتأكيد أمانته ﷺ في كلِّ ما يُبلِّغه عن الله، ومعنى هذا الافتراض: أنّه لو كان الرسول - حاشاه - قد تقَوَّلَ على الله، فإنَّ الله لا يترُكه، بل سيمنَعُه ويُهلِكُه، سيأخُذُه باليمين، أي: بالقوة، وسيقطع منه الوتين، أي: يقطع نِياطَ قلبه، بمعنى أنّه يُهلِكه.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ أي: ليس فيكم من سيحُول بيننا وبينه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ لأنّه من الله الحقّ الذي خلق الخلق، فهو الأعلم بخلقه، والأعلم بما يُصلحهم وينفعهم في الدنيا والآخرة.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: فنزِّه الله ﷻ عن كلِّ ما لا يَلِيق به، فهو العظيمُ الذي ليس فوقه عظيم.





المجلس الرابع والستون بعد المائتين: معارج القِيَم الإيمانية والتربوية

المجلس
الرابع والستون بعد المائتين



﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾

معارج القِيَم الإيمانية والتربوية

تتناول سورةُ المعارج مجموعةً من القِيَم الإيمانيَّة والتربويَّة التي تُؤسِّسُ لبناء الفرد الصالح والمُجتمع الصالح في تلك البيئة التي تعُجُّ بالأوثان، والأوهام، والأعراف الفاسدة، ومِن ثَمّ جاءت هذه القِيَم في إطارٍ من الصراع مع الجاهليَّة وآثارها في الدين والنفس، والحياة العامّة والخاصّة، وكما يأتي:

أولًا: تستهِلُّ السورةُ بنموذجٍ من المُكذِّبين المُعانِدين، يسأل عن اليوم الذي سيهلك فيه وينزل عليه العذاب الذي يتوعَّده الله به، يسأل على طريقة الساخر المُستهزِئ، أو على طريقة المُكابِر المتحدِّي.

عجيبٌ أمر هذا المخلوق الذي يرى نفسه أكبرَ من هذا الكون بما فيه من آياتٍ ودلائل،

وأعلم بخلق الله مِن الله، ثُمّ يتحدَّى وهو الذي خُلِقَ من حيث لا يعلم، وسيفنى من حيث لا يُريد، لا يدري شيئًا عن السماء وما يعرُجُ فيها، ولا الأرض وما ينزلُ عليها، أو يكمنُ في باطنها ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ (١) لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ (٢) مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ (٣) تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ (٤) فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا (٥) إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا (٦) وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا﴾.

ثانيًا: تعرِضُ السورة طرفًا من ذلك اليوم الأكيد، والعذاب الشديد الذي ينتظر هذا النمَط من المُتكبِّرين الذين جاوزوا بتكبُّرِهم كلّ الحدود ﴿يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ (٨) وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ (٩) وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا (١٠) يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ (١٣) وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤) كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ (١٥) نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ (١٦) تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ (١٧) وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ﴾.

ثالثًا: تُبيّن السورة طبيعةَ هذا الإنسان وحالَتَه القلِقة المُتردِّدة، باستعداداته التكوينيَّة الأوليَّة القابِلة للصعود والهبوط، والاستقامة والانتكاسة، والتعليم والتجهيل؛ فإنْ صقلَ الإنسان نفسَه وهذَّبها كان في علِّيِّين، وإن أهمَلَها وضيَّعَها كان في السافِلِين، كحال هذا المسكين ﴿۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا﴾.

رابعًا: استثنَت السورة نفرًا من المُتَّقين الذين هذَّبُوا نفوسهم وألزموها الصراط المستقيم، ووزنوها بميزان الحقّ القويم، وفق هذه المعايير الواضِحة والمُنضبِطة:

١- المُداوَمة على الصلاة ﴿إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ ولا شكّ أنّ هذا الإنسان الذي ألزَمَ نفسه بالمداومة على الصلاة هو إنسانٌ مُلتزمٌ ومنضبطٌ، قد تخلَّصَ من الفوضويَّة والعبثيَّة، وهذه هي أولى خطوات النجاح.

٢- أداء الزكاة والتي تعني فيما تعنيه: الاستعلاء على شهوة المال، والانطلاق في طريق الخير لخدمة المجتمع، والتخفيف من معاناة المعوزين والمحتاجين ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ (٢٤) لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾.

٣- الإيمان بعقيدة الحساب والجزاء؛ فلا مجال للعبث والفوضى في هذا الكون، ولا في هذه الحياة، فلا بُدّ أن ينتصف المظلوم مِمَّن ظلمه، ولا بُدّ أن يلقَى فاعل الخير ثوابه، كما يلقَى فاعل الشرّ عقابه، وبغير هذا الإيمان تكون الأرض عبارة عن غابةٍ كبيرةٍ لا حظّ فيها لفقيرٍ أو ضعيفٍ، ثم تتصارَع الوحوش الكبيرة فيما بينها، وتنتهي الحياة بهذه الصورة التي لا يتمنَّاها ولا يرجوها عاقلٌ سويٌّ ﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (٢٦) وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٢٧) إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾.

٤- العِفَّةُ والطهارة والانتصار على شهوة الجنس بضبطها وتوجيهها الوجهة التي تخدم الحياة، وتُسهِم في استقرارها واستمرارها وتحقيق الأمن والسكينة فيها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢٩) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٣٠) فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾.

٥-، ٦- أداء الأمانات والوفاء بالعهود؛ وهما صفتان مُتلازمتان، ودائرة عملهما أكبر بكثيرٍ مما تُحيط به عبارة، أو تستوعِبه إشارة؛ فليس من موظّفٍ في الدولة مِن حاكمها الأعلى إلى أصغر عاملٍ إلّا في عنقه أمانة، وفي ذمَّته عهد، هكذا أيضًا أمانة المُعلِّم في صفِّه، والقاضي في محكمته، والإعلامي في صحيفته، والأب مع أبنائه، والجار مع جيرانه، وهكذا إلى كلِّ زاويةٍ من زوايا الحياة ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾.

٧- الشهادة بالحقِّ ﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ وهذه الصفة مُكمِّلة للصفتَين السابقتَين، والمُتبادر للذهن أنّها تخص الشاهد في ساحة القضاء، ولكنّها أوسع من ذلك وأخطر؛ فالمفتي هو شاهدٌ على حكم الله في المسألة التي أفتى فيها، والناخِب في العمل السياسي هو شاهدٌ أنّ هذا الذي انتخبه هو الأكفأ والأصلح، ولجان التوظيف في كلِّ مؤسسةٍ هُم شهودٌ أيضًا، وهكذا.

٨- المحافظة على الصلاة حتى لا يأتيها ما ينقضها، أو ينقض آثارها في الروح والنفس والجوارح ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ فانظر كيف جعل المداومة على الصلاة صفة،

والمحافظة على الصلاة صفة أخرى؛ لأنَّ الواقع يشهَد أنّ كثيرًا من المداومين على الصلاة قد لا ترَى فيهم أثر هذه الصلاة، ولا ترى فيهم نورها؛ والسبب أنّه لم يَصُن هذه الصلاة، ولم يحافظ على نورها الذي وجَدَه في قلبه، بل أطفَأه بظلمة الغفلة، وطمَس آثارَه بكدر المعصية، والله أعلم.

خامسًا: وإذا كان أولئك المُكذِّبون الضالون قد استحَقُّوا ذلك الوعِيدَ، فإنّ هؤلاء المُتَّصِفين بهذه الصفات والذين قوَّموا نفوسَهم بهذه القِيَم يستحِقُّون مِن الله هذا الوَعد الجميل ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾.

سادسًا: تعود السورةُ مرَّةً أخرى إلى ما استهَلَّت به، فتدخل في نفوس أولئك المكذِّبين وتعرِضها بما فيها من تصوُّراتٍ جاهلةٍ، وأمنياتٍ ضائعةٍ، وخوضٍ بالباطل ولعبٍ، كأنّهم يعبَثون بمصائرهم، ويُجازفون بمستقبلهم، وهم قادمون لا محالة على حياة أخرى، ولا يُستشارون في ذلك، كما أنّهم لم يُستشاروا في حياتهم هذه ﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ ٣٦ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ٣٧ أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ ٣٨ كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ ٣٩ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ٤١ فَذَرۡهُمۡ يَخُوضُواْ وَيَلۡعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٤٢ يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ ٤٣ خَٰشِعَةً أَبۡصَٰرُهُمۡ تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞۚ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ عدَّى الفعل بالباء؛ ليفيد معنى الدعاء إضافة إلى معنى الاستفهام، والفعل ﴿سَأَلَ﴾ يفيد المعنيَين، بمعنى أنّه استفهم على سبيل التحدِّي والاستهزاء، أو أنّه دعَا على نفسه وقومه بالهلاك، كما قال أحدهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنفال: ٣٢]، ولم يُعيِّن القرآن اسمَ السائل؛ لأنّ العبرة بسؤاله لا بشخصه.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ﴾ أي: ليس هناك مَن هو قادرٌ على أن يدفعه عنهم.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ أي: إنّ هذا العذاب مُقدَّرٌ عليهم مِن الله عقوبةً لهم على كفرهم وعنادهم، والمعارج: طُرق الصعود إلى العالم العلوي، ومنه مراتب السائرين إلى الله المُتدرِّجين في المنازل؛ فكلّ منزلةٍ أرقى من التي قبلها.

﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي: تصعَد الملائكة والروح، والروح هو: جبريل ﷺ، وقد عُطِفَ على الملائكة عطف الخاص على العام؛ تنبيهًا لشرفه ولشرف الوحي الذي ينزِل به، ولا يبعُد أن تكون الروح هي روح الإنسان التي تُقبَض عند موته.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ اليوم وحدة زمنيَّة نسبيَّة؛ فيومُ الأرض غير يوم المريخ أو زحل، وأيّام الله في هذا الكون الفَسِيح لا حَصرَ لها، والله أعلم.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا﴾ تعليلٌ لاستِهزائهم بيوم القيامة واستِعجالهم به على سبيل التحدِّي؛ إذ إنّهم يرَونه مُستحيلًا وبعيدَ التحقُّق، بينما هو عند الله واقعٌ لا محالة.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ﴾ والمُهلُ يُطلق على المعدن المذاب كالقطران ونحوه، ويُطلق أيضًا على عكر الزيت المتبقِّي منه بعد تصفية الزيت منه، ومعناهما مُتقارب، والله أعلم.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ أي: تكون كالصوف من حيث تفتُّتها وعدم تماسكها.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ أي: لا يسأل قريبٌ قريبًا، ولا صديقٌ صديقًا؛ فقد جاءهم ما يشغلهم عن بعضهم.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ أي: يرى بعضهم بعضًا.

﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ بمعنى أنّ ذوي القرابات ليسُوا فقط لا يسألُ بعضُهم عن بعضٍ، بل يَودُّ المجرمُ منهم أن يُقدِّمهم جميعًا فداءً لنفسه من النار، و﴿وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ أي: عشيرته التي كانت تحتضنه وتحميه.

﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ أي يتمنَّى هذا المجرم أن لو استطاع أن يُقدِّم كلّ أهل

الأرض فداء عن نفسه.

﴿كَلَّآ﴾ كلمة نفيٍ وزجرٍ، بمعنى أنّ كلّ هذا لا ينفع؛ إذ ليس في الآخرة فداء.

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ أي: جهنم، واللظى: اللهب، بمعنى أنّها مُلتهبة مُستعرة، أعاذنا الله منها.

﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ أي: تخلع عنهم الشوى، والشوى: جمع شواة، وهي جلدة الرأس.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ أي: تطلبهم؛ لأنّها مُعدّة لهم، وذكر هنا صفتَين من صفات هؤلاء الأشقياء: إدبارهم عن الحقِّ، وتولّيهم عنه، مع حرصهم على جمع المال والبخل به، وهذا الربط يتكرَّر في القرآن كثيرًا، مثل قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ بمعنى أنّ الهلَع موجودٌ مع الإنسان في أصل خِلقته، وهو نزعة نفسيَّة تُميِّزه عن باقي المخلوقات، والهلَع: هو اضطرابٌ وخفَّةٌ في النفس تدفعها لعدم الاستقرار فتبطر مع أوّل نعمة، وتضجر مع أوّل محنة.

وقد رأيتُ في بادية العراق كثيرًا ممّنْ يستعمل هذه اللفظة ويُطلقونها على الشخص المُتسرِّع في انفعالاته النفسيّة وغير المُتّزِن.

﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ هذا ليس تفسيرًا لغويًّا لكلمة: ﴿هَلُوعًا﴾ وإنّما هي آثارٌ سلوكيَّةٌ وعمليَّةٌ تُبيِّنُ المقصودَ مِن هذه الصفة الكامِنة في نفس الإنسان؛ فهو يمنَعُ الخيرَ عن الآخرين، ويودُّ أن يبقى حِكرًا عليه، ويجزع عند المصيبة وكأنّها نهاية الحياة.

﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أي: مواظِبون عليها ويؤدُّونها في أوقاتها.

﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ مُحدَّدٌ، وهو الزكاة، وهذا قول جمهور المُفسِّرين؛ إذ الزكاة هي الحقّ المعلوم للفقراء والمحرومين، أمّا صدقة التطوُّع فهي ليست حقًّا معلومًا، وكذلك النفقة على مَن تجِب له النفقة، فهذه حقٌّ لكنّها ليست للسائل والمحروم.

وقد استشكل أنّ هذه السورة مكّيّة ولم تكن قد فُرِضَت الزكاة، ولا يمنع أن يكون أصل

مشروعية الزكاة قد نزل في مكّة، ثم فُصِّلت أحكامها في المدينة، ولهذا نظائِر في بعض العبادات والمعاملات، وفقه العلاقات، والله أعلم.

﴿لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ السائل: الذي يسأل الناس لسدِّ حاجته، والمحروم: الفقير الذي حُرم الرزق.

﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ يؤمنون بيوم الجزاء.

﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ خائِفُون، وهذا خوفٌ محمودٌ؛ لأنّه يقُودُ إلى مُراجعة النفس ومُحاسبتها، بخلاف الغافل.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ أي: حافظون لها مُهتمون بها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ أي: يؤدّونها كما يعلمونها، ويقومون بها فلا يتنصَّلون عنها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يُحافظون عليها من حيث لا يكون فيها نقص ولا ناقض أو مُفسِد، ويحافظون على نورها في قلوبهم، وآثارها في جوارحهم، فلا يضيعونها بالمنكرات والغفلات.

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهۡطِعِينَ﴾ أي: ما لَهم يمُدُّون أعناقَهم إليك مُتوجِّهين نحوك، ومُهتمِّين بك، ماذا يريدون؟

﴿عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ﴾ أي: يتجمَّعُون حولك جماعاتٍ جماعاتٍ، و﴿عِزِينَ﴾ جمع عِزْوَة، وهي: الجماعة.

﴿أَيَطۡمَعُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُدۡخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٖ﴾ بأمانيّهم وهم مُقِيمون على ظُلمهم وكفرهم؟

﴿كَلَّآۖ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّمَّا يَعۡلَمُونَ﴾ أي: من النطفة والماء المهين، ومناسبة هذا الرد أنّ بعض المشركين كان يقول: إذا كانت هناك جنَّة فنحن أَولَى بها؛ لأنّنا سادة القوم ووجهاؤهم، وقد ردّ القرآن عليهم أنكم تعلَمون ممّ خُلِقتم، وإنّما تتمايَزون بأعمالكم وما تقدّمونه لأنفسكم.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ صيغةٌ من صِيَغ القَسَمِ المُغلَّظ، والمشارِق: المطالِع المختلفة للنجوم والكواكب، ومنها حركة الشمس التي نراها بأعيُننا كلّ يوم؛ فلكلّ يومٍ مشرقه، كما

أنّ لكلّ يومٍ مغربه، والأفلاك كذلك لكلّ فلكٍ يومه، ولكلّ فلكٍ طلوعه وغروبه.

﴿نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: نهلكهم ونأتي بخيرٍ منهم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بمغلوبين ولا عاجزين عن ذلك.

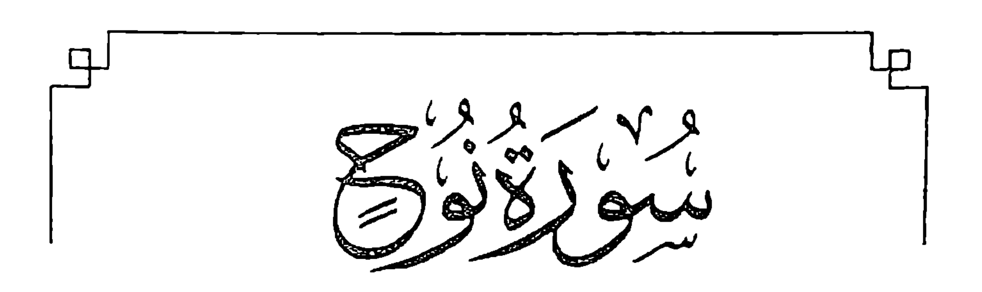
﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: دعهم على عنادهم وكفرهم ولا تنشغل بهم، والخوض واللعب لَيسَا من شأن الجادِّين في البحث، والراغبين بالحقِّ، ومِن ثَمّ دعاه لتركهم، وجَزْمُ الفعلَين يُشير إلى معنى مضاف وهو التهديد؛ لأنّهما مجزُومان باللام المُقدَّرة، على معنى: ليخوضوا وليلعبوا، وأمّا جَزمُهما بفعل الطلب (ذرهم) فمُستبعَد؛ لأنّهما لا يصلُحان جزاءً ولا جوابًا له؛ لأنّهم خائضون ولاعبون من قبل ومن بعد، والله أعلم.

﴿الْأَجْدَاثِ﴾ القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ أي: يُسرِعون بعد خروجهم من قبورهم إلى داعي الحشر والحساب كما كانوا يُسرِعون عندما يتوجَّهون في الدنيا إلى نُصُبِهم، أي: أصنامهم.

﴿تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي: تغشاهم مهانة.

﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ تذكيرٌ بصدر السورة وما كانوا يسألون عنه استهزاءً وتحدِّيًا ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾.



المجلس الخامس والستون بعد المائتين: نوح عليه السلام

المجلس الخامس والستون بعد المائتين

سورة نوح

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا ﴿٢٨﴾﴾

نوح ﷺ

تكرَّرت قصة نوحٍ ﷺ في القرآن الكريم كثيرًا، لكن هذه السورة هي سورة نوحٍ التي لا يُشاركه فيها غيره، إنّها خلاصةٌ مركّزةٌ لأوّل دعوةٍ نبويّةٍ تواجه الأصنام وسدنتها، وتصارع انحرافًا بشريًّا ظاهرًا وطاغيًا حتى نزل العذاب الشامل الذي عمَّ كلّ أولئك المُكذِّبين المُعانِدين، ثم نجّى الله نوحًا والقِلّةَ المؤمنة الذين اتّبَعوه:

أولًا: استهَلّت السورة ببيان أنّ الله تعالى قد اختار نوحًا ﷺ لينذر هؤلاء القوم الذين انحَرَفَت فطرتهم حتى اتخذوا لهم آلهةً من الحجارة صنَعوها بأيديهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فقام نوحٌ بمهمته، وواجه قومه بالحقيقة، ورغّبهم بعبادة الله وحده، ووعَدَهم بتكفير ما كان منهم من انحرافٍ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ

مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

ثانيًا: سجَّلَت السورة خُلاصة للجهد الذي بذَلَه نوحٌ ﷺ مع قومه، وللطرق التي سلكَها، والوسائل التي استعمَلَها ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهرًا، ترغيبًا وترهيبًا، لكنّهم جعلوا أصابعهم في آذانهم، واستغشَوا ثيابهم، وأصرُّوا على طريق الضلالة أيَّما إصرار ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

ثالثًا: عرَضَت السورة جانبًا من المُحاججات العقليَّة التي كان نوحٌ ﷺ يوجِّهها لقومه، والتي تهدِف إلى فتح أذهانهم لهذا الكون البديع، ولهذا الخلق العجيب وما فيه من آياتٍ ودلائل ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْاْ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾.

رابعًا: ثم عرَضَت السورة شكواه إلى ربِّه وهو يرى صدودهم وإعراضهم عنه وعن دعوته، وتمسّكهم بأصنامهم صنمًا صنمًا، وتَواصِيهم على ذلك ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾.

خامسًا: بعد هذه الشكوى، أخذ نوحٌ ﷺ يدعو على قومه بالهلاك الشامل والاستئصال الكامل، فاستجاب الله له فأغرقهم جميعًا ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾.

سادسًا: اختتمت السورة بدعاء نوحٍ لنفسه بالمغفرة ولوالديه، ولمن دخل بيته مؤمنًا ولكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، مستثنيًا الظالمين المُصرِّين على الظلم والكفر رغم وضوح الدعوة وقوة حجّتها ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾.

دقائق التفسير

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ افتتاحُ الإخبار عن رسالة نوحٍ ﷺ بأداةٍ من أدوات التوكيد دليلٌ على أهمية الخبر، وقوم نوحٍ هم سكّان الأرض في ذلك الزمن المُبكِّر من تاريخ البشَر.

﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ أي: وأطيعوني، بتأكيد أنّ طاعة النبيّ المرسل إنّما هي طاعةٌ لله؛ لأنّه المبلِّغ عن الله.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يغفر لكم ذنوبكم، و﴿مِّن﴾ هنا أفادت التوكيد، وجاء الفعل ﴿يَغْفِرْ﴾ مجزومًا؛ لأنّه جوابُ الأوامر الثلاثة المُتقدِّمة في قوله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ويُمهلكم إلى آجالكم المُحدَّدة ولا يُعجِّل لكم الهلاك.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي: في الليل، وفي النهار، والعبارة تُوحي بالمداومة، وفيها أنّه كان يختار الوقت الأنسب من ليلٍ أو نهارٍ.

﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ﴾ أي: ندائي ودعوتي لهم.

﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ أي: سَدُّوا آذانَهم بأطراف أصابعهم لكي لا يسمَعوا كلامِي، وذِكرُ الأصابع مجازٌ بإطلاق الكلّ وإرادة الجزء؛ لأنّ الأصابع لا تدخل كلّها في الآذان، وفائدتُه تصوير مبالغتهم في غلق آذانهم.

﴿وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: غطّوا بها وجوههم وأعينهم لكي لا يرَوه وهو يتحدَّثُ إليهم، فلم يكتَفوا بسدِّ الآذان، وهذه مُبالغةٌ منهم لكي لا يفهَمُوا شيئًا من كلامه ولو من خلال

حركة الشفتَين وإشارة اليدَين وتقاسيم الوجه.

﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾ بيانٌ ضمنيٌّ لعلّة هذا الإعراض والإصرار هي التكبُّر، وهذه علّةُ العِللِ، وبليّةُ البلايا.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا﴾ أي: دعَوتُهم دعوةً واضحةً ليس فيها خفاءٌ ولا غموضٌ.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا﴾ بحسب ما يقتضي المقام، فيُعلن لهم دعوته في المجالس العامة، ويُسِرُّ مع الأفراد الذين يُجاورهم تجنُّبًا لإحراجهم في مُجتمعهم.

وهذه الطريقة التي أقرَّها القرآن تُبيِّن أنّ الدعوة إلى الله لا تكون بطريقةٍ واحدةٍ، ولا على وتيرةٍ واحدةٍ، بل هي مُرتبطة بغاياتها وأهدافها الفرديّة والجماعيّة، وأمّا الذي يظنُّ أنّ إعلان الحقّ بوجه الناس ومُجابَهتهم به على كلّ الأحوال دليلٌ على شجاعته وقوّة إيمانه، فظنُّه هذا وَهْمٌ ومُجانبةٌ للمنهج القرآني، فقولُ الحقِّ له وقته، وله طريقته، وله غايته أيضًا، فإذا جاء بعكس غايته كان السكوت عنه أولَى.

﴿فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارٗا ١٠ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ١١ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ جَنَّٰتٖ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا﴾ هذا أسلوبٌ آخر من أساليب الدعوة، وهو ترغِيبُهم بالنعيم الدنيوي؛ أن يُرسِل السماء عليهم بالمطر الكثير، وأن يمدّهم بالأموال والبنين، وأن يجعل لهم البساتين والأنهار.

وهنا مسألةٌ عظيمةٌ من مسائل الدعوة؛ حيث يظنُّ بعض الدعاة أنّ واجبهم ينتهي عند تذكير الناس بالله واليوم الآخر، أمّا الدنيا فلها أهلها ولها طلّابها! بينما يسعى دعاة الكفر لتقديم البرامج والنظريات العلميّة والاقتصاديّة والخدميّة القادرة على حل مشاكل الناس، وتطوير وسائل العيش، وهنا يكون المُستجِيبون للدعوة بل والدعاة أنفسهم في أزمةٍ داخليةٍ، أعلنوا عنها أم لم يُعلنوا؛ فمن ناحية هم مؤمنون بأنّ الإسلام هو الحقّ وكلّ ما خالفه هو الباطل، ثم يذهبون إلى هذا الباطل في أغلب شؤون حياتهم.

إنّ هذه الآيات من دعوة نوحٍ ﷺ تفتح الباب لمساحة أخرى من الدعوة تجمع بين البشارة الأخرويّة والبشارة الدنيويّة، وهذه تتطلّب جهدًا مضافًا، قد لا يكون من الناحية

العمليّة بأقل كُلفة من الدعوة للإسلام نفسه، وقد رأينا في قصة يوسف ﷺ أن جُهده في إنقاذ شعب مصر من الجوع كان لا يقِلُّ عن دعوته إلى الله والدار الآخرة.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: ما لكم لا تعظِّمون الله حقّ تعظيمه ولا توقِّرونه حقَّ توقِيره.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ أي: خلَقَكم طَورًا بعد طَورٍ، وحالًا بعد حالٍ، من نطفةٍ إلى علقةٍ إلى مضغةٍ حتى تمّ الخلق في الرَّحِم، ثم جاءت الأطوارُ الأخرى من الطفولة إلى الصِّبَا، والفتُوّة والشباب، ثم الكهولة والشيخوخة.

﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ الأصل في الرؤية أنّها رؤيةٌ بالبصر، لكنها هنا غير مُمكنة؛ وذلك لأنّ الناس لم يَرَوا السماوات السبع، فيحمل الكلام على ما يستقيم من المعنى، ومن ذلك: أن تكون الرؤية هنا بمعنى العلم، بمعنى أنّهم قد استقرَّ عندهم أنّ هناك سبع سماوات، وهذا العلم قد يكون من نبوَّةٍ سابقة، أو أنّه ﷺ يُخبرهم إخبارًا كأنّه يقول لهم: إنّكم ترَون هذه السماء التي فوقكم والتي لا تعرفون عنها إلّا صورتها الظاهرة، فاعلَموا أنّ فوق هذه السماء سماوات أخر، فتكون السماء الدنيا التي يرَونها بأعينهم صورة تقرِّب لهم الصورة الأكبر لهذا الكون العظيم، والله أعلم.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ ميَّز الشمس عن القمر بأنّها سراجٌ، والسراج متَّقِدٌ بالنار مع ما فيه من ضوءٍ، بخلاف النور المُجرَّد الذي هو ضد الظلمة، ولا يشترط فيه الحرارة ولا التوقُّد.

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ أي: خلقكم منها، بخلق آدم من التراب، ثم بتغذية أجسادكم مِمّا تُنبتُه الأرض.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ بدفنكم عند موتكم.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ بالبعث والنشور، وهذه الصورة بمراحلها الثلاث تُشبِه صورة النبات؛ حيث ينبت من الأرض، ثم تتلف النبتة فتدفن بذورها في التربة، ثم تخرج مرة أخرى، فتبارك الله أحسن الخالقين.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: مبسوطةً ومُمهدةً لعيشكم وحركتكم، وهذا ليس في شكل الأرض الكُلِّي، بل في المساحة التي يراها الإنسان ويعيش عليها.

﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ طُرقًا واسعةً لسَيركم وتنقُّلِكم.

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي: اتبعوا أصحاب الأموال والأولاد من مُترَفي قومهم على ما هم فيه من ضلالٍ وخسران، وفيه إشارةٌ إلى دور المُترَفين في الاستِحواذ على الناس وصدِّهم عن طريق الحقِّ.

﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا كُبَّارًا﴾ أي: مكرًا عظيمًا؛ وذلك بتَواصِيهم على ردِّ دعوتهم والتمسّك بما هم عليه من الوهم والضلال.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ هذه أسماء أصنامهم، وهي أعلام لا اشتقاق لها في لغة العرب، وأصلُ هذه الأسماء أنّها كانت أعلامًا لرجالٍ صالحين - كما ورد في «البخاري»[1] -، إلَّا أنَّ الشيطان دفع بقومهم أن غالَوا بهم حتى عبَدوهم.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ ليس الضلال هنا الضلال الذي هو ضدّ الهداية إلى الحقِّ؛ لأنّ هذا يُنافي دعوة نوحٍ ﷺ من الأصل، وإنّما هو الشَّتَات والهلاك، وضَيَاع قوّتهم ونفوذهم بعد أن علِمَ أنّهم لن يؤمنوا مهما استمرَّ في نصحه ودعوته لهم.

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ﴾ أي: من أجل ظلمهم وشركهم وكثرة خطاياهم.

﴿أُغْرِقُواْ﴾ أي: بالطوفان.

﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ تنويعٌ في تعذيبهم بين بردِ الماء وحرِّ النار.

﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي: لا تُبقِ أحدًا من ساكِني هذه الديار، والدَّيَّار: ساكِنُ الدار.

﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ تعليلٌ لدعائه عليهم بالاستئصال؛ فهم لا مطمع في هدايتهم، مع الخشية من إضلالهم للثُّلَّة القليلة التي آمَنَت

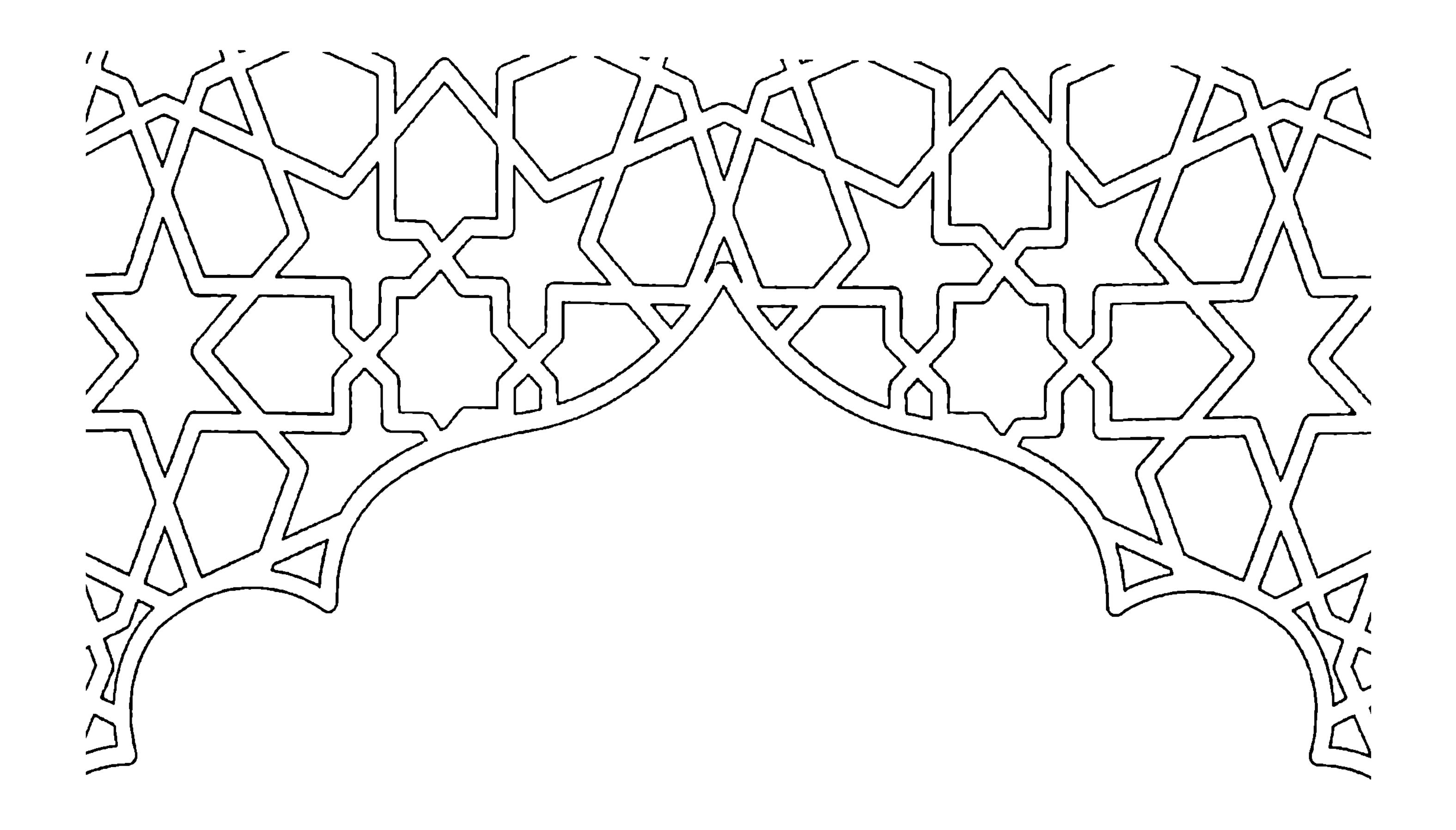
---

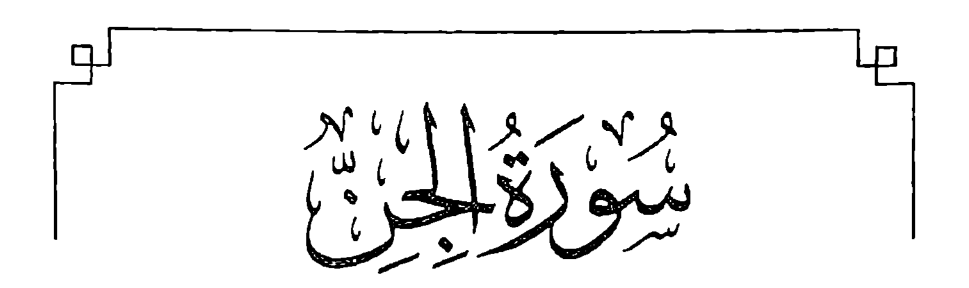
(١) ينظر: صحيح البخاري (٤/ ١٨٧٣/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م).

بنوحٍ واتبعته، والخشية أيضًا من توريث هذا الضلال للأجيال القادمة.

وفي قوله: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ مجازٌ مرسلٌ على اعتبار ما يكون؛ لأنّ المولود لا يُولد وهو متّصفٌ بالفجور والكفر، بل يكتَسِب ذلك من أبَوَيه وبيئته بعد أن يشبّ ويكبر.

﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ هلاكًا.





المجلس السادس والستون بعد المائتين: علاقة الإنس بالجن



﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١) قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا (٢٣) حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (٢٤) قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا (٢٥) عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (٢٨)﴾

علاقة الإنس بالجن

الإنسان لا يعيش لوحده في هذا العالم، بل هناك عوالم كثيرة، منها ما يقع تحت حواس الإنسان ومدركاته؛ كأصناف الحيوانات والنباتات التي ألِفَها منذ القدم وعرف كيف يتعامل معها، ومنها ما لم يُدركه الإنسان إلّا مؤخّرًا بعد الثورة العلميّة والطبّيّة؛ وذلك مثل: أنواع الفيروسات والميكروبات والجراثيم، وكذلك أنواع الإشعاع الهابط على الأرض، وغير ذلك كثير، وهناك ما لم يكتشفه الإنسان إلى الآن، ورُبّما سيكتشفه مستقبلًا.

والإنسان السويّ العاقل يُدرك بتجربته العلميّة أنّ عدم إدراكه للشيء لا يعني أنه غير

موجود، وعالم الجن واحدٌ من هذه العوالم التي أجمعَت الرسالات السماويّة على وجوده، وليس موضوع هذه السورة إثبات وجود هذا العالم، وإنّما بيان بعض صفاته وخصائصه، ولدفع الأوهام التي عشّشَت في أذهان كثير من البشر نتيجةً لشيوع الجهل، وتراكم الخرافة:

أولًا: تستهل السورة بالإخبار أنّ نفرًا من الجنّ قد استمَعوا لقراءة النبي ﷺ فانبهروا بالقرآن، وآمنوا بها جاء به ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ ونبذوا ما كانوا يسمَعونه من سفهائهم ومشركيهم ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وأنّ سفهاءهم هؤلاء كانوا يُنكِرون الرسالات، ويُكذِّبون بالنبُوّات كما هو حال مُشرِكي البَشَر ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾.

ثانيًا: أخبرَت السورة على لسان هؤلاء النفَر أنّ بعض رجال الإنس كانوا يحتَمُون ببعض رجال الجنّ ويعُوذُون بهم، فزادَهم هذا ضلالًا وتخبُّطًا وذلّةً ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

ثالثًا: أخبرَت السورة على لسان هؤلاء النفَر أنّهم لَمَسُوا السماء فوجدوها محروسة فلم يتمكّنوا من استراق الخبر منها كما كانوا سابقًا، وهم هنا يُشيرون إلى التغيُّر الذي حصَلَ بالبعثة المُحمّديّة ونزول القرآن ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾.

رابعًا: اختتَمَ الحديث عن الجنّ ببيان بعض أخبارهم وتوجُّهاتهم مما ورد على لسان هؤلاء النفَر أيضًا، وأنّهم أصنافٌ وفئاتٌ؛ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

خامسًا: انتقَلَت السورةُ إلى شأنٍ آخر؛ شأن قريش، فبدأت بترغيبهم وترهيبهم لعلّهم يعودون إلى الحقّ ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾.

سادسًا: ثم حذّرتهم من استمرارهم بتلويث المسجد الحرام بتلك الأصنام وما يتعلّق بها من طقوسٍ وثنيةٍ ودعواتٍ جاهليّةٍ ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

سابعًا: ثم بيّنت موقفهم من هذه الدعوة المحمّديّة التي تدعوهم إلى توحيد الله وإخلاص الدين له، والتوكل عليه وحده، وتحذيرهم من مغبّة العناد والإصرار على معصية الله ورسوله ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

ثامنًا: ختمت السورة ببيان علاقته ﷺ بعالم الغيب، وأنّه لا يعلم عنه إلّا ما علّمه الله له، في إشارةٍ إلى ما ورد في السورة من أخبارٍ غيبيّةٍ تتعلّق بعالم الجنّ وما فيه من أصنافٍ وأحوالٍ، وعالم الآخرة وما فيه من وعيدٍ لهؤلاء المشركين ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا﴾.

دقائق التفسير

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ إشارةٌ إلى أنّه ﷺ لم يكن على عِلمٍ بهم وباستماعهم.

قال ابن كثير عن الحسن البصري: (إنّه ﷺ ما شعَرَ بأمرهم حتى أنزَلَ الله عليه بخبَرِهم)[1].

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩٠/ دار طيبة، ط. ٢، ١٤٢٠ - ١٩٩٩م، تح سامي بن محمد السلامة).

والنَّفَرُ: الجماعة القليلة التي لا تزيد على عشرة.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ أظهَروا تعجُّبهم من حُسنِهِ وتأثيره فيهم.

﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ﴾ أي: يدلُّ إلى الصواب والخير والحكمة.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا﴾ أي: تعالَى جلاله وعظمته أن يكون له زوجة وولد، والجَدُّ: الجلال والعظمة.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ يعنُون به إبليس؛ لأنّه من الجنِّ.

﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾ الشَّطَط: مجاوزة الصواب والعدل.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ أي: ما كنَّا نظنُّ أنّ عاقلًا في الإنس أو الجنِّ يتجرَّأ على أن يكذب على الله.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ أي: يَحْتَمُون بهم، وكانت هذه عادة جاهلية؛ حيث إنّهم إذا نزَلوا في وادٍ استعاذُوا بكبير الجنِّ - وهم لا يعرفونه - أن يُجيرَهم من سفهاء الجنِّ، وقد بالَغَ بعض العرب في هذا الخوف حتى لجأَ إلى عبادة الجن، ونسَبَ الجنَّ إلى الله، بمعنى أنّه منَحَهم شيئًا من صفات الألوهيَّة.

﴿فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ أي: زادَتْهم عبادتهم للجنِّ خوفًا وذُلًّا وضلالًا، وهذا هو شأن كلّ من يلجَأ إلى غير خالقه، وهذا المعنى أَولَى وأنسب للسياق، ولمقاصد الخلق الكليَّة من القول بأنّ الجن تمكّنوا من الإنس فزادوهم خوفًا على خوفهم؛ إذ الجن لا يتمكّنون من البشر، ولا البشر يتمكّنون من الجنِّ، وهو أَولَى كذلك من القول أنّ الإنس بهذه الاستعاذات قد زادوا الجنَّ عتوًّا وطغيانًا؛ لأنّ مدلول الرَّهَق مخالفٌ لهذا، كما قال تعالى: ﴿تَرۡهَقُهُمۡ ذِلَّةٞ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا﴾ [الكهف: ٧٣]، وسيأتي أيضًا قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخَافُ بَخۡسٗا وَلَا رَهَقٗا﴾، والله أعلم.

﴿وَأَنَّهُمۡ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَبۡعَثَ ٱللَّهُ أَحَدٗا﴾ هذه الآية تحتمل أنّهم يُنكِرون البعث والحساب،

وتحتمل أنّهم يُنكِرون أن يبعثَ الله نبيًّا أو رسولًا، والثاني أقرب للسياق؛ لأنّ السورة بدأت بالحديث عن سماعهم للرسالة المحمديّة، ثم صدمتهم بوجود حراسةٍ للسماء لم تكن معهودة لهم في السابق، وهذه علامةٌ على حصول شيءٍ جديدٍ وذي شأنٍ عظيمٍ، وما ذاك إلّا البعثة المحمّديّة، كما هو معلوم.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ هذه من الأخبار الغيبيَّة التي تخصُّ صِلةَ الجنِّ بالسماء، وأنّهم كانوا قبل بِعثَتِه ﷺ يستَرِقُون أخبارَ الغيب، ثم مُنِعُوا عن ذلك.

والعقولُ لا تملِك أدوات التعرُّف على حقيقة هذه الصورة الغيبيَّة، ولا كيفيَّتها، ولا أي معلومةٍ تفصيليَّةٍ عنها، وليس مطلوبًا من العقول ذلك، وإنّما المطلوب هو التوصُّلُ إلى المقصود العملي من هذا الإخبار، ألا وهو التيقُّنُ أنّ الوحيَ النازلَ من السماء إلى الأرض محفوظٌ من الزيادة والنقصان، لا يتعرَّض له إنسٌ ولا جِنٌّ، وأنّ الجنَّ محكومُون بقَدر الله كما الإنس.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: لم نكن ندري - والقول للجنّ - أهَذا الذي حصل من حراسة السماء ومنعنا من استِراق السمع لشرٍّ أُرِيدَ بالأرض؛ كالهلاك أو قيام الساعة، أم لأمرٍ يعود لها بالخير، بأن يبعَثَ الله نبيًّا أو رسولًا لها، وكان هذا قبل أن يستمِعُوا القرآنَ فيُؤمِنُوا به، والله أعلم.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ كنَّا مذاهِب مختلفة، والقِدَد: جمع قِدّة، وهي القطعة.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ أي: أيقنَّا بأنّ الله قادر علينا ولن نفلِت من حكمه سواء بَقِينا في أماكننا في الأرض أم فررنا إلى جهةٍ أخرى، فكلُّ ذلك عند الله سواء.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البَخْسُ: النقص، والرَّهَقُ: الإذلال والإهانة، وهذا تأكيدٌ لمعنى الرَّهَق الذي اخترناه آنفًا في مسألة استعاذة الإنس بالجن؛ إذ اقتِران الرَّهَق بالبَخْس

يبعد استعماله بمعنى الطغيان والتكبر، والله أعلم.

﴿تَحَرَّوۡاْ رَشَدٗا﴾ أي: طلبوا الرشد وبحثوا عنه حتى وصلوا إليه.

﴿ٱلۡقَٰسِطُونَ﴾ الظالمون.

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي: لو أنّهم استجابوا للحقّ واستقاموا على الصراط المستقيم، والمقصود بهم أهل مكّة، فالحديث انتقل إليهم.

﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا﴾ أي: لأنزلنا عليهم ماءً كثيرًا، وفيه إشارةٌ أنّ استمرارهم على الكفر يُنذر بالقحط واحتباس المطر، وقد كان.

﴿لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ أي: لنختبر شكرهم لله على هذه النعم؛ إذ كلّ ما يُصيب الإنسان في هذه الحياة من خيرٍ أو شرٍّ داخلٌ في باب الاختبار.

﴿يَسۡلُكۡهُ عَذَابٗا صَعَدٗا﴾ أي: يدخله في عذاب شاقٍّ.

﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ أي: إنّما بُنِيَت لعبادة الله وحده، والمقصود هنا: المسجد الحرام؛ إذ لم يكن هناك مسجدٌ سِواه، والحكم ماضٍ من بعده في كلّ مسجدٍ يُقام.

﴿فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ تنديدٌ بما يفعله المشركون من تدنيس البيت الحرام بتلك الآلهة المُزيّفة، ويُقاسُ على هذا أيضًا تمجيد كلّ أحدٍ من دون الله؛ كتعظيم الملوك والمبالغة في مدحهم، فالمساجد لم تُبْنَ لها، وقد صار في زماننا أنّ مساجد كلّ دولةٍ تتنافَس في تمجيد حاكمها، مع اختلاف الحكام فيما بينهم اختلافًا عظيمًا، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ أي: لمّا قام محمد ﷺ بأمر الدعوة إلى الله وحث الناس على توحيده وعبادته.

﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا﴾ أي: احتشد المشركون في وجهه، ووقفوا له في طريقه صادّين الناس عنه، واللِّبَدُ: تجمُّع الأشياء بعضها فوق بعض.

﴿قُلۡ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٞ﴾ أي: في حالة اتباعي لأهوائكم وتوقُّفي عن هذه الدعوة، وهذا من باب التيئيس لهم.

﴿وَلَنۡ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾ أي: ملجأً ومكانًا أهرب إليه منه، ومنه اللَّحد الذي يستر جسد الميت.

﴿إِلَّا بَلَٰغٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ﴾ أي: لا أملِك إلَّا تبليغي لكلام ربي ورسالاته، وهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ﴾ [الشورى: ٤٨]؛ فالنبيُّ ﷺ لا يملِك أن يُجبِرَ أحدًا على الهداية، ولا أن يُعجِّلَ بعقوبةِ الله على أحدٍ، ولا أن يُرِيَهم بعضَ الآيات التي يطلبون.

﴿قُلۡ إِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٞ مَّا تُوعَدُونَ أَمۡ يَجۡعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا﴾ أي: قُل يا محمد لهؤلاء: إنّك لا تعلم متى ينزل وعيدُ الله على هؤلاء، أهو قريبٌ أم سيجعَل له الله أمدًا يُمتّعهم به إلى حين، وهذا التأكيد إنّما قُصِدَ به: بيان الحدّ الفاصل بين عِلم الله الشامل والمطلق وبين عِلم النبيين الذين يتكلّمون عن الله، ويُبلِّغون رسالاته للناس.

﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ﴾ فلا عالِمَ للغيب سواه، وإنّما يبلِّغ النبيُّ ما يُوحى إليه من ربِّه.

﴿فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ هذا استثناءٌ يُفيد الحصر، بمعنى أنّه لا أحد من البشر يعلم الغيب إلَّا الرسول الذي ينزل عليه الوحي؛ فمَن ادَّعى علمَ الغيب بأي وجهٍ كان، فقد لزِمَ من قوله نزول الوحي عليه.

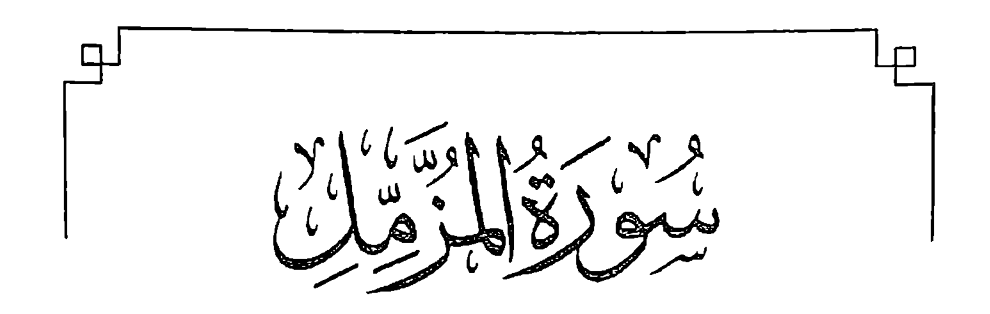
والمقصود بالغيب هنا: ما كان في عالم الغيب، وليس ما غابَ عن الإنسان في عالم الشهادة؛ لأنّ هذا الأخير يتحصَّل بأشياء كثيرةٍ، منها العلمي، ومنها الروحي، ومنها الفِراسة، لكن عالم الغيب هو الذي بيننا وبينه حجاب؛ كالعرش والكرسي، وأحوال العوالم الغيبيّة، وأحوال الآخرة، وما هو مُدوَّن في عِلم الله من آجالهم وأرزاقهم، ونحو ذلك، والله أعلم.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدٗا﴾ أي: يُرسل له ملائكة الوحي ليُوصِلوا إليه الوحي بالطريقة المباشرة التي لا تفتقر إلى سندٍ من الرواة ولا التفرُّس في المعاني والواردات، بل هو الوحي اليقين والجازم والمحفوظ من الزيادة والنقصان.

﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ أي: ليظهر ما كان في عِلم الله أنّ هؤلاء الرسل قد

أبلَغُوا الناس رسالات ربِّهم كما أوحاها إليهم، حتى تقوم الحُجَّة لله على خلقه.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ تأكيدٌ لعلمه سبحانه الشامل الكامل الذي يُحيط بالمرسلين، وبما يبلِّغونه عنه، ويعلَم سبحانه كلَّ شيءٍ في هذا الوجود على وجه الإحصاء والضبط والحصر، فتبارَكَ الله ربُّ العالمين.



المجلس السابع والستون بعد المائتين: حاجة الدعاة إلى قيام الليل

المجلس
السابع والستون بعد المائتين

سُورَةُ المُزَّمِّل

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

حاجة الدعاة إلى قيام الليل

قيام الليل بالصلاة والذِّكر والدعاء سِمَةٌ من سِمات الصالحين، وطريقٌ من طرق السالكين، وبابٌ من أبواب السائلين، وواحةٌ من واحات المُحبِّين المُخلِصين، إلَّا أنّ الدُّعاة إلى الله أحوج من غيرهم إلى هذا المعين، ومِن ثَمّ جاءت هذه السورة المباركة لتربط بين الدعوة إلى الله وبين هذه الخلّة الشريفة، وكما يأتي:

أولًا: استهلَّت السورةُ بنداءٍ مباشرٍ إلى النبيِّ الكريم ﷺ تأمره أمرًا مباشرًا بقيام الليل قيامًا طويلًا، ثم ربطَت هذا الأمر ربطًا تعليليًا بأمانة الوحي والمسؤوليّة الثقيلة في حمله وتبليغه، ثم عادَت لتؤكّد أهميّة قيام الليل، ومُواصلة الذِّكر والانقطاع إلى الله تعالى في ذلك ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

ثانيًا: انتقلت السورة إلى ميدان الدعوة لتُبيِّن حاجة الداعية إلى الصبر، والعلاقة بين قيام الليل وبين القدرة على الصبر لا تخفى ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾.

ثالثًا: تُحذِّر السورةُ أولئك المُكذِّبين الضالِّين، وتتوعَّدُهم بما يسُوؤهم إن هُم استمَرُّوا في الوقوف بوَجهِ الدعوة ومُحاربتها ومُحاربة أهلها ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا ﴿١٢﴾ وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ وَعَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾.

رابعًا: تربط السورة ربطًا وثيقًا بين هذه الدعوة المحمَّديَّة وبين دعوة موسى ﵇؛ إذ أرسله الله إلى فرعون فكذَّبه، وعصى أمر ربِّه فأهلكه الله بذنبه، وفي هذا تحذيرٌ مُجدّدٌ لمُشركي مكَّة ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذۡنَٰهُ أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾.

خامسًا: تُذكِّرُ السورة بيوم القيامة والوعيد الذي ينتظر أولئك الضالِّين المُكذِّبين ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرُۢ بِهِۦۚ كَانَ وَعۡدُهُۥ مَفۡعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

سادسًا: عادَت السورة إلى موضوع قيام الليل وثناء الله تعالى على نبيِّه الكريم ﷺ، وعلى من معه من أصحابه المُقرَّبين ﷺ ﴿۞إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾، ثُمَّ عذَرَ الله المرضى والمسافرين والمجاهدين ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ﴾.

سابعًا: اختتمت السورة بتوجيهاتٍ إيمانيّة وتربويّة تحُثُّ فيها المؤمنين على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والبذل في طاعة الله بأنواع البر، ومداومة الاستغفار ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ وكلُّ ذلك موصولٌ بما استهلَّت به السورة، والله أعلم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ نداءٌ لرسول الله ﷺ فيه معنى التودُّد والتلطُّف، و﴿ٱلۡمُزَّمِّلُ﴾ أصلها المُتزمِّل؛ وهو مَن لفَّ ثيابه على نفسه، وهي هيئةٌ مألوفةٌ من كلِّ أحدٍ، وفي كلِّ وقتٍ، لكنَّها بالنسبة للرسول ﷺ قد اقترنت بنزول الوحي، وما أصابه من الرّوع في أوَّل الأمر فقال: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي»[1].

﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ أمرٌ له ﷺ بقيام الليل قيامًا طويلًا يُقارِب النصف في حدِّه الأدنى، والأمر هنا للوجوب، وليس على سبيل التخيير أو التطوُّع، وهذا من خصائصه ﷺ.

﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ ربط القيام بترتيل القرآن يظهر فائدة من فوائد القيام، وهي تعهُّد القرآن الكريم بحفظه وتلاوته حقّ تلاوته وتدبُّره، ولا شكّ أنّ في الليل بطولِهِ وصفائِهِ مُتّسعًا لكلِّ هذا، والترتيل معناه: القراءة على مهلٍ؛ بحيث تظهر الحروف، وتتبيَّن الكلمات.

﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾ القول الثقيل هو: القرآن، وثِقَله بثِقَل أمانته وعظيم مسؤوليّة حمله وتبليغه للناس، وقد جاء هذا الإخبار متصلًا بقيام الليل على وجه التعليل؛ بمعنى أنَّ حَمْل هذه الأمانة الثقيلة يتطلّب صلةً عميقةً بالله تعالى، كالشجرة التي تتمدَّد جذورها في الأرض لتَقوَى على حمل فروعها وثمارها في السماء.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ الناشِئة: ما يُنشِئه المُصلِّي في الليل من صلاةٍ وذكرٍ ودعاءٍ، فاكتفى بالصفة عن ذِكر الموصوف، و﴿أَشَدُّ وَطۡـٔٗا﴾ أي: أثقل على النفس؛ ولذلك لا يَقوَى عليها إلَّا الأصفياء الأتقياء، و﴿وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ أي: أعدلُ وأفضلُ قولًا؛ لأنّ الذِّكر الذي يكون في جوف الليل يكون أصفَى وأقرَبَ للخشوع والتدبُّر، وأبعَد عن الرياء.

---

(١) متفق عليه عن أم المؤمنين عائشة، وجابر بن عبد الله ﭫ، وقد ورَدَ مُطولًا ومُختصرًا. ينظر: صحيح البخاري (١/ ٤/ دار ابن كثير، تح د. مصطفى البغا، ط. ٣، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م)، وصحيح مسلم (١/ ٩٧/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا﴾ أصلُ السَّبحِ: العَوم، ومعناه هنا: التطواف لأداء المهام وسدّ الحاجات، ومن ذلك: السعي في الدعوة إلى الله، وحلّ مشاكل المجتمع، وإجابة السائلين والمستفتين.

﴿وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا﴾ أي: انقطِع له بالعبادة انقطاع الإخلاص وحضور القلب، وليس انقطاع الرهبنة والاعتزال عن الحياة.

﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلًا﴾ أي: لا تنشَغِل بهم وبالردِّ على أقاويلهم، وهو الهجرُ المصحوب بالصبر والحلم، والرغبة في هدايتهم، وليس الانتقام منهم.

﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أي: دَعْ هؤلاء المُكذِّبين المُترَفين الذين أعماهم الترف عن اتباع الحقِّ واتركهم لي، وهذه صيغةٌ من صيغ التهديد المعروفة.

﴿وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلًا﴾ أي: انتظر ما يحلُّ بهم، ولا تستعجل لهم.

﴿إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالٗا وَجَحِيمٗا﴾ الأنكال: القيود الثقيلة، بمعنى أنّهم يُقيَّدون ويُرمون في جهنَّم.

﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ أي: ينشب في الحلق ولا يُستساغ.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ﴾ أي: تزلزل.

﴿وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبٗا مَّهِيلًا﴾ أي: رملًا منثورًا غير مجتمعٍ ولا متماسكٍ.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ هو سيدنا محمد ﷺ، وهو الشاهِد على الناس يوم القيامة مؤمنهم وكافرهم أنه قد بلّغهم رسالة الله كما أُنْزِلت عليه.

﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ هو سيدنا موسى ﷺ، والربط بين الرسالتين المُحمديَّة والموسويَّة ربطٌ مُؤكَّدٌ ومُكرَّرٌ في القرآن، وله أكثر من دلالة؛ أهمها: التشابُه الكبير بين الرسالتَين من حيث الشموليَّة، والتشابُه بين الأُمَّتين من حيث إنَّ الله اختارَ بني إسرائيل لحمل رسالة الله وفضَّلهم على العالمين، ثم استبدل بهم هذه الأُمَّة.

﴿أَخۡذٗا وَبِيلٗا﴾ أي: أخذناه أخذًا شديدًا، وفيه تعريضٌ وتهديدٌ لكفار مكّة إن هم استمرُّوا بمعصيتهم لرسول الله ﷺ، كما استمرَّ فرعون بمعصيته لموسى.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ أي: كيف تتّقون اليوم الذي سيبعَثكم الله فيه للحساب إن بقِيتم على كفركم؟ ثُمّ وصف شِدّة ذلك اليوم بأنّه تشيب منه رؤوس الوِلْدان.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ وصفٌ ثانٍ لذلك اليوم؛ حيث تتشقّقُ السماء به، وذكّرَ كلمة ﴿مُنفَطِرٌ﴾ والعادة أن تُؤنَّث؛ لتناسب لفظ السماء، لكنّه أراد هنا: التنبيه إلى معنى أنّ السماء هي السقف المضروب فوق الأرض، وتشقُّق هذا السقف أقوَى في إحداث الرهبة وتصوير حالة الفزع التي تغشَى الناسَ في ذلك اليوم.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: هذا التخويف إنّما قُصِدَ به التذكير والاتّعاظ؛ ولذلك قال بعده: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾.

﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ هذه الآية نزلت بعد الآيات الأُوَل بمدةٍ طويلةٍ، وفيها تزكيةٌ لرسول الله ﷺ أنّه مُمتثلٌ لأمر ربِّه امتثالًا كاملًا، ثم أثنَت الآية على مجموعةٍ من الصحابة الكرام أنّهم حملوا أنفسهم على قيام الليل اقتداءً به ﷺ، وتنافسًا فيما بينهم على الطاعات والقُرُبات.

ثم أشارَت الآية إلى التخفيف ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لن تقدِروا على ضبط ساعات الليل والاستمرار في المداومة على قيامها بتلك المُدَد المُقدَّرة، وهذا تمهيدٌ لتخفيف هذه العبادة بما تيسَّر منها ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ﴾.

ثمّ بيّنت حكمةً أخرى لهذا التخفيف: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ويضربون في الأرض أي: يسافرون طلبًا للرزق ونحوه، والتخفيف بحقّه ﷺ مفهومٌ لمحل الوجوب، أمّا بالنسبة للصحابة ﷺ فالصحيح أنّه تخفيفٌ بمعنى التيسير عليهم فيما تطوّعوا به، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم بالجمع بين هذه العبادة الشريفة وبين الواجبات والمتطلّبات الأخرى، والدليل عليه قوله

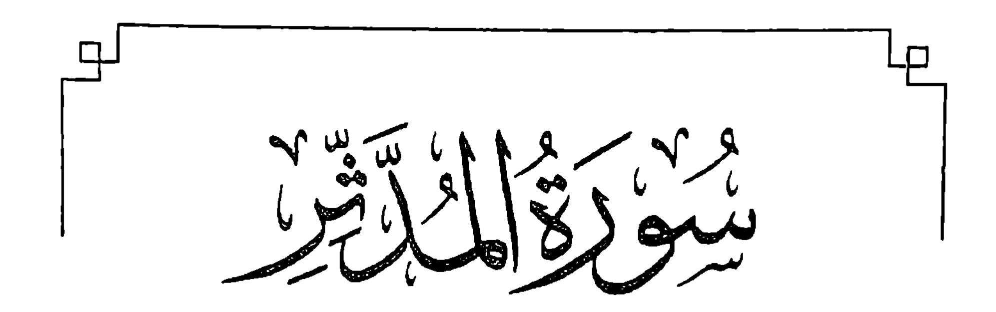
تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ ولو كان واجبًا لما اختصّت به طائفة، والله أعلم.

﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُۚ﴾ أي: من القرآن، في صلاة الليل وفي غيرها.

﴿وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًاۚ﴾ شبَّه الصدقة بالقرض الحسن؛ لأنَّ المُتصدِّق ينتظر الثواب على صدقته كالمُقرِض الذي ينتظر الوفاء بقرضه.

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ مع كلِّ ما مرَّ من قيامٍ لليل، وقراءةٍ للقرآن، وصلاةٍ، وزكاةٍ، يُوصِيهم بالاستغفار، وهذا منهجٌ تربويٌّ دقيقٌ يقصد به تربية المسلم على استشعار النقص ولو قدَّم ما قدَّم؛ وذلك لأنّ مقام الله العظيم ونعماءَه الكبيرة على هذا الإنسان لا يُكافئها أيُّ عملٍ مهما بلَغ.

ثم في هذا سدٌّ لثغرات الشيطان في دخول شيءٍ من التكبُّر أو الغرور، وهما من مُفسِدات العمل مهما كان في نفسه شريفًا وعظيمًا، والله المستعان، ونستغفِرُه تعالى ونتوبُ إليه في كلِّ آنٍ ومكانٍ.



سورة المدثر

المجلس الثامن والستون بعد المائتين: قم فأنذر

المجلس
الثامن والستون بعد المائتين



﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ (١) قُمۡ فَأَنذِرۡ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ (٤) وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ (٥) وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ (١٠) ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا (١١) وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودٗا (١٣) وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا (١٤) ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ (١٥) كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا (١٦) سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا (١٧) إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (١٩) ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ (٢٠) ثُمَّ نَظَرَ (٢١) ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ (٢٢) ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ (٢٣) فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ (٢٤) إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ (٢٥) سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ (٢٩) عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ (٣٠) وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ (٣١) كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ (٣٢) وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ (٣٣) وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ (٣٥) نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ (٣٦) لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ (٣٧) كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ (٣٩) فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (٤٨) فَمَا لَهُمۡ عَنِ ٱلتَّذۡكِرَةِ مُعۡرِضِينَ (٤٩) كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ (٥٠) فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ (٥١) بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ (٥٢) كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ (٥٣) كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ (٥٤) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (٥٥) وَمَا يَذۡكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهۡلُ ٱلتَّقۡوَىٰ وَأَهۡلُ ٱلۡمَغۡفِرَةِ (٥٦)﴾

قم فأنذر

سورة المُدَّثِّر من أوائل السور المكِّيَّة نزولًا، وموضوعها هو الدعوة التي كُلِّفَ بها رسولُ الله ﷺ وما يتَّصِلُ بها، ثم شَرْحٌ لموقف أهل مكَّة وصدمتهم بهذه الدعوة وحيرتهم في كيفيَّة مجابهتها، ثم بيانٌ لما توعَّدهم الله به من هلاكٍ وعذابٍ، وكما يأتي:

أولًا: استهلَّت السورة بنداءٍ علويٍّ للرسول ﷺ يأمره أن يقومَ بالدعوةِ إلى هذا الدين، وأن يستجمِع الصفات المطلوبة لهذا الأمر؛ مِن تعظيمِ الله تعالى، وتطهُّرٍ كاملٍ في المخبَر والمظهَر، وابتعادٍ عن مواطن الزَّلَلِ والإثم، والتنزُّه عن الشُّحِّ والطَّمَع، والتحصُّن بالصبر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ (١) قُمۡ فَأَنذِرۡ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ (٤) وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ (٥) وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ (٦)

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ وهذا تنبيهٌ لأخلاقِ الداعيَةِ وعُدَّتِه في الدعوة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وإن كانت صورة الخطاب خاصَّة به ﷺ.

ثانيًا: بعد هذا الاستهلال في تعظيم شأن الدعوة وبيان شروطها، وصفات القائمين عليها، انتقلت السورة إلى أولئك الذين أوقفوا أنفسهم للصدِّ عن هذه الدعوة وتشويهها، تُهدِّدهم وتتوعَّدهم بالعذاب الشديد: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ﴾.

ثالثًا: عقَّبَت السورة على تساؤلات المشركين واعتراضاتهم بشأن عدد خزَنة جهنَّم التسعة عشر، فبيَّنت أنَّ هؤلاء إنَّما هم ملائكة، وقوّتهم لا تُقاس بمقاييس البشر، وأنَّ هذا العدد موافقٌ لما عند أهل الكتاب، وبيَّنت أنَّ الإخبار بهذا العدد إنَّما جاء اختبارًا لإيمان المؤمنين، وكشفًا للشاكِّين والمُتردِّدِين ﴿وَمَا جَعَلۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةٗۙ وَمَا جَعَلۡنَا عِدَّتَهُمۡ إِلَّا فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيَسۡتَيۡقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَيَزۡدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا وَلَا يَرۡتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡبَشَرِ﴾.

رابعًا: عادَت السورة وبشيءٍ من التفصيلِ والتوسُّعِ تُذكِّر بالآخرة وانقسام الناس فيها بحسب ما قدَّمُوه لأنفسهم في هذه الحياة، فكلُّ إنسانٍ مجزِيٌّ بعمَلِه؛ إن خيرًا فخيرٌ، وإن شرًّا فشرٌّ ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

خامسًا: ختمَت السورة ببيان حال المشركين من الدعوة ونفورهم عنها، مع أنها ما جاءت إلَّا لإنقاذهم وإسعادهم في حياتهم الدنيا، وفي حياتهم الأخرى ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾.

دقائق التفسير

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ نداءٌ لرسول الله ﷺ فيه معنى التودُّد والتلطُّف، كما في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، مع تقارُب في معنى الكلمتَين أيضًا، فالمُدَّثِّر أصلها المُتدثِّر، أي: المُلتحِف بثيابه، وكلاهما اقترَن بنزول الوحي، وما أصابه ﷺ من الروع في أوَّل الأمر.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ أمرٌ بوجوب الدعوة إلى الله، والقيام وإن كان يعني النهوض من الفراش ونحوه، إلَّا أنَّ دلالته هنا أوسع من ذلك، فهو يعني: الاضطلاع بالأمر وتحمُّل مسؤوليَّته وتبِعاته.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ أي: كبِّر الله وعظِّمه كما ينبغي، ورُبَّما أَوْمَأَ بهذا الأمر إلى الصلاة أيضًا.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أي: أدِمْ طهارتها ونظافتها، وتطهير الثياب يدلُّ على تطهير الجسد بطريق الأولَى، وفيه الإشارة إلى تطهير الباطن من الكدورات المعنويَّة وكلّ ما يشغل القلب عن الخشوع والحضور، وهنا إيماءة أخرى إلى الصلاة أي: اقتران التطهير بالتكبير.

﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي: لا تقترب منه، والرُّجْز يُطلق على المُستقبحات الماديَّة؛ كالنجاسات، والمعنويَّة؛ كالشرك، والظلم، والآثام المُوجِبة للعقوبات.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي: لا تَمْنُن على الناس بما قدَّمْتَه لهم من عِلمٍ وصدقةٍ وإكرامٍ، وتستكثِر ذلك فيهم، وترَى لنفسك الفضلَ عليهم، فإنَّما ترجو أجرَك من الله وحده.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ أي: اصبر على ما كلَّفك به ربُّك من دعوة الخلق إليه مهما نالك من

أذى، واجعَل ذلك الصبر في الله وحده ليس عن ضعفٍ، ولا عن وهنٍ.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ﴾ أي: إذا نُفِخَ في الصور إيذانًا بقيام الساعة ونهاية الحياة الدنيا، والنفخ في الصور مُكرَّرٌ في القرآن كثيرًا، إلَّا أنَّه هنا استَعمَل النقْر، وهو معنًى آخر مضافٌ إلى النفخ، والله أعلم به؛ إذ هذه من الأخبار الغيبيّة التي ينبغي التوقُّف فيها عند النص، ولأنّها لا تدخل في باب التكليف، والمقصود العام منها حاصلٌ بلا تكلُّف، والله أعلم.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ أي: اترُك أمر هذا الذي خلقتُه وحيدًا في بطن أُمِّه بلا منصبٍ، ولا مالٍ، ولا جاهٍ ودَعْه لي، وهذه صيغةٌ من صيغ التهديد، وقد نزلت والآيات التي بعدها في الوليد بن المغيرة.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ أي: كثيرًا.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ أي: حاضِرين معه، وهو يستَقوِي بهم، وبما أعطاه الله من مال.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا﴾ أي: مهَّدتُ الأمورَ أمامه ويسَّرتُها له حتى بلغ في قومه ما بلغ من الجاه والعزِّ.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ أي: يطمع بزيادة النعم هذه؛ من جاهٍ ومالٍ؛ لأنّه يرى أنّه أهلٌ لها ومستحقٌّ للزيادة فيها لفرط غروره وكِبره.

﴿كَلَّآ﴾ كلمةٌ رادعةٌ زاجرةٌ، بمعنى أنّه لن يكون له ذلك، وهذا تهديدٌ بزوال نعمته.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا﴾ والعنيد: شديد العناد، والعبارة جاءت في سياق التعليل؛ بمعنى أنّ نعمته هذه لا تدوم عليه بسبب معاندته لآيات الله وقوله الآثِم فيها.

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ الإرهاق هنا: المشقة والعذاب، والصعود: العقبة الكأداء، بمعنى أنّه كان قد مهَّد الله له تمهيدًا، فاستحقَّ بكفره وعناده وانعدام شُكره أن ينقلِبَ التمهيدُ إلى تعسيرٍ، والنعيمُ إلى عذابٍ، وهذا من باب مُناسبة الجزاء للعمل.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ هذه الآية وما بعدها جاءَت تِبيانًا لمعنى كونه عنيدًا، فهنا فكَّر فيما يردُّ به القرآن ويصدُّ الناس عنه، ثم خطَّط وحَسَبَ بدقةٍ ما الذي ينبغي أن يقوله فيه.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ جملةٌ معترضةٌ ومؤكّدةٌ بمثلها، ومعناها: الدعاء عليه بالهلاك لسوء ما قدَّر.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ دقَّقَ في التفكير ونظر نظرة الفاحص المُتعمِّق.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ عبس أي: قطَّب وجهه، وبَسَرَ أي: تغير وجهه غيظًا وحنقًا، وهذه صورة لحالته النفسيّة، وحقده الأعمى على آيات الله؛ إذ لم يجِد فيها بعد كلّ هذا التفكير والتقدير ثغرة ينفذ منها.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾ أي: أعرض عن الحقِّ الذي لاحَ له بهذا التفكير مُستكبرًا عن الخضوع له، والاعتراف به.

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ لم يستطع أن يقول في القرآن شيئًا إلَّا أنّه سِحرٌ، وهو اعترافٌ ضمنيٌّ بقوة تأثيره في نفسه، وإن غلَّفَه بأكذوبة السحر، فهو يعلَم أنّ القرآن كلامٌ فيه الأخبار، وفيه الأحكام، وفيه الآداب، وأنّه لا صِلة بين هذه المعاني وبين السحر.

ثُمّ إنّه قال: ﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: مأثُور عن الأقدمين ومعروف عند الناس، وهذه كذبةٌ أخرى؛ فالسحر المعهود موضوعه مختلفٌ تمامًا، ولو كان كما يزعم لأتى السحرة – وهم كُثُر – بما يُشابِه القرآن أو يُعارِضُه.

﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ أي: ينسبه إلى النبيّ وليس إلى الوحي، بمعنى أنّه يتّهمه ﷺ – حاشاه – بالكذب واختلاق القرآن.

﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ أي: سأدخله جهنّم فيصلَى فيها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ سؤال قُصد به التهويل من شأنها وخطرها.

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أي: لا تُبقِي ممّن يدخلها أحدًا، ولا تدَعه إلَّا وتهلكه بسعيرها، وتعذّبه بعذابها، ولا يصح أن يكون: ﴿لَا تُبْقِي﴾ بمعنى أنّها تُفنِيهم؛ لأنّ الفناء سيكون هنا رحمة بهم.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي: تحرِق أجسادهم وتكوِيها فتتغيّر ألوان بشرتها.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ من الملائكة، وهم خزَنة النار، وهذا عددٌ غيبيٌّ لا نعلم سِرّه؛ فرُبّما

يكون لكلِّ طبقةٍ أو دَرَكٍ في جهنّم خازِن، ورُبّما يكون غير ذلك، ولا فرق في النتيجة العمليّة؛ إذ المقصود حصول الرهبة والاتعاظ، حتى يستعدَّ العاقل بما يَقِيهِ شرَّ ذلك اليوم وأهواله.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ أي: وما جعلنا خزَنَة النار إلّا ملائكة؛ لدفع توهُّم المشركين أنّهم من الإنس فيمكن دفعهم كما يدفعون خصمهم من البشر، وقد ورد هذا عن بعض المشركين مُستخِفًّا بالعدد، ومُستعرِضًا لقوته بين قومه، وهذا من جهلهم وحماقتهم.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ ليس عددهم هو الفتنة، فذلك من أحوال الآخرة ونواميسها، وإنّما الإخبار عنهم، وقد مرَّ قول المشركين فيهم وتعقيبهم على هذا الإخبار.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ لأنّ هذا موافقٌ لما ورد عندهم في عدد خزنة النار.

﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ بتصديق أهل الكتاب، وقد وردت في هذا روايات لا يتّسع لها المجال، ولا يبعُد أن تكون زيادة الإيمان بما يُحدِثه هذا الإخبار من ترهيبٍ يدفع للحذر والورع والخشية المحمودة.

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أي: ليستنكِر الكافرون هذا العدد ومعهم الذين في قلوبهم مرضٌ، وهُم هُنا: المُتردِّدون من الذين الْتَبَس عليهم الأمر، ويبعُد أن يكونوا المنافقين؛ لأنّ السورة من أوائل السور المكّيّة، إلّا على القول الذي يستثني هذه الآية فيجعلها مدنيّة. وأمّا ذِكر أهل الكتاب، فقد ورد كثيرًا في القرآن المكّي؛ لأنّهم كانوا موجودين، وكانت عقائدهم وأفكارهم موجودة، وكانت لهم صلات بأهل مكّة.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ أي: يُضِلُّ مَن يطلبُ الضلالة ويسعى لها، ويهدي مَن يستحقُّ الهداية ويسعى لها.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ في إشارةٍ إلى خزنة جهنّم، والمعنى أوسع؛ لأنّ جنوده سبحانه وأعدادهم ووظائفهم من الغيب الذي لا يعلمه إلّا الله، فما علَّمَنا إياه بطريق الوحي عَلِمْناه، وما أمسَكَ جَهِلْناه.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: ما هذه الآيات إلَّا تذكير وموعظة لهم.

﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ كلمة ﴿كَلَّا﴾ هنا أفادَت الاستفتاح وتأكيد القسم الذي بعدها، ثم أقسَمَ الله بالقمر والليل في حالة إدباره، والنهار في حالة إسفاره؛ تنبيهًا إلى عظيم آيات الله ودلائل وحدانيَّته، ودقّة صنعته وعنايته ولُطفه بهذا الخلق.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ هذا هو الخبر المقسَم عليه والمراد تأكيده والتنبيه لخطره، والإشارة في ﴿إِنَّهَا﴾ إلى سقر التي تقدَّم ذِكرها، و﴿لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ أي: واحدة من الطامّات الكبيرة.

﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾ أي: إنّ الإخبار بها قُصِدَ به الإنذار؛ لكي يتَّقيها الناس ويأخذوا حذرهم منها.

﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ أي: بعد هذا الإنذار البيِّن لم يبق لكم عذرٌ؛ فمَن شاء أن يتقدَّم بالخير والعمل الصالح، ومَن شاء أن يتقهقَر بالظلم والعمل الطالح، بمعنى أنّ كلّ إنسانٍ يتحمَّل مسؤوليَّته ومسؤوليَّة خياره وقراره.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ أي: كلُّ نفسٍ مرهونة ومحبوسة بعملها، وهذا تهديدٌ لأصحاب الباطل؛ لأنّهم هم الذين يُحبَسون بخطاياهم، أمّا أهل الحقِّ فهم مُستثنَون.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ هذا هو الاستثناء؛ فأصحاب اليمين لا يُحبَسون، بل هم مُطلَقون ومُستبشِرون بنتائج أعمالهم.

﴿فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾أي: وهم في الجنّات يتذكَّرون المجرمين ممَّن كانوا يعرفونهم، فيسألونهم:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾ ما الذي أوردَكم هذا المورِد؟

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ هكذا يعترفون بخطاياهم؛ فمنها ما يتعلق بحقٍّ خالصٍ لله؛ كالصلاة، ومنها ما يشترك فيه حقّ الناس والمجتمع الذي يعيشون فيه؛ كإطعام المساكين، ثم يُبيِّنون أصل الخطايا كلّها، وهو التكذيب بيوم الحساب، مُشيرين إلى السبب الذي جعلهم في هذه

الدائرة الآثمة المغلقة، وهو أنّهم كانوا يخوضون مع الخائضين دون تفكيرٍ ولا تمييزٍ، وهذه لا شكّ إحدى أسباب الضلال والشلَل الذي يُصيب العقل فلا يفكّر إلّا بما يرضي الجمهور ولو كان الجمهور جاهلًا ومنحرِفًا.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ﴾ أي: حتى تيقنّا أننا كنّا على الباطل بهذا الذي نحن فيه.

﴿فَمَا تَنفَعُهُمۡ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ إذ الشفاعة لا تكون لمشرك، ولا تكون إلّا من بعد إذنه تعالى ورضاه.

﴿كَأَنَّهُمۡ حُمُرٞ مُّسۡتَنفِرَةٞ ۝٥٠ فَرَّتۡ مِن قَسۡوَرَةِۭ﴾ شبّه حالهم في نفورهم من القرآن بحال الحُمُر الوحشيّة التي تفِرُّ ممّن تظنُّ أنّه يطلبها مِن صيّادي الإنس أو ضواري الوحوش، و الحُمُر جمع حمار، والمقصود به الوحشي؛ لأنّ الحُمُر الأهليّة ليست غرضًا للصيد، والقسورة جمع قَسوَر، وهو الرامي، وقيل: هو مفرد بمعنى الأسد، وهو من الكلمات المُعرَّبة، وكلاهما يشتركان في معنى الصيد، والله أعلم.

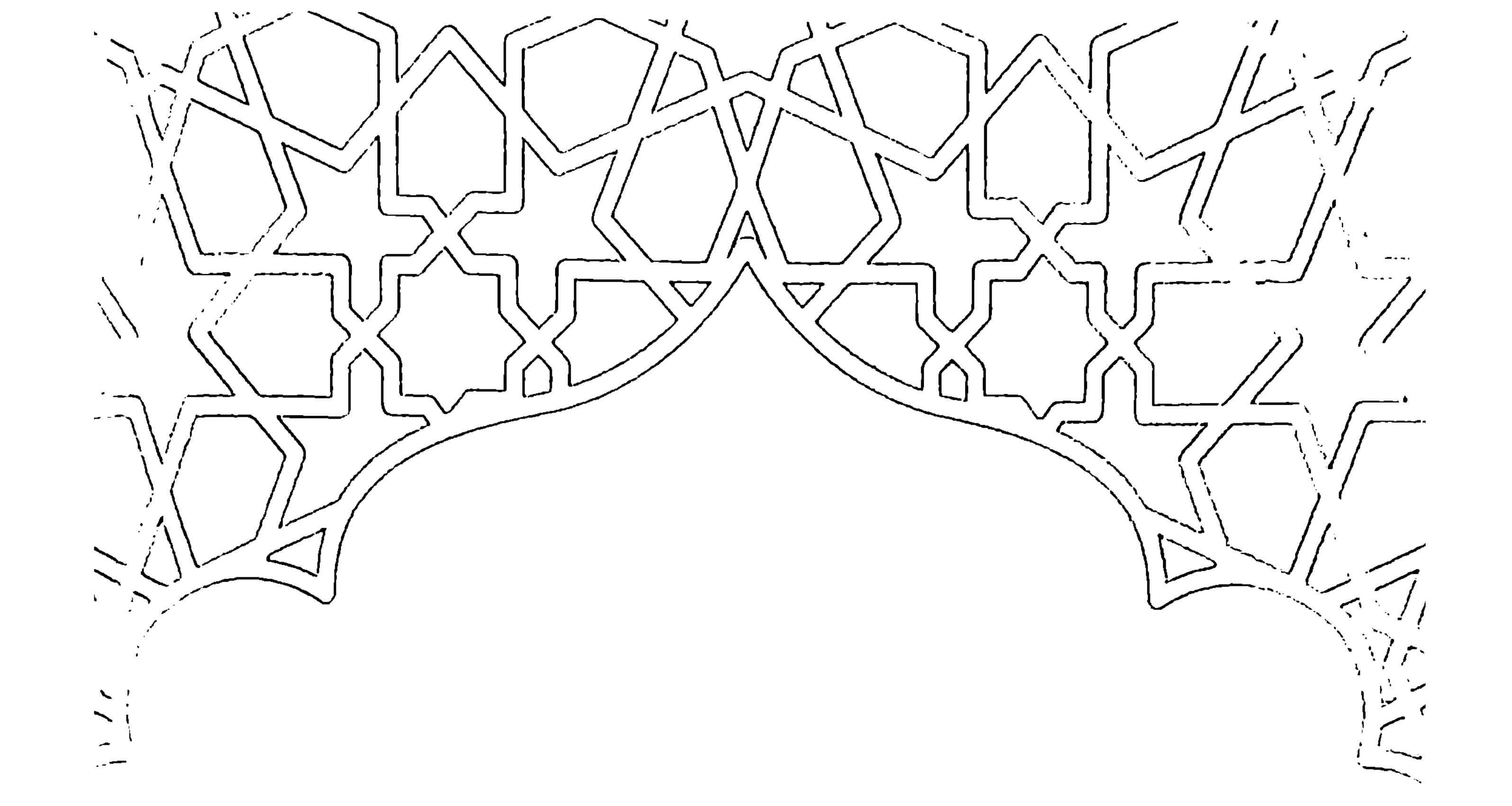
﴿بَلۡ يُرِيدُ كُلُّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ أَن يُؤۡتَىٰ صُحُفٗا مُّنَشَّرَةٗ﴾ هذا من عنادهم وبطرهم وتفنُّنهم في طرائق تكذيبهم؛ فكلّ واحدٍ منهم يشترِط أن يُنزِّل الله عليه صُحُفًا مفتوحةً ومفصَّلةً لينظر فيها، وبعد ذلك يُفكّر في الإيمان، وهذا النَّمَط نراه اليوم في صورٍ أخرى من بعض المُتعالِمين الذين يرفضون الأخذ بالمنقول من الروايات ولو كانت بأعلى الأسانيد، بل ولو كانت مُتواترة، ولا يُقيم وزنًا للمناهج العلميَّة في التوثيق والترجيح، وكأنَّه لا يريد أن يؤمن إلَّا بما تقع عليه حواسُّه من الأحداث، وهذا إبطالٌ للتاريخ كلّه، وتشكيكٌ في أحداثه، وهدمٌ للتراث والثروة الفكريّة والعلميّة المنقولة على مرِّ الأجيال، بل وفيه التشكيك بالسُّنَّة المُشرَّفة من حيث إنَّها رواياتٌ منقولةٌ.

﴿كَلَّاۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ هذا هو أصل الدّاء، ومبعث العناد والجرأة على الظلم والفساد.

﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذۡكِرَةٞ﴾ أي: إنّ القرآن كافٍ للتذكّر والاعتبار عن كلّ تلك الصحف التي يريدونها لو كانوا يبحثون صدقًا عن طريق الهداية.

﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: فمن شاء الهداية ذَكَرَ القرآن وتلاه وتدبّره، وهذا ترغيبٌ بالرجوع إلى القرآن وما فيه من أسباب الهداية، ودلائل الصدق.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ هذا استثناءٌ قُصِدَ به التنبيه إلى إرادة الله المطلقة، وسننه الحاكمة؛ فالله بمشيئته أنزل القرآن، وبمشيئته منح الإنسان القدرة على التفكير والتميز، ومنحه القدرة على الاختيار، وقد اقتَضَت إرادته وحكمته سبحانه ألا يمنَع مُهتديًا يطلب الهداية، ولا يُكرِه أحدًا على فعلٍ ما لا يرضاه، وهذا مُقتضَى الاختبار العادل والتميز الحقّ الذي ينبَنِي عليه الثواب والعقاب، والله أعلم.



سُورَةُ القِيَامَةِ

المجلس التاسع والستون بعد المائتين: يوم القيامة

المجلس التاسع والستون بعد المائتين

سورة القيامة

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ (١) وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ (٢) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ (٤) بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ (٥) يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ (٦) فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ (٩) يَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذٍ أَيۡنَ ٱلۡمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لَا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّؤُاْ ٱلۡإِنسَٰنُ يَوۡمَئِذِۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ ٱلۡإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ بَصِيرَةٞ (١٤) وَلَوۡ أَلۡقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ (١٥) لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ (١٦) إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ (١٧) فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ (١٩) كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ (٢١) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ (٢٣) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذِۭ بَاسِرَةٞ (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفۡعَلَ بِهَا فَاقِرَةٞ (٢٥) كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ (٢٦) وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ (٢٧) وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ (٢٨) وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ (٢٩) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ (٣٠) فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ (٣١) وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٣٢) ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ (٣٣) أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ (٣٥) أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣٩) أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ (٤٠)﴾

يوم القيامة

سورةُ القيامة تدلّ باسمها على مضمونها؛ إنّها السورة المختصّة بأحوال يوم القيامة وما فيه من أحداثٍ وانقلاباتٍ كونيّةٍ هائلةٍ، وما يعقُبُه من حسابٍ وجزاءٍ، وثوابٍ وعقابٍ، ولا شكّ أنّ الحديث عن هذا اليوم لا يأتي للإخبار المعرفي المجرَّد، وإنّما هو ركنٌ في المنظومة العقديّة التي يُؤسَّس عليها المجتمع المسلم، وتُبنَى بها شخصيّة الإنسان المُؤمِن، وكما يأتي:

أولًا: أقسَمَ الله قسمًا مُؤكّدًا بيوم القيامة ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ثم أقسَمَ قسمًا مُؤكّدًا آخر بالنفسِ الإنسانيّة التي تَلُوم صاحبَها، وتدفعه لمراجعة سلوكه، ووزن تصرُّفاته بميزان الحقّ والعدل ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.

والعلاقة بين القَسَمَين: أنّ النَّفسَ اللوّامةَ هي التي تنتفع بذِكر الآخرة، وهي القادرة على تصحيح مسارها، وهي بالنهاية التي تفوز في ذلك اليوم.

ثانيًا: بعد هذا القسَم المؤكّد، أكّدَت السورةُ عقيدةَ البعث، وأجابَت الإنسانَ عن تساؤله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ (٣) بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ مُبيِّنة أنّ الدافع لإنكار الآخرة

هو رغبة النفس الشريرة بالاستمرار في فجورها، والانغماس في شهواتها ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ثالثًا: تعرِضُ السورةُ مَشاهِدَ من ذلك اليوم الرهيب، مَشاهِدَ مما يصيب الأفلاك العلويّة وانقلاب نظامها، ومَشاهِد من صدمة الإنسان وذهوله وحيرته ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾.

رابعًا: تؤكّد السورة أنّ ذلك اليوم هو يوم الحساب، الذي يرى فيه الإنسان صحيفته كاملة، كلّ ما قدّمه من عملٍ خيرًا كان أو شرًّا، وما كان عليه أن يعمله فتركه، كلّ ذلك مدوَّن ومحفوظ، والإنسان في حقيقته بصيرٌ بحاله، وعارفٌ بعمله مهما قدَّم من أعذارٍ ومسوِّغات ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾.

خامسًا: تنتقل السورة إلى موضوعٍ مُتعلِّق بالوحي وحِرصه ﷺ على حفظه وتخوُّفه من أن ينسى منه حرفًا واحدًا، فجاءت هذه الآيات لتُطمئِنه أنّ الله تعالى سيجمع له القرآن كاملًا كما أنزل ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ هذه الالْتِفاتة تؤكِّد أنّ كلّ هذه الأخبار إنّما هي من الله الذي خلق هذه الأكوان، وأنزل هذا القرآن.

سادسًا: تُقرّر السورة طبيعة بشريّة وإنْ تفاوت فيها الناس بحسب إيمانهم وحضور هذا الإيمان في قلوبهم ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فالناس يُفضِّلون الشيء العاجل ولو كان زهيدًا على الآجل ولو كان ثمينًا، ومِن ثَمَّ يميلون إلى الدنيا العاجلة أكثر من الدار الآخرة، وأمّا الكافر فهو الذي يذَر الآخرة بالكليّة، وينكَبُّ على الدنيا بالكليَّة أيضًا.

سابعًا: تُقسِّم السورة الناس في ذلك اليوم بحسب نتائج أعمالهم على قسمين: نَاجٍ مُستبشر، وهالِك مُستحسِر ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾.

ثامنًا: تنقل السورة مشهدًا من مشاهد الاحتضار عند دنوِّ الأجل واقتراب الرحيل، وهو

المشهد المعهود في كلِّ يومٍ وإن كان الناس عنه غافلين ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٖ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلۡفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾.

تاسعًا: تتوعَّد السورة ذلك الذي لم يُؤدِّ حقوقَ الله، ولم يؤدِّ حقوقَ عباد الله ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ۝٣٣ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾.

عاشرًا: تُصحِّحُ السورة مفهوم الحياة والموت، وتُبيِّنُ أنّ الإنسان خُلِقَ لغايةٍ عظيمةٍ ولم يُخلَق عبثًا، وهذه الغاية العظيمة متّصلة بأدائه وسلوكه وما ينتظره على هذا الأداء والسلوك من ثوابٍ وعقابٍ ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾.

دقائق التفسير

﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ صيغةٌ من صيَغ تأكيد القسَم، بمعنى: أُقسِم قسَمًا مؤكّدا.

﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ بالنفس التي تلُوم صاحبها على الخطأ والتقصير.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ أي: أيستبعِد الإنسان قُدرتَنا على بعثه كما كان بعد أن تَتَفتَّتَ عظامُه وتَبلى في التراب؟

﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ والبَنَان: الأصابع، وهي أصغر العظام، فجمعها وتعديلها يعني أنّ جمع ما عداها أهوَن، وكلّ ذلك على الله هيِّن.

﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ أي: يريد الكافر أن يتمادَى في فجوره في قابِلِ أيامه، ولا ينقطع عن ذلك بذكر الموت والاستعداد للآخرة؛ ولذلك فهو يُنكِر الآخرة ويسأل عنها سؤالَ المُنكِر المُستهزِئ ﴿يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾.

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلۡبَصَرُ﴾ أي: شخَصَ لما يراه من أهوال القيامة.

﴿وَخَسَفَ ٱلۡقَمَرُ﴾ طُمِس وذهب نوره.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ﴾ أي: يلتصِق القمر بالشمس، بمعنى أنّ الشمس تجذِبُه إليها، وهذا

حينما يختلُّ النظام الكوني وتنتهي جاذبية الأرض، وعِلم الفلك الآن لا يستبعد ارتطام القمر بالشمس في أي لحظة لو حصل أي خلل في مداره حول الأرض.

﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي: يَسأل الناس مع بداية تلك الأحداث عن أي مهربٍ أو ملجأٍ، وهو سؤالٌ يأتي في سِياق اليأس والإيقان بالهلاك، وليس في سياق البحث.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ تأكيد لحالة اليأس التي يشعُر بها الناس يومئذٍ بألا وَزَر، والوزَر: المكان الذي يُلجَأ إليه في العادة عند الشعور بالخطر، وهذه الجملة قد تكون من تمام قول الإنسان، كأنّه يُجيبُ نفسَه، أو أنّها من كلام الله تعالى لبيان حقيقة ذلك اليوم، والمؤدَّى واحد.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ أي: إلى ربّك المرجع وعنده الحياة المستقرة التي لا موت يقطعها ولا فناء.

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: يُخبَر الإنسان بكلِّ أعماله صغيرها وكبيرها، أولها وآخرها، ما عمله فعلًا، وما كان مُكلّفًا بعمله فتركه ولم يعمله، والمقصود بالإنباء: المجازاة، لا مُجرّد الإخبار.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ أي: بصير بما قدّم وأخّر، وإضافة التاء للمبالغة في الإبصار، كما تقول في علَّام: علَّامة، وفي فهَّام: فهَّامة.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ بمعنى أنّه مهما يُقدِّم من أعذارٍ عن كفره وتقصيره فهو بصيرٌ وعارفٌ أنّه مُستحِقٌّ للعقوبة.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ وَرَدَ في نزول هذه الآية وما بعدها أنّ النبيَّ ﷺ كان يُحرّك لسانه وشفتيه عند سماعه الوحي ليحفظ عنه القرآن قبل أن يتفلَّتَ منه، فنزَلَت هذه الآيات تُطمئِنه على حفظ القرآن في صدره فلا ينسى منه شيئًا[1].

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ أي: جمعه في صدرك فتحفظه وتقرأه كما أُنزل.

---

(١) الحديث الوارد في سبب نزول هذه الآية متفق عليه عن ابن عباس ﷺ، وقد ورد بعدة صيغ. ينظر: صحيح البخاري ١/ ٦، وصحيح مسلم ٢/ ٣٤.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ أي: إذا قرَأ جبريل ﷺ عليك كلامَنا المُنزَّل فأنصِت واستمع لقراءته.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ أي: مع التلاوة والحفظ يأتي البيان، و﴿ثُمَّ﴾ لا يصحُّ أن تكون للتراخِي الزمني؛ لأنّ المعنى سيكون أنّ النبيَّ ﷺ كان يُصغِي ويحفظ دون أن يتبيَّن المعاني، بل الصحيح أنّ المعنى مُلازِمٌ للفظ، وإنّما يتأخّر المعنى عن اللفظ تأخُّرًا اعتباريًّا؛ لأنّه بتمام الكلمة والعبارة يظهر المعنى، والله أعلم.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا؛ لأنّها حاضِرة عندكم.

﴿وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: تتركون العمل لها؛ لأنّها مؤجَّلةٌ وغائِبةٌ عنكم.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾ أي: حسنةٌ ومُستبشِرةٌ بثواب الله والسعادة الدائمة.

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ظاهرٌ في أن المؤمنين يرَون ربَّهم رؤيةً خاصَّة تُناسب أحوال الآخرة ونواميسها، ولا يصحّ قياسها بما نألَفُه في الدنيا، ولا أن نُلزِمها بلوازم الدنيا، ولا ينبغي التكلُّف في فهم الآية، فهي من النصوص الخبريَّة الغيبيَّة التي لا مجال للعقل في تحصيل هيأتها وكيفيتها، والله أعلم.

﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ أي: كالحة يظهر عليها أثر الخزي والمهانة.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ أي: تنزل بها طامَّة وداهية.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ وصفٌ لحالة الاحتِضار وخروج الروح إلى الحنجرة، وتلجلُج الأنفاس هناك، ونظيرُه قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣]، والتراقي: جمع تُرقُوة، وهي العظمة التي بين ثَغرة النَّحر والعاتِق من أعلى الصدر، ولكلِّ امرئٍ تُرقُوتان.

﴿وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ أي: قال أقرباؤه والحاضرون معه: من يرقِيه ليبرئه ممَّا أصابه، بمعنى أنّهم يبحَثون له عن طبيبٍ يُعالجه، أو داعٍ يدعو له.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ أي: غلَبَ على ظنّه أنّه قد حان الفراق.

﴿وَٱلۡتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: جُمعت ساقَا الميت وضُمَّتا إلى بعضهما بعد أن أُدرِج الجسد كلّه بالأكفان.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمَسَاقُ﴾ أي: فما هو بموتٍ على معنى الفناء، وإنّما هو انتقالٌ من دارٍ إلى دار، والمساق: مصدر الفعل ساق، بمعنى أنّه يُساق إلى مصيره عند ربّه.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ﴾ هذا الإخبار عن الكافر أنّه لم يُؤمِن بالله، ولم يؤدِّ ما افترَضَه عليه.

﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذَّبَ بالقرآن وما فيه من إخبارٍ عن اليوم الآخر وعقيدة الحساب والجزاء، وتولَّى أي: أعرض عن الحقِّ.

﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: مزهُوًّا مُتبختِرًا غير مبالٍ ولا مُكترِث.

﴿أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰ (٣٤) ثُمَّ أَوۡلَىٰ لَكَ فَأَوۡلَىٰٓ﴾، و﴿أَوۡلَىٰ لَكَ﴾ صيغةٌ من صيغ التهديد، والتكرار للتأكيد.

﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ أي: مُهملًا بلا حسابٍ ولا جزاءٍ، فيستوي الظالم والمظلوم، والمُصلح بالمُفسد.

﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ﴾ يُذكِّره بأصل خِلقته يوم كان نُطفة من ماءٍ مهين.

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: تدرَّجَ في الخلق حتى استوى بقوامه وتمامه.

﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ لتستمرَّ الحياة وتتعاقب الأجيال، وليس هذا من فعل الذَّكر ولا من فعل الأُنثى، ولا من الصُّدفة العمياء؛ فالقصد الحكيم في هذا التنوُّع ضرورة عقليَّة لا مناص منها، وهي شاهدةٌ على تقدير الخالق العليم سبحانه.

﴿أَلَيۡسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ هذا هو الدليل العقلي الذي يُخاطب به القرآن العقولَ دائمًا، فالخلق الأول دليلٌ بحدِّ ذاته على إمكانيَّة الخلق الثاني، فتبارك الله أحسَنُ الخالقين.



المجلس السبعون بعد المائتين: وكان سعيكم مشكُورًا

المجلس
السبعون بعد المائتين

سُورَةُ الإِنسَانِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

وكان سعيكم مشكورًا

موضوعُ هذه السورة الأساس هو نعيم الجنّة وما أعدَّه الله فيها للمُتّقين من عباده، وقد قدَّمت له السورة بالحديث عن الإنسان الذي تسمَّت به السورة، واستعداده للسير في طريق الجنّة أو طريق النار، ثم ختمَتْه بتوجيهات لا تبعُد عمّا قدّمت به، وكما يأتي:

أولًا: استهلّت السورة بالحديث عن خلق الإنسان، وعن الغاية الأساس من خلقه، وهي الابتلاء والاختبار ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾.

ثانيًا: بيَّنت السورة أنَّ هذا الاختبار سينقسم فيه الناس على قسمَين، ويفترقون على فرقتَين: فرقة ضالّة خاسرة كافرة ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾، وفرقة مُهتدية فائزة برضوان الله والجنّة ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾.

ثالثًا: توسّعَت السورة في بيان صفات هؤلاء الفائزين وما قدَّموه لأنفسهم في الحياة الدنيا ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾.

ويلحظ في هذه الصفات أنّها قد جمَعَت بين خوفهم من الآخرة، وإحسانهم إلى الخلق، وهذه لازمةٌ قرآنيةٌ مؤكَّدةٌ ومكرَّرةٌ في كثيرٍ من المواضع؛ فخوف الآخرة لا بُدَّ أن يُثمر إحسانًا وعملًا طيبًا.

رابعًا: ثم توسّعَت السورة في بيان نعيم الجنَّة، وهو توسُّعٌ يُناسِبُ ذلك التوسُّع في بيان صفاتهم الحميدة، فكانت النعمة الأولى أن وقاهم الله العذاب، ثُمَّ ما أبهجهم به من نضرةٍ وسرورٍ، ثم ما أعدَّه لهم في الجنّة من حريرٍ وظلالٍ، وثمارٍ وشرابٍ وأرائِك، ومُلكٍ كبيرٍ، وخدمٍ كثيرٍ، وفوق ذاك وقبله رِضَا الله العليم القدير ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾.

خامسًا: انتقلت السورة للتذكير بالقرآن وأنّه كلام الله المُنزّل، وأنّ المخالفين له إنّما هم آثِمون كافرون، ومُناسبة هذا التذكير: تأكيد صدق الآيات المُتقدّمة في وصف الجنَّة

ونعيمها، ومَن يستحقّها ومَن هو المحروم منها ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

سادسًا: دعَت السورة إلى إخلاص العبادة لله، والمُداومة على الذِّكر وقيام الليل، وأن يتميَّز المؤمنون عن أولئك الغافلين المتشبِّثين بالدنيا واللاهِثِين وراءها ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾.

سابعًا: اختتمت السورة بتذكير الناس كافّة، وحثِّهم على سلوك الطريق الأسلَم والأقوَم، وأنّ الله تعالى بمشيئته وحكمته قد ميَّز بين الطريقَين: طريق الرحمة، وطريق العذاب ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهذه الخاتمة تُذكِّر بمقدِّمة السورة وتُكملها.

دقائق التفسير

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ استفهامٌ تقريريٌّ قُصِدَ به إثبات المستفهم عنه، فتكون ﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى قد، وهذه حقيقةٌ بحقِّ كلِّ إنسانٍ أنّه كان بعد أن لم يكن، وحقيقةٌ أيضًا بالنسبة للجنس البشري؛ فإنّ سلسلة الأجيال المُتعاقِبة لا بُدَّ أن تكون لها بداية، وباطلٌ في منطق العقل والعلم افتِراض وجود آباء لا نهاية لهم، فتعيَّن أن تكون هناك لحظة زمنيّة بدأ بها خلقُ الإنسان.

﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: من نطفةٍ مختلطةٍ، ومعنى الاختلاط هنا ظاهرٌ في اختلاط ماء الرجل بماء المرأة، ولا يمنع أن يكون المقصود أيضًا اختلاط العناصر المختلفة في ماء الرجل نفسه الذي يحتوي على ملايين الحيوانات المنوية مع السائل الذي تسبح فيه، وهذا ما أثبتَه العلم، والله أعلم.

﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾ بيانٌ لحكمة الخلق وهي الابتلاء والاختبار.

﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أوضَحنا له طريقَ الحقِّ بالرسالات التي جاء بها الرُّسُل، وبالحُجَج والبراهين، والآيات المبثُوثة في هذا الكون.

﴿إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ بمعنى أنّه بعد خَلقه على أحسن وجه، وبعد بيان الطريق أمامه بالحجَّة والدليل، يتحمّل هو مسؤوليّته أن يكون شَكورًا لربه معترفًا بفضله، أو يكون كثيرَ الكفر مُتنكِّرًا لفضل الله عليه.

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا﴾ السلاسِل: هي حِلَق الحديد المتّصلة، والتي تُلَفُّ على الكافر حتى كأنّه يكون في داخلها كما بيّنتْ ذلك سورة الحاقّة، والأغلال تلك التي يُطوَّق بها العنق وتكون حلقة واحدة لكنها كبيرة، والسعير: النار المُستعِرة.

﴿ٱلۡأَبۡرَارَ﴾ جمعٌ، مفرده بارٌّ، وهو من البرِّ بمعنى الشكر والإحسان.

﴿كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي: ممزوجة بالكافور، وهو نوعٌ من الطِّيب الذي يُضاف إلى الشراب لتطييبه.

﴿عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الكافور يُؤخذ من عينٍ تجري به، و﴿يَشۡرَبُ بِهَا﴾ أي: يشرَبون شرابَهم ممزوجًا بها، فالباء ليست زائدة كما يقوله بعض المُفسِّرين، والله أعلم.

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا﴾ أي: يُفجِّرون هذه العيون في الأماكن التي يُريدون، والتفجير هنا على سبيل الابتهاج والاحتفال، وليس على سبيل النَّصَب وبذل الجهد، كتفجير عيون الأرض.

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ هذه أوّلُ صفةٍ من صفات الأبرار، والظاهر أنّها صفةٌ أكبرُ وأوسعُ من مفهوم النَّذر الفقهي، بل هي صفةٌ تعني: الوفاء بالعهود، وبمتطلّبات الإيمان؛ كإخلاص العبادة، والسمع والطاعة لله ولرسوله، والالتِزام بكلِّ ما ألزموا أنفسهم به؛ كالنذور المعروفة، وأنواع القُربات، والله أعلم.

﴿وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا﴾ أي: مُنتشِرًا وواسعًا، وهو يوم القيامة، فهؤلاء الأبرار كانوا يحسِبُون لذلك اليوم حسابه، ويأخذون له عدَّته.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ أي: مع محبّتهم له وحاجتهم إليه، ونظيرُ هذا قولُه تعالى في الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ﴾ [الحشر: ٩].

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ اختلف المفسِّرون في معنى الأسير هنا؛ لأنّ السورة مكّيّة - على الأرجح - ولم يكن ثَمّة قتال، فحمَلُوه على العبيد المسلمين الذين كان المشركون يُجوِّعونهم ويعذِّبونهم ويحبسونهم، والأظهر أنّ العبيد داخلون في المساكين، وإطلاقُ اسم الأسير عليهم لا يخلُو من تكلُّف؛ فالأسير هو أسير الحرب، والحرب كانت موجودة ومتوقَّعة بين القبائل وليس شرطًا أن يكون الأسير في معركةٍ بين المسلمين وسواهم، وكثيرٌ من العبيد كانوا أحرارًا، وإنّما استُرِقّوا بالأسر.

ثم إنّ الحديث عن هذا الخُلُق يُظهر ميزَة الإسلام حتى لو لم يكن هنالك أسرى في الواقع، كما أنّه يُهيِّئ المسلمين للمرحلة القادمة، وقد وردَت الإشارة في السور المكّيّة إلى بعض العبادات التي لم تشرع إلّا في المدينة؛ كالإشارة إلى الزكاة، والحج، بل ووردَت الإشارة في مكّة إلى معركة بدر ومقتل بعض المشركين فيها، والله أعلم.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ الأظهر أنّهم يقولون هذا في أنفسهم؛ إخلاصًا لله، ودفعًا لأي غرضٍ دنيويّ، وفيه أنّ انتظار الجزاء أو الشكر مِن المتصدَّق عليه يُنافِي إخلاصَ العمل لوجه الله، مع التنبيه أنّه من أدَب المُتصدَّق عليه أن يردّ بالشكر والدعاء.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ جاء هذا في سياق التعليل، أي: إنّهم إنّما يتصدَّقون بتلك الصدقات الخالصة لوجهه تعالى؛ لأنّهم يخافُون الله، ويحسبون حساب الآخرة، والعَبُوس: الكالِح البائِس، والقَمطَرير: الشديد.

﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ جزاهم بالبُشرى التي تسرُّ القلب ويظهر أثرها المُبهِج على الوجه.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِۖ﴾ مُتكئِين في الجنّة على الأسِرَّة.

﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ أي: لا يتأذّون فيها بحرٍّ ولا ببردٍ.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا﴾ أي: ظِلال أشجارها قريبة منهم، والمقصود لازم الظلّ، وهي

الأغصان والأفنان بقرينةِ: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا﴾ وهم ليسُوا بحاجةٍ إلى الظلِّ الذي يَقِيهم من الحرِّ، والله أعلم.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ أي: هي مُسخَّرةٌ لهم وطَوع أيديهم يجْنُون مِن ثمارها متى شاءوا من غيرِ جهدٍ ولا تكلُّف، والقُطُوف: جمع قِطاف؛ وهي الثمرة التي تُقطف.

﴿قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ﴾ صفةٌ للأكواب التي يشربون بها، والقوارِير لا تكون إلَّا من الزجاج، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤]، وكونها من فضّة أيضًا فيه إشكال؛ ولذلك قال المفسرون: إنّها من فضّةٍ صافيةٍ تُشبِه الزجاج، والذي دعاهم إلى هذا التأويل استِبعادهم لأَن تكون الأكواب مصنوعةً من العنصُرَين معًا؛ الزجاج والفِضَّة، ولست أرَى ذلك مُستبعَدًا في الآخرة، بل ولا مُستحيلًا في الدنيا، والله أعلم.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي: الذين يطوفون عليهم بهذه الأكواب يعرِفون عددهم، ومِقدارَ حاجتهم للشراب، فيُقدِّمون لهم بقَدر ما يحتاجون ويشتهون.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ هذا شرابٌ آخر؛ فذاك يُمزج بالكافور، وهذا يُمزج بالزنجبيل، وليس الكافور ككافور الدنيا، وليس الزنجبيل كزنجبيلها.

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ أي: كما أنّ للكافور عَينًا، فإنّ للزنجبيل عينًا كذلك، وزاد هنا ذكر اسمها، والسلسَبِيل عَلَمٌ على هذه العَين، وهو يُوحِي بالرقَّة والسهولة، والله أعلم.

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ الوِلدان جمعٌ مُفرده وليد؛ وهو الصبيُّ، وهؤلاء هم المكلَّفون بخدمة أهل الجنَّة، وهم مخلَّدون لا يهرَمون ولا يموتون.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ لحُسنهم وانتشارهم بين أصحاب الجنّة.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ أي: إذا رأيتَ ما هنالك ترى نعيمًا عظيمًا، ومُلكًا كبيرًا، أي: إنّ الذي تقدَّم من النعيم ما هو إلَّا جزءٌ في ذلك المُلك الفخم الواسع.

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ أي: يعلُوهم ويكسُوهم ثيابٌ من سندسٍ وإستبرقٍ، والسُّندُس: رقيقُ الحرير، ويلبس مما يَلِي البدن، والاستِبرَق: سميك الحرير، وهو الظاهر من

اللباس، والخُضر: جمع أخضَر؛ وهو لون السندس.

﴿وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ أي: يتزيَّنون بها، والإشارةُ هنا إلى قيمة التزيُّن والتجمُّل.

﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ هذا شرابٌ آخر لم يُفصِّله القرآن، وإنّما اكتفى بإسناده إلى الله تبارك وتعالى، وهذا كافٍ عن ذِكر ميزته وخيريَّته على كلِّ الشراب، مع أنّ الغموض هنا في صفة الشراب يدعو إلى التشوُّف له والتشوُّق إليه، وشوق العارفين إلى ربِّهم أعظم وأكبر.

﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ هذا مِن إكرام الله لهم وتلطُّفه بهم؛ فهذا النعيم العظيم سيتجلَّى سعادةً وهناءةً أكثر حينما يرَى صاحِبُه أنّه كان بجهدٍ منه وبتعبٍ ونصبٍ، إنّه يرى نتيجة نجاحه في الابتلاء الطويل، وصبره على هذه الدعوة، وليله الذي كان يَقضِيه بالذِّكر والدعاء، ونهاره الذي كان يَقضِيه بالصوم والعمل، وصدقاته وصلاته، كلّها هنا، يراها أمامه نعيمًا ورضًا كريمًا.

اللهم فلا تحرِمنا من ذلك النعيم، ومتّعنا برضاك والنظر إلى وجهك الكريم.

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ تذكيرٌ بذلك السعي المطلوب للوصول إلى هذا النعيم المحبوب.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ في بداية اليوم استعدادًا للعمل، وفي نهايته استغفارًا من الزلل.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ فهذا أرجَى الأعمال المُوصِلة إلى تلك الجِنان؛ لأنّه خالِصٌ مِن شوائِبِ الرياء، وحظوظ النفس العاجلة.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: يُحبُّون الدنيا حبًّا يُلهِيهم عن الآخرة؛ ولذلك قال بعدها: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ وهو يوم القيامة.

﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ أي: خلَقناهم وأحكَمنا خِلقَتهم، وربطنا حياتهم بناموس هذا الكون، وقدَّرنا عليهم حياتهم وموتهم، فأمرهم إلينا، وهم تحت حكمنا.

﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ تفريعٌ عمّا تقدم، أي: بما أنّهم تحت حكمنا وإرادتنا، فنحن

قادرون على أن نُهلكهم ونأتي بخلقٍ آخر مثلهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[1].

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ أي: إنّ هذه الآيات تذكيرٌ للناس وموعظةٌ لهم.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ حثٌّ للمتذكِّر والمُتَّعِظ أن يُبادر إلى الطريق الموصول بالله، وهو طريق الإيمان والإسلام، وفيه إثباتٌ لمشيئة الإنسان وقُدرته على الاختيار.

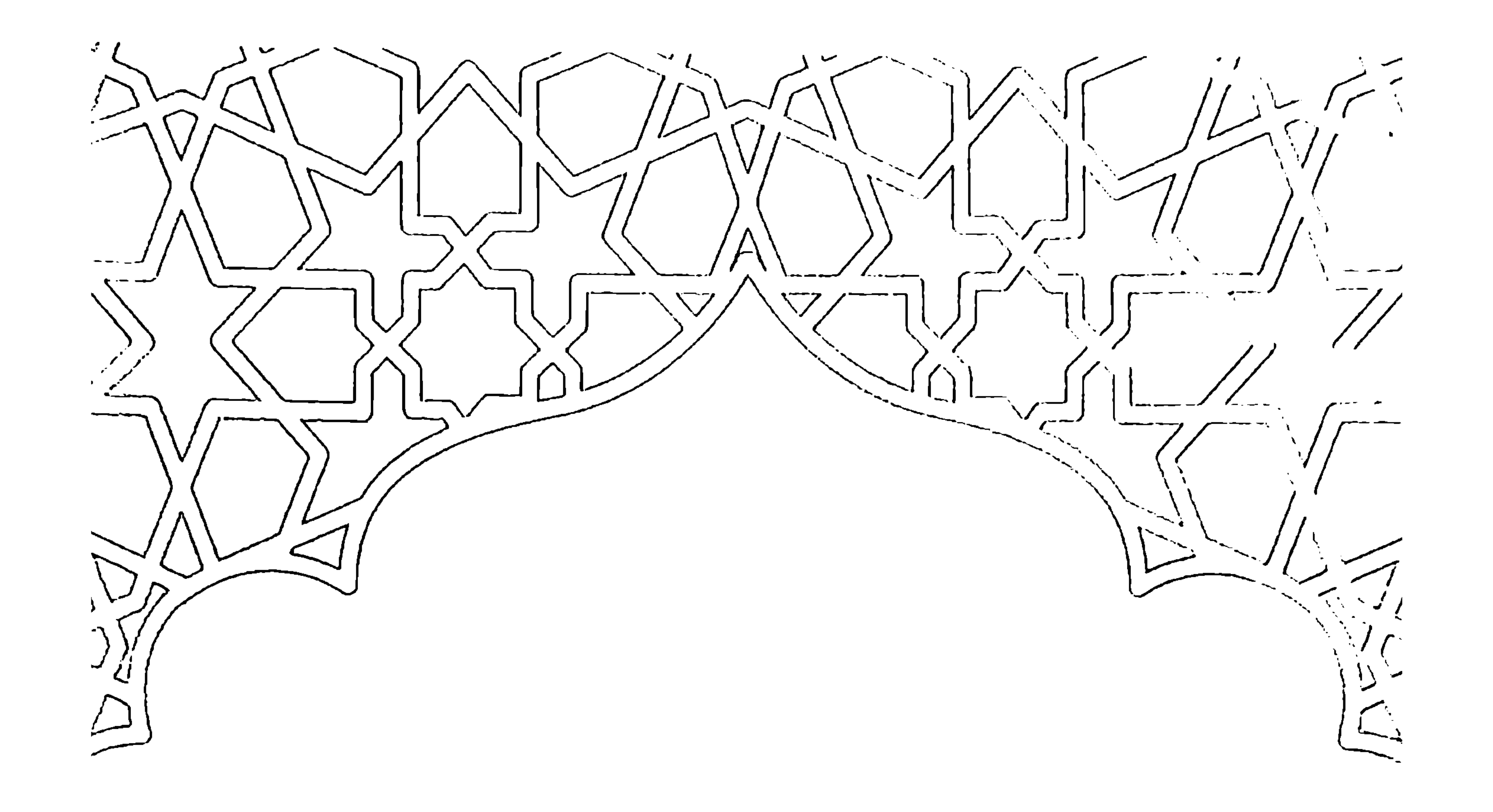
﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ فمشيئةُ الإنسان لا تخرج عن مشيئة الله، بمعنى أنَّ الله هو الذي أرادَ أن تكون للإنسان مشيئة، ولو شاء سبحانه لجعله خلقًا آخر لا يُريد ولا يختار، وهذه المشيئة التي خلقها الله في الإنسان هي مناطُ التكليف، وهي محل الثواب والعقاب، والله أعلم.

﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ ورحمة الله واسعة، وقد سبقت رحمته غضبه.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ بمعنى أنَّهم مُستحِقُّون لهذا العذاب بظلمهم، وليس لسلب إرادة الخير عنهم، وهذا تأكيدٌ مُتكرِّرٌ لعقيدة العدل الإلهي؛ فلكلِّ جانٍ ما جنَى، ولكلِّ عاملٍ ما عمل.

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في القرآن الكريم مرتين: في سورة إبراهيم/ ١٩، وسورة فاطر/ ١٦.



سُورَةُ المُرسَلاتِ

المجلس الحادي والسبعون بعد المائتين: ويل يومئذٍ للمكذِّبين

سُورَةُ المُرسَلَاتِ

﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ﴿١٢﴾ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ﴿١٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ﴿٢٧﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرۡمِي بِشَرَرٖ كَٱلۡقَصۡرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٞ صُفۡرٞ ﴿٣٣﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوۡمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤۡذَنُ لَهُمۡ فَيَعۡتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِۖ جَمَعۡنَٰكُمۡ وَٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمۡ كَيۡدٞ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجۡرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

ويل يومئذ للمكذِّبين

تكرَّرَت في هذه السورة آية: ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرَّات على قِصَر السورة، وهذا يعني أنّ موضوع السورة المحوري هو: الردُّ على المُكذِّبين ودَحض شُبُهاتهم، وإقامة الحُجَّة عليهم، وتحذيرهم من مغبَّة هذا التكذيب، ويمكن تلخيص ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: أقسَمَ الله تعالى بصِنفَين من مخلوقاته: الرياحُ المُرسَلةُ بأمر الله، والتي تَتابعُ في هبوبها وتشتدُّ حتى تكون عاصِفة، والملائكة التي تأتي بالوحي المنشُور البيِّن الواضح، والذي يُفرِّق بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال، والذي فيه الإعذار والإنذار، ولمَّا كانت هذه هي صفات الوحي، فقد استعارَها القرآن استِعارةً للملائكة النازلة به ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴿١﴾ فَٱلۡعَٰصِفَٰتِ عَصۡفٗا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشۡرٗا ﴿٣﴾ فَٱلۡفَٰرِقَٰتِ فَرۡقٗا ﴿٤﴾ فَٱلۡمُلۡقِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٥﴾ عُذۡرًا أَوۡ نُذۡرًا﴾.

وهنا نُكتةٌ لطيفةٌ، وهي أنّ اقتران القَسَم بالملائكة بالقَسَم بالرياح يُشير إلى ما بينهما من الشَّبَه في السرعة واللطافة، ومن حيث إنّ الرياح تحمِل الماء الذي تحيَا به الأرض، وتحمِل الصواعق المُهلِكة، فكذلك الملائكة التي تنزِل بهذا الوحي رحمةً للمؤمنين، وعذابًا للمكذّبين، والله أعلم.

ثانيًا: أما جواب القسَم فكان تأكيد اليوم الآخر وأنّه آتٍ لا محالة ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ وفي ذلك اليوم سينقَلِب هذا النظام الكوني، وتتغيّر أحوال هذه الأفلاك والموجودات ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ﴾ وفي ذلك اليوم سيَحِينُ وقت الفصل بين الرسل وبين أقوامهم التي كذّبَتْهم ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١ لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢ لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٤ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

ثالثًا: حذَّرَت السورةُ هؤلاء المُكذِّبين، وهم أهلُ مكّة الذين كذَّبوا رسولَ الله ﷺ أن يُصيبَهم مثل ما أصابَ أسلافَهم من الأمم السابقة ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

رابعًا: ثم بدأت بمُحاجَجتهم بتذكيرهم بخَلقهم الأوّل؛ إذ أوجدهم الله من العدم، وخلقهم من ماءٍ مهينٍ، وهم ليس لهم شِرك في ذلك ولا لأصنامهم، بل الله وحده هو القادر وهو المُقدِّر سبحانه ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ۝٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ۝٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ ثم يُذكِّرُهم بالأرض التي احتَوَت أحياءَهم، وضمَّت أمواتَهم، وكانت مُمَهَّدة لعيشهم بجبالها وأنهارها وما أودَعَه الله فيها، وهذه من دلائل خلق الله وآياته في عنايته بهذا الخلق ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ۝٢٦ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ۝٢٧ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾.

خامسًا: تنتقِلُ السورة لتنقل مشاهد من ذلك اليوم؛ يوم الحساب الذي يُكذِّب به المُكذِّبون، لكنّهم سيصطدمون به وبها يلقَونه فيه ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝٢٩ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ

ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

سادسًا: في مُقابل أولئك المكذِّبين، تنقل السورة مشهدًا لأولئك المؤمنين المتّقين ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

سابعًا: تؤكِّد السورة في الختام تهديدها للمكذِّبين بعد إقامة الحجّة عليهم كاملة بيِّنة ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ يُقْسِمُ الله تعالى بالرياح التي تأتي مُتابعة كعُرف الفرس.

﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾ الرياح في حالة اشتدادها وسرعتها.

﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ فرّق بينها وبين العاصفات بالواو، إشارةً إلى مُقسَم به مختلف عن الرياح، والناشِرات: الملائكة التي تنزِل بالوحي المنشور للعالمين وضوحًا وتبيانًا.

﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾ تفرّق الملائكة بهذا الوحي بين الحقِّ والباطل، والهدى والضلال.

﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ تأكيدٌ أنّ النشر والفرق مُرتبطان بهذا الذِّكر الذي هو الوحي.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ أي: إعذارًا للناس لئلَّا يعتذروا بالجهل وعدم وصول الرسالة إليهم، وإنذارًا للمعاندين والمكذِّبين.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ ذهب ضوءُها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ أي: انشقّت، كما قال تعالى في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١].

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ اقتُلِعت من أماكنها فصارت هباءً مُنبثًّا.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ أي: وُضع لهم وقتٌ محدّدٌ للفصل بينهم وبين أقوامهم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ سؤالٌ قُصِد به التنبيه إلى هَول ذلك اليوم وخطره.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: أهلَكنا أُممًا مُتقدِّمة كقوم نوحٍ، وأُممًا متأخرة كفرعون وجُنده.

﴿كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ تهديدٌ للمجرمين المعاصرين لنزول هذه الآيات بأنَّ هذا الإهلاك سنَّة من سُنن الله في الظالمين والمكذِّبين.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ هو المنِيُّ الذي يستقذر منه، كيف خلق الله منه إنسانًا سويًّا عقلًا وجسمًا، وروحًا وفكرًا.

﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: فجعلناه في الرحِم، وهو المكان المُهيّأ له، ليستقرَّ فيه إلى حينٍ، فينمو ويقوَى حتى يتكامل خلقه.

﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ هنا يُمجِّدُ الله نفسَه، وينبِّهُ إلى آثار قدرته في هذا الخلق ﷻ.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ الاستِفهام هنا تقريري؛ بمعنى أنّه يُثبِت ما بعده، فالله جعل الأرض كفاتًا؛ أي: محلًّا ووعاءً للناس، يحملُ أحياءهم ويضمُّ أمواتهم، وتتعاقب عليه الأجيال جيلًا بعد جيل.

﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي: عَذبًا.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ أي: انطَلِقوا إلى النار التي كنتم تُكذِّبون بها، ومعنى الانطلاق هنا: استِجابتهم القَسريَّة لسَوق الملائكة لهم.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ هذا الظلُّ هو دخان جهنَّم المُنبعث عن جانبيها ومن وسطها، وتسميته بالظلّ على سبيل التهكُّم، كاستعمال التبشير في التهديد الوارد في قوله

تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١)، فهم هناك كأنَّهم يبحثون عن ظلٍّ يستظلُّون به، فيقال لهم: انطلقوا إلى ذلك الظلِّ.

﴿لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ أي: هذا الدخان المُتصاعد فوقهم لا يظلّهم من حرٍّ، ولا يَقِيهم من اللهب.

﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ الشَّرَرُ: هو المتطاير من النار، ومفرده شَرَارَة، وقد شبَّهه بمفردِ وهو القَصْر، والظاهر أنّ القَصْر قُصِدَ به جنس القُصُور، فيكون معناه جمعًا، كما نستعمل الكتاب بمعنى الكتب، والقَصْر: البناء الفخم العالي، فالشَّرارةُ الواحدة في جهنَّم تكون بحجم القَصْر، والعياذ بالله.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ هذا تشبيهٌ آخر يقرِّبُ فيه صورةَ الشَّرَر المُتطاير بالإبل، والصُّفْر قد يكون لونًا للمشبَّه، وقد يكون لونًا للمشبَّه به، والمؤدَّى مُتقارب.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ وهو يومٌ مخصوصٌ من أيَّام الآخرة، وإلَّا فقد ورد في آياتٍ أخرى أنَّ أهل النار يتكلّمون ويتلاومون ويستغيثون، وفيه أنّ أحوال الآخرة ليست حالة واحدة، والله أعلم.

﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ فقد ذهب وقت الاعتذار والندم.

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: يوم الحكم الذي يَفصِل بين أهل الحقِّ وأهل الباطل.

﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ ولذلك يُسمّى يوم الجمع؛ حيث تجتمع الأجيال كلّها على صعيدٍ واحدٍ، وفي يومٍ واحدٍ.

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ هذا على سبيل التعجيز والتهكُّم، يُذكِّرهم بكيدهم الذي كانوا يكيدون به المسلمين.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾ ذِكْرُ الظلال هنا مقصودٌ لتقريع المشركين وزيادة تحسُّرهم

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم في القرآن الكريم ثلاث مرات: في سورة آل عمران/ ٢١، وسورة التوبة/ ٣٤، وسورة الانشقاق/ ٢٤.

حينما يقارنون بين ظِلِّهم ذي الشعب الثلاث المُنبعِث من جهنَّم، وبين ظِلال الأُنس والنعيم هذه.

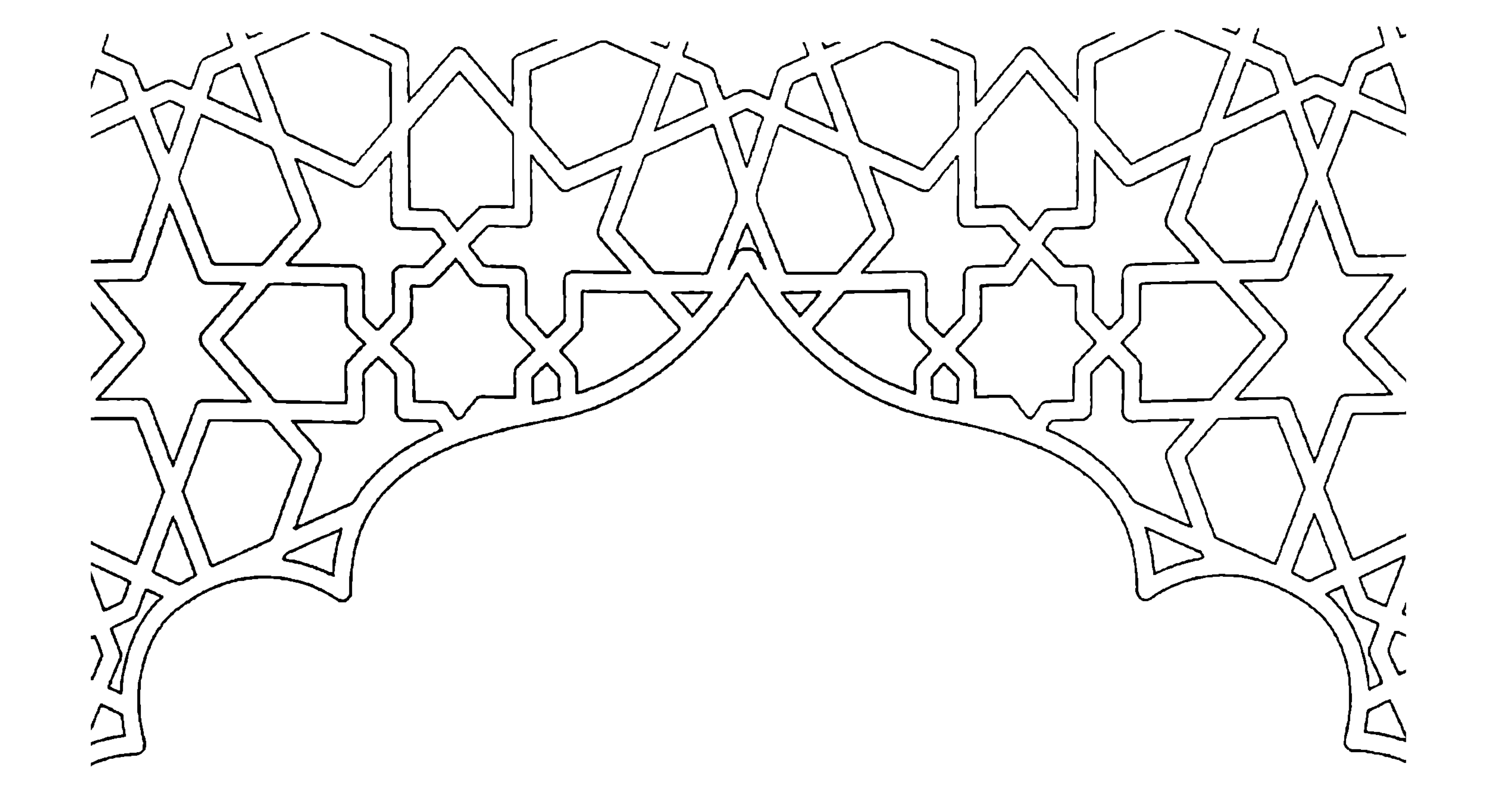
﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ تأكيدٌ لعقيدة العدل الإلهي؛ إذ النعيم كان مقابل العمل، وليس مقابل اللون والجنس والنسب مما يتفاخر به الناس، وفيه أيضًا تعريضٌ بالمشركين الذين أوردوا أنفسهم هذا المورد، وكان باستطاعتهم أن يعملوا كما عمل هؤلاء المتقون.

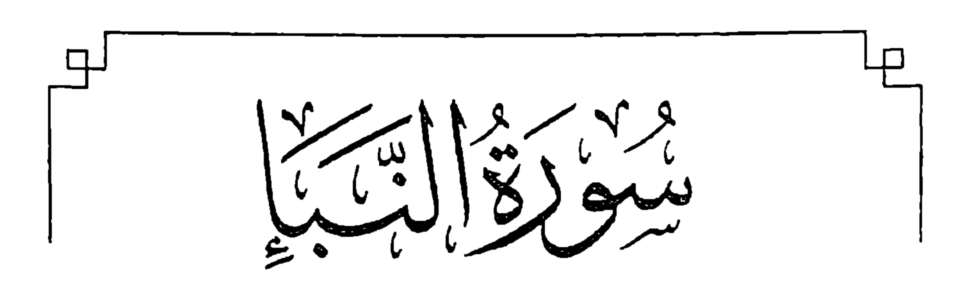
﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا﴾ أي: إلى أن يَحِينَ الأجلُ المُسمَّى لكم، والأمرُ بالأكل والتمتُّع يُقصَد به التهديد لا الطلب.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ تقريعٌ آخر لأولئك المكذِّبين، بمعنى أنّهم لم يُطلب منهم ما يصعب فعله، ولا ما يصيبهم بالمشقّة والضرر، فكلّ ما طُلب منهم لكي يتّقوا هذا العذاب الشديد أن يؤمنوا بالله ويعبدوه وحده.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ بمعنى أنّ القرآن قد جاء بكلِّ البراهين والأدلة القاطعة التي تقوم بها الحجة، فإذا لم يؤمنوا به فإنَّهم لن يؤمنوا بأي حديثٍ آخر؛ لأنَّه ليس هناك أسمى من القرآن ولا أقوى حجّةً منه.

وفيه أنّ هؤلاء المُكذِّبين ليست مُشكلتهم في الدليل، ولا في المعاني، ولا الْتِباس الأمور عليهم، بل هم مُعانِدون وحاسِدون ومُتكبِّرون.





المجلس الثاني والسبعون بعد المائتين: النبأ العظيم

سورة النبأ

﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾﴾

النبأ العظيم

سورة النبأ من السور المكِّيَّة التي تُعالِج مسائل الدعوة في عهدها المكِّي، وقد ركَّزَت السورة على عقيدة اليوم الآخر والاستدلال عليها، وبيان حال الناس في ذلك اليوم وما يلقَونه من ثوابٍ أو عقابٍ، وكما يأتي:

أولًا: تستهلُّ السورة بسؤالٍ مشوِّقٍ ومحفِّزٍ للذهن ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ ثُمّ لا يكون الجواب إلَّا بما يزيد السامع تشوُّقًا وتحفُّزًا ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾.

ثانيًا: ثُمّ تأخذ السورة بسَرد الشواهد على قُدرة الله المطلقة، والتنبيه إلى ما في هذا الكون من آياتٍ ودلائل ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا

﴿سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾.

ثالثًا: تؤكِّد السورة حتميَّة الساعة، وأنّها لا تأتي إلَّا بوقتها المعلوم، ووصفها الموسوم ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾.

رابعًا: تنقُل السورة مشهدًا للمصير البائس الذي ينتظر أولئك الطاغين المُكذِّبين ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّاغِينَ مَآبًا ﴿٢٢﴾ لَّابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾.

خامسًا: ثم تنتقل إلى الصورة المقابلة: صورة أولئك المتقين وهم يفوزون برضا الله والجنّة ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾.

سادسًا: تعود السورة إلى ذلك النبأ العظيم وما فيه من عظمةٍ وهولٍ، وما فيه من مظاهر الرحمة ومظاهر العذاب، تحثُّ الناس أن يحسبوا له حسابه، ويأخذوا له عدّته قبل الندم الذي لا ينفع ولا يغني عن صاحبه شيئًا ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا﴾.

دقائق التفسير

﴿عَمَّ﴾ عن أي شيءٍ؟ وأصلها: عن ما، فأُدغمت النون بالميم، وحُذفت الألف تمييزًا لما الاستفهامية عن ما الموصولة.

﴿يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ﴾ هم أهل مكّة ومن حولها الذين كانوا يتساءلون فيما بينهم عن القرآن الكريم، وما جاء فيه من إنباءٍ بالبعث والحساب، والتساؤل كان لأغراضٍ

مختلفة؛ منها: الاستغراب، ومنها: الاستهزاء، ومنها: الاستفهام عن بعض التفاصيل.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ أي: مختلفون في وصفه، وطريقة تكذيبه، وتنفير الناس عنه.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تهديدٌ ووعيدٌ لهم أنّهم سيُلاقون ذلك اليوم، وسيرون فيه جزاءهم.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا﴾ أي: مُمَهّدة للناس يعيشون عليها، وفيها رِزقهم ومتاعهم وسكنهم.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ أي: كأوتاد الخيمة التي تُدقُّ في أطرافها لتثبّتها، والوَتَد: عمودٌ غليظٌ قويٌّ مُدقَّقٌ من أحد أطرافه، والجبال كأنّها أعمدة مُثبّتة في الأرض من حيث الصورة، ولا يبعُد أن يكون لها دور في تثبيت الأرض أو حفظ توازن الغلاف الجوي، وتكوين السحب وتجميعها، والله أعلم.

﴿وَخَلَقْنَـٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أي: ذَكَرًا وأنثى، ولا تستمرُّ الحياة ولا يكون تكاثُر الخلق إلَّا بهذا التنوُّع.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: راحةً لأبدانكم، وقَطعًا لوتيرة حياتكم وأشغالكم وتفكيركم، فيستيقظ الناس وهم أقدَر على العمل وأكثر نشاطًا وتركيزًا، وهذه نعمةٌ لا يمكن أن تستمرَّ حياة الناس بدونها، وهي في الوقت نفسه تُذكِّر بالموت، وما يعقُبُه من استيقاظٍ وبعثٍ جديدٍ.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ أي: ساترًا لكم، وظرفًا مناسبًا لنومكم وسباتكم.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: ظرفًا مناسبًا للعمل وطلب الرزق.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ أي: السماوات السبع، والبناء فيه معنى الدقّة والإحكام.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ شبّه الشمسَ بالسراج؛ لأنَّ ضوءَه مُنبعِثٌ منه ومتوهِّجٌ في داخله وليس انعكاسًا لضوءٍ آخر، وكذلك الشمس.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا﴾ أي: أنزلنا من الغيوم المطر، والثَّجّاجُ: صفةٌ للمطر، من

ثجَّ إذا انصبَّ بقوةٍ، ووصفَ الغيوم بالمُعصِرات؛ لأنّها تتألّف فيما بينها فتتراكم وتتكثّف، ثُمّ تضرِبها الرياح فتضغطها فيخرج ماؤها، فكأنّها عُصِرَت عَصرًا، ومجيءُ المطر بعد الشمس إشارةٌ إلى دور الشمس في صناعة هذه السُّحب؛ حيث تتبخَّر المسطَّحات المائيّة بحرارة الشمس فتتكون السُّحب من هذه الأبخرة.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ قدَّمَ الحبّ وخصَّه بالذكر مع أنّه نباتٌ أيضًا؛ لأنّه قوت الناس، كالقمح والشعير والرز والذرة ونحوها.

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ وبساتين يلتف شجرها بعضه على بعض.

﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ﴾ يوم الحكم العدل والفصل بين الخلائق، وهو يوم الحساب.

﴿كَانَ مِيقَٰتًا﴾ أي: كان موقوتًا بوقتٍ محدَّدٍ لا يتقدَّم ولا يتأخر.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ تلك النفخة الثانية التي تُعلِنُ البعث وبداية الحياة الثانية.

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ تحشرون إلى الله جماعات جماعات.

﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ حيث تنزل الملائكة إلى المحشر لتنفيذ الجزاء، فيسلِّمون على الأبرار ويرشدونهم إلى جنانهم، ويسوقون المجرمين إلى سعيرهم، كما جاء في آياتٍ أخرى.

﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ بمعنى أنّ الجبال لم يعُد لها وجود؛ لأنّها نُسِفَتْ نسفًا فكانت هباءً مُنبثًّا.

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ أي: معدّةً ومهيأةً.

﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ أي مقرًّا ومسكنًا لهم.

﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ الأحقاب: جمعٌ، مفرده: حِقَب أو حِقْبَة، وهو الزمن الطويل.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾ أي: لا يذوقون بردًا يُخفِّفُ عنهم الحرّ، ولا شرابًا يُخفِّفُ عنهم العطش.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ استثناء من النفي؛ أي: إنّما يذوقون الحميم، وهو الماء الحار،

والغسّاق: سائلٌ كريهٌ، قيل: إنّه يتجمّع من صديد أهل النار، والله أعلم.

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: جزاءً مناسبًا لأعمالهم.

﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ أي: لم يكونوا مؤمنين بيوم الحساب لكي يرجوا الفوز فيه، والخلاص مما ينتظرهم فيه.

﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ أي: تكذيبًا، وهذه صيغة من صيغ التوكيد.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا﴾ أي: كلّ عملٍ من أعمال الناس أحصَيناه وكتبناه في كتابٍ محفوظٍ.

﴿فَذُوقُواْ﴾ أي: ذوقوا جزاء أعمالكم وما قدَّمتموه لأنفسكم ﴿فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ أي: فوزًا ونجاحًا، ويُطلقُ المفاز على مكان الفوز والظَّفَر بالمطلوب، فيكون معناه الجنَّة.

﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ وصفٌ لنساء المؤمنين في الجنة، والكواعب: جمع كاعِب، وهي المرأة في أوّل بلوغها، أي: قرابة الخمسة عشر ربيعًا، والأتراب: هنَّ المُستوِيات في السنِّ؛ أي: كلهنَّ بسن الكاعِب.

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ أي: مملوءة بالخمر، والمقصود أنّ خمر الجنة لا ينقطع ولا ينضب.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ بمعنى أنّ مجالسَ الشرب هناك في الجَنَّةِ مُنزَّهةٌ عما في مجالس الدنيا مِن اللغو والكذب.

﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: عطاءً كافيًا، كما وعد سبحانه أنَّ الحسنة بعشر أمثالها، والله يُضاعِف لِمَن يشاء، وجاء اسم ﴿الرَّحْمَٰنِ﴾ للدلالة على هذا العطاء الكريم ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ﴾.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ أي: كلّ ما بين السماوات والأرض لا يملِكُون أن يُخاطِبوا الله في الشفاعة لأحدٍ من أولئك الكافرين.

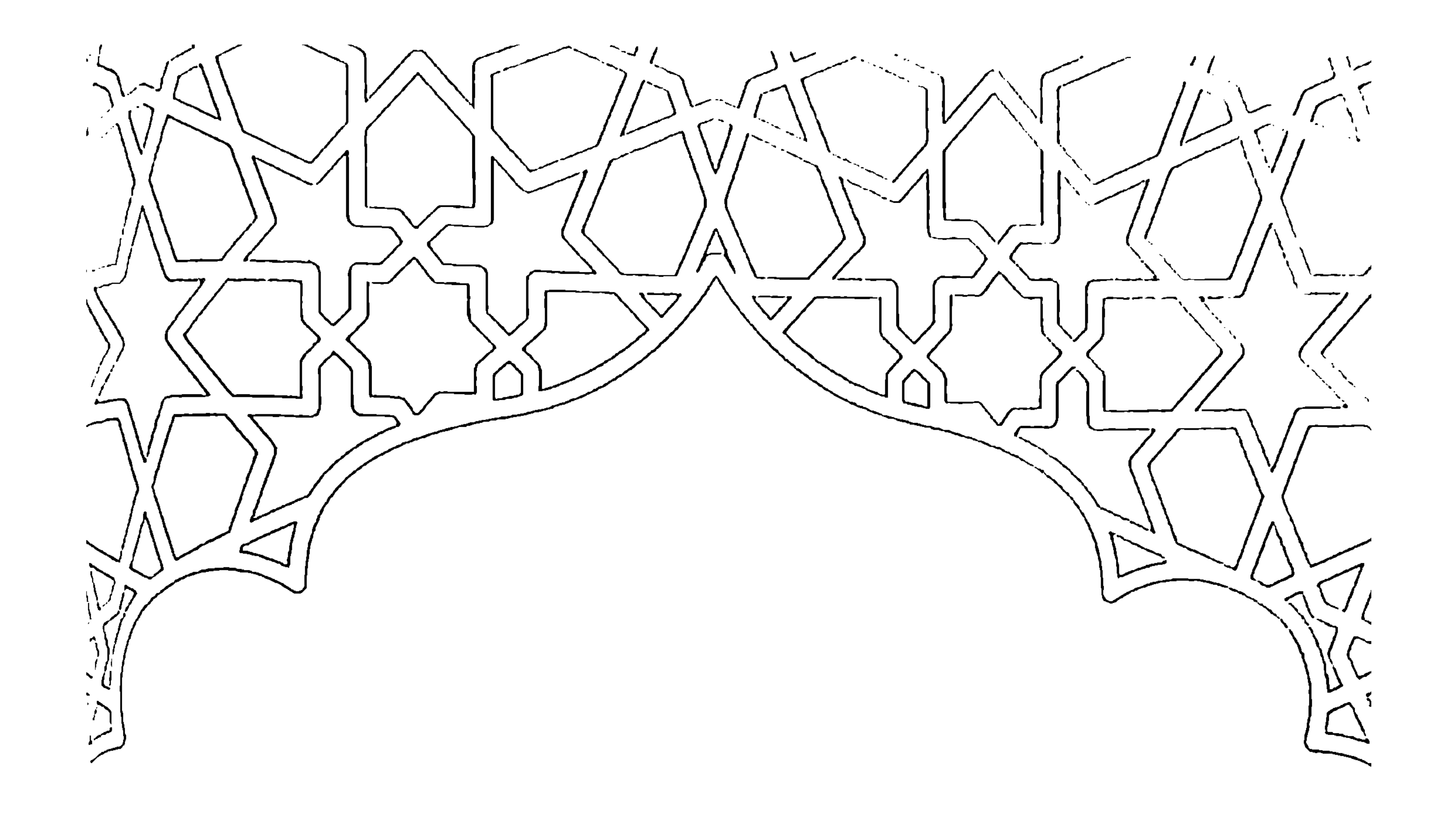
﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ﴾ الروح هو جبريل ﷺ، وهو المقدَّمُ في الملائكة، وصف الملائكة في ذلك اليوم مُشعِرٌ بالرهبة، وكأنّهم في أُهُبَةِ الاستعداد لتنفيذ أمر الله وحكمه في الخلائق.

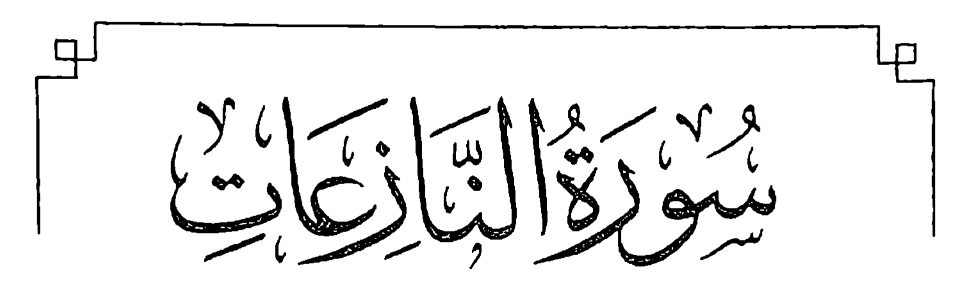
﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾ هو تأكيد ألّا أحدَ يتكلم في شفاعة ونحوها إلَّا بعد إذنٍ من الرحمن تبارك وتعالى.

﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ هو يوم القيامة وما فيه من الوعد الحقّ، والحُكم الحقُّ بين الخلائق.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا﴾ ترغيبٌ للناس وحثٌّ لهم على التوبة والأَوبة إلى الله.

﴿يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا﴾ هذه غاية الحسرة وغاية الندامة؛ أن يتمنّى ذلك الإنسان الذي خلَقَه الله وميَّزه بالعقل أن لو كان ترابًا، بمعنى أنّه يودُّ لو أنّه لم يُخلَق، وقد كان بمقدُوره أن يجتازَ هذه المحنة لو أنّه فكَّر في هذا اليوم، واستعدَّ له قبل ذلك.





المجلس الثالث والسبعون بعد المائتين: فإذا جاءت الطامة الكبرى

سورة النازعات

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً (١١) قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (١٤) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (١٥) إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (١٧) فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى (١٩) فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَى (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى (٢٥) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (٢٦) أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (٣٣) فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى (٣٥) وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى (٣٦) فَأَمَّا مَنْ طَغَى (٣٧) وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١) يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا (٤٤) إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا (٤٥) كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦)﴾

فإذا جاءت الطامة الكبرى

لا تختلف سورة النازعات عن سابقتها في تأكيد عقيدة اليوم الآخر؛ فهو الموضوع المحوريُّ في السورتَين، مع فوارق في الأسلوب والصور والمَشاهِد بما يقتضيه السياق، مع استِهلال النازعات بالقسَم المؤكَّد، واستشهادها في مقام التحذير والتهديد بهلاك فرعون بعد أن طغَى وبغَى وأبَى أن يستجيب لرسالة موسى ﷺ، وكما يأتي:

أولًا: أَقْسَمَ الله تعالى في مستهلِّ السورة بالملائكة التي تنزع أرواح البشر، وتستجيب لأمر ربِّها في كلِّ ما يطلبه منها، وتجُوبُ في هذا الكون لتدبُّر أمره وفق سُننه تعالى التي لا تتخلَّف ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا (١) وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا (٢) وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا (٣) فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا (٤) فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾.

ثانيًا: ثم تنقل السورة مشهدًا من مشاهِد الآخرة فيه حَيرة أولئك الناس ودهشتهم وخوفهم الشديد، وتساؤلاتهم وهم يرَون ذلك الانقلاب الكوني الهائل وما فيه من هزَّاتٍ

وزلازل ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ (٧) قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ (٨) أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ (٩) يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ (١٠) أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً (١١) قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ (١٢) فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

ثالثًا: ثم تنتقل السورة لتأخذ صورةً من عذاب الله العاجِل؛ حيث كان فرعون يُكذِّب برسالات الله ويُحارب أولياءه حتى بلغ في الغرور شأوًا لم يبلُغه سِواه، فادَّعى الربوبيَّة فأهلَكَه الله وجعلَه عِبرةً لكلِّ معتبرٍ، وجعل في قصته سلوَى لكلِّ داعٍ إلى الحقِّ مُستمسك بدينه مهما بغَى الباغون، وظلم الظالمون ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ (١٥) إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى (١٦) ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ (١٧) فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ (١٩) فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ (٢٠) فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ (٢١) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ (٢٢) فَحَشَرَ فَنَادَىٰ (٢٣) فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ (٢٤) فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ (٢٥) إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾.

رابعًا: ثم تلتفِت السورة إلى آيات الله المبثُوثة في هذا الكون، والشاهدة على وحدانيّته سبحانه وقدرته على خلقه، ورعايته لهم ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا (٢٩) وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا (٣١) وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا (٣٢) مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

خامسًا: ثم تعود السورة إلى موضوعها الأساس مركّزة على عقيدة الحساب والحكم الإلهي الشامل والعادل الذي لا يظلم أحدًا، ولا يُحابي أحدًا، هناك تبرُزُ الجحيم لأهلها؛ وهم الطغاة المارقون الآثمون، وتقرّب الجنّة لأهلها؛ وهم المؤمنون المتّقون المتواضعون ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ (٣٤) يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ (٣٥) وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ (٣٦) فَأَمَّا مَن طَغَىٰ (٣٧) وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا (٣٨) فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ (٣٩) وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

سادسًا: تتناول السورة في الختام تساؤل الناس عن موعد الساعة؛ فتُوجِّههم إلى الجواب العملي الذي ينفعهم ويدلُّهم على الطريق الذي فيه فوزهم ونجاتهم ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ

مُرۡسَىٰهَآ ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ يُقسِم الله تعالى بالنازعات، وهي صفةٌ تصلح للملائكة وتصلح لغيرهم، ومن هنا اختلف المُفسِّرون في تفسيرها وتعيين موصوفها، ومثلها الناشطات وبقية الصفات، إلَّا أنَّ الأظهر - والله أعلم - أنَّ المقصود بكلِّ ذلك الملائكة؛ بقرينة الصفة الأخيرة: ﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ إضافة إلى أنَّ صلة الملائكة بقبض الأرواح وتدبير أمر الله في الكون أقرب لموضوع السورة، وعلى هذا فمعنى النازعات: الملائكة التي تقوم بنزع الأرواح وإخراجها من أجسادها.

﴿غَرۡقٗا﴾ أي: تنزع الروح من كلِّ أجزاء البدن؛ فالغرق هنا بمعنى الاستيفاء والإتمام.

﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا﴾ صفة أخرى من صفات الملائكة تحتمِل النشاط في الحركة وتنفيذ ما يُطلَب منهم، وتحتمل نَشْط أرواح المؤمنين لتمييزهم في طريقة إخراج أرواحهم عن أرواح الكافرين، فللكافرين النَّزع، وفيه معنى الكره والإيلام، وللمؤمنين النَّشْط، وفيه معنى الدقة والنشاط والاستبشار.

﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا﴾ صفة ثالثة؛ أي: أنَّهم يعومون في هذا الفضاء صعودًا ونزولًا.

﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا﴾ صفة رابعة بمعنى أنَّهم المبادرون لأمر الله، والمُسرِعون في تنفيذه.

﴿فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا﴾ صفة خامسة بمعنى أنَّهم المدبّرون لشؤون هذا الكون وفق أمره ﷻ لهم، وسننه الثابتة والحاكمة في هذا الخلق.

﴿يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وهي: الزلزلة التي تكون عند قيام الساعة.

﴿تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ أي: تتبع الزلزلة زلزلة أخرى فتكون رديفتها وتالية لها.

﴿قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ وَاجِفَةٌ﴾ أي: مضطربة خائفة، وهؤلاء هم الكافرون الظالمون، أما أهل الإيمان فهم في راحةٍ واطمئنانٍ.

﴿أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ﴾ أي: ذليلةٌ.

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ﴾ أي: كانوا قبل هذا اليوم يُنكِرون الحياة الآخرة، ويسخَرون من إمكانيّة إعادتهم للحياة وهم في قبورهم قد صاروا عظامًا نخرةً.

﴿قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ﴾ أي: خائبةٌ، وهذا في سياق الاستهزاء المستمر، وليس على سبيل الافتراض والتفكير فيما يمكن أن ينبني على هذا الافتراض، فهم أبعد ما يكونون عن الفكر والتفكير، ولو كانوا يفترضون ذلك – ولو على سبيل الاحتمال – لقادهم هذا إلى الاحتياط لأنفسهم، والتفكير في مصيرهم.

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ﴾ أي: صيحةٌ واحدةٌ، وهي النفخة الثانية التي تُعلِن بدء الحياة الثانية.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ وهي الأرض المستوية التي ليس فيها مرتفعات ولا منخفضات، وليس فيها نبات، فهي أرضٌ مكشوفةٌ، والمقصود بها هنا: أرض المحشر.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ سؤالٌ قُصِدَ به التشويق للجواب.

﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وطُوَى اسم الوادي، والمقدَّس صفته، ومعناه: المطهَّر.

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ فيه أنَّ الداعية هو المُكلَّف بالذهاب إلى الآخرين، وتبليغ رسالة الله لهم.

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ على سبيل العرض وليس على سبيل الأمر، وهذا أسلوبٌ لطيفٌ من أساليب الدعوة؛ فإنَّ الأمر تأباه النفوس في البداية، بخلاف العرض الذي يترك الأمر للمخاطب وهو الذي يتحمَّل مسؤوليَّة خياره وقراره.

﴿وَأَهۡدِيَكَ﴾ أي: وأدلّك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ تلطّفٌ آخر؛ إذ لو قال: إلى ربي لكان كأنّه يدعو لنفسه.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ أي: أقام الحجّة على صدقه بالآية الكبرى، وهي المعجزة التي

للمخاطب وهو الذي يتحمَّل مسؤوليَّة خياره وقراره.

﴿وَأَهْدِيَكَ﴾ أي: وأدلّك.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ تلطُّفٌ آخر؛ إذ لو قال: إلى ربي لكان كأنّه يدعو لنفسه.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي: أقام الحجّة على صدقه بالآية الكبرى، وهي المعجزة التي أظهَرَها الله على يده أمام فرعون، والآية اسم جِنسٍ لا يُقصد بها المعجزة الواحدة؛ فموسى ﷺ قدَّم لفرعون أكثر من معجزةٍ، كما هو معلومٌ.

﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ﴾ هذه العبارة السريعة والمتعاقبة تشير إلى سرعة تحرك فرعون واتخاذه التدابير اللازمة لمواجهة موسى ﷺ، وهكذا هو الباطل في كل زمان؛ لأنه يرى أن معركته مع الحق معركة وجود لا معركة حدود.

﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أراد بالأعلى: الصفة اللازمة له لا على سبيل التفضيل؛ لأنه لا يعترف بربٍّ آخر حتى لو كان أدنى منه؛ ولذلك قال في موضع آخر: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

والملاحظ هنا ليس في جرأة فرعون على هذه الفرية الكافرة الآثمة فحسب، وإنما أيضًا بطاعة الناس له وهم يعلمون أنه مخلوق مثلهم يأكل كما يأكلون، وينام كما ينامون، ويمرض كما يمرضون، ويقضي حاجته كما يقضون!

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾ أي: فأهلكَه الله.

﴿نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: تحذيرًا ورَدعًا لأمثاله عمّا يُوجِبُ عذابَ الدنيا، وعذابَ الآخرة.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ أي: في هذا النَّكال عبرة لمن يتفكَّر ويعتَبِر.

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ استِفهامٌ تقريريٌّ قُصِدَ به التنبيهُ إلى آيات الله في الخلق وآيات قدرته العليَّة، وفيه تهديدٌ للمُشركين والمُكذِّبين.

﴿بَنَىٰهَا﴾ أي: بإحكامٍ وإتقانٍ.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي: رفع جرمها، وجعلها رغم عظمها وثقلها بهذا العلو.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعدّلها؛ فلا ترى فيها خللًا، ولا نتوءًا، ولا تشقُّقًا.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعل ليلها مظلمًا.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أظهَرَه ببزوغ الشمس، وفيه أنّ الظلمة أصلٌ في هذا الكون، وأنّ النور طارئٌ؛ لأنّه لا يكون إلّا بسببٍ.

﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ الأظهر في معنى ﴿دَحَىٰهَآ﴾ أنّه سوَّاها وملأها بالماء وأنواع الطاقة، ومهَّدَها لعيش الناس وسُكناهم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾.

﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أي: ثبّتَها.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ والمتاع: ما ينتفع به، وقد جاء هذا في سياق الامتنان المُستلزِم للشكر، وفي مقام إثبات الغاية والقصد في هذا الخلق؛ فالله سبحانه لم يخلق شيئًا عبثًا، وإنّما لكلِّ خلقٍ غايته المُنسجِمة والمتكامِلة مع الغايات الأخرى ومع متطلبات الحياة كلّها.

﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أصلُ الطامة التي تطمُّ؛ أي: تغطّي ما تحتها، وتُطلَقُ على الحوادث الجسام، وهي هنا بمعنى الساعة التي هي الحدث الذي يغطي كلّ حدثٍ، والنازلة التي تغطي كلّ نازلةٍ، ثم سمّاها الكبرى تأكيدًا لهذا المعنى.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ أي: في ذلك اليوم؛ يوم يتذكَّرُ الإنسان سيرته الكاملة، وأعماله التي عملها في هذه الحياة؛ لأنّها ستكون مناطَ فوزه أو خسارته.

﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: غلَّبَ الدنيا على الآخرة، فنسي الآخرة ولم يعمل لها عملها.

﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: هي مأواه ومقرّه وسكناه.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ أي: وأمَّا مَن خاف ربّه، وذكر المقام هنا إشارة إلى معرفة هؤلاء الصفوة بمقام ربِّهم وما يجب في حقِّه سبحانه، بمعنى أنّه خوفٌ ناتجٌ عن معرفةٍ، وليس عن جهلٍ وتقليدٍ.

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: نهى نفسَه عمّا تهواه من التمادي في الغفلة والباطل، والتخلّي

عن المسؤوليّة، وشهوة التكبُّر والمُراءاة، والمحافظة على الجاه، والظهور بالمظهر المرغوب بين الناس ولو كان على حساب الحقِّ، وكلمة الحقِّ، وهذا من شرِّ أسباب الضلالة وأدومها، وقد يَلْتبِس الهوى بمظهر الحقِّ خاصَّةً عند المتحدِّثين باسم الله، الذين يُظاهِرون الظالمين بتخريج الفتوى على مقاسهم ورغباتهم، والعياذ بالله.

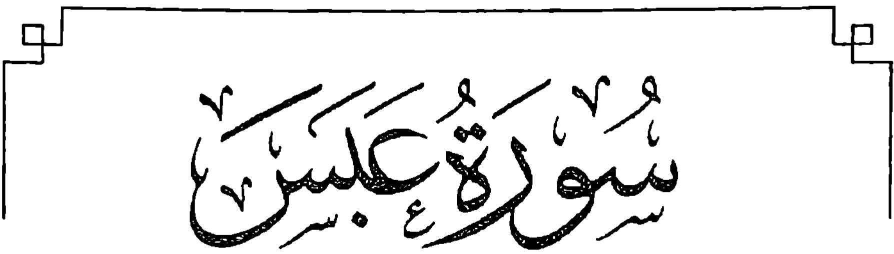
﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ أي: هي المقرُّ والسكن الدائم لأولئك الخائفين من الله، الناهِين أنفسهم عن هواها.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ أي: يسألونك عن وقت الساعة، ومتى ترسُو عندهم؟ كأنّها سفينةٌ قادمةٌ نحوهم، ولا يعرفون وقت وصولها، وهذا السؤال إن كان من المؤمنين فلشدَّة خشيتهم منها، وإن كان من الكافرين المكذِّبين فهو على سبيل الاستهزاء والسخرية، ولا يبعُد أن يصدر مثل هذا السؤال من الفريقَين، والله أعلم.

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: ما لك ولذكرها! بمعنى أنّه لا علاقة لك بذكر وقتها؛ لأنّ هذا عِلمه إلى الله وحده؛ ولذلك قال بعدها: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾.

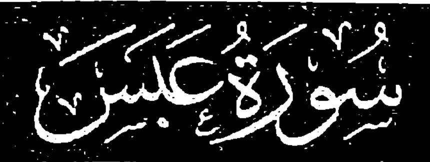
﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ تأكيدٌ أنّ مهمّته ﷺ ليست إخبارهم بوقت الساعة، وإنّما مهمته إنذارهم وتحذيرهم منها لكي يستعدُّوا لها، ويتأهَّبُوا لملاقاتها.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ بمعنى أنّ الساعة آتيةٌ لا محالة في أجَلِها المُحدَّد طالَت الحياةُ أم قصُرَت، وأنّهم عندما يرَونها ستتضاءل في أعينهم هذه الحياة الدنيا حتى كأنّها لم تكن سوى بعض يومٍ؛ ليلة أو ضَحْوة، وهذه هي حقيقة الدنيا أيضًا أمام الآخرة التي لا حدّ ولا نهاية لها.



المجلس الرابع والسبعون بعد المائتين: قصة الرجل الأعمى

المجلس
الرابع والسبعون بعد المائتين



﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ (١) أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ (٢) وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ (٣) أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ (٤) أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ (٥) فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ (٦) وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ (٧) وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ (٨) وَهُوَ يَخۡشَىٰ (٩) فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ (١٠) كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ (١١) فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ (١٢) فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ (١٣) مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ (١٤) بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ (١٥) كِرَامِۭ بَرَرَةٖ (١٦) قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ (١٧) مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ (١٨) مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ (١٩) ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ (٢٣) فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ (٢٤) أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا (٢٥) ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا (٢٦) فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا (٢٧) وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا (٢٨) وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا (٢٩) وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا (٣٠) وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا (٣١) مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ (٣٢) فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ (٣٧) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ (٣٨) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ (٣٩) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠) تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ (٤٢)﴾

قصة الرجل الأعمى

لا تختلف هذه السورة عن سابقتيْها من حيث تأكيدها لعقيدة اليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ وأحوالٍ، وحسابٍ وجزاءٍ، فهذا هو موضوعها الأساس، لكنها تميَّزت باستهلالها بذِكر موقفٍ للرسول ﷺ آثَرَ فيه أن يتحدَّث إلى كبار قريش وأولئك المؤثّرين في مجتمعهم عِوَضَ أن ينشغل برجلٍ أعمى جاء يسأله عن دينه ويتعلَّم منه، ولا شكَّ أنَّ هذا الرجل سيجِد في نفسه شيئًا، فجاء صدرُ هذه السورة مُخصَّصًا له؛ ولتكون قيمة جديدة من القِيَم التي يرسّخها الإسلام لبناء المجتمع الصحيح.

ويمكن تلخيص ما ورد في هذه السورة المباركة بالنقاط الآتية:

أولًا: استهلَّت السورة بقصة الرجل الأعمى؛ إذ جاء إلى النبيّ ﷺ قاصدًا له يسأله في أمور دينه، فأعرَضَ عنه النبيُّ ﷺ، وانشغل بغيره من كبراء القوم، وكان هذا اجتهادًا منه ﷺ لعلَّ الله ينفع بهؤلاء الدعوة ويُقوّي من عُودها، وليدفع عن أصحابه شرَّ ما يتعرّضون له على أيديهم من التعذيب والتنكيل، لكن الله ﷻ عاتبه على ذلك، مبيّنًا لقاعدةٍ مبدئيّةٍ من

قواعد التعامل مع الناس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ﴾.

ثانيًا: بيَّنت السورة أنَّ هذه الآيات التي عاتَبَ الله بها نبيَّه إنَّما هي موعظةٌ ودرسٌ لكلِّ مُصلِحٍ وداعٍ إلى الخير، وأنّ هذه الآيات من كلام الله المحفوظ والمُنزَّه عن الزيادة والنقص، والذي تنزل به الملائكة المقربون الذين لا يعصون الله ما أمرهم ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾.

ثالثًا: تُظهر السورة التعجُّب من كُفر الكافر بربِّه وهو الذي خلقه من نطفةٍ مهينةٍ حتى أمدَّه بأسباب الحياة والقوّة، ثُمّ يسلب منه هذه الحياة فيكون جثةً يُسارِعون بها إلى القبر، ثُمّ ينشُره بعد ذلك، وهو عن كلِّ هذا لاهٍ ساهٍ غافل، لا يعِي ولا يُفكِّر، ولا يُؤدِّي ما عليه، ولا يعمل لما خُلِق له ﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾.

رابعًا: تدعو السورة هذا الإنسان أن يُفكِّر بآلاء الله ونعمائه التي أنعمَها عليه، وما فيها من دلائل على قُدرة الله ورحمته وعنايته بهذا الخلق ﴿فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ﴿٢٨﴾ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ﴾.

خامسًا: تختتم السورة بذِكر الآخرة وما فيها من أهوالٍ؛ حيث يفرُّ المرء من أقرب الناس إليه، وحيث ينقسم الناس إلى فائزين مُستبشرين، أو هالكين مُعذَّبين ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ﴿٤٠﴾ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ﴾.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ أي: تغيَّر وجهُ النبيِّ ﷺ، وأعرَضَ لما جاءه الأعمى، والأعمى هو الصحابيُّ الجليلُ عبد الله بن أم مكتوم ﵁.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: ما يدريك يا محمد لعلَّ هذا الرجل الأعمى الذي أقبَلَ عليك سيتزكَّى بتعليمك له، ويزداد خيرًا وبركةً، فيكون أنفَع لك من الالتفات إلى غيره.

﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أي: يتذكَّر فتنفعه موعظتك.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أي: أمَّا ذلك المُستكبِر الذي يرى نفسه مُستغنِيًا عن الدعوة وأهلها فأنت تتصدَّى له، وتهتم به.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ بمعنى أنَّ هذا المُستكبِر الذي تحرِص أنت على هدايته لا يضرّك بقاؤه على كفره، فأنت لست مسؤولًا عن هدايته إذا بلَّغتَه كما تبلِّغ الناس.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ هذه تزكيةٌ لابن أم مكتوم، وشهادةٌ له من ربِّ السماوات والأرض، فهنيئًا له.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ أي: تتلهَّى عنه، وتهتم بغيره.

وهنا مسألةٌ، وهي أنَّ هذا العتاب لا يعني النهي عن الاهتمام بأُولِي الشأن ممن تكون هدايتهم سببًا في هداية غيرهم، وتعميم الخير في البلاد؛ فهداية الحاكم أنفع بلا شكٍّ للدعوة وللناس من هداية الآحاد من الناس، وقد أرسل الله موسى ﵇ إلى فرعون وخصَّه بالذكر لهذا الغرض، ولكن العِتاب مُتّجهٌ للانتباه إلى مراعاة حال الأعمى ونحوه من المُعاقِين أو المُعوَزين، وفيه أيضًا التعريض بذلك الذي استغنى عن الدعوة وتكبَّر عليها، والله أعلم.

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ أي: هذه الآيات إنّما هي تذكيرٌ وموعظةٌ لَمن شاء أن يتذكَّر ويتَّعِظ.

﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ﴾ أي: أنّ هذه الآيات موجودة في كتاب الله، وهي من كلامه سبحانه المحفوظ عنده تعالى، والمحفوظ في المصاحف العزيزة الكريمة.

﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ﴾ أي: عالية القدر، ومحفوظة من العبث بالزيادة أو النقص.

﴿بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ والسَّفَرةُ تحتمل معنيَين: أنَّهم الكَتبة الذين يكتبون الوحي، أو السفراء وهم الملائكة الذين يتنزَّلون بهذا الوحي، وكلاهما كرامٌ برَرَة.

﴿قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ هذه صيغةٌ من صيغ الدعاء، والمقصود بها إثارة الانتباه لخطورة ما بعده.

﴿مَآ أَكۡفَرَهُۥ﴾ صيغةٌ من صيغ التعجُّب، بمعنى أنَّ كفره بالله يقتضي العجب.

﴿مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ﴾ أي: ألا يدري هذا الكافر المُتكبِّر مِن أي شيءٍ خلقه الله؟

﴿مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ هذا الجواب يقصد به تذكير الإنسان بحقيقة خلقه حتى لا يتمادى في كُفرِهِ وتكبُّرِه.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: خلقه على مراحل، ولكلِّ مرحلةٍ ما يناسبها.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ أي: جعله يشقُّ طريقَه في الحياة؛ فمنحه العقل للاختيار، ومنحه القوة على تحمُّل الأعباء.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ أي: بعثه وأحياه بعد موته في الوقت الذي يشاء سبحانه.

﴿كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لم يُوفِّ الإنسان بما عليه من حقوقٍ، ولم يؤدِّ الواجبات التي افترضها الله عليه.

﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا﴾ أي: أنزلنا الماء من السماء، وهو ماء المطر.

﴿ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا﴾ بالأنهار والجداول، وبالنبات الذي يخرج منها.

﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا﴾ كالقمح والشعير والرز والذرة، وهذه هي قوت الناس وقوام غذائهم؛ ولذلك قدّمها.

﴿وَعِنَبٗا﴾ معروف، وذكره نموذجًا للفاكهة التي تنبتها الأرض.

﴿وَقَضۡبٗا﴾ النبات الذي تقبض أعواده الرقيقة، فتُجزّ فتؤكل بأعوادها وأوراقها، ثم تنمو من جديد، وهو نوعٌ من الغذاء مختلفٌ عن القُوت، وعن الفاكهة.

﴿ وَزَيْتُونًا ﴾ الزيتون ثمرة معروفة، وهو نموذجٌ لنوعٍ آخر من الغذاء يخصُّ النبات الذي يُستخلَص منه الزيت.

﴿ وَنَخْلًا ﴾ وهي الشجرة المعروفة التي تحمِل الرطب؛ وهو غذاءٌ آخر يجمع بين معنى القُوت ومعنى التفكُّه، وقد ذكر النخل لما فيها من فوائد أخرى غير التمر؛ إذ النخلة كلَها فوائد؛ جذعها وسعفها، وليفها وجُمَّارها.

﴿ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴾ أي: عظيمة الأشجار، مكتظة الأغصان.

﴿ وَفَٰكِهَةً ﴾ إشارة إلى تنوّع أشجار الفاكهة حتى لا تكاد تُحصَى.

﴿ وَأَبًّا ﴾ النبات الذي تأكله الأنعام والبهائم؛ ولذلك قال بعدها: ﴿ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴾.

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴾ اسمٌ من أسماء يوم القيامة، ومعناه: الصيحة الشديدة التي تصخُّ الأسماع أي: تصمّها.

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴾ بدأ بالأخ؛ لأنَّه الذي يستنصر به في العادة، بإشارة أنَّه لا ينفع النصير نصيره، ولا العضيد عضيده، ولا ينفع الوالد ولده، ولا المولود والده، ولا الزوج زوجته، ولا الزوجة زوجها، والفرار ليس معناه الهروب، وإنَّما معناه: الإعراض والانشغال، فليس هناك مهربٌ ولا مفرٌّ.

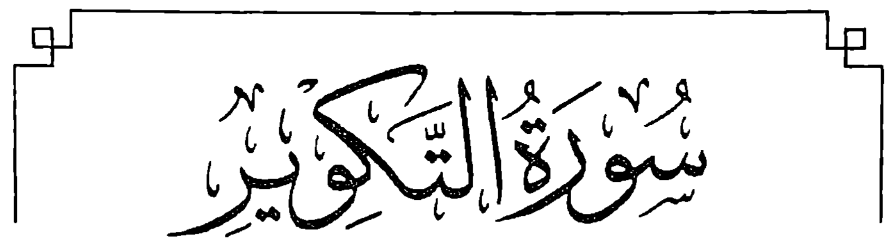
﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ تفسيرٌ لمعنى الفرار المتقدّم، وتعليلٌ له.

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴾ أي: مشرقة ومنوّرة بنور الإيمان والقبول والرضا.

﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴾ أي: يعلوها مثل الغبار مِن أثر الذلَّة والمهانة.

﴿ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴾ تغشاها غاشية من الدخان.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴾ أي: أولئك هم الكافِرُون الفاجِرُون.



المجلس الخامس والسبعون بعد المائتين: إن هو إلا ذكرٌ للعالمين

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

إن هو إلا ذكرٌ للعالمين

إذا كانت سورة عبس تميَّزت بقصة الأعمى وما تضمَّنته من تأكيد حق المُعاقين وضمان مساواتهم بالأصحّاء، فإنّ سورة التكوير تميَّزت بذكر قيمةٍ أخرى، هي قيمة المساواة في حقِّ الحياة بين الذكور والإناث، والتنديد بالظلم الواقع عليهنَّ في المجتمع الجاهلي، إضافةً إلى الموضوعَين الإيمانيَّين؛ الإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالرسالة الخاتمة، وكما يأتي:

أولًا: استهلَّت السورة بتناول أحداث اليوم الآخر والانقلابات الكونيَّة التي تنهي هذه الحياة استعدادًا لاستئناف حياةٍ جديدةٍ، وبنواميس وقوانين جديدة متصلة بعقيدة الجزاء والثواب والعقاب ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾.

ثانيًا: في قلب تلك الآيات، جاء التنديدُ بالجاهليَّة التي تُميِّز في حقِّ الحياة بين البنين والبنات؛ لتجعل هذه المسألة في صُلب الحديث عن عقيدة الحساب والجزاء؛ تنبيهًا على

خطرها، وترهيبًا من التمادي فيها ﴿وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ﴾.

ثالثًا: ثم تؤكِّد السورة بالأَيْمان المُغلَّظة أنَّ هذه الرسالة إنَّما هي وحيٌ من الله نَزَلَ به أمين الوحي جبريل ؑ؛ ليكون ذكرًا للعالمين، وطريقَ هدايةٍ للمُستهدِين والباحثين عن الحقِّ المبين، مع تزكيته ﷺ وتزكية الرسالة التي يحمِلها عن كلِّ ما يتقوَّله المتقوِّلون، ويفتَريه المُفتَرون ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ۝٢٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ۝٢٥ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ۝٢٦ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ﴾ أي: أُدرِجت ولُفَّت وانكفأت على داخلها، وذهب ضوءُها، وتحصيل صورة التكوير بالنسبة للشمس مُتعذِّرٌ؛ لأنَّه من الأخبار الغيبيّة التي ليس لها في الذهن صورة مُسبَقة، والغاية من الإخبار به معلومة، وهي انتهاء دور الشمس لانتهاء الحياة كلّها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ﴾ طُمِسَت وذهب ضوءُها.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ﴾ أي: نُسِفَتْ وصارت هباءً.

﴿وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ﴾ أي: عطَّل الناس أشغالهم، وأهملوا نفائسَ أموالهم، والعِشار: النُّوق الحوامل التي تُوشِك على الولادة، وكانت هذه محل عناية الناس في جزيرة العرب، لكنَّهم في ذلك اليوم سيتركونها مُهملة.

﴿وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ﴾ أي: جُمِعَتْ في مكانٍ واحدٍ، قد يكون هو أرض المحشر، فهذا أقرب للفظ الحشر، وقد يكون في الدنيا عند الساعة، وهذا أقرب للسياق، وحشرها رُبَّما يكون بسبب ما ينزل في الأرض من كوارث، فتلجأ باحثةً بغريزتها عن أي مكانٍ تظنُّ فيه مأمنها.

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أي: تحوّلت إلى نارٍ تضطرِم، وهذه من عجائب ذلك اليوم.

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ هنا انتقل إلى الحديث عن أحوال البعث والحساب، وأولها: تزويج النفوس، أي: تصنيفها إلى مجموعاتٍ بحسب درجتها؛ فهناك السابقون السابقون، وهناك أصحاب اليمين، وهناك أصحاب الشمال، ثُمّ هؤلاء أيضًا يُقسَّمُون بحسب أنبيائهم وأممهم، والله أعلم.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ والموءودة: هي البنت التي قُتِلَتْ بلا ذنبٍ، أو دُفِنت بالتراب وهي حيّةٌ، وهذه عادةٌ جاهليّةٌ اجتمع على ترسيخها الجهلُ مع الخوف من العار، أو الخوف من الفقر، وسؤالها يوم القيامة إنّما هو سؤالٌ لوائِدها وتقريعٌ له، وهذه هي المسألة الوحيدة التي عرَضَتها السورة من مسائل الحساب يومئذٍ؛ تنبيهًا لخطرها، وبشاعة جرمها.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ هي صحف الأعمال، فهناك تُنْشَرُ للحساب، ويظهر كلّ ما هو مدوّن فيها.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ أي: تشقّقت، أو كُشِفَتْ وأُزيلت.

﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أُضرِمَت نيرانها استعدادًا لاستقبال أهلها.

﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ أي: قُرِّبت لأهلها.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ هذا هو جواب الشرط الذي بدأ بقوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ ثم تكرَّر في الآيات التالية، ومعناه أن كل نفس ستعلم ما قدّمته من عمل خيرًا كان أو شرًّا.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ هو قسَمٌ بالنجوم والكواكب على اختلاف أحوالها، فالخُنَّس من الخَنْس، وهو خفوتها مع بداية النهار، والجَوارِ من الجَرْي؛ أي: سيرها وانتقالها من جهةٍ إلى جهة فيما يرى الناظر بحسب حركة الأرض ودورانها حول نفسها، أمّا حركتها الذاتيّة فلها شأنٌ آخر قد يُدركها النظر وقد لا يُدركها، والكُنَّس من الكنس؛ أي: استتارها وحجبها ببعضها.

هذا وقد اكتشف العلم الحديث وجودَ نوعٍ من الأجرام لا تُرى وأطلق عليها (الثقوب السوداء)، وهذه في حالة خفُوتٍ دائمٍ فلا ينبعث منها ضوء، وهي تلتَهِمُ الأجرام الصغيرة التي تمرُّ في مدارها وكأنها تنظِّف الفضاء من بعض النيازك والشهب والأجزاء المُنفلِتَة، فإنْ كان هذا حقًّا فلا يبعُد أن تكون هي المقصودة؛ لانطباق الصفات عليها أكثر من غيرها، والله أعلم.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أي: إذا أقبل بظلامه.

﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي: خرج ضوءُه وبدَا، وقد شبَّهه بتنفُّس الكائن الحي؛ لأنَّ تنفُّس الصباح هو تنفُّس الحياة وبداية حركتها بعد سُبات الليل.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا جواب القسَم، ومعناه: تأكيد أنّ هذا القرآن إنّما هو وحيٌ إلهيٌّ نزل به أمين الوحي جبريل ﷺ.

﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ أي: أعطاه الله القوَّة، ومنَحَه المكانة العليَّة عنده سبحانه.

﴿مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ أي: تُطيعه الملائكة هناك في العالم العلوي؛ لأنّه المتقدّم عليهم، وهو الأقرب فيهم إلى ربّهم، وهو الأمين المؤتمن على أمر الله ووحيه.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ ردٌّ على شَتم المشركين لرسول الله ﷺ، وتوبيخٌ لهم على فِريتهم هذه.

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ هي رؤية سيدنا محمد ﷺ لملك الوحي جبريل ﷺ بالصورة التي خلقه الله عليها.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ﴾ تأكيدٌ لأمانته ﷺ في تبليغه لرسالة الله كاملة دون نقصٍ، والضَّنِين: الشَّحِيح، وفي هذا تعريضٌ بالكَهَنة الذين كانوا يدَّعون الغيب ثم لا يبُوحُون به إلّا بقَدر ما يُعطِيهم الناس عليه.

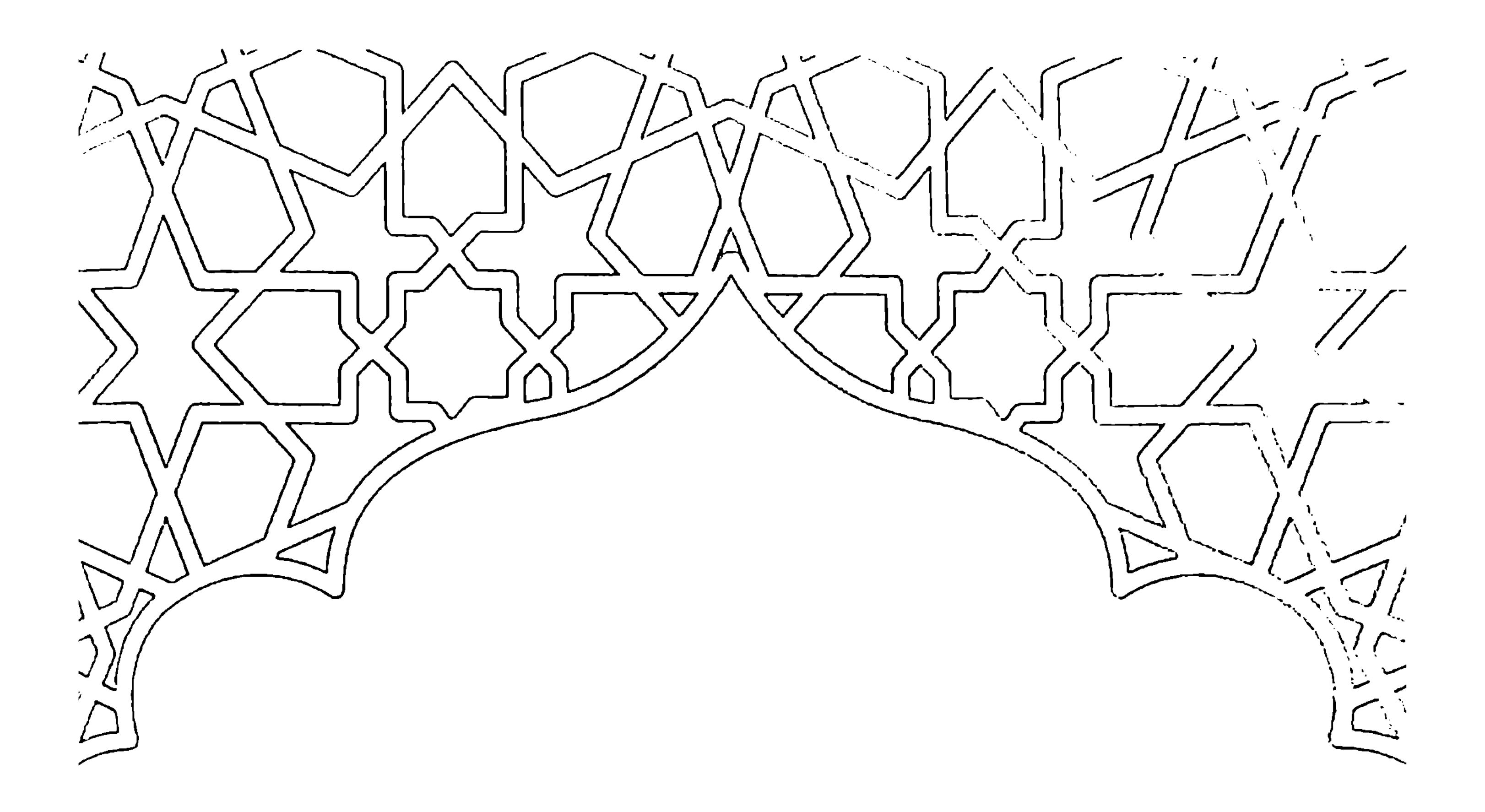
﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾ تمييزٌ للوحي عمّا تقوم به الكَهَنة مِن ادِّعائها الاتصال بالغيب عن طريق الشياطين.

﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ سؤالٌ قُصِدَ به تعجيزهم، بمعنى أنَّ كلَّ ما قلتموه في مُحمدٍ وفي رسالته ظهر بطلانه، فماذا تقولون بعد؟ وأي طريقٍ تسلكون؟ ويحتمل أنّه أراد توبيخهم بمعنى: أين تذهبون عن هذه الحقائق، وفي أي تيهٍ تتيهُون؟ والمعنيان مُتقاربان.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ هذا إعلانٌ مبكِّرٌ لعالميَّة الإسلام، والذِّكرُ بمعنى التذكير والموعظة، ويأتي أيضًا بمعنى الشرف والرفعة.

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ بمعنى أنَّ السبيل قد وضَحَت بهذا القرآن، ثم الأمر متروكٌ لكم، وكلٌّ مُحاسَبٌ بخياره وقراره، ومجزيٌّ بعمله.

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فالله سبحانه بمشيئته المطلقة هو الذي منح الإنسان القدرة على الاختيار، ولو شاء سبحانه لخلقه خلقًا آخر لا يشاء ولا يختار، لكن حساب الإنسان وثوابه وعقابه كلّ ذلك مرتبطٌ بهذه المساحة من الاختيار، والله أعلم.



سورة الانفطار

المجلس السادس والسبعون بعد المائتين: يا أيها الإنسان!

سورة الانفطار

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَٰتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ (١٦) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ (١٩)﴾

يا أيها الإنسان!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هكذا تُنادي هذه السورة ذلك المخلوق الذي يعيش على هذه الأرض، والذي أعطاه الله القدرة على أن يسمع النداء ويفهمه، تُناديه لتقول له: إنّه لم يُخلق سدى، وإنّما جاء لغايةٍ عظيمةٍ أوسع من حياته التي يعيشها على الأرض وأبعد مدى، إنّها تربط بين حياته الدنيا وحياته الأخرى، وتربط بين ما يُقدِّمه هنا من عملٍ، وما ينتظره هناك مِن جزاءٍ، وكما يأتي:

أولًا: تستهلُّ السورة بالحديث عن الساعة وأهوالها؛ لتنبِّه هذا الإنسان إلى طبيعة هذه الحياة ونهايتها المحتومة ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ (١) وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾.

ثانيًا: ثم يأتي جواب الشرط ليضَعَ الإنسان أمام مسؤوليّته الكاملة؛ لتؤكِّد له أن كلَّ عملٍ يعمله هنا سيلقاه هناك ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

ثالثًا: ثم تُنادي السورة هذا الإنسان أن ينتبه لنفسه، وأن يُفكِّر في وجوده ونشأته، والصورة التي خُلق عليها والتي تتناسب مع دوره المطلوب على هذه الأرض ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ (٦) ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾.

رابعًا: ثم تُحذِّره من مغبة العناد والتكذيب بهذه الحقائق الكبيرة، فهو صائرٌ لا محالة إمَّا إلى جنَّةٍ، وإمَّا إلى نارٍ، إمَّا إلى سعادةٍ أبديَّةٍ، وإمَّا إلى الشقاء ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ أي: انشقَّت، كما جاء في سورة الانشقاق: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١]، والقرآن يُفسِّرُ بعضُه بعضًا.

﴿وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ﴾ لانفراط نظامها الذي كان يمسك بها في أفلاكها ومداراتها.

﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ أي: استعرت فيها النار، وقد تقدَّم هذا المعنى في سورة التكوير السابقة ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، وقد يكون التفجير بسبب البراكين الهائلة المنبعثة من باطن الأرض، ثم يعقبه التسجير، هذا وقد صوَّر كثيرٌ من المهتمين بعض البراكين الجزئيَّة المنبعثة من داخل الأرض في أعماق البحار، والله أعلم بما سيحدث في ذلك اليوم.

﴿وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ لخروج مَن فيها بعد عودة الأرواح إلى أصحابها، وهذا من الأخبار الغيبيَّة التي لا تحصل صورتها في الذهن، وإنَّما المطلوب الإيمان بها، وفهم المقصود من الإخبار بها، وهو الاستعداد لذلك اليوم.

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ أي: ما قدَّمَتْهُ من عملٍ خيرًا كان أو شرًّا، وما تخلَّفت عنه فلم تُقدِّمه وهو مطلوبٌ منها، ومفروضٌ عليها؛ كالصلاة، والصيام، ويحتمل أيضًا أن يكون ما أخَّرته أي: ما تركَتْه من آثارٍ نافعةٍ أو ضارةٍ، فهذه تستمرُّ حسناتها أو سيئاتها ما دام الأثر موجودًا.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾ خطابٌ بجنسه العام دون تمييزٍ بين أسود وأبيض، أو عربيٍّ وأعجميٍّ،

أو غنيٍّ وفقيرٍ، أو مأمورٍ وأميرٍ، أو رجلٍ وامرأةٍ، إنّهم جميعًا أمام الله بعنوانٍ واحدٍ (الإنسان)؛ هكذا خلقه الله واحدًا، وأراده أن يبقى واحدًا، واحدًا بخلقته، وواحدًا بفطرته، وواحدًا بعبوديته لربِّه.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ هذا سؤالٌ موجَّهٌ للإنسان المُشرِك بالله، المُنكِرِ للبعث، سؤالٌ على سبيل الإنكار والتعجُّب من أن يُقابل ربَّه الكريم بهذا الكفر والإعراض، يسأله عن الدافع الذي دفعه، وعن الذي زيَّنَ له هذا الطريق الخاطئ.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ خلقَك أي: خلقَك من العدم، وسوَّاك أي: أَتَمَّ خَلقَك من غير نقصٍ ولا خللٍ، وعَدَلَكَ أي: نصَبَ قامَتَك وجعل أعضاءَك كلّها مُتناسقة ومُتوازنة، والمقصود بهذا الإخبار: إظهار الامتِنان على الناس بهذا التكريم والتمييز، وتوبيخ المشرك أن تنكَّر لهذا اللطف الإلهي، وهذه النعمة الظاهرة.

﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي: في أي صورةٍ عظيمةٍ وبديعةٍ ركَّبك، والسياق سياق مدحٍ وتعظيمٍ لمنّة الله على الناس.

﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ أي: تُكذِّبون بيوم الحساب.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ﴾ أي: ملائكة يُحصُون عليكم أعمالكم، ويحفظونها ليوم الحساب.

﴿كِرَامًا﴾ صفةٌ للملائكة وبيانٌ لمقامهم عند الله تعالى.

﴿كَـٰتِبِينَ﴾ صفة أخرى متعلقة بوظيفتهم، بمعنى أنّهم يُدوِّنون ما يأمرهم الله بتدوينه.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: يدوِّنون عن علمٍ ويقينٍ، لا عن ظنٍّ وتخمينٍ.

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ الأبرار هم: المؤمنون، والأبرار وصفٌ لهم، وهو من البِرِّ بمعنى: الإحسان وعمل الخير، فهؤلاء يعِدُهم الله بنعيم الجنّة الدائم.

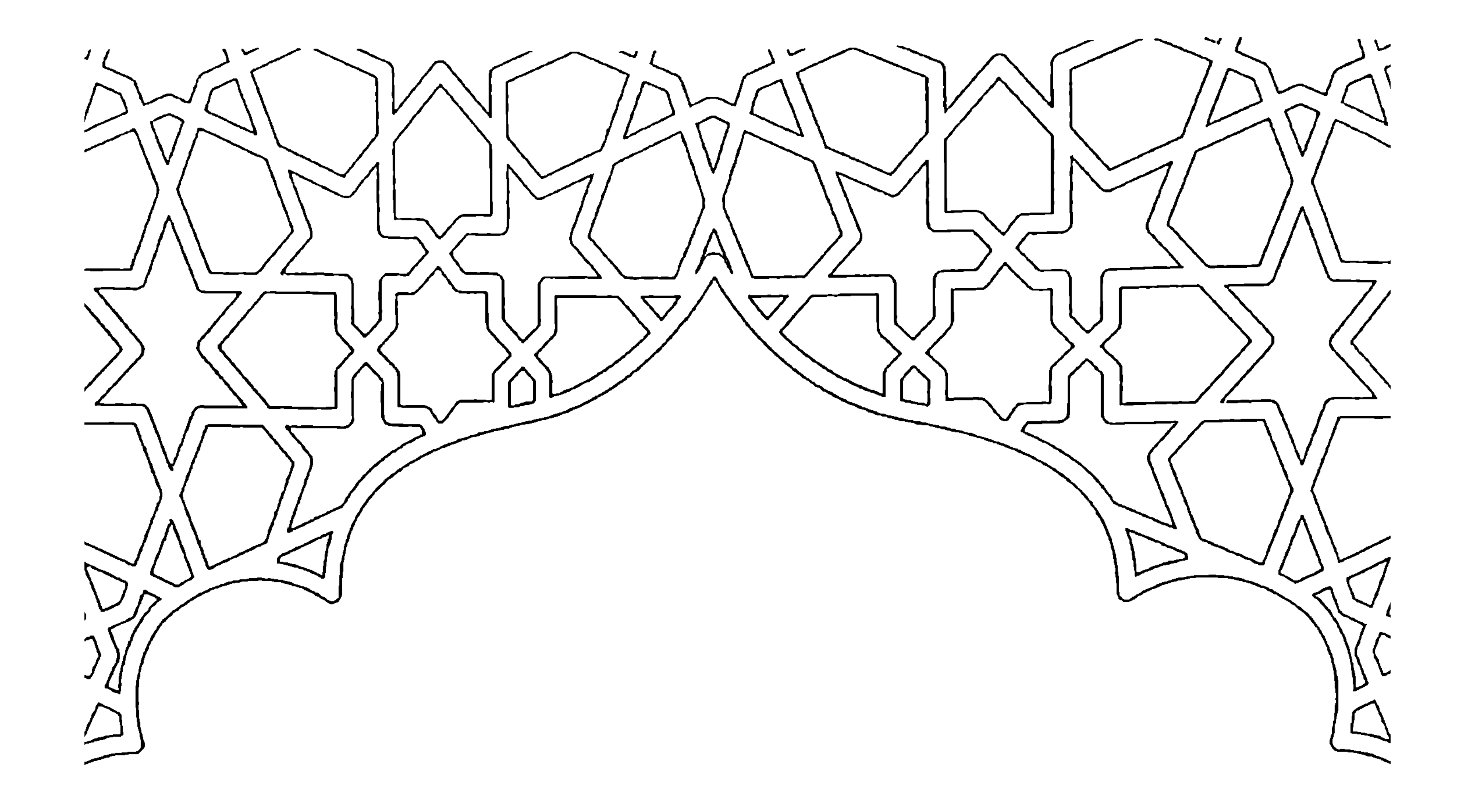
﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ وهؤلاء هم المشركون ومُنكِرو البعث، والفُجَّار وصفٌ لهم، وهو من الفجور الذي هو ضِدُّ البِر، فهؤلاء يتوعّدهم الله بالجحيم.

﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: يصطلون بنارها ويُعذَّبون بها يوم القيامة.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ لا يغيبون عنها؛ أي: لا يخرجون منها.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ سؤالٌ قُصِدَ به التهويل والتعظيم لشأنه وخطره.

﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ هذه صفةٌ من صفات يوم الدين، وحالةٌ من حالاته، وقد خصَّها بالذِّكر تنبيهًا عليها؛ لئلا يظنّ ظانٌّ أنّه سينجو هناك بعمل غيره، فإنَّما لكلِّ امرئٍ ما عمل، وأن ليس للإنسان إلَّا ما سعى.



سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

المجلس السابع والسبعون بعد المائتين: ويلٌ للمطففين

المجلس
السابع والسبعون بعد المائتين

سورة المطففين

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾

ويل للمطففين

لا تختلف هذه السورة عن السور السابقة من حيث موضوعها المحوري، وهو اليوم الآخر، سوى أنَّ التركيز هنا جاء في الحساب والجزاء، وليس في الساعة وأهوالها، غير أنَّ الذي تميَّزت به السورة استهلالها بالحديث عن التطفيف في المكيال والميزان، وهذه هي قيمة العدل التي تضمن الحقوق الماليَّة والمادِّيَّة، ثم تتّسع دلالتها لتشمل الحقوق جميعًا؛ إذ الحقوق المعنويَّة لها ميزانها المعنوي، كما أنَّ للحقوق المادِّيَّة ميزانها المادِّي، وهكذا نرى في هذه السور المكيَّة اقتران القيم الحياتيَّة والأخلاقيَّة بالمسائل العقديَّة.

ويمكن تلخيص ما ورد في هذه السورة بما يأتي:

أولًا: التنديد بالمُطفِّفين، والتعريف بهم وببشاعة فعلهم، والتنبيه إلى أنَّ هذا لا يكون إلَّا من أولئك الذين لا يؤمنون بالبعث، ولا بيوم الحساب ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثانيًا: بيان عاقبة أولئك الفجّار المكذّبين، وما ينتظرهم من غضبٍ إلهيّ، وعذابٍ شديدٍ ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ (٧) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ (٨) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٩) وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (١٠) ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (١١) وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣) كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (١٤) كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ (١٦) ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾.

ثالثًا: بيان عاقبة الأبرار المؤمنين وما أعدَّه الله لهم من أنواع النعيم ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ (١٨) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ (١٩) كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ (٢٠) يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (٢١) إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (٢٢) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٢٣) تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ (٢٤) يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢٥) خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ (٢٦) وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ (٢٧) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

رابعًا: ثم عادت السورة إلى التنديد بأولئك الفُجَّار الظالمين ومواقفهم المشينة من عباد الله المؤمنين، والتذكير بما ينتظر الفريقَين من جزاء يقين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ (٣٢) وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ (٣٣) فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وهم الذين عرَّفتهم الآيات التالية: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ فهؤلاء يُحِبُّون أن يستوفوا آخرَ ما لهم من حقٍّ، ثم يميلُون على حقوق الآخرين، وصورته المادِّيَّة: التطفيف بالكَيل والوزن، وحقيقته أوسع من ذلك؛ فهو صورةٌ للظلم المنتشر في العالم باضطراب المعايير، وخضوعها لرغبة الأقوياء على حساب الضعفاء.

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا الاستفهام قُصِدَ به: تعليل هذه الظاهرة الأخلاقيَّة المشينة، وإرجاعها إلى الكفر بيوم الحساب والجزاء، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ المؤمن ينبغي أن يكون مُنزَّها عن الخُلُقِ المشين، وهذا الربط تكرَّر في القرآن كثيرًا، كقوله تعالى: ﴿أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِي يَدُعُّ ٱلۡيَتِيمَ ٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ﴾ [الماعون: ١ - ٣].

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ أي: كتابهم الذي يُحصِي أعمالهم، والكتاب: اسم جنسٍ يعمُّ جميع كتبهم؛ إذ لكلِّ فاجرٍ كتابه، والفُجَّار وصفٌ لأولئك المُطفِّفين الذين لا يؤمنون بيوم الدين.

﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ أي: أنَّ مصيرهم المُحدَّد لهم وفق ما هو محفوظ في كتبهم سيكون في مكانٍ يُقال له: سِجِّين، واللفظ يُوحِي بالضيق والحبس.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾ سؤالٌ معترضٌ بين الكتاب وبين وصفه الآتي، ويُقصَدُ به: التهويل والتنبيه إلى خطورة الأمر في ذلك المكان.

﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ هو وصفٌ لكتاب الفُجَّار أنَّه مرقوم، والرَّقْم: الكتابة الظاهرة، بمعنى أنَّه مكتوبٌ ومحفوظٌ ومفروغٌ منه، فلا تغيير ولا تعديل.

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ أي: ما سطَّره الأولون من قصصٍ وحكاياتٍ لا تستَنِدُ إلى علمٍ، ولا دليلٍ.

﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ هذه مسألةٌ دقيقةٌ، وقد ورَدَت في سياق تعليل موقف المشركين المكذِّبين بالقرآن الكريم حتى وصَفُوه بأنَّه أساطير الأولين، وخُلاصَتُه: أنَّ هؤلاء قد اكتسبوا جرائم ومظالم كثيرة رانَتْ على قلوبهم فطمَسَتْها، فلم تعُد تنتفع بنور القرآن، وهذا تحذيرٌ للغارقين في ظلمة الغفلة وحمأة المعاصي أنَّ قلوبهم ستصدأ، وأنَّها لن تستقبل الحقَّ الذي تستقبله الفِطر السليمة، والرَّيْن: تراكُم الصدأ.

﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ﴾ فهم أحقَر من أن يسمح لهم برؤية ربِّهم، أو التقرّب من كرامته، فهؤلاء الذين اعتادوا على الآثام والمعاصي، والكفر والظلم أبعَد ما يكونون عن

ذلك المقام، لقد حجَبُوا قلوبهم بهذا الرَّان عن رؤية الحقِّ في الدنيا، فعاقَبَهم الله بطَردهم وحَجبهم عن رؤيته في الآخرة، وهذا عذابٌ لا يقدِّرونه اليوم وهم في هذه الغفلة والحمأة، لكنَّهم هناك سيرَونَه أشدَّ عليهم من نار الجحيم.

﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ القول في الكتاب تقدّم، وخلاصَتُه أنّه اسم جنسٍ لا يعني كتابًا واحدًا، بل لكلِّ امرئٍ منهم كتابه، وكونه في علِّيِّن ذكر الكتاب وأراد أصحابه الأبرار بأنَّهم سيرتقون إلى هذا المكان المُشعِر بالرفعة والعلوّ، بمعنى أنّهم بما قدّموه من برٍّ وإحسانٍ مما هو محفوظٌ في هذا الكتاب قد استحقُّوا هذا الوعد الكريم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾ سؤالٌ معترضٌ بين الكتاب ووصفه الآتي، ويُقصَد به: تعظيم شأن هذا المكان الذي أعدَّه الله للأبرار.

﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ هذا وصفٌ لكتاب الأبرار أنّه مكتوبٌ ومحفوظٌ، ومفروغٌ منه.

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: يحضره المُقرَّبون، وهم المُقرَّبون من الله تعالى، وهو وصفٌ للملائكة، وللصفوة من المؤمنين، وحضور هؤلاء الأكرمين كأنّه لإظهار احتفائهم وتهنئتهم لهؤلاء الأبرار وهم يأخذون كتبهم مُستبشرين برضا الله تعالى والجنة.

﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ الأرائك: جمع أريكة، وهي السرير.

﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: ترى في وجوههم أثر النعيم والرِّضا من الحُسنِ والبهجة.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ والرَّحِيق: شرابٌ من أشربة الجنَّة، وهو اسمٌ من أسماء الخمر، وقال: ﴿يُسْقَوْنَ﴾ بمعنى أنّهم مخدومون ويُطاف عليهم بهذا الشراب، ومختوم أي: مسدُود، فلا يُفتح إلَّا لشاربه كأنّه مُعدٌّ له، وقد خُتِمَ بالمِسك تطييبًا له، وإكرامًا لصاحبه.

﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ حثٌّ للمؤمنين وللناس أجمعين أن يتنافَسُوا في فعل الخير، وملء صفحاتهم بهذه الحسنات؛ فتلك طريقهم إلى ذلك النعيم، وقد جاءت هذه العِظة

اللطيفة اعتراضًا بين أحوال النعيم؛ لتكون أدعى للقبول بعد أن لانَت القلوب، واشتاقت العيون.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ أي: أنَّ شرابهم المختوم قد خُلِط بشرابٍ آخر يُؤخَذ من عينٍ في الجَنَّة يُقال لها: تَسنِيم، واسمها يُوحِي بعلوِّها ورقَّتِها، فشرابُهم رحيقٌ ممزوجٌ بتسنيمٍ، وفي اللفظَين كفايةٌ للتشويق قبل منظرها وتذوُّقها.

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يحتمل أنَّ المُقرَّبين يشربونها صِرفًا، وأنَّ الأبرار يشربونها مَزْجًا، وفي اسم تسنِيم ما يُوحِي أنَّها من السنام؛ أي: المكان المرتفع، كأنَّها تنزل على الأبرار من العلو، ويحتمل أنّ المقرَّبين يشربونها مَزْجًا، بقرينة تعدِّي الشرب بالباء الذي يُشير إلى أنَّهم يشربون بها شرابًا آخر، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ هذا من الرّانِ الذي رانَ على قلوب أولئك المجرمين؛ فقد كانوا يضحَكون من أصحاب الحقِّ، ويتغامَزون فيما بينهم عليهم، إنَّهم هكذا دائمًا لاهُون عابِثون مُستهزِئون مُستكبِرون، فمِن أين يعرف الحقُّ طريقًا إلى قلوبهم وهي مُغلّفةٌ بهذه الأغلفة، ومحجوبةٌ بكلِّ هذا الكدر والرَّان.

﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ أي: لم يكتَفُوا بذلك في مجالسهم وطرقاتهم، بل إنهم إذا رجعوا إلى بيوتهم وجلسوا مع أهلهم كانوا كذلك يضحَكون في غفلةٍ عمّا ينبغي أن يُفكِّروا فيه، وكأنَّهم في مأمنٍ من الحساب والعقاب.

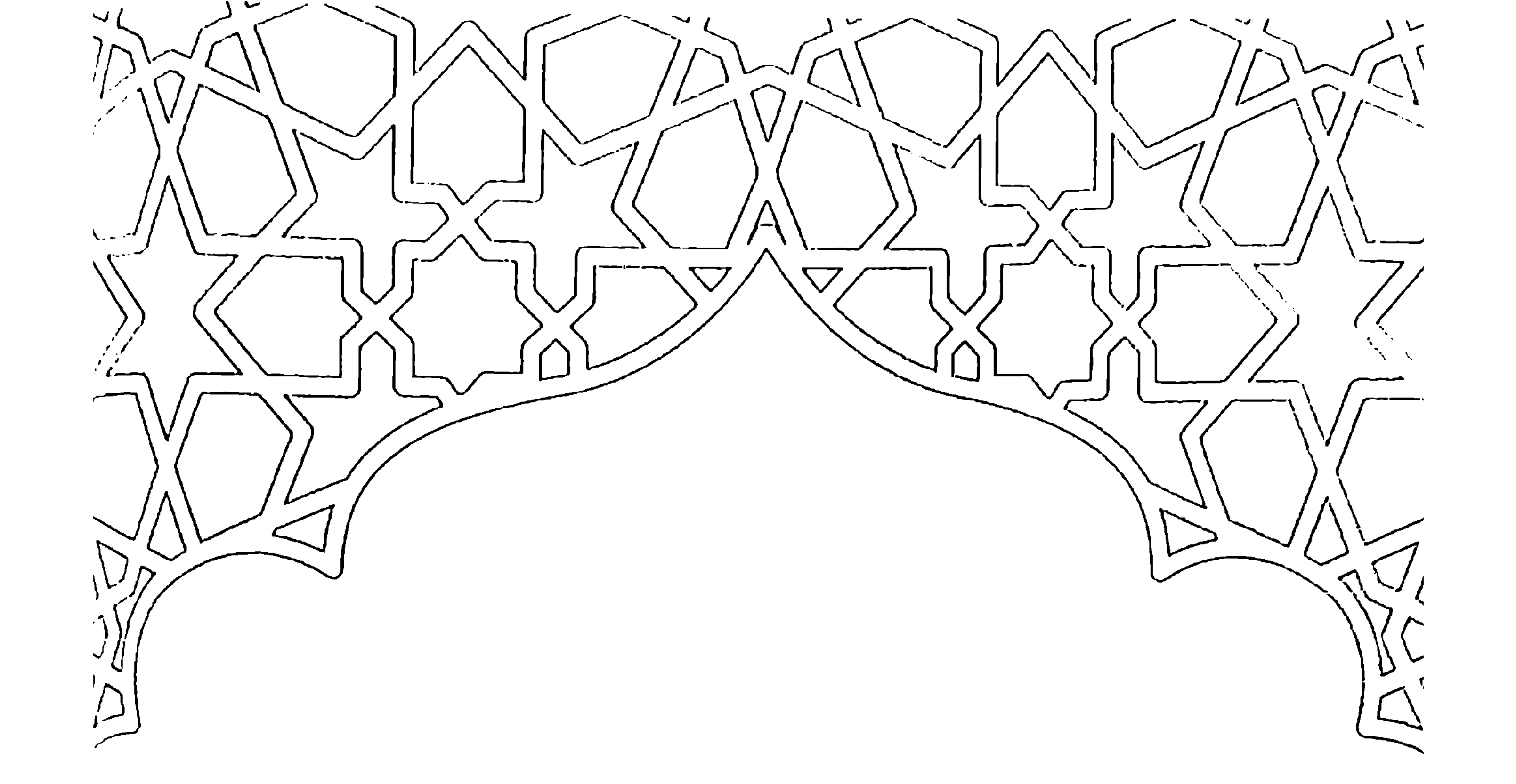
﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ أي: يتّهمون المؤمنين بالضلال، ويقصِدون به: الجهل والابتعاد عن طريق الآباء والأجداد.

﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ﴾ بمعنى أنَّ هؤلاء الفُجّار المجرمين كان بإمكانهم أن يدَعُوا الناس وشأنهم، فهم ليسوا مُكلَّفين بملاحقة الناس، وتسجيل أعمالهم والحكم عليهم.

﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ هذا جزاءٌ من جنس العمل، وهو من مُقتَضى

العدل الإلهي.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ هذا سؤالٌ تقريريٌّ؛ معناه: تأكيد أنَّ الكفار قد نالوا جزاءهم العادل، كما توعَّدَهم الله تعالى، فلم يفلِتُوا من قدرته، ولم يجدوا لهم من دونه مفرًّا ولا مهربًا.



سُورَةُ الانْشِقَاقِ

المجلس الثامن والسبعون بعد المائتين: يا أيها الإنسان!

المجلس الثامن والسبعون بعد المائتين

سُورَةُ الانْشِقَاقِ

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ (٣) وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ (٤) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٥) يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ (٦) فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ (٧) فَسَوۡفَ يُحَاسَبُ حِسَابٗا يَسِيرٗا (٨) وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا (٩) وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ (١٠) فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا (١١) وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا (١٢) إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا (١٣) إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ (١٤) بَلَىٰٓۚ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرٗا (١٥) فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ (١٦) وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ (١٨) لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ (١٩) فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (٢٠) وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَۤ ۩ (٢١) بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ (٢٢) وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ (٢٣) فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٤) إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ (٢٥)﴾

يا أيها الإنسان!

سِمةٌ من سِمات القرآن المكّي: التأكيد والتكرار؛ ذاك لأنّه يهدِف إلى ترسيخ القيم والمبادئ الكبرى، ومن نماذج هذا التكرار والتأكيد: التشابُه الكبير بين سورتَي الانفطار والانشقاق، في الاستِهلال والمضمون والنداء المُوجَّه إلى هذا الإنسان، الذي يُحمِّلُهُ المسؤوليّة التكليفيّة وما ينتج عنها من استحقاقٍ للوعد أو الوعيد، مع بعض اللّفَتاتِ والمشاهد الجزئيّة التي تُميِّزُ هذه السورة عن سابقتها، وكما يأتي:

أولًا: استهلّت السورة بالتنبيه إلى الساعة وانتهاء هذه الحياة، وخضُوع هذا الكون بسمائه وأرضه إلى قَدَر الله المحتوم، وأجله المعلوم ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ (١) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ (٢) وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ (٣) وَأَلۡقَتۡ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتۡ (٤) وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ﴾.

ثانيًا: تُوجِّهُ السورة نداءها لهذا الإنسان وتنبِّهه إلى الغاية من وجوده، وإلى مسؤوليّته الكاملة عن سلوكه وتصرُّفاته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾.

ثالثًا: تُبيِّنُ السورة انقسامَ الناس في ذلك اليوم إلى: فائِزين بحُسن أعمالهم، أو هالِكِين بسوء أعمالهم؛ فالفائزون يُعطَون كتابهم بأيمانهم علامةً على البشرى والنجاح ﴿فَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ

كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾، وأمَّا الخاسرون فيُعطَون كتابهم وراء ظهورهم؛ إهانةً لهم، وتوبيخًا على فعلهم ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾.

رابعًا: يُقسِم الله ﷻ في وسط هذه السورة أنَّ الناس سيمرُّون من حالٍ إلى حال، ومن مستوًى إلى آخر، فلا تستقرُّ حياة الإنسان على وتيرةٍ واحدةٍ؛ بل هنالك أحوالٌ، وهنالك أهوالٌ، والعاقل من رأى خطوَ قدمَيه، وعرَفَ طريقَه وعاقبة سيره ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾.

خامسًا: ثم توجَّهت السورة إلى أولئك المُكذِّبين الضالِّين، تلومُهم وتُهدِّدُهم بسوء العذاب الذي ينتظرهم ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

سادسًا: ثم ختمت ببشارة المؤمنين الصالحين ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ الانشِقاق معروفٌ، وهو بمعنى: الانفطار الوارد بقوله تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ أي: سَمِعَت أمرَه واستجابَت له، بمعنى أنَّ انشقاقها إنَّما كان بأمره تعالى، وليس لخللٍ في بنائها.

﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: وحُقَّ عليها أن تسمع لأمر ربِّها وتخضع له، فليس لها غير ذلك بحكم كونها مخلوقة ومربوبة له سبحانه.

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ أي: بُسِطَت وعُدِّلَت، وذلك بعد أن تُنسَف جبالها، ويحتمل أنَّ هذا

يكون بعد اختلال النظام الكوني، فتتحوّل الأرض من شكلها الكروي إلى شكلٍ مُستوٍ ممدودٍ، وليست العبرة بتحصيل صورتها آنذاك، بل العبرة بأحوال الناس وما ينتظرهم.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ أي: أخرجَت ما بداخلها ممَّا لا يعلَمُه إلَّا الله، وكأنَّها كانت مُثقَلة به، ولا شكَّ أنّ الإنسان قد اكتَشَفَ داخل الأرض ما لا يُحصى من أنواع الطاقة؛ كالغاز والنفط والمعادن الثقيلة، إضافةً للطاقة البركانيَّة التي تحتبس في داخلها، ورُبَّما هناك ما لم يتوصّل إليه البشر، وهذه قرينةٌ على أنّ مدَّها قد يكون معناه تغيّر في كرويَّتها، فتخرج هذه الأشياء التي كانت الأرض مكوّرة عليها، والله أعلم.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ كما السماء؛ فالأرض كذلك تسمع لأمر ربِّها، وتخضَع له، ولا يسَعها غير ذلك.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هكذا يُنادي اللهُ عبادَه، لا بأنسابهم ولا بألوانهم، وقد وقع هذا النداء جوابًا للشرط في صدر السورة، بمعنى أنَّه نداءٌ ذو شأنٍ عظيمٍ وخطيرٍ.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ الكَدْحُ: العمل المصحُوب بالجهد والتعَب، والدنيا بطبيعتها دار كَدْح، فالذي يسعَى للرزق يكدَح، والذي يسعى للسؤدد والمجد يكدَح، والذي يسعى للآخرة يكدَح، وكلّ هذا الكَدْح محفوظٌ على الإنسان وسيُواجِه به ربَّه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ وهذه علامةٌ على فوزه ونجاته.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ بأن تُعرَض عليه أعماله عرضًا من غير نقاشٍ.

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ أي: يرجِع إلى أهله مسرورًا، والعبارة تُوحي وكأنَّه ذهَبَ إلى مكانٍ آخر ليرى أعماله ثُمّ رجَعَ إليهم بهذه النتيجة المُبهجة، وهذه لو تأمَّلَها المُتأمِّل لتوسَّعَت مداركه، وعلِمَ أنَّ ذلك اليوم واسِع الأفق، طويل المدى، مُتعدِّد الأحوال، مُتنوّع المَشاهِد والصور، والله أعلم.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ تحقيرًا له؛ فالمَلَك الذي يُعطِيه الكتاب لا يُواجِهه، بل يُناوِله الكتاب من خلفه، ولا يبعُد أيضًا أنَّه هو مَن يُعرِض عن المواجهة لشدَّة خوفه وخِزيِه، وعلى

كلا الاحتمالَين فهو يُعطَى كتابه بشماله، وهذه علامة شقائه وهلاكه، والعياذ بالله.

﴿فَسَوۡفَ يَدۡعُواْ ثُبُورٗا﴾ أي: فسوف يَصِيح بالهلاك على نفسه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا﴾ إشارةٌ إلى انقلاب حاله، وما كان عليه من الغفلة والانشغال بالمتاع الزائل، وفيه إشارةٌ أخرى تُعرِّض بأولئك الذين وصَفَتْهم السورة السابقة سورة المطففين: ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ﴾ [المطففين: ٣١]؛ إذ كانوا يضحَكون من المؤمنين، ويتغامَزُون عليهم.

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ أي: ظنَّ أن لن يرجِع إلى الحياة بعد الموت.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ هذه من الصِّيَغ التي يُراد بها تأكيد القسَم لا نفيه، والشَّفَق معروف، وهو: ما يتبقَّى من ضوء الشمس إثر غروبها، وهو حمرةٌ مُمتدةٌ في الأفق.

﴿وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: والليل وما حَمَلَ، والليل بذاته لا يحملُ شيئًا، وإنَّما المقصود: ما خفِيَ على الناس فيه من أشياء وأحوال، وحوادث صغيرة أو كبيرة، ورُبَّما يكون المقصود به النجوم؛ لأنَّها تظهر للناظر في الليل، فكأنّ الليل هو الذي يحملها إلينا، والله أعلم.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ إذا تكامل نوره فأصبح بدرًا مُستديرًا.

﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ﴾ أي: أحوالًا مُتعدِّدةً وأطوارًا مختلفةً، فمراحلُ خلق الإنسان من بداية خلقه نطفة، حتى هرمه وموته هي أطوارٌ وأحوالٌ، ومسيرةُ البشر في حياتهم واكتشافاتهم وصناعاتهم، وتقدّمهم في علومهم، واختراعاتهم، وما يُحقِّقونه في كلِّ جيلٍ هي أطوارٌ وأحوالٌ أيضًا، وما ينتظر الحياة كلّها من أشراط الساعة وأهوالها، وأحوال الآخرة؛ من بعثٍ وحشرٍ، وحسابٍ وجزاءٍ كذلك أطوارٌ وأحوالٌ، فالتغيُّر سِمَة هذا الخلق، ولن تستقرَّ الحياة في طورٍ واحدٍ، ولا حالةٍ واحدةٍ، ولن يتوقّف الزمنُ عند أحدٍ مهما كان.

﴿فَمَا لَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقُرۡءَانُ لَا يَسۡجُدُونَ ۩﴾ سؤالٌ بصيغة التعجُّب، وقُصِدَ به: لَومُ هذه العقول التي تقرَأ كلَّ هذه الدلائل في هذا الكون المنظور، وفي كتاب الله المسطُور، فلا تنتَفِعُ منها، ولا تهتَدِي بها، مع أنَّ حياتهم التي تتغيَّر من طَورٍ إلى طَورٍ، ومن

موتٍ إلى حياةٍ، ومن حياةٍ إلى موتٍ تدعُوهم بالضرورة للتفكير في مصائرهم، وما ينتظرهم في تلك الأطوار والأحوال، ومُطالبتهم بالسجود مستلزمة لمطالبتهم بالإيمان أولًا، وما السجود إلَّا مظهرٌ من مظاهره، وثمرةٌ من ثمراته.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ﴾ انتقل من السؤال إلى الإخبار ليُقرِّر حقيقةَ أنّ هؤلاء الغافلين المُعرِضين قد كذَّبوا بالقرآن من غير مُستندٍ، ولا حُجّةٍ، ولا شُبهةٍ، وكفَى بهذا إثمًا وظلمًا.

﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ هذه جُملةٌ مُعترضةٌ بين جريمتهم في التكذيب، وبين استحقاقهم العذاب الأليم، والغرض منها: التعريض بما يُضمِرُونه في أنفسهم من كبرٍ وحسدٍ يدفعهم إلى ذلك التكذيب الآثم الظالم، و﴿يُوعُونَ﴾ أي: يُضمِرُون ما تنطوي عليه قلوبهم، وأصله: جعل الشيء في وعاء.

﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أصل التبشير: الإخبار بما يَسُرُّ، وقد اسْتُعير هنا في التهديد على سبيل التهكُّم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ استثناءٌ منقطعٌ يفيد مقارنة حال أولئك المكذِّبين الهالكين بهؤلاء المؤمنين الصالحين، وقد يُحمَل على الاستثناء المُتّصل بمعنى أنّ أولئك الكافرين يستحقُّون العذاب الأليم، إلَّا مَن آمن منهم فيما بعد وعمل صالحًا - والله أعلم -، و﴿غَيۡرُ مَمۡنُونِۭ﴾ أي: غيرُ مقطُوعٍ؛ فهو دائمٌ بدوام الجنّة ونعيمِها.



المجلس التاسع والسبعون بعد المائتين: وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود



﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾

وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود

في خِضَمِّ الصراع بين التوحيد والوثنية، وتعرُّض المُستضعَفين من المؤمنين؛ كبلال وخبَّاب وسُميَّة وعمَّار لأنواع العذاب والاضطهاد، تنزِل هذه الآيات الهاديات لتُخفِّفَ عن هؤلاء المُستضعفين بذِكر نموذجٍ مما تعرَّض له إخوانهم الأسبَقون على طريق الدعوة؛ ليكون لهم أسوة حسنة في الثبات والصبر، مع التأكيد أنَّ الدنيا مهما طالَت فهي ليست نهاية المطاف، بل هناك حياةٌ أخرى أكبر وأدوم، هناك سينتصِف المَظلومون ممَّن ظلَمَهم، وسيندم الظالمون ويتمنَّون أن لو كانوا مكان هؤلاء المظلومين.

أولًا: يُقسِمُ الله ﷻ في مُستهلِّ هذه السورة بالسماء وما فيها من بُروجٍ، وبالآخرة وما فيها من وعدٍ ووعيدٍ، وبالحساب وما فيه من شاهدٍ ومشهودٍ؛ لتأكيد أنَّ المُقْسَم عليه أمرٌ عظيمٌ وخطيرٌ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾.

ثانيًا: تعرِض السورة جوابًا على هذا القَسَم العظيم نموذجًا للفئة المؤمنة الصابرة والمحتسبة وهي تتعرّض لأبشع أنواع التعذيب؛ حيث يقوم الطغاة المُجرِمون بحَفر أخاديد النار، ثم يُحضِرون حولها المؤمنين رجالًا ونساءً فيرمُونهم فيها، فيقضُون حرقًا ولم يَنجُ منهم

أحدٌ، وتصعَد أرواحهم الطاهرة تشكُو إلى بارئها ظلمَ الإنسان لأخيه الإنسان ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾.

ثالثًا: تُبيِّنُ الصورة عاقبة أولئك المجرمين الظالمين وما ينتظرهم في ذلك اليوم الموعود ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾.

رابعًا: ثم تُبيِّنُ عاقبة أولئك المؤمنين المظلومين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾.

خامسًا: تُذكِّرُ السورة بصفات الله العليَّة التي تُنذِر الظالمين وتُبشِّرُ المظلومين ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

سادسًا: ثم تُذكِّرُ بعاقبة الطغاة الهالكين ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾.

سابعًا: ثم تلتفِتُ السورة إلى الواقع المكّي، وحال المشركين وهم يُكذِّبون بهذا القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ البروج: جمع بُرْج، وهو: المنزل الكبير المشرف، والعرب تسمِّي مواقع الأفلاك: بروجًا، وهذه البروج تتغيَّر في الصيف والشتاء بحسب حركة الأفلاك ودورانها.

﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة.

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ الأقرب للسياق أنّه على صلةٍ باليوم الموعود؛ فالشاهد من يشهَد على

الإنسان في ذلك اليوم، والمشهود كتابه الذي يُحصِي عليه كلّ ما قدَّم من خيرٍ أو شرّ، ثُمَّ إنّ التذكير بالحساب مناسبٌ لقصة الأخدود وما جرى فيها من بشاعةٍ وظلمٍ.

﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ هذه صيغةٌ من صيَغ التقريع والتوبيخ، وقد جاءت جوابًا للقسَم؛ تهويلًا لها، وتنبيهًا على خطرها، وأصلها دعاءٌ بالهلاك، وليست خبرًا، وأصحاب الأخدود هم: الطواغيت الذين قاموا بشقِّ الأرض وحفرها، وإضرام النيران فيها لحرق مجموعةٍ من المؤمنين مِمَّن كانوا على النصرانيَّة، وكان ذلك قبل الإسلام، كما تنصُّ الأخبار والأحاديث الواردة(1).

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ﴾ الوَقود: ما توقد به النار من حطبٍ ونحوه، والمقصود أنَّها نارٌ مستعرةٌ بكثرة وقودها، وهي النار التي أضرَمَها الطغاة في الأخدود ليحرقوا بها المؤمنين.

﴿إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ﴾ الضمير ﴿هُمۡ﴾ يعود إلى أولئك الطغاة، والمعنى أنَّهم مُلازمون للأخدود حتى لا يكون هناك تهاوُنٌ في تنفيذ الجريمة، أو أنَّ واحدًا من المُنفِّذين يرِقُّ قلبه لكبيرٍ أو صغيرٍ، أو حاملٍ أو مُرضِعٍ.

﴿وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ﴾ أي: حضور، وفيه تأكيدُ إصرارهم على مُتابعة التنفيذ، ومُحاسبة من تُحدِّثه نفسه من الجنود بالتهاونِ أو التردُّدِ.

﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ هذا لبيان فظاعة الجرم الذي ارتكبه أولئك الطغاة؛ فالمؤمنون الذين بين أيديهم لم يرتكِبُوا جنايةً تستوجِبُ العقاب، ولم يصدُر منهم ما يُسيءُ إليهم سِوَى أنَّهم مُوحِّدون لله، مُستمسكون برسالته، وفي هذا تعريضٌ بالظلم الواقع من قِبَل المشركين في مكّة على المُستضعَفين من المؤمنين، والقصة كلّها بهذا السياق.

﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ فيه تمجيدٌ لله تعالى، وتحقيرٌ لأولئك الطغاة الذين يظنون أنّهم ملكوا الدنيا بجبروتهم وقوتهم، وفيه تهديدٌ لهم؛ فإذا كانوا

(1) الحديث الذي فيه قصة أصحاب الأخدود مع الملك الظالم، رواه الإمام مسلم في «صحيحه» عن صهيب الرومي ﷺ، ينظر: صحيح مسلم (٨/ ٢٢٩/ دار الجيل - مصورة من الطبعة التركية المطبوعة ١٣٣٤، تح مجموعة من المحققين).

يشهدون عذاب المؤمنين، فالله شهيدٌ عليهم، وكفى به شهيدًا.

وفي هذا أيضًا إشارة إلى أنَّ ما جرى للمؤمنين كان وفق سُننه سبحانه، وتحت علمه وحكمه، فحينما تختلُّ موازين القوى فيأكل القويُّ الضعيف، والغنيُّ الفقير، فإنَّ القَدَرَ لا يتدخَّل لدفع الظلم وتحقيق العدل؛ لأنَّ الدنيا ليست دارًا للعدل، بل هي دارُ الاختبار والامتحان، والعدل فيها مسؤوليَّة البشر التي سيُحاسَبون عليها، وليست مسؤوليَّة القَدَر، وفي هذا تعليمٌ للمؤمنين أن يعدُّوا عُدَّتهم لحماية أنفسهم ودعوتهم وفق عالَم الأسباب والسُّنن، وألا يُغَرِّروا بأنفسهم باعتمادهم على المعجزات وخوارِق العادات، والله أعلم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ بيانٌ لعاقبة أولئك الأشرار، وأنَّهم سيُحرَّقون بالنار جزاءً وفاقًا على ما فعلوه بالمؤمنين، وهنا وفي وسط هذا التهديد والوعيد يفتح القرآن منفذًا للرحمة وللنجاة من هذه العاقبة البئيسة حتى لأولئك الأشقياء ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ﴾ فلو تابُوا لكان لهم شأنٌ آخر، وهذا ترغيبٌ لأهلِ مكَّة بالتوبة والإنابة إليه تعالى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ هذه هي عاقبة المؤمنين الصابرين المحتسبين، هذا وعدُ الله الجميل لهم، الذي يُقابِل ذلك الوعيد الشديد لأعدائهم، وهناك سيُرَى الفائز من الخاسر، وسيكون الناس أمام هذه الحقيقة الكبرى التي يتضاءَل أمامها كلّ ما كان في الدنيا من عذابٍ أو نعيمٍ.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إنَّ أَخْذه للظالمين إذا أخذهم سيكون قويًّا شديدًا.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ بمعنى أنَّه سبحانه هو المُتفرِّد في حُكم هذا الكون في مُبتداه وفي مُنتهاه، منه بدأ وإليه يعود، يغفِرُ لمَن يشاء، ويعذِّبُ مَن يشاء، وليس للظالمين في هذا الخلق وهذا الملك نصيب.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ صفتان من صفات الله تعالى، أمَّا الغفور: فكثيرُ المغفرة والستر على عباده، وأمَّا الودود: فكثير التودُّد لعباده؛ لأنَّهم صنعَتُه، فالله يحبُّ خلقه ولا يكرَهُهم، على خلاف ما يظنُّ بعض الذين يظنُّون بالله ظنَّ السوء.

﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ﴾ أي: خالقه، وخصَّ العرش بالذكر؛ تنبيهًا لعظمته، وهو مُشعِرٌ كذلك بعظيم مُلكه تعالى وحكمه وسلطانه على خلقه.

﴿ٱلۡمَجِيدُ﴾ صفةٌ أخرى لله ﷻ، ومعناها: العظيم.

﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ فله سبحانه الإرادة المطلقة، وله وحده حقُّ التصرُّف في هذا الخلق بحُكم أنَّه المُتفرِّد في إنشائِه من العدم، والمُتفرِّد في مُلكِه، والمُتفرِّد برعايته والعناية به.

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ﴾ هذا تذكيرٌ خاطِفٌ بعاقبة الطغاة على اختلافهم واختلاف أقوامهم، وقد ذكَرَ نموذَجَين: الدولة والقبيلة، لتتّسِع دائرة العبرة والاتعاظ.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ﴾ هؤلاء هم كفَّار مكّة المُكذِّبون برسالة محمدٍ ﷺ، وقد ربَطَهم القرآن بنماذِج الطغاة السابقين: فرعون، وثمود، وأصحاب الأخدود.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾ أي: هو العالِم بهم سبحانه، والمُقتدِر عليهم، ولن يفلِتوا من عذابه الذي ينتظرهم مهما غرِقُوا في لهوهم وغفلتهم، و﴿مِن وَرَآئِهِم﴾ إشارةٌ إلى هذا العذاب الذي ينتظرهم من بعد انتِهاء مُهلتهم وأجَلهم الذي قدَّره الله لهم.

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ أي: عظيم، وفيه ردٌّ على تكذيبهم المتقدِّم.

﴿فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾ ذاك من عالم الغيب الذي أودَعَ فيه القرآن الكريم قبل نزوله على قلب نبيِّنا محمدٍ ﷺ، والإخبار عنه لتأكيد حفظ القرآن من كلِّ زيادةٍ أو نقصٍ، وللإشارة إلى عظمته ورفعته وعلوِّ شأنه.



المجلس الثمانون بعد المائتين: إنه لقولٌ فصل وما هو بالهَزل

سُورَةُ الطَّارِقِ

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾

إنه لقولٌ فصل وما هو بالهزل

تناولَت سورة الطارق طرفًا من الصراع الدائر بين الوثنيَّة والإسلام؛ فنبَّهت إلى ما في الكون وما في خلق الإنسان نفسه من دلائل على توحيد الله وقدرته على إعادة الحياة لهذا الإنسان، مُؤكِّدة أنّ القرآن هو القول الفصل الذي لا يعرِفُ الهَزْل، ومُحذِّرةً أولئك الذين يريدون كيدًا بهذه الدعوة بأنَّ كيدَهم راجعٌ إليهم، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِم الله تعالى في مستهَلِّ هذه السورة بالسماء، وبالنجم الثاقب الذي يظهَر في قُبَّتها حينما يعمُّ الظلام ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ وهذا القَسَم مع ما فيه من تأكيدٍ للمُقسَم عليه، فيه أيضًا التنبيهُ إلى آيات الله المبثوثة في هذا الكون.

ثانيًا: ثم يأتي جوابُ القَسَم المُؤكِّد لمسؤوليَّة الإنسان عن أعماله، وأنَّها محفوظةٌ عليه؛ ليُجزَى بها خيرًا كانت أو شرًّا، وهذا هو مقصد الحياة الكُلِّي؛ فالإنسان لم يُخلَق عبثًا، وأعماله لن تذهَب سُدًى ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾.

ثالثًا: ثُمَّ تدعو السورة هذا الإنسان ليُفكِّر في خلقه وأصل نشأته؛ ليعلَم أنَّ مَن خَلَقَهُ أولًا قادرٌ على خلقه ثانيًا، وأنَّه سيُواجِهُ اللهَ بأعماله كما هي، ولن تكون معه قوة تَحميه، ولا ناصِرٌ ينصُره ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

رابعًا: ثُمَّ يُقسِمُ الله تعالى مرةً أخرى بالسماء، ويُقسِمُ بالأرض أنَّ القرآن هو القول الفصل والحقُّ الذي ليس فيه هزل ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٌ فَصۡلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾.

خامسًا: تختم السورة بتهديدٍ شديدٍ لأولئك الذي يُكذِّبون بالقرآن، ويكيدون لهذه الدعوة ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾.

دقائق التفسير

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ استفهامٌ يُقصَدُ به التنبيه إلى أهميَّة المُستفهَم عنه.

﴿ٱلنَّجۡمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ هو تفسيرُ القرآن للطارق، بمعنى أنَّه نَجْمٌ ساطعٌ يثقبُ الظلام بسطوعه، وكلمة الطارق من الطُّرُوق، وهو: القدوم ليلًا، وهناك بعضُ الباحثين في علم الفلك يتكلَّمون عن اكتشاف نجمٍ يُصدِرُ صوتًا كصوت المطرَقة، فإن صحَّ هذا كان معنًى مضافًا إلى معنى الظهور ليلًا، لا نافيًا له.

﴿إِن كُلُّ نَفۡسٍ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٌ﴾ ﴿لَّمَّا﴾ هنا بمعنى: إلَّا، وتفيد - مع تقدُّم إنْ النافية - معنى الحصر، بمعنى أنَّه ليس هنالك مِن نفسٍ إلَّا عليها حافظ، ومعنى الحافظ هنا: المَلَك المُكلَّف بإحصاء عمل الإنسان خيره وشرِّه، كبيره وصغيره.

﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ هو ماء الرجل؛ وسمي دافقًا لأنَّه يخرُجُ بقوةٍ وسرعةٍ.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ إذا كان فاعل ﴿يَخۡرُجُ﴾ يعودُ إلى الماء، فمعناه أنَّ الصُّلب والترائب كلَّها في الرجُل، وهي الأماكن التي يتكوَّن فيها المنيُّ، ويمرُّ من خلالها، أمَّا إذا كان يعودُ على الإنسان؛ فالإنسان يتكوَّن من ماء الرجل وماء المرأة، فيكون الصُّلب للرجل، والترائب للمرأة، وهذا الأشهر في لغة العرب، والله أعلم.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ أي: إنَّ الله تعالى قادرٌ على إرجاعه للحياة مرة ثانية كما خلقه أولًا.

﴿يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ هو يوم الحساب الذي تُكشَفُ فيه الخبايا والنوايا بعد أن كانت مستورة

عن الخلق، وكشفُ السرائر يدلُّ بطريق الأَولَى على كشف ما سِواها، ومحاسبة الإنسان على كلِّ ذلك، ومعنى ﴿تُبۡلَى﴾ أي: تُختبر وتُفحص، وتظهر على حقيقتها.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ﴾ أي: ليس لهذا الإنسان يوم الحساب من قوةٍ يدفع بها عن نفسه، ولا ناصِر يستنصِر به.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ هذا قسَمٌ آخر يُقصَدُ به التنبيه إلى أهمية المُقسَم عليه وخطورته، وقد أقسَمَ الله بالسماء مرةً ثانيةً مع إضافة معنًى مُرتبطٍ بحياة الناس، وهو المطر؛ وتفسير الرَّجْع بالمطر لأنَّ المطر يعود مرة بعد أخرى في كلِّ موسم.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ﴾ هذا قَسَمٌ آخر يفيد تأكيد خطورة المُقْسَم عليه؛ حيث أقسَمَ الله بالأرض وهي تتشقَّق بالنبات بعد المطر، كما تقدَّم قوله تعالى في سورة عبس: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا (٢٥) ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا (٢٦) فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا (٢٧) وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا﴾ [عبس: ٢٥- ٢٨].

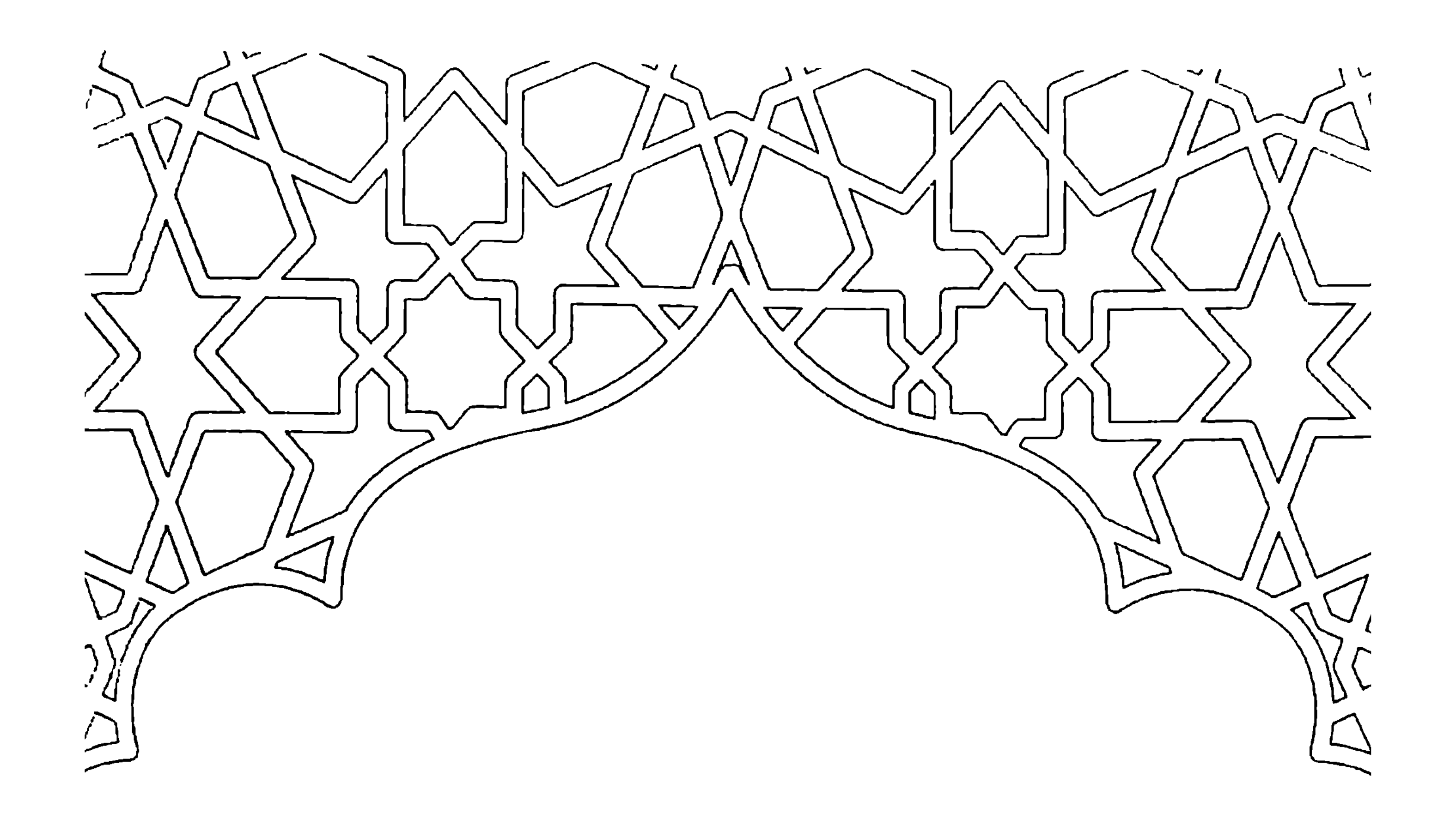
﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ﴾ هذا هو المُقْسَم عليه، والذي يراد تأكيده والتنبيه على خطورته، وهو أنَّ هذا القرآن العظيم هو الذي يفصل بين الحقِّ والباطل، فيُحق الحقَّ، ويُبطل الباطل.

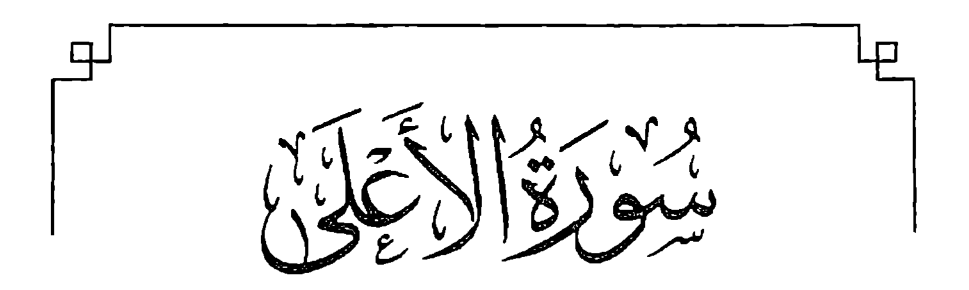
﴿وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ﴾ أي: هو الأمر الجدُّ الذي لا يعرف الهزل، وفي هذا تعريضٌ بعقائد المشركين وتخرُّصاتهم، ولهوهم وعبثهم في دينهم.

﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا﴾ أي: يمكرُون برسول الله ﷺ، ويكيدون به وبدعوته، والكلام هنا عن كُفَّار مكَّة.

﴿وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ هذا وعيدٌ من الله لهم، وهو على سبيل المشاكلة، بمعنى أنَّه تعالى سيُقابل كيدهم بما يُناسبه، وسوف يَجزيهم به، فيكونون هم المَكيدِين.

﴿فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا﴾ أي: انتظر ما يحلُّ بهم قريبًا ولا تستعجل لهم، و﴿رُوَيۡدَۢا﴾ أي: وقتًا قصيرًا.

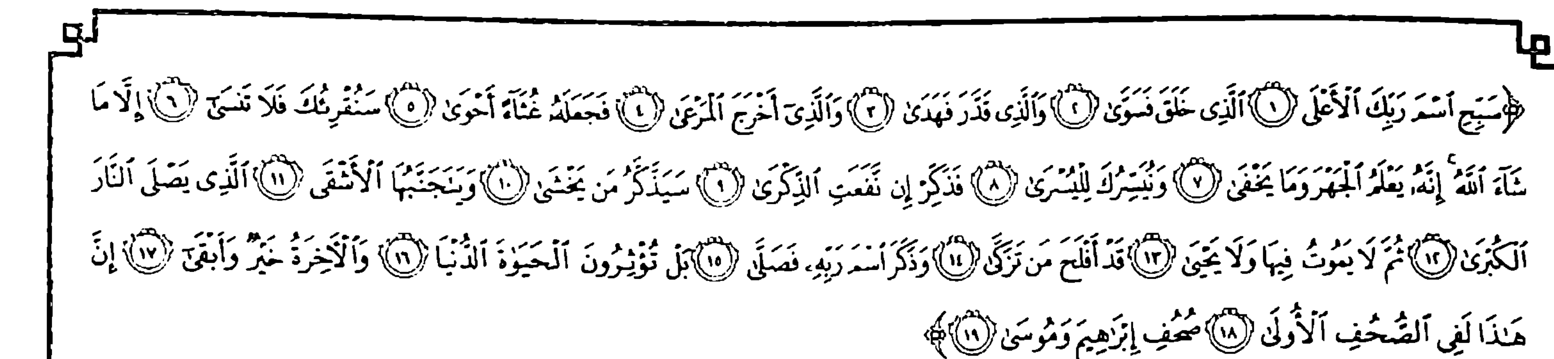




المجلس الحادي والثمانون بعد المائتين: قد أفلح من تزكَّى

المجلس الحادي والثمانون بعد المائتين

سورة الأعلى



﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾

قد أفلح من تزكّى

تتناوَل سورة الأعلى تنزيهَ الباري سبحانه الذي خلق هذا الكون فأبدَعه، والذي أنزل هذا القرآن فجعله ذكرى لمن يتذكَّر، وتزكيةً لمن يتزكَّى، وحُجَّةً على من كذَّب وتولَّى، وكما يأتي:

أولًا: تستهِلُّ السورة بتسبيحِ الله ﷻ الذي ظهَرت دلائل وحدانيَّته وقُدرته في هذا الخلق البديع ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

ثانيًا: ثُمَّ يتعهَّد الله تعالى أن يحفَظ هذا القرآن في صدر نبيِّه الكريم ﷺ ليُذكِّرَ به الناسَ كما أنزَلَه الله عليه، ويُرشِدهم إلى ما فيه الخير لهم، والتيسير عليهم ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾.

ثالثًا: تشرَحُ السورة اختِلافَ الناس في هذه الدعوة بين تقيٍّ نقيٍّ مُجتهِدٍ في تفكيره وتزكيته لنفسه، مُطيعٍ لربِّه مُؤثِرٍ لآخرته، وبين شقيٍّ آثَرَ الدنيا وبهرَجها، وتجنَّبَ طريق الهدى والصلاح؛ فأكبَّه الله في النار ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

رابعًا: تُذكِّر السورةُ أن ما ورَدَ فيها من تعظيمِ الله، وتذكيرِ للناسِ ودَعوَتِهم للخير، وتحذيرِهم من الشرِّ قد ورَدَ مثلُه في الرسالات السماويَّة السابقة، في إشارةٍ لوحدة هذه الرسالات في مصدرها ومبادئها وغاياتها الكليَّة ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾.

دقائق التفسير

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ أمْرٌ بتنزيهِ الله تعالى عن كلِّ ما لا يَليق به، والتسبيح مُتضمِّنٌ التعظيم والإيمان بأسمائه تعالى الحسنى وصفاته العَليَّة، وقد شرَّعَ الله له ذِكرًا خاصًّا، وهو قول: (سبحان الله) أو (سبحان ربي الأعلى)، ونحوهما.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: هو سبحانه الذي خلق الخلق فأتمَّه وأتقَنَه.

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ أي: هو سبحانه الذي قدَّر الأشياء بأشكالها وأحجامها وخصائصها، ثم هداها لما خلقها له؛ فالشمس لها وظيفتها في هذه الحياة، وكذلك القمر وسائر النجوم والكواكب، وفي الأرض كذلك الماء والهواء، والأنعام والنبات، وكلّ شيءٍ صغيرًا أو كبيرًا، وخَلْقُ الإنسان أدقُّ وأكمَل؛ فكلُّ عضوٍ فيه مُسخَّر لوظيفته حتى جفن العين ودقَّة شُعَيراته الصاعِدة والنازِلة، فهذه كلّها مُقدَّرَة في أصل النشأة، ومهديَّة لوظيفتها ضمن الصورة الكليَّة المُتكاملة والمُتناسِقة.

﴿وَٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ﴾ أي: هو الذي أنزل الماء من السماء فأنبت به أصنافَ النبات والعُشب الكثير الذي ترعاه الأنعام، وقد ذكر هذا على سبيل الامتِنان؛ إذ الماء والنبات والأنعام كلّها تشترك في خدمة هذا الإنسان وسدّ حاجاته، وهذه صورةٌ من صور التنسيق والتكامُل العجيب في هذا الخلق.

﴿فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ﴾ أي: ثم يتحوَّل ذلك العُشب بعد أن ييبَس إلى غُثاءٍ وهشيمٍ لا نضرة فيه، ولا قيمة له، ويتغيَّر لونه بعد أن كان زاهيًا إلى لونٍ باهتٍ داكنٍ، وهذه صورةٌ قُصِدَ منها تقريب صورة انتهاء الحياة كلِّها؛ فكلُّ ما نراه فيها من تكاملٍ وتناسقٍ، وحُسنٍ وجمالٍ سيتحوّل إلى موتٍ وحطامٍ، وفي ذلك عبرة لمن يعتبِر.

﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ هذا تطمِينٌ مِن الله تعالى لنبيِّه ﷺ أنه سيجمع له القرآن في صدره فلا ينساه، وهو تأكيدٌ بتعهُّد الله السابق بحفظ هذا القرآن ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ هذا استِثناءٌ لا يستلزِم أنّه ﷺ ينسى شيئًا من القرآن، بل هو استثناءٌ قُصِدَ منه تأكيد إرادة الله المُطلَقة، وأنَّ الأمر لله أولًا وآخرًا؛ فلو شاء سبحانه لما أنزل القرآن أصلًا، ولو شاء لما خلَقَنا من العدم، لكن الله هو الذي شاء كلّ ذلك فكان، فلا ينبغي أن تكون مثل هذه الآية محلّ جدل في قضايا علميَّة دقيقة، كالنسخ واحتمالاته وأنواعه؛ إذ السياق مختلف تمامًا، والله أعلم.

﴿إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ﴾ تأكيدٌ لعلمه الشامل سبحانه في ظواهر الأمور وبواطنها، وفائدة التذكير بهذه الصفة العزيزة من صفات الله تأكيد طمأنة الله لنبيِّه ﷺ بحفظ هذا القرآن، فالله عالِمٌ بما يتذكّره النبيُّ ﷺ وبما ينساه.

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾ في شؤونك كلّها، والمناسبة هنا أنّه لا يشقُّ على نفسه بتكلُّفِ حفظ القرآن والمُسارعة فيه، وفي الآية إشارة منهجيَّة إلى هذه الدعوة المباركة أنّها دعوة تيسير لا

تعسير، وتبشير لا تنفير؛ فهي الرحمة الشاملة والعامة لكلّ العالمين، ونبيُّها هو نبيُّ الرحمة ﷺ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

﴿فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ هذا أمرٌ إلهيٌّ لرسولِ الله ﷺ ولكلِّ مؤمنٍ مِن بعده أن يُذكِّرَ الناس بهذا القرآن ويدعوهم إليه.

وأمَّا قوله: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ فليس شَرطًا احترازيًّا؛ إذ الداعية لا يُمكِنه معرفة من ينتفع به ومن لا ينتفع، ثُمّ الذي لا ينتفع لا بُدّ أن تبلُغه الدعوة لتقوم عليه الحُجَّة، بل صيغة الشرط هذه قُصِدَ منها التنبيه إلى أنَّ هناك مَن لا ينتفع بالدعوة وأنَّه سيتجنَّبُها، بل سيُواجهها؛ كلّ ذلك ليكون الداعية مُستعدًّا لهذه الاحتمالات، فلا يُصدَم بطبائع الناس واختلافاتهم.

وغاية ما في هذه الإشارة أنّ الداعية عليه ألا ينشغل بالمُعانِدين الذين بلَغَتْهم الدعوة فاتخذوا منها موقفًا معاديًا، فهناك مَن هو أَولَى منهم، ثُمّ إنّ التعلُّقَ بهؤلاء المُعانِدين والاستمرار بتذكيرهم قد يُوقِعُ في الشرِّ والصدام الذي لا تُحمَدُ عقباه، والله أعلم.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ﴾ فهؤلاء الذين ينتفِعُون بالذكرى، وهم الذين يحسِبون العواقب، ويتفكّرون بمصيرهم وعاقبة أمرهم.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى﴾ ذلك الغافل الذي اتخذ حياته لهوًا ولعبًا؛ فلا يستمع لموعظةٍ، ولا ينتبه لآية، ولا تنفعه الذكرى.

﴿ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ﴾ هي نار الآخرة، وهذا وعيدٌ لأولئك الغافلين والمعاندين.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ لا يموت فينتهي عذابه، ولا يحيا الحياة التي يُريدها ويطمع بها.

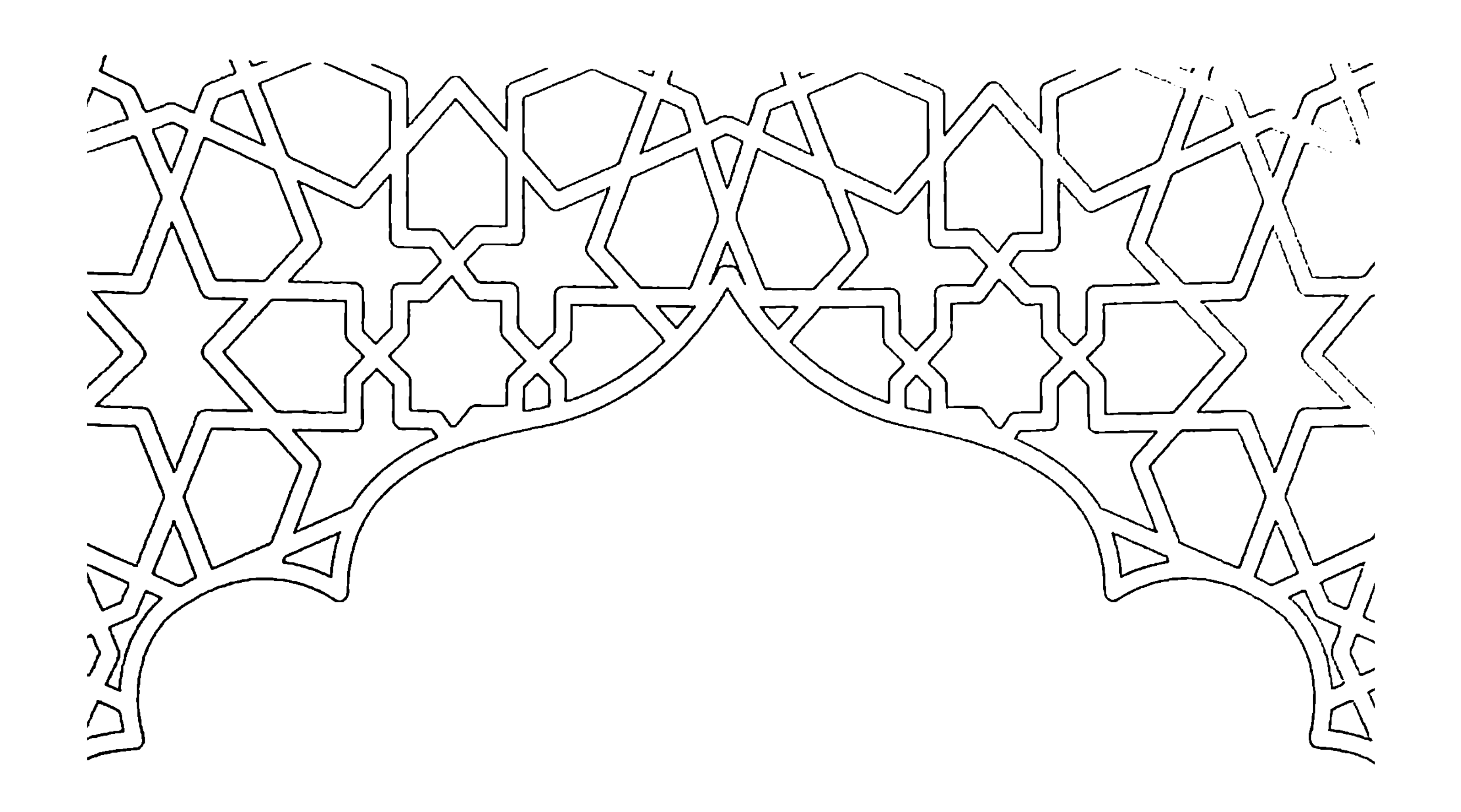
﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ أي: قد فاز من انتفع بهذه الذكرى، وقوَّم نفسه وهذَّبها، وغلَّب عناصر الخير فيها على شهواتها ونزَوَاتها.

﴿وَذَكَرَ ٱسۡمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ إشارةٌ إلى أهمية الذِّكر في تزكيةِ النفس، وما الصلاة إلَّا ذِكرٌ أيضًا ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤].

﴿بَلۡ تُؤۡثِرُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ لأنَّ الإنسان يتعلَّق بالعاجل القريب ولو كان هو الأدنى والأقل، هذه طبيعةٌ عامَّةٌ في البشر، وأمَّا الكافر فإنَّه يتعلق بالدنيا تعلُّقًا تامًّا؛ لأنَّه لا يُؤمن بغيرها.

﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ إرشادٌ للعباد وترغيبٌ لهم في الآخرة؛ لأنَّها الخير الذي لا يُقاس به خير الدنيا؛ ولأنَّها الأبقَى التي لا يُقاس ببقائها عمر الدنيا.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلۡأُولَىٰ ١٨ صُحُفِ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ تذكيرٌ بعُمق هذه الرسالة، وصِلَتها ببقية الرسالات، والتنبيه إلى أفضليَّة هذَين النبيَّين الكريمَين، وقُربهما من هذه الرسالة ومضمونها على نبيِّنا وعليهما الصلاة والسلام.



سُورَةُ الغَاشِيَةِ

المجلس الثاني والثمانون بعد المائتين: فذكِّر إنما أنت مُذكِّر

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ (٧) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ (٢٠) فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (٢٣) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (٢٤) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦)﴾

فذكِّر إنما أنت مُذكِّر

تأتي هذه السورة لتذكير الناس بما ينتَظِرُهم في ذلك اليوم؛ يوم الحساب والجزاء، ثم تُرشِد الناس إلى طريق النجاة والخلاص، وكما يأتي:

أولًا: تستهلُّ السورة بالحديث عن غاشِيَة العذاب التي تعُمُّ أولئك الضالِّين المُكذِّبين، بالنار والحَميم والضريع الذي لا يُسمِن ولا يُغني من جوع ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ (١) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (٢) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ (٣) تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً (٤) تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ (٥) لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾.

ثانيًا: ثم تنتقل إلى الوجوه الناعمة الراضية التي تنعَم برضاه سبحانه، والجنَّة العالية التي أعدَّها الله لهم بعيونها وسُرُرِها وأكوابها ونمارقها ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (١٦) أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾.

ثالثًا: ثم تدعو الناس ليتفكَّروا في هذا الكون، وما أودَعَه الله فيه مِن آياتٍ بيِّناتٍ تدلُّ على وحدانيَّة الخالق وعنايته بهذا الخلق ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ

رُفِعَتۡ ۝١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ۝١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾.

رابعًا: ثم تختتم بتأكيد مُهمَّته ﷺ ومُهمَّة كلِّ مؤمنٍ مِن بعده بأن يستمرَّ في تذكير الناس، وإنذارهم يوم البعث والحساب ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ۝٢١ لَّسۡتَ عَلَيۡهِم بِمُصَيۡطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ وقد جاء هذا التوجيه مُعضَّدًا بـ ﴿إِنَّمَآ﴾ التي تُفيد الحصر؛ تأكيدًا لأهميَّة التذكير حتى كأنَّها مُهمَّته الوحيدة.

دقائق التفسير

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡغَٰشِيَةِ﴾ هذا الاستِفهام يُقصَدُ منه التنبيه إلى أهميَّة المُستفهَم عنه وخطورته، والغاشية: القيامة؛ سُمِّيَت بذلك لأنَّها تعمُّ الناس بأهوالها، وتعمُّ الظالمين بعذابها.

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ أي: خائفة ذليلة، وهي وجوه أهل النار.

﴿عَامِلَةٞ نَّاصِبَةٞ﴾ صفتان من صفات أهل النار مُقيَّدتان بظرف الغاشية، بمعنى أنَّهم يتَعبون وينصبون ويشقَون في ذلك العذاب الشديد، وفيه تعريضٌ بما كانوا عليه من تعبٍ ونصبٍ في سبيل الصدِّ عن هذه الدعوة والكيد بأهلها.

﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٖ﴾ أي: من عينٍ شديدة الحرارة، كما قال في سورة الرحمن: ﴿يَطُوفُونَ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَ حَمِيمٍ ءَانٖ﴾ [الرحمن: ٤٤]، أي: حارّ.

﴿لَّيۡسَ لَهُمۡ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٖ﴾ هو طعامٌ خبيثٌ من أطعمة أهل النار لا ينفعهم، ولا يسدُّ شيئًا من جوعهم ﴿لَّا يُسۡمِنُ وَلَا يُغۡنِي مِن جُوعٖ﴾.

﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاعِمَةٞ﴾ أي: ظهرت عليها نضرة النعيم، وهذه هي وجوه أهل الجنَّة.

﴿لِّسَعۡيِهَا رَاضِيَةٞ﴾ وهذا من تمام نعيمها؛ أن تكون سعيدة بما قدَّمَته في حياتها.

﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾ أي: لا تسمع في الجنَّة لغوًا؛ فليس هناك إلَّا ما يُستحسن من الكلام.

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ﴾ أي: مهيّأة لهم وفيها ما يشتهون من شرابهم.

﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ أي: وسائد يتكِئون عليها، وهذه صورةٌ مُشعِرةٌ بالأُنس والراحة.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ الزَّرابِيُّ: هي البُسُطُ الناعمة المزيَّنة، و﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ أي: كثيرة ومنتشرة في كلِّ مكانٍ داخل قصورهم.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ فخلقُها وما تمتلكه من خصائص في طبعها، وأُلفتها لصاحبها، وصبرها وتحمُّلها وقوتها وثِقَل جسمها، وكثرة منافعها، وتذليلها للإنسان، كلّ ذلك يدعو للتفكر والتدبُّر.

﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ حتى تُرى كأنّها قُبَّةٌ مضروبةٌ فوق الأرض، منوّرةٌ بشمسها، ومزيَّنةٌ بكواكبها.

﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ أي: كيف رُفِعت بهذا العلوّ الشاهق، ثُمّ هي راسِخةٌ ثابتةٌ لا تتحرك، ولا تميل أو تميد.

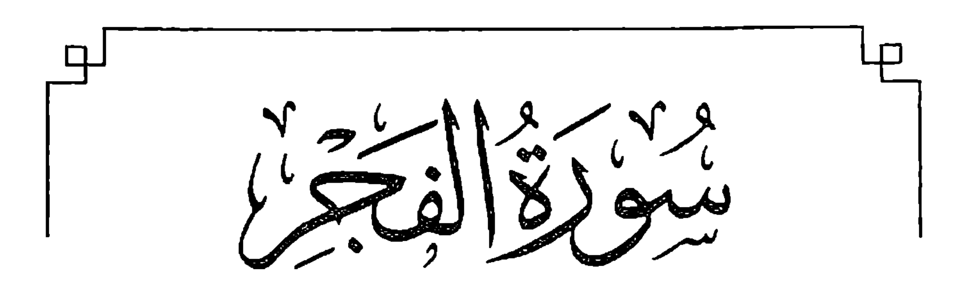
﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ فأصبحَت مُمهّدة للعيش، صالحة للبناء، وللحرث والغرس، يسير عليها الناس وكأنّها بساطٌ ممدودٌ لهم.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ هذا قَصْرٌ إضافيٌّ قُصِد به الاحتراز عن كونه ﷺ وكيلًا عليهم، أو أنّه بيده أمرهم ومصيرهم؛ وهذا معنى قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ والصيغة بمجملِها تؤكِّد أهميَّة الدعوة وعلوّ شأنها بالنسبة للنبيّ ﷺ، ثُمّ لكلِّ مُتّبعٍ له وسائرٍ على طريقه.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ هو استثناءٌ بمعنى الاستدراك، والمعنى أنّك يا محمد لست مُصيطرًا عليهم، ولا مُوكّلًا بهم، لكن من تولّى عن دعوتك وكفَرَ بها فنحن الذين نُحاسِبه؛ ولذلك قال بعدها: ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ أي: مردّهم ومرجعهم، وذلك يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ تأكيدٌ لما تقدَّم أنَّ النبيَّ ﷺ يُذكِّرهم، وليس وكيلًا عليهم، أو مُحاسِبًا لهم، وإنّما الذي يُحاسبهم هو الله وحده.



سورة الفجر

المجلس الثالث والثمانون بعد المائتين: إنَّ ربك لبالمرصاد

سورة الفجر

﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ۝٥ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝٢٦ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾

إنّ ربك لبالمرصاد

تتناول سورة الفجر نماذج مما أصاب المجتمعات السابقة بسبب طغيانهم وفسادهم، ثم تُبيِّنُ جانبًا مما ينبغي مراعاته في بناء المجتمعات، وهو الجانب المتعلّق بنظرة الناس إلى المال، وعلاقة الغنيّ بالفقير، ثم تختتم ببيان العاقبة والنهاية لهذه الحياة، وما سيلقاه الناس في حياتهم الأخرى من ثوابٍ أو عقابٍ.

إنّها سورةٌ من سور القرآن المكّي التي تُعالج موضوع القيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة في إطارها الإيماني والعقدي، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِمُ الله تعالى في مُستهلِّ هذه السورة بالفجر الذي هو بداية الحياة وانطلاقتها في كلِّ يومٍ، ثم ببعض الأيام الفضيلة لبيان أفضليَّتها وخصوصيَّتها، ثم يختِمُ بالليل الذي فيه سكَن الحياة وهدوءُها، وسلسلة القسَم هذه تؤكِّد أنَّ جواب القسم شيءٌ عظيمٌ وخطيرٌ ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ ثم يُنبِّه إلى أهميَّة هذا القسَم، ويدعُو كلَّ صاحب عقلٍ إلى الوقوفِ عنده وتدبُّره ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾.

ثانيًا: تُذكِّرُ السورة بعد ذلك القسَم بما أصاب الأقوام السابقة من الهلاك والدمار بسبب

ظلمهم وطغيانهم، وانتشار الفساد فيهم؛ ليكون هذا التذكير تمهيدًا لجواب القسَم المؤكّد: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۝١٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾.

وقد ضَمَّت هذه الآيات نموذجًا من طغيان الدولة وفسادها، ونموذَجَين من طغيان القبيلة وفسادها، في إشارةٍ إلى تنوع المجتمعات التي يمكن أن تُصاب بهذا الداء نتيجةَ لطغيان حُكّامها، أو لطغيان أعرافها وتقاليدها.

ثالثًا: ثم يأتي جواب القسَم بعبارةٍ واحدةٍ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ هذا هو المقصود من القسَم، والمقصود أيضًا بتذكُّر قصص السابقين، أن يستشعِر الناسُ رقابة الله، وأنّه تعالى معهم فيما يُعلنون أو يُسِرُّون، وأنّه يُمهِلُ الطغاة الفاسدين ولا يُهملهم؛ فهم واقعون تحت علمه الشامل، وقدرته المحيطة بهم أينما كانوا، وكيفما كانوا.

رابعًا: ثم تُعرّج السورة إلى بيان سببٍ من أسباب فساد المجتمعات وطُغيان بعضهم على بعض: إنَّه المال؛ حيث ينظر للغنيِّ أنّه إنسانٌ مكرَّمٌ، وينظر إلى الفقير أنّه إنسانٌ مُهانٌ، هذا هو المعيارُ الذي يتمايَز فيه الناس وينقسِمون فيه إلى طبقاتٍ مُتباينةٍ، تتعالَى الطبقة العليا على مَن دونها فتغيب الرحمة والمودَّة، ويسُود الظلم والحسد والتفكُّك ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾.

خامسًا: ثم تختتم السورة بالعاقبة التي تنتظر الجميع: الظالمين والمظلومين، وهناك يكون التمايُز الحقّ، وبالميزان الحقّ ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ۝٢٣ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ۝٢٦ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۝٢٩ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ يُقسِمُ الله تعالى بالفجر الذي هو أوّل النهار؛ تنبيهًا لفضل هذا الوقت، فهو بداية النهوض للأعمال والواجبات اليوميّة، وأوّلها صلاة الفجر، وحيثما كانت بداية العمل صحيحة كانت خاتمته كذلك.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ هي ليالٍ معظَّمةٌ ومتتابعةٌ، وليس في الإسلام عشر معظمات ومتتاليات إلّا أواخر رمضان وأوائل ذي الحجة، ولا أرى مانعًا من إرادتهما معًا؛ فإن تعيَّنت إحداها فالأقربُ عشر ذي الحجة؛ لأنَّ سورة الفجر سورة مكّيَّة، وهي من أوائل ما نزل من القرآن، ولم يكن ثمَّة تشريع صومٍ ولا حجٍّ، إلّا أنَّ العرب كانوا يعرفون أيَّام الحجِّ وكانوا يحجُّون، وهذا مِمَّا بقي عندهم من الديانة الإبراهيميَّة، فالقَسَم بهذه الليالي يكون مفهومًا عندهم وإن كانوا قد غيَّروا وزادوا ونقصوا.

إضافةً إلى أنَّ التنبيه المُبكِّر إلى الحجِّ وما يتعلَّق به يربط هذه الرسالة بجذورها الإبراهيميَّة، ويرسِّخ الارتباط بمكَّة، فهنا تكون القضيَّة قضيَّة هويَّةٍ وانتماء، وليست شعائر تعبديَّة مجرَّدة، وذاك هو الأنسَب مع بداية التنزيل والتكوين، أمَّا أواخر رمضان فيكون القسَم بها تنبيهًا للمؤمنين فقط على ما سيأتي من تشريعٍ يخصُّ هذه الليالي، والله أعلم.

﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ الأرجَح وفق مُقتضى السياق أنَّهما وقتان زمنيَّان، وليس مِن وقتٍ يقال له: وَتْر وآخر يقال له: شَفْع - وهما على صِلةٍ بعشر ذي الحجة - إلَّا يوم عرفة؛ فهو الوتر لأنَّه التاسع من ذي الحجة، وعيد الأضحى فهو العاشِر، وهما داخلان في العشر، إلَّا أنَّ تخصيصهما بالقسَم يُنبِّهُ إلى أهميتهما وأفضليتهما، والله أعلم.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ أي: توالَت ساعاته ومضى منها ما مضى، وهذا وقت عتمة الليل، وقد جاء القسَم به مُكمِّلًا للفجر؛ فالليل والنهار آيتان من آيات الله مُتكاملتان متناسقتان مع ما بينهما من اختلافٍ وتضادٍّ.

﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ﴾ الحِجْر: العقل؛ سُمِّي به لأنَّه يمنع صاحبَه من الزلل، والمقصود: دعوة كلّ صاحب عقلٍ إلى أن يُفكِّر في هذا القسَم ويفهمه ويتدبّره.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ وهم قوم هودٍ ﷺ.

﴿إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ إرَم اسم آخر لعاد، والمعروف أنَّه اسم لجدٍّ من أجدادهم تنتسِبُ إليه قبيلة عاد، وعاد اسم جدِّهم الأدنى، وقد نصَّ القرآن على الاسمَين معًا؛ تحرُّزًا من أن ينصرِف الذهنُ إلى قبيلةٍ أخرى تُسمّى عادًا، وهي موجودةٌ إلى اليوم، وهي غيرُ عادٍ الأولى.

وقوله: ﴿ذَاتِ ٱلْعِمَادِ﴾ أي: الأبنية العالية؛ من قصورٍ وحصونٍ ومصانع، كما أخبر عنهم في سورة الشعراء: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩]، والرِّيعُ هو: المكان المرتفع، وعلى هذا يُصبح معنى العماد واضحًا.

﴿ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ اختلف أهل التفسير في عود الضمير الذي في ﴿مِثْلُهَا﴾؛ فمال الأكثرون إلى أنَّه يعود إلى (عادٍ)، بمعنى أنَّ الله لم يخلُق مثل هذه القبيلة في القوّة والشدّة، وقد مالوا إلى هذا احتِرازًا من نسبة الخلق لغير الله، والأقرب إلى السياق أنَّه وصفٌ للعماد، بمعنى أنَّ عادًا بنَت قصورها على المرتفعات الشامخة بطريقةٍ لم تكن معهودة في تلك البلاد، ومعنى الخلق هنا: الابتكار والاختراع، أمَّا أنَّ الله ميَّزهم في خِلقتهم عن غيرهم، فهذا بحاجةٍ إلى دليلٍ مستقلٍّ، أمَّا التميُّز بالبناء فهو الأقرب والأكثر شيوعًا، وكذلك هو الأنسب للفظة: ﴿ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فإنَّما تتمايَز البلاد وتتنافس بعمرانها لا بأشكال أفرادها.

وقد جرّ القول بتميُّز خلقة عادٍ عن غيرهم إلى القول بخرافاتٍ وأساطير عن طولهم وقدراتهم الخارقة؛ مثل أنَّ أحدهم كان يحمِل الصخرة من الجبل فيُهلِك بها أُمَّة من الناس، مِمَّا لا يستقيم في العقل، ولا دليل عليه من النقل.

﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ ثمود هم قوم صالحٍ ﷺ، وقد كان بناؤهم في الأرض المُنبسِطة السهلة على خلاف عاد التي كان بناؤها في المرتفعات، و﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ﴾ أي: قطّعوه ونحتوه، و﴿بِٱلْوَادِ﴾ إشارةٌ إلى أنَّهم كانوا أهل سَقيٍ وزرعٍ ونعيمٍ، كما أخبر عنهم في الشعراء: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَـٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٦- ١٤٨].

﴿وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ أي: صاحب الملك والسلطان المُثبَّت بأسباب القوة، والأوتاد هنا مأخوذة على سبيل التشبيه والاستعارة من وَتَد الخيمة الذي تثبّت به.

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ١١ فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ إشارةٌ إلى التلازم بين الطغيان والفساد؛ فالطغيان لا يقوم إلّا على فسادٍ وتحلُّلٍ في المجتمعات، كما قال تعالى: ﴿فَٱسۡتَخَفَّ قَوۡمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ﴾ [الزخرف: ٥٤]، ثم يَعمد الطغاةُ إلى زيادة هذا الفساد وتكثيره؛ لأنَّ فيه أسباب دوام سلطانهم، وأخشَى ما يخشاه الطغاة وجود مجتمعٍ مُتعلِّمٍ واعٍ بحقوقه، وقويٍّ بوحدته وتماسُكه.

﴿فَصَبَّ عَلَيۡهِمۡ رَبُّكَ سَوۡطَ عَذَابٍ﴾ صبُّ العذاب يعني: إفراغه عليهم بسرعة وقوة، وذِكرُ السوط فيه إشارةٌ إلى معنى الإذلال، وهو من باب التشبيه والاستعارة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ تشبيهٌ مُركَّبٌ بحالة من يتّخذ مكانًا يرصد فيه حركة عدوِّه حتى يكون على علمٍ تام به، والله ﷻ غنيٌّ عن الرصد، وإنَّما أرادَ أنّه عالم بحركاتهم وسكناتهم، وأنَّهم جميعًا تحت سمعه وبصره، وتحت حكمه وقدرته، لا يخفَى منهم مُختفٍ، ولا يفلِت منهم هارِبٌ.

﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ بمعنى أنّه يرى المال والترفُّه في الدنيا هو مِعيارُ الإكرام، والمِقياس الذي يتفاوَتُ فيه الناس، وإذا ترسَّخ هذا المفهوم الخاطِئ صارَ صاحب المال يرى أنّه هو صاحب الحقِّ، وأنَّ الذين يُخالفونه هم أهل الباطل مهما كان عِلمُهم وأمانتهم وخُلقهم، وبهذا المقياس كانت قريش ترى أنَّها أَولَى بالحقِّ من الفقراء الذين اتبَعوا مُحمدًا ﷺ.

وقد تضمَّن النقدُ القرآني لهذا المعيار الظالم الآثِم بيان حِكمة الله في هذا التفاوُت بتكرار قوله مع الغنيِّ ومع الفقير: ﴿إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ﴾؛ فالغِنى ابتلاءٌ، والفقرُ ابتلاءٌ، والغنيُّ مُبتلى بالفقير، والفقيرُ مبتلى بالغنيِّ، كابتلاء القوي بالضعيف، والضعيف بالقوي، والحاكم بالمحكوم، والمحكوم بالحاكم، فالدنيا كلّها ابتلاء، وكلّ تفاوتٍ فيها ابتلاء، وإنّما العبرة بأداء

الواجب والاعتراف بالحقِّ لأهله، وإبراء الذمة وتحقيق الأمانة والعدل في كلِّ ذلك.

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾ إشارة إلى أنَّ اليتيم يستحقُّ من مجتمعه الإكرام والرعاية والتلطُّف به، لا مُجرَّدَ التصدُّق عليه؛ فحاجته إلى الرعاية المعنويَّة لا تقلُّ عن حاجته إلى الرعاية المادِّيَّة، إضافةً إلى أنَّ بعض الأيتام قد يكونون أغنياء فلا يحتاجون إلى الصدقة.

﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ هذه هي المجتمعات المُفكَّكة، والتي تُعاني من الانعزال الطبقي؛ حيث يعيش الأثرياء في عالمهم الخاص وعلاقاتهم المحصورة فيما بينهم، بينما يعيش الفقراء في عالمٍ آخر بعلاقاتهم وهمومهم ومُشكلاتهم، من هنا جاء النقد القرآني موجِّهًا إلى هذه الصورة الطبقيَّة، بمعنى أنَّ أولئك الأثرياء لا ينتبِهون إلى هؤلاء الفقراء؛ وبالتالي فهم لا يتواصَون بهم وبتقديم العَون لهم.

و﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ أي: يحضُّ بعضكم بعضًا، والحضُّ: الحثُّ والمتابعة، و﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: مُعاونة المسكين في كلِّ ما يحتاج إليه من ملبسٍ ومسكنٍ، وعلاجٍ وتعليمٍ، وإنَّما اكتفى بذكر الطعام تمثيلًا لحاجة المسكين، وليس حصرًا لها.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ أي: تستأثِرون بالميراث وتأكلونه جميعًا، فتمنعون منه الضِّعاف؛ كالنساء والأيتام، و ﴿لَّمًّا﴾ أي: جَمعًا، فلا تُفرِّقون بين حلالٍ وحرامٍ، ولا بين ما هو حقٌّ لكم وما هو حقٌّ لغيركم.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرًا، وحبُّ المال بذاته غريزةٌ لا تُوصَف بخيرٍ ولا بشرٍّ؛ فهي شهوةٌ من الشهوات المغروسة في الإنسان لتأدية وظائفه على هذه الأرض، فكما أنَّ شهوةَ الجنسِ سببٌ لاستمرار النوع، وتعاقُب الأجيال، فشهوةُ المالِ سببٌ للعمل وإحياء الأرض وتعميرها، إلَّا أنَّ السياق هنا متعلِّقٌ بأولئك الذين جعلوا المال معيارًا للتفاضل، ولتقسيم المجتمع إلى طبقاتٍ متباينةٍ ومعزولةٍ، وجعلوه أداةً للظلم، وسببًا لإهانة الآخرين وهضم حقوقهم.

﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ بمعنى أنَّ معاييركم تلك ستَرَون بطلانها يوم تُدَكُّ

الأرض دكًا دكًا، وذلك يوم القيامة، وتكرار لفظة ﴿دَكًّا﴾ للتأكيد، وليست للتكرار؛ بقرينة قوله تعالى: ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٤]، والله أعلم.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ هذه من الصفات الخبريَّة التي نؤمن بها كما جاءت، ولا يُمكن للعقل إدراك صورتها على ما هي عليه؛ لأنَّها ليست مما يعهَده الذهن، والمقصود منها: إضفاء الجلال الكبير على ذلك الموقف الرهيب، حتى يندفِع الإنسان لتهيّبه والاستعداد له.

﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفًّا بعد صفٍّ، فالتكرار هنا للترتيب وليس للتأكيد، وهذه صورةٌ أخرى من صور ذلك اليوم، وفيها إضافةٌ لمعنى الجلال والرهبة.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ أي: بُرِّزت لأهلها واستعدَّت لاستقبالهم، كما قال تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ ذلك الإنسان الخاسر الذي لم تنفعه الذكرى في حياته، حتى إذا صدَمَتْه الآخرة بأهوالها راحَ يتذكَّر ما فاتَه، ويتذكَّر دعوة الرسل ولا تنفعه الذكرى، ويندم ولا ينفعه الندم.

﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي: لآخرتي؛ فالآخرة هي الحياة الباقية التي تستحقُّ اسمَ الحياة أكثر من الدنيا، لكن الإنسانَ محجوبٌ عن هذه الحقيقة بهذا المتاع الزائل، فإذا زال الحجاب وانكشفت الحقائق كما هي.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ أي: ليس هناك عذابٌ كعذاب الله، وليس هناك وثاقٌ كوثاقه، والمقصود بالوثاق: أنَّ المجرم خاضِعٌ لحكم الله وسلطانه فلا يفلِت منه، وهو موثوقٌ أيضًا بالسلاسل والأغلال، وهذا تهديدٌ لكلِّ خارجٍ عن طريق الله مُعلِنٍ عداوته لأوليائه، وفيه أيضًا يتجلَّى وعيده تعالى الذي أقسَمَ عليه في صدر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾.

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ بإيمانها وحُسن عملها وثقَتها بربِّها، وهذه الصورة الجميلة الرحيمة التي تُقابل صورة العذاب والوثاق تلك، وهكذا يقرِن القرآن الوعدَ بالوعيد،

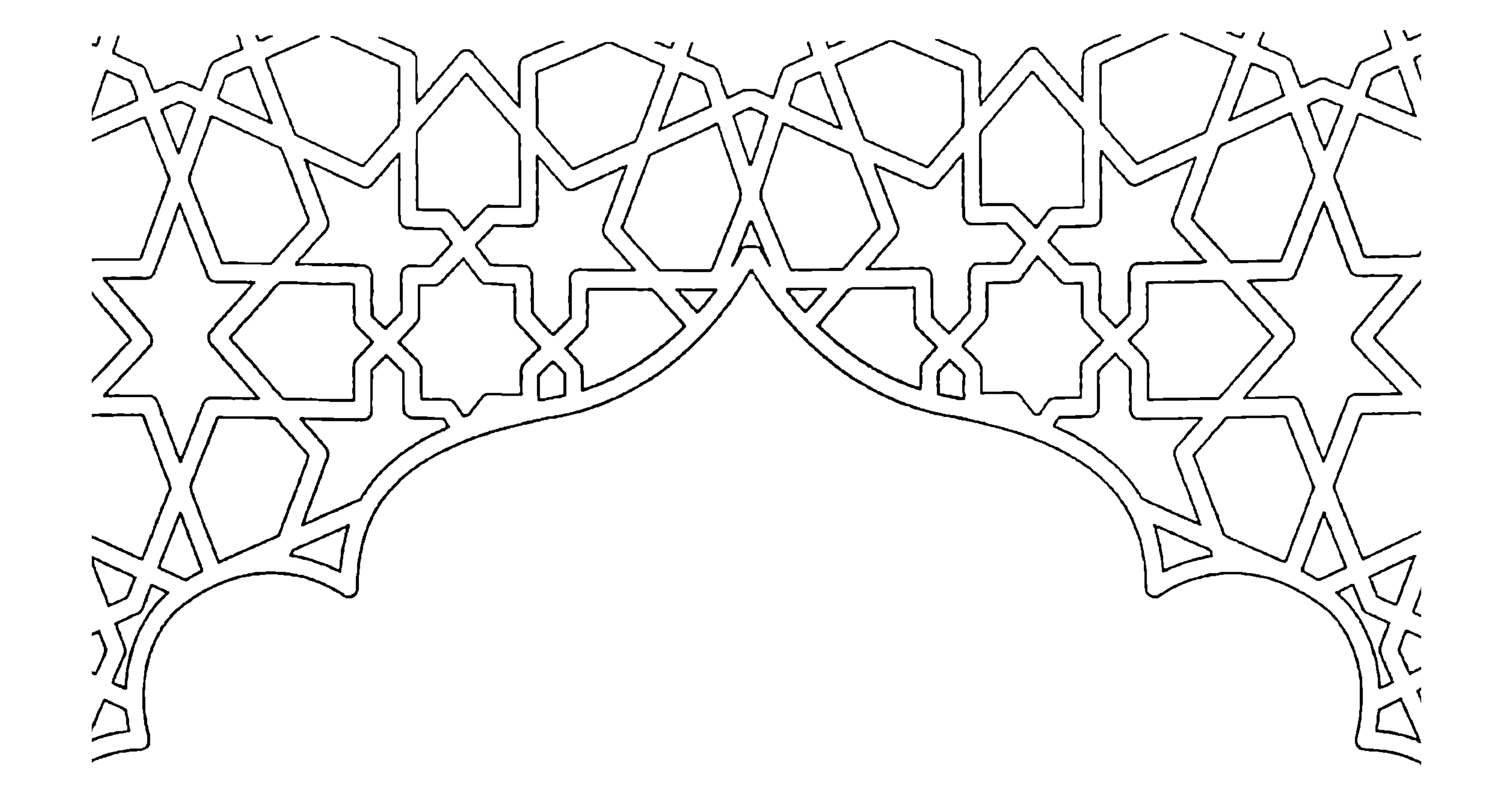
والترغيبَ بالترهيب.

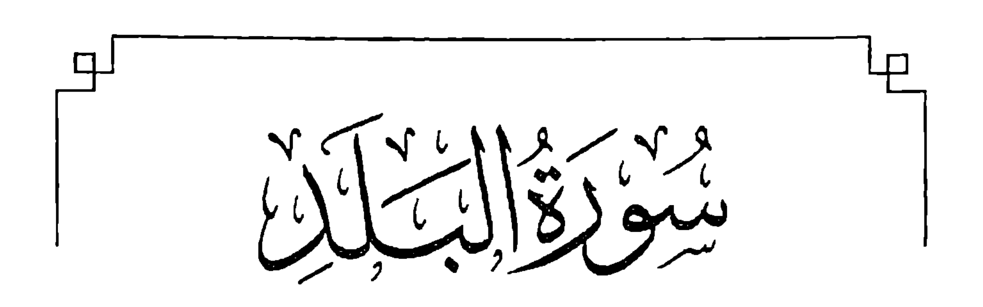
﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ راضِية بالله وثوابه، مرضيَّة عند الله ثم عند الصفوة من عباده الأبرار وملائكته الأطهار.

﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ أي: كوني معهم وفي عدادهم، وأضافَهم تعالى إلى نفسه إكرامًا لهم.

﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ أضافَ الجنة أيضًا إلى نفسه؛ إعلاءً لشأنها، وتأكيدًا لإكرام عباده فيها، وتقديم الدخول في العباد على الدخول في الجَنَّة إشارة إلى أنَّ ولاء المؤمن لعباد الله الصالحين ومحبته لهم كان سببًا في دخوله الجنة معهم، والله أعلم.

وهو الذي نتضرَّعُ إليه سبحانه أن يُدخِلَنا في عباده، وأن يُدخِلَنا في جنَّته راضِين مرضيِّين مُطمئنِّين.





المجلس الرابع والثمانون بعد المائتين: لقد خلقنا الإنسان في كبَد

﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠)﴾

لقد خلقنا الإنسان في كبد

تتناول هذه السورة حياة الإنسان ومُكابدته فيها، وما ينتظره بعدها، فتُرشِده إلى طريق سعادته، وتحذِّره من أسباب شقاوَته، مع تأكيد الصلة بين الإيمان بالله وعبادته وحده، وبين الإحسان إلى الخلق والرحمة بهم، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِمُ الله ﷻ قَسَمًا مُؤكَّدًا بمكَّة شرَّفَها الله، مع التنويهِ إلى مقام النبيِّ الكريم ﷺ فيها، وقد زادَها هذا المقام شرفًا على شرفها، وبركةً على بركتها، ثم يُقسِمُ تعالى بخلق هذا الإنسان وتوالُده جِيلًا عن جيلٍ، إشارة إلى قُدرته سبحانه وحكمته في استمرار الخلق، وتمهيدًا لجوابِ القَسَم المُتعلّق بحياة هذا الإنسان وطبيعتها والغاية منها ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ (٢) وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ﴾.

ثانيًا: أمّا جوابُ القَسَم فهو قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ فالإنسان كُتِبَ عليه أن يعيش في هذه الدنيا حياة الكدِّ والتعبِ؛ إذ الدنيا كلها ليست دار مقرٍّ، بل هي دار امتحانٍ واختبارٍ، وكفى بهذا مُكابدة.

وإنّما غاية الرسالات ليس بقلب الدنيا إلى شيءٍ آخر، بل تنبيه الناس إلى حقيقتها، وإعداد العُدّة للنجاح في اختبارها، ولا شكَّ أنَّ الإيمان بهذه الغاية يجعل الإنسان أكثرَ طمأنينة، وأقدَرَ على تحمّل المسؤوليّة، وأقلّ طمعًا في المنافسة على متاعها الرخيص، وأكثرَ رحمة

بالآخرين، وهكذا تكون الرسالات سببًا في تخفيف هذا الكبد، والتقليل من آثاره السيئة، مع الدفع نحو السعادة الأخرويَّة التي لا يشوبها كدَر، ولا يُنغِّصُها كَبَد.

ثالثًا: أمَّا الذي لا يتّصلُ بنور هذه الرسالات فإنَّه سيُهلِك نفسَه في جمع حُطام الدنيا، ثم في تبذيره على شهواته بلا غايةٍ ولا حكمةٍ؛ لأنَّه لا يؤمِنُ بإلهٍ قادرٍ عليه يُراقبه ويُحاسبه، فهو لا يؤمن إلَّا بحياته المحدودة، ولا يرى شيئًا فوقها، ولا شيئًا بعدها ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾.

وهو لو فكّر قليلًا، لعلِم أنَّ في عينيه اللتَين يبصِر بهما آية على وجود الله وقدرته عليه، وكذلك في لسانه هذا الذي هو قطعة من اللحم لكنَّه يتكلَّم ويتذوَّق، وفي شفتَيه كذلك، وأكبر من ذلك: هذا العقل الذي يُدرِكُ به الأشياء، ويُميِّزُ به بين ما ينفعه وما يضرُّه، بين طريق السعادة وطريق الشقاء لو كان يُعمِل عقله ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾.

رابعًا: تُعبِّرُ السورة عن غاية هذه الحياة ونهايتها الحتميَّة التي ينبغي على كلِّ مُكلَّفٍ أن يجتازها ليصِلَ إلى برِّ الأمان، وهذا هو الامتحان ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ (١١) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ (١٧) أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

والملاحظ هنا أنَّ شروط الاجتياز قد جَمَعَت بين الإحسان إلى الخلق بعِتق العبيد، وإطعام اليتيم والمسكين، والأخلاق الفاضلة؛ كالصبر والمرحمة، وبين الإيمان بالله، وهذه منهجيَّة قرآنيَّة عامة ومؤكّدة؛ فالإيمان بالله لا ينفصِل عن الأخلاق، وحقّ الله لا ينفصِل عن حقّ العباد، أمّا الذي يفشل في تحقيق هذه الشروط فإنّه لن يجتاز العقبة، وسيلقَى مصيرًا آخر لا تُحمد عُقباه ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾.

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ هذه صيغةٌ معهودةٌ من صيغ القسَم المؤكَّد، والبلد المُقسَم به هو مكَّة شرفها الله.

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أي: وأنت يا محمد مُقيمٌ في هذا البلد، فبِك زاد الله هذا البلد تشريفًا وتعظيمًا، وفيه أنَّ هذه الرسالة المحمَّديَّة مُرتبطة ارتباط هويَّةٍ وانتماءٍ بهذه البقعة المباركة.

﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ﴾ هذا القسَم يُشير إلى سنّة الله في هذا الخلق؛ فكلّ إنسانٍ هو مولودٌ وله والِد، والحياة في الحقيقة ليست سِوَى هذا؛ والدٌ ومولودٌ، أجيالٌ تمضي وأجيالٌ تأتي، وفائدة هذا القسَم - مع التنبيه إلى سُنَّة الله هذه وقدرته - أنَّه يُمهِّد للمقسَم عليه، وهو جواب القسم الآتي.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: يحيَا حياته الدنيا في تعبٍ ومشقَّةٍ.

﴿أَيَحۡسَبُ﴾ ذلك الإنسان الغافل المُنهمِك في متاعه الزائل وشهواته ﴿أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ﴾

﴿يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا﴾ أي: يُفاخِر بكدِّهِ وتعَبِهِ الذي جمَعَ به مالًا كثيرًا ثم أنفقَه على نفسه، و﴿لُّبَدًا﴾ أي: مُتلبِّدًا بعضُه فوق بعض، والمقصود به الكثرة.

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ هذا لومٌ وتقريعٌ لكلِّ مَن يبذِّر ماله في غير مصلحةٍ دون حسابٍ ليوم الحساب، ولا أداء لحقِّ الله، أو حقِّ عباده.

﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾ أي: أعطَيناه العقل الذي يُميِّزُ به بين النافع والضار، وبين طريق النجاة وطريق الهلاك، ومعنى النجدَين: الطريقَين.

﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ﴾ أي: لم يُفلِح في اجتياز الحائل الذي يحُول بينه وبين سعادته الأبديَّة.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ﴾ هذا استفهامٌ يُقصَدُ به التنبيه إلى خطورة المُستفهَم عنه وأهميته، والتشويق لمعرفة الجواب.

﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ أي: الإنفاق من أجل عِتق العبيد وتحريرهم، وقد عدَلَ القرآن هنا عن تفسير

العقبة إلى بيان شروط اجتيازها، وهذه طريقةٌ قرآنيَّةٌ؛ أنَّه يركز في المسائل العمليَّة ولا يقِف كثيرًا عند الألفاظ ومدلولاتها المجرّدة.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ أي: ذي جوعٍ، والإطعام في وقت الجوع أكثر برًّا وإحسانًا من الإنفاق مع الشبَع، الذي يتّخذ في الغالب للسمعة والمباهاة.

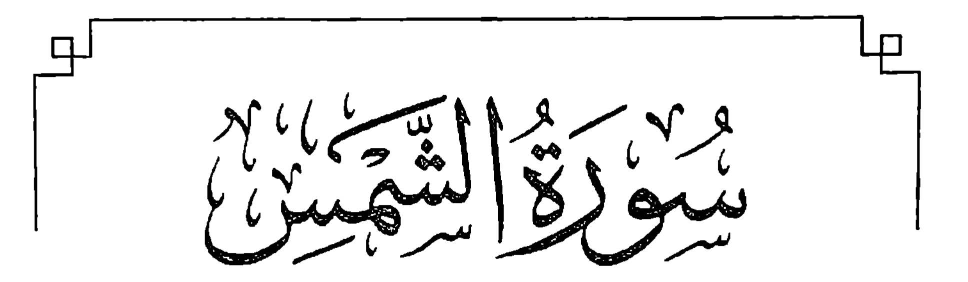
﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ إشارة إلى أنَّ اليتيم بحاجةٍ إلى أقربائه؛ لأنَّه يجِد فيهم عِوضًا عمَّن فقَدَه، إضافةً إلى حاجته إلى الطعام إن كان فقيرًا.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: لا يجِد إلَّا التراب، كناية عن أنَّه لا يملك شيئًا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين الذين يُعطَون كتابهم يوم القيامة بأيمانهم، علامةً على نجاحهم وقبولهم عند الله.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: أصحاب الشمال ممن يُعطَون كتابهم بشمالهم، علامةً على هلاكهم وطردهم من رحمة الله.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ أي: مُغلَقة عليهم، فلا يجِدون منها مهربًا.



المجلس الخامس والثمانون بعد المائتين: قد أفلح من زكّاها

سورة الشمس

﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾

قد أفلح من زكَّاها

محور هذه السورة: تزكية النفس، وتحمُّل المكلَّف مسؤوليَّته في ذلك؛ إذ هي عنوان فلاحه، وطريق سعادته، وقد أكَّدت السورة هذا المعنى بسلسلةٍ من القَسَم المُتضمِّن لآيات الله في هذا الوجود، ثم قدَّمَت نموذجًا مِن قصص السابقين الذين خسِروا أنفسهم، واتبعوا شهواتهم، وكما يأتي:

أولًا: أقسَم الله ﷻ في مستهلِّ هذه السورة بثنائيَّاتٍ متقابلة: الشمس والقمر، والنهار والليل، والسماء والأرض، ثم أقسَم بنفس الإنسان التي ألهَمَها الفجورَ والتقوَى؛ ليُمهِّد بذلك لجوابِ القسم؛ وهو محور هذه السورة وموضوعها الأساس: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

ثانيًا: ثم جاء جواب القسم بثنائيَّةٍ أيضًا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ ليُحمِّل الإنسان مسؤوليَّته الكاملة في تزكية نفسه، وليضعه على مفترق الطريق؛ فإمَّا ناجٍ بعمله وفائز بسعادة الدارين، وإمَّا هالِك وخاسِر.

ثالثًا: ثم تعرِض السورة قصة ثمود التي كفَرَت بربِّها وكذَّبَت نبيَّها، واتبعت أشْقاها وأجرَأها على الله، فهَلَكَت في الدنيا، وهلاكها في الآخرة أشدّ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ

﴿ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ أقسَمَ الله بالشمس؛ تنبيهًا إلى ما فيها من آياتٍ، ثم أتبَعَها بالضحى؛ لأنَّه وقت العمل وشدّة الحركة، بإشارةٍ إلى أهميَّة الشمس في حياة الإنسان.

﴿وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ أي: إذا تلا الشمس بعد غروبها، والقَسَمُ بالقمرِ تنبيهٌ إلى آياتٍ أخرى، فإذا كانت الشمس عنوانًا للعملِ والكدِّ، فإنَّ القمر عنوانٌ للأُنس والصفاء والراحة.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ أي: والنهار إذا جلَّى الشمس؛ أي: أظهَرَها، وهذا على سبيل المجاز الظرفيّ؛ لأنَّ النهار وقتُ تجليةِ الشمس وظهورها، ولا يبعُد أن يكون الضمير في ﴿جَلَّىٰهَا﴾ يعُود إلى المعهود في الذِّهن، وهو هنا الأرض، والله أعلم.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا﴾ أي: والليل إذا يحجِب الشمس، ويجوز أيضًا عَودُ الضمير في ﴿يَغۡشَىٰهَا﴾ إلى الأرض، بمعنى أنّ الليل يُغطِّي الأرض، وذِكرُ النهار والليل بعد الشمس يُشير إلى دورها في تكوينهما، وهذه من آيات الله التي تُنظِّم حياة الناس، بل تُنظِّم الحياة كلّها.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ أي: والسماء وبنيانها العظيم والمتماسك، و﴿وَمَا﴾ هنا مصدرية، ويَبعُدُ أن تكون بمعنى (مَن) كما يرى بعض المفسرين؛ لأنَّ القسَم بالله تعالى لا يُناسب أن يكون بعد القسَم بمخلوقاته، وهكذا القول في: ﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾، وفي: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾.

ومُناسبة ذِكر السماء هنا: أنَّها الأفق الذي تتحرّك فيه الشمس والقمر، والتنبيهُ إليها تنبيهٌ أيضًا إلى نجومها وكواكبها التي لا تُحصَى.

﴿وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ أي: والأرض وطَحْوها، بمعنى: بسطها وتهيئتها لعيش الناس وحركتهم.

﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ أي: ونفس الإنسان وخلقها بهذا الشكل السويِّ، والقَسَمُ بالنفس

توطِئة لجواب القسَم، والذي هو محور هذه السورة.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ الإلهام هنا يعني: ما أودَعَه الله في هذه النفس؛ من استعدادٍ للفجور، أو للتقوى، وهذا مناط الاختبار الذي هو المقصد الأساس لخلق الإنسان ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[1].

ومِن هذا الإلهام أيضًا: ما ميَّز الله به الإنسان من قدرةٍ عقليَّةٍ يُميِّزُ بها بين الخير والشر، والصحيح والخطأ، ثم أتمَّ الله نعمتَه على هذا الإنسان برسالته السماويَّة الهادية التي تُرشِدُه إلى طريق الحقِّ، وتُحذِّرُه من طريق الباطل، فكلّ هذه المعاني داخلةٌ في مدلُول هذه الآية، وبينها تعاضُد وتكامُل، فلا حاجةَ لسُلوك مسلَك الترجيح فيما بينها، والله أعلم.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ هذا هو جواب القسَم، وهذا هو محورُ السورة، بل محور الرسالة كلّها، وتزكيةُ النفس يعني: تطهيرها وتهذيبها، وتربيتها التربية السليمة التي تغلّب عناصر الخير فيها على عناصر الشر، وإنَّما تتحصَّل هذه التزكية بالتقوى؛ أي: بتحمُّل الإنسان مسؤوليَّته، ومراقبته لنفسه، وخشيته الدائمة من ربِّه، والاستعداد ليوم الحساب، فهذا هو الذي يستحقُّ الفلاح في دنياه وأخراه.

وأمَّا ذلك الذي أهمل نفسه وأتبعها هواها حتى استغلَظَت فيها عناصر الشرِّ، واضمحلَّت فيها نبتَةُ الخير، فقد دسَّى نفسه؛ أي: حالَ بينها وبين الخير، كأنَّه دسَّ شيئًا بينها وبين الخير فلا تصِل إليه، فهذا ليس له إلَّا الخيبة والخسران الدائم في دنياه وأخراه.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ أي: بسبب طغيانها، بمعنى أنَّهم لم يكونوا قد كذَّبوا نبيّهم لشبهةٍ قابلةٍ للنظر، بل كذَّبوه طغيانًا واستكبارًا على الحقِّ وأهله، وقد تقدَّمَت قصة هؤلاء القوم وتكرَّرت كثيرًا في القرآن الكريم.

﴿إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ أي: بعثوا أشقَاهم فأطاعهم، بل هو من أبدَى لهم عن سفاهَته وجُرأته على ما بعثوه له، كما سيأتي.

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم مرتَين في القران الكريم: في سورة هود/ ٧، وفي سورة الملك/ ٢.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ هو نبيُّهم صالح ﷺ.

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ أي: يُحذِّرُهم من الاعتداء على الناقة التي أرسلَها الله لهم آيةً، ويُذكِّرهم بحقِّها من الشرب؛ حيث كان لها وقتٌ مخصوصٌ لسقياها.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: كذَّبوا تحذيرَه لهم وما توعَّدهم به من العذاب، وهذا تكذيبٌ ثانٍ؛ لأنَّ تكذيبهم الأوَّل كان برسالته ونبوته.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ أي: ضربوها بالسيف ثم نحَرُوها، والذي عقَرَها هو أشقاهم الذي بعَثُوه، ونسب الفعل إليهم جميعًا؛ لأنَّهم كانوا راضِين به، ومُشجِّعين عليه.

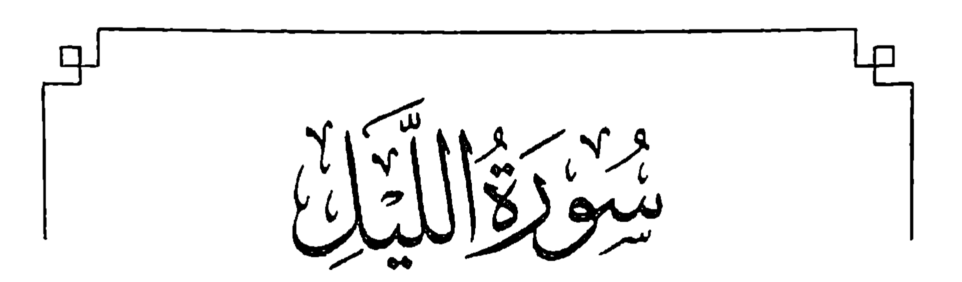
﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ أي: أرسَلَ عليهم الصيحة التي أهلَكَتْهم، والدمدَمَةُ: صوت الدمار، وهو الصوت المُعبِّر عن الغضب أيضًا كالزَّمجَرة، والله أعلم.

﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنبهم؛ فالله ﷻ لا يظلم أحدًا.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: عمَّ أرضهم بعذابه، وجعلها مستويةً خاليةً كأن لم يكن فيها أحدٌ.

﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ بمعنى أنَّ الله لا يخشى عاقبة فعله بهم، وكيف يخشى وهو خالق الخلق، ومالك الملك ﷻ؟

وإنَّما المقصود: إظهار قدرة الله عليهم ومحو أثرهم؛ فلا أحد يسأل عنهم، ولا أحد يسعى بثأرهم، ويحتمل أن يكون ذلك عائدًا على الذي عقَرَها؛ بمعنى أنَّه ما كان يحسِب حساب هذه العاقبة البائسة؛ لأنَّه كان كافرًا بالله مكذِّبًا لنبيه، جاهلًا بالمآلات والعواقب، والله أعلم.



سورة الليل

المجلس السادس والثمانون بعد المائتين: إنَّ سعيَكم لشتَّى

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ (٣) إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ (٤) فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ (١١) إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ (١٣) فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ (١٤) لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى (١٥) ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى (١٧) ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ (١٩) إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ (٢٠) وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ (٢١)﴾

إنَّ سعيَكم لشتَّى

هذه السورة كأنَّها مُكمِّلة للسورة السابقة سورة الشمس؛ حيث تتناول اختلاف الناس في توجُّهاتهم ومشاربهم؛ بين من ظهَرت عليه آثار التزكية، فأعطى واتَّقى وصدَّق بالحسنى، وبين ذلك الذي أشقَى نفسه، فبخِل واستغنَى وكذَّب بالحسنى، ثم تُبيِّن السورة عاقبةَ الفريقَين، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِم الله تعالى في مُستهلِّ هذه السورة بالليل والنهار، وخلقه سبحانه للذَّكر والأنثى ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ (١) وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ وهذا القسَم كأنه تتمّة للقسَم الوارد في سورة الشمس.

ثانيًا: أمَّا جواب القسَم فهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ وهذا الجوابُ كأنَّه أيضًا تتمَة لجواب القَسَم في سورة الشمس؛ فالناس الذين يُزكّون أنفسهم ستكون أعمالهم مختلفة عن أولئك الذين أهمَلوا أنفسهم، واتبعوا شهواتهم ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ (٩) فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ (١٠) وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾.

ثالثًا: يُنذِرُ الله ﷻ أولئك الغافلين المُكذِّبين بسوء العاقبة، مؤكِّدًا لهم أنَّه تعالى وحده الذي يملِك الدنيا والآخرة، فلن يفلِت من عقابه مَن استوجب العقاب، وأنَّه تعالى قد أقام الحجّة

على الناس؛ إذ بيَّن لهم طريق الهدى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾.

رابعًا: يُبشِّرُ الله سبحانه أولئك الأتقِياء الذين زكّوا أنفسهم، فظهَرت آثارُ هذه التزكية في سلوكهم التقيّ، وإنفاقهم السخيّ الذي لا يريدون به إلَّا وجهَه سبحانه ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ يُقسِمُ الله ﷻ بالليل حينما يُغطِّي الأرضَ بسكونه وهدوئه.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ إذا ظهر وبانَت فيه الأشياء، وتحرَّكت به الحياة.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ أي: وخلق الله ﷻ الذَّكر والأنثى، فـ(ما) هنا مصدريّة، تسبك مع ما بعدها فتكون مصدرًا، والإشارة هنا إلى أن تقسِيم الناس إلى ذَكَرٍ وأنثى ليتكامَلَا في وظيفتهما، فلا يستغني الذَّكر عن الأنثى، ولا الأنثى عن الذَّكر، وهذا يُشبِهُ تقسيمَ اليوم إلى ليلٍ ونهارٍ؛ فالليل للسكن والأُنس والراحة، والنهار للعمل والسعي وطلب الرزق، فالحياة كلّها تقوم على التنوُّع وتوزيع المهام، وليس على التماثُل والتشابُه.

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا هو جواب القسَم، وهو محور السورة؛ فاختلاف البشر غايةٌ من غايات هذا الخلق، وهو النتيجة المرتبطة بمقصد الابتلاء والاختبار: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾(1).

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ هذا تفريعٌ عن قوله تعالى المتقدم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ وقد بدأ بذكر الثمرة ثم فرعها ثم أصلها؛ فالتصدُّق ثمرةُ التقوى، والتقوى فرعُ الإيمان، والتصديقُ بالحُسنى معناه: التصديق بوعد الله وثوابه وجنَّته.

(1) تكرَّر هذا النصُّ الكريم مرَّتين في القرآن الكريم: في سورة هود/ ٧، وفي سورة الملك/ ٢

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ هذا تفريعٌ عن قوله تعالى المتقدم: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ وقد بدأ بذكر الثمرة ثم فرعها ثم أصلها؛ فالتصدُّق ثمرةُ التقوى، والتقوى فرعُ الإيمان، والتصديقُ بالحُسنى معناه: التصديق بوعد الله وثوابه وجنَّته.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ أي: نُيسِّر له فعل الخير؛ لأنَّ الحسنة تُثمِر الحسنة وتُؤدِّي إليها، حتى تكون الطاعات كلّها مُيسَّرة له، خفيفة عليه، لا يرى فيها مشقَّة ولا كُلفة، وتلك هي طريقُ الصالحين، وأولياء الله المُتَّقين.

﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ هذا هو الفريق الثاني، وقد بدأ بالثمرة السيئة ثُمَّ بفرعها ثُمَّ بأصلها، فالبخل ثمرةُ الاستغناء عن طلب الثواب، والاكتفاء بمتاع الدنيا، والاستغناء فرعٌ عن الكفر بالله والدار الآخرة، والتكذيبُ بالحسنى أي: التكذيب بوعد الله وثوابه وجنّته.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ أي: نُيسِّره للطريق الصعب؛ فلا يُبصِر نور الدعوة، ولا يتيسَّر له التفكير في مصيره وعاقبة أمره حتى يهلك مع الهالكين، وهذا مثل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وهذا كلّه إنَّما المقصود به: تأكيد سنن الله في الخلق، وليس أنَّ الله تعالى يمنع الهداية عن أحدٍ، بل الإنسان هو الذي يمنعها عن نفسه؛ فمن رغِبَ بالهداية وخطَا خطواته الأولى استبانَ له طريقها، وكلّما تقدَّم استبانَ له الطريق أكثر، ومَن تولَّى عنها وأعرَضَ عن طريقها ضلَّ في تيهِه، وتعسَّر عليه الرجوع إليها.

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي: ذلك المال الذي بخل به واستغنى به عن الله ماذا سينفعه إذا لقِيَ مصيره هناك، وتردَّى في هاوية العذاب؟

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إنَّ علينا تبيين طريق الهدى، وهذا التعهُّد منه سبحانه إنَّما هو بمحض فضله وكرمه.

﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ تأكيدٌ للحقيقة الكبرى: أنَّ الله خالق الدنيا والآخرة، وبيده

مُلكِها، وفيه التعريضُ بذلك الذي استغنَى عن ربِّه، وظنَّ أنَّ ما عنده من مالٍ ومتاعٍ كافِيه ومُغنِيه.

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ هذا تفريعٌ عن الآية السابقة، بمعنى أنَّ الله الذي بيده الدنيا والآخرة هو الذي يُنذِركم عذاب الآخرة وجحيمها، و﴿تَلَظَّىٰ﴾ أي: تستعر وتلتهب، وأصلها: تتلظَّى، وحذف هذه التاء في مثل هذا الفعل شائع في اللغة.

﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ وهو الذي بخِل واستغنى وكذَّب بالحسنى، ثم يسَّره الله للعسرى حتى ورد هذا المورد، والعياذ بالله.

﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ وهو الذي امتدحه الله آنفًا بقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ﴾ والذي يسَّر الله له طريق الهداية، وثبَّته عليها حتى نجَّاه الله في ذلك اليوم مع الناجِين.

﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ تأكيدٌ لأهميَّة الصدقة ودورها في تزكية النفس؛ إذ فيها تخليصها من التعلُّق بالمتاع الزائل، وتطهيرها من البخل والشُّحِّ والطمع، وفيه أيضًا تحسين النيَّة وإخلاص القصد؛ فهو يؤتي لا رياء، ولا سمعة، ولا منَّة على الفقراء، ولا مُباهاة بين الأغنياء.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ﴾ أي: لا يُنفِق ردًّا لجميلٍ أُسدي إليه، أو جزاء لصاحب فضلٍ سابقٍ عليه، والمفسِّرون متّفقون على أنها نزَلَت في أبي بكر الصدّيق ﷺ.

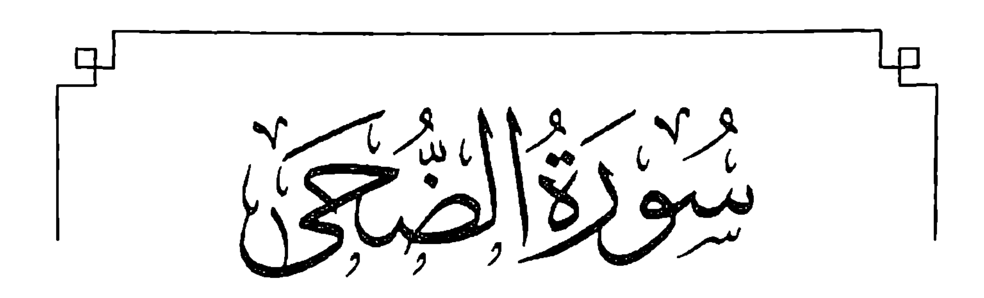
وفي الآية ردٌّ على اتهام المشركين له بأنّه أَعتَقَ بلالًا ليدٍ كانت له عنده، فكافأه بإعتاقه، والآية لا شكّ عامّة في كلّ مُتصدِّقٍ يبتغي وجهَ الله؛ لأنّ العبرة بعموم لفظها لا بخصوص سببها.

وهنا ملحوظةٌ أيضا، وهي أنَّ مكافأة صاحب الفضل ليست عيبًا ولا إثمًا، وليس المقصود بهذا الاحتراز النهي عنها، وإنَّما المقصود الانتباه إلى الفقراء وسدِّ حاجاتهم من غير المنَّة عليهم، ولا انتظار ردِّهم، فهؤلاء قد يغفل عنهم كثيرٌ من الناس، فناسَبَ التنبيه لحالهم، ثُمَّ إنَّ المتصدِّق على هؤلاء يكون أبعَد عن حظوظ النفس بخلاف الصورة الأولى، والله

ثُمَّ إنَّ المتصدِّق على هؤلاء يكون أبعَد عن حظوظ النفس بخلاف الصورة الأولى، والله أعلم.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ فهذه صدقةٌ لا يُبتغَى بها إلَّا وجه الله وطلب رِضاه، وهذه أمارةُ التزكية الصادقة للنفس، واليقين الكامل بالله تعالى وحسن ثوابه.

﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ هذا وَعدُ الله تعالى للصدِّيق ﷺ بأن يُعطِيه ما يُرضيه في الآخرة، وهو وعدٌ كذلك لكلِّ مَن أخَذَ بهذه الصفات، ووَعدُ الله لا يتخلَّف.



المجلس السابع والثمانون بعد المائتين: ولسوف يعطيك ربك فترضى

المجلس
السابع والثمانون بعد المائتين

سُورَةُ الضُّحَى

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾

ولسوف يعطيك ربك فترضى

محور هذه السورة تأكيد عناية الله بنبيِّهِ سيدنا محمد ﷺ وإتمام نعمته عليه باستمرار الوحي، وبلوغ كمالات الرضا، ودحض تخرُّص مُبغِضيه وشانِئيه، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِمُ الله تعالى في مُستهلِّ هذه السورة بالضحى وبالليل إذا سجَى، وهو تأكيدٌ للقسَم المُتكرِّر في السورتين السابقتين: سورة الشمس، وسورة الليل، وتنبيهٌ إلى آيات الله تعالى في هذا الكون وما فيه من تنوُّعٍ وتكامُلٍ ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾.

ثانيًا: أما جواب القسَم ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ فهو ردٌّ على تخرُّص المشركين بانقِطاع الوحي، وتلك مقولةٌ يبدو أنَّها شاعَت عندهم بعد فترة الوحي وتأخّره، فكانت مُناسبة لبيان مكانة رسول الله ﷺ عند ربِّه، وقُربه منه، وحظوَته عنده بالمقام الأسنَى والأسمَى.

ثالثًا: ثم أكّد الله تعالى لنبيِّه وحبيبه ﷺ أنّ مقامه في الدنيا مهما بلَغَ من الشرف والرفعة فإنّ مقامه في الآخرة أرفع وأعلى، فلا زال الله يصطَفيه ويرفعه في درجات الكمال عنده، حتى إذا جاء ذلك اليوم الموعود تجلّى بمقامه المحمود أمام الخلائق أجمعين، وتقدَّم به على كافّة النبيين والمرسلين، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾.

رابعًا: ثم بيَّن الله تعالى اصطفاءه لنبيِّه ﷺ وعنايته به منذ نشأته ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ وفي هذا إتمام الردِّ على أولئك المُتخرِّصين، بمعنى أنَّ الله لم يترُكك في صِباك وشبابك حينما كنت يتيمًا وفقيرًا، وحائرًا في أمرِك وأمرِ قومك، لا تعرِفُ وَحيًا ولا شريعةً، فأغدَقَ الله عليك نعمه، وتولّاك بعنايته، فكيف يترُكك الآن؟

خامسًا: ثم يوجِّهُ الله نبيَّه في ختام هذه السورة العزيزة لتقتَدِي به أُمَّتُه من بعده أن يُحسِن إلى اليتيم وإلى السائل المسكين، وأن يُحدِّث الناس بنعمة الله عليه شُكرًا له سبحانه، وتبليغًا لدينه ودعوته، وإسكاتًا لكلِّ مُفترٍ مُتقوّلٍ ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ أي: إذا أظلَمَ وادلهَمَّ، وهاتان صورتان تُبرِز إحداهما الأخرى: إشراقة الضحى، وعتمة الليل.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما ودَّعك توديعَ مُفارِق، وما جفاك جفاء كارِه.

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ أي: في الآخرة؛ ولذلك كانت الآخرة خيرًا له ﷺ من الدنيا.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ هذا الاستفهام التقريري يُقصَدُ به بيان عناية الله تعالى به ﷺ، فهو الذي آواه رغم يُتمه وربَّاه وكمَّله، والمعهود في اليتيم أنَّه لا يجِدُ مَن يُربّيه ولا مَن يعتَني به فينشَأ على طريقةٍ غير مرضيَّة، لكنَّه ﷺ نشَأ على الخُلُقِ العظيم، وسمَّاه قومُه الصادق الأمين، فهذه آية إيواء الله له وعنايته به منذ نشأته.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ الضلال هنا ليس ذاك الذي هو ضِدُّ الهدى، بل هو الحَيرة ممَّا يرى قومه فيه من الشرك والوثنيَّة، وما يراه في سائر الناس من اضطرابٍ في تصوُّراتهم

الدينيَّة، فكان يُنكِر ذلك بفطرته السليمة وما حباه الله من رعايةٍ وعنايةٍ، لكنَّه لم يكن يعرِف شريعةً، ولا وحيًا، أو كتابًا، فاعتزل قومه حتى هداه الله بهذه الرسالة الشاملة؛ فكان الهادي المهدي ﷺ.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ أي: وجدك فقيرًا، ففتَحَ لك بابًا من الرزق من تجارةِ خديجة ﵂، فأغنَاك عن الحاجةِ لأحدٍ، ولم يكن ﷺ غنيًّا بالمعنى المعروف لا قبل النبوَّة ولا بعدها، وقد وهِمَ من فسّر هذا بالفَيء والغنائِم؛ لأنَّ هذه لم تكُن إلَّا بعد الهجرة وإقامة الدولة، بينما هذه السورة مكِّيَّة ومِن أوائل ما نزل، كما هو بيِّنٌ مِن السياق.

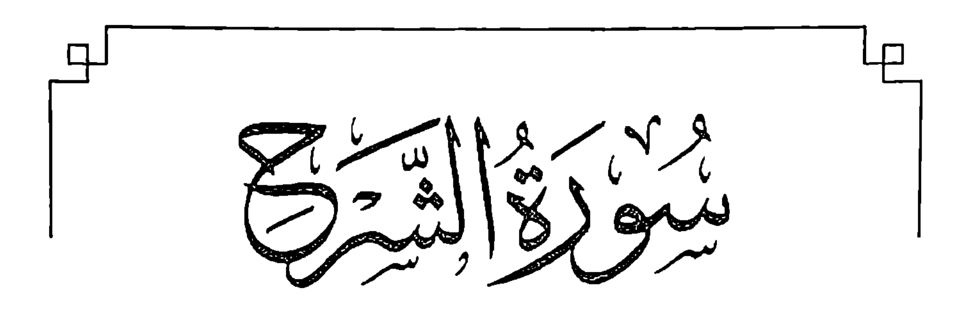
﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ﴾ هذا توجيهٌ عمليٌّ لكلِّ مُسلِم وإن كانت صورة الخطاب له ﷺ؛ إذ هو المُبلِّغ عن الله، ومضمُون هذا التوجيهِ الاحتِياط الشديد في التعامُل مع اليتيم فلا ينبَغِي جرحه ولو بعبارةٍ أو إشارةٍ، ومجيء هذا التوجيه في بدايات العهد المكِّي دليلٌ على أنَّ القرآن ربطَ من بداية نزوله بين المنظومتَين: الإيمانيَّة، والقِيميَّة.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ وهذا توجيهٌ كسابقه، ويُقصَدُ به الاحتياط في التعامل مع المساكين والفقراء، ولو كان المسؤول لا يَملِكُ شيئًا للسائل، فلا أقلّ مِن أن يتلطَّف له بالقول، والأظهرُ أنَّ هذا هو المقصود بالسائل؛ إذ هو المُعرَّض للنهر، أمَّا السائل عن العلم والدين فليس مُعرَّضًا لذاك، والله أعلم.

ويجدُرُ التنبيهُ هنا أنَّ هذا هو أدَبُ المسؤول، أمَّا السائِل فقد ورَدَت بحقِّه آداب تُناسِبه؛ منها قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ﴾ [البقرة: ١٧٣]، أمَّا إذا استشَرت ظاهرة التسوُّل واتُّخِذت مهنة فلا بُدَّ مِن وقفةٍ حازمةٍ تجاهها من الدولة، ومن المجتمع، مع تأكيد ضرورة توفير فُرص العمل، وسدّ حاجة الفقراء بالصدقة، أو من المال العام.

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾ التحدُّثُ بالنعمة يعني: إظهارها وإظهار شُكرِها، فإن كانت النعمة من العلم أو الدين كان إظهارها من الدعوة المطلوبة، وأمَّا الأنبياء ﵈ فنعمتهم إنَّما هي نبوتهم ووحيُ الله لهم؛ ومِن ثَمّ كان إظهارها والتحدُّث بها جزءًا من وظيفتهم.

وهذا التوجيهُ الربَّانيُّ يَدحَضُ ما يَشِيعُ عند بعض الناس اليوم من عدم إظهار نعمةِ الله عليه، فيدَّعِي المرضَ وهو مُعافًى، ويدَّعِي الفقرَ وهو غنيٌّ؛ ظنًّا منه أنَّ هذا يدفَعُ عنه الحسَدَ وشبهه، وهذا وَهْمٌ؛ فالحسَدُ إنَّما يُدفَعُ بالتوكُّل على الله، وفِعلِ الخيرِ مع الناس، والله أعلم.



المجلس الثامن والثمانون بعد المائتين: ورفعنا لك ذكرك



﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ۝٨﴾

ورفعنا لك ذكرك

تكاد تكون هذه السورة مُتمِّمةً لسابقتها، فبعد قول الله تعالى هناك: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ عاد هنا ليقول له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾؛ ولذلك فإنَّ محور السورة لا يختلِف عن سورة الضحى؛ حيث تأكيد عناية الله تعالى بنبيِّه ﷺ، وكما يأتي:

أولًا: في مُستهلِّ السورة، عدَّدَ اللهُ ﷻ نِعَمَهُ على نبيِّه ﷺ بأنْ شَرَحَ صدرَه بنور الوحي، وأزالَ عنه ما كان يُشغِله ويُقلِقُه في أمر هذه الدعوة ومُستقبلها، ثُمَّ رفع ذِكره في العالمين؛ إيذانًا أيضًا برفع منار هذه الدعوة وانتشارها ورسوخها حتى يرِثَ الله الأرض ومَن عليها ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

ثانيًا: ثُمّ بشَّره الله ﷻ بأنّه سيُيسِّر له كلّ عسيرٍ، فلا يعرِض له عُسْرٌ إلّا وأعقبه اليُسر ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ولقد كان له ذلك ﷺ في كلِّ مراحل دعوته المباركة؛ قبل الهجرة، وفي الهجرة، وبعد الهجرة، فما مرَّت به مِحنة إلّا وأعقبَتْها مِنحة، ولا عرَضَ له عُسْرٌ إلّا وأعقَبَه يُسْر، والظنُّ أنَّ هذا لأُمَّته من بعده إنْ هي أخَذَت بهَديِه، وتمسَّكت بسُنَّته.

ثالثًا: ثُمَّ رغَّبَه بالتزوُّد من الطاعات شكرًا له سبحانه، وطلبًا لمزيدِ فضله وعطائه ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾.

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استِفهامٌ تقريريٌّ يُقصَدُ به تأكيد الفعل الواقِع بعده، فيكون بمعنى: لقد شرَحنا لك صدرك، مع إضافة معنى الامتِنان المستوجِب للشكر، وشَرح الصدر معناه: إزالة الضيق عنه بما نوَّره الله به من نور الوحي، وإتمام النعمة برفع الدرجات، وبلوغ الكمالات، وكثرة البشارات.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ يطلق الوِزْر على معنيَين: الثِّقَل، والذنب، والأوَّل أنسَب مع قوله: ﴿وَوَضَعْنَا﴾، وقوله: ﴿الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ أي: أثقَلَه، والمُعتاد اقتِران المغفرة أو العفو مع الذنب وليس الوضع.

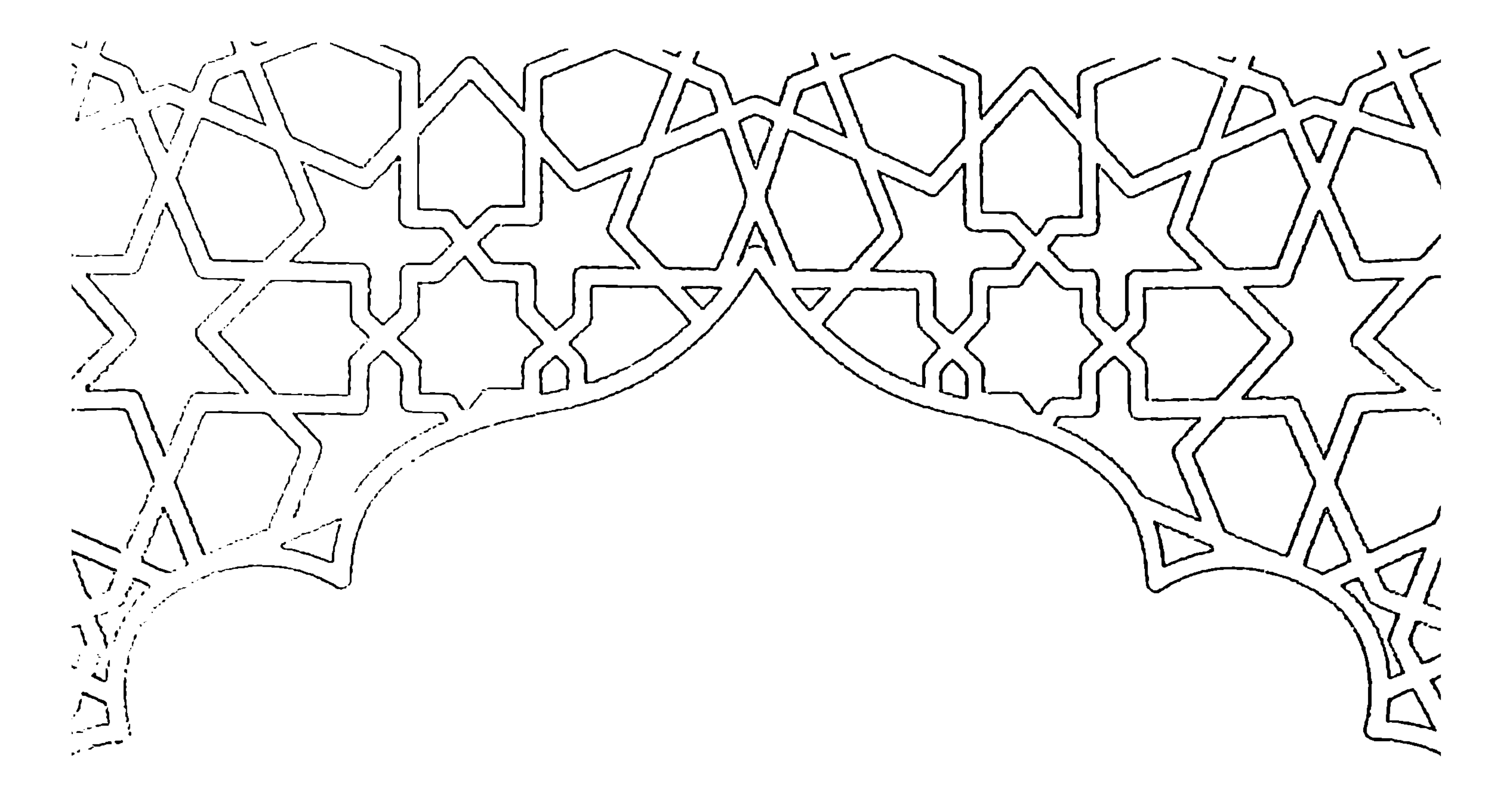
ثُمَّ إنَّه ﷺ لم يُعرَف عنه أنَّه كان مهمومًا كلّ هذا الهمّ بسبب ذنبٍ ارتكبه، بل المعروف اهتمامه بأمر هذا الدين وما يُواجهه من عقَبات؛ ولذلك جاءت البشارة المؤكّدة ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وهذه قرينةٌ ثالثةٌ أنَّ الوِزر الذي كان يثقل ظهره ﷺ إنَّما هو ما يراه من إعراض قومه عنه، ووقوفهم بوجه دعوته، وتعذيبهم لأصحابه، حتى كأنَّ الطُّرُق قد أُقفِلَت كلّها أمامه، فيكون وضع هذا الوِزر بالبشارات المؤكّدة بانتشار هذا الدين والتمكين للمؤمنين، والله أعلم.

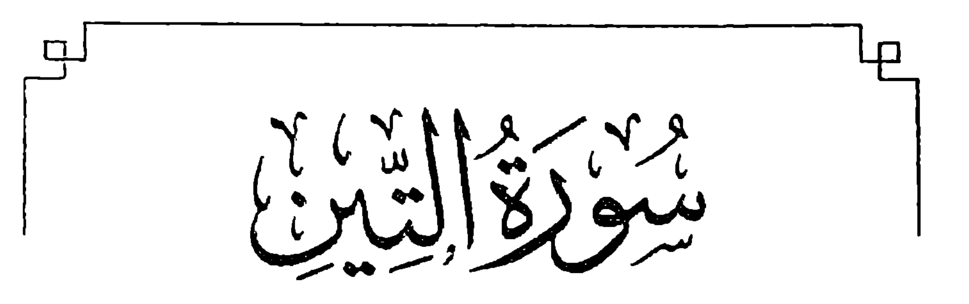
﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في الملأ الأعلى، وفي أرجاء هذه الأرض؛ فلا يُؤذِّن مُؤذِّن إلَّا ذَكَرَ اسمه الشريف مقرونًا باسم ربِّه الكريم، ولا صلَّى مُصلٍّ، أو دعَا داعٍ، أو ذكَرَ ذَاكِرٌ إلا ذكَرَه وصلَّى وسلَّم عليه، فعَليه أفضل الصلاة والسلام، وفي هذا إعلامٌ أيضًا بانتشار هذا الدين وبلوغه أرجاء العالمين.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذا تأكيدٌ لفظيٌّ بتكرار العبارة، ومُفاده تأكيد ورود اليُسر على كلّ عسرٍ.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا أنهيتَ ما كنت مُشتغلًا به، فاشتَغِل بعملٍ آخر؛ فليس عند السائرين إلى الله فراغٌ، فهم في عملٍ دَؤوبٍ ومُسارعةٍ إلى الطاعات لا تفتر.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ أي: ألقِ حاجاتِك كلّها بباب مَولاك، وتوكَّل عليه وحده فيما يهمّك أمره، أو ترجُو نوالَه.





المجلس التاسع والثمانون بعد المائتين: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ (٣) لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤) ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ (٥) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (٦) فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨)﴾

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم

تتناوَل السورة خلقَ الإنسان، والفطرة السليمة التي أنشأه الله عليها، وانسجام هذه الفطرة وصِلتها بالرسالات السماويَّة المُعلِّمة والهادية، ثم بيان حال الناس بين هالِكِين بكفرهم وانتِكاسة فِطرتهم، وبين ناجِين فائزين بإيمانهم وصلاحهم، وسلامة فِطرتهم، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِمُ الله تعالى في مُستهلِّ السورة بثلاثة أماكن مقدَّسة، تُمثِّل مهبط الرسالات السماويَّة، وهي الأرض المباركة في فلسطين؛ أرض التين والزيتون، وطور سِينِين، والبلد الأمين ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾.

ثانيًا: أما المُقسَم عليه فهو هذا الإنسان الذي خلَقَه الله تعالى على الفِطرة السليمة، والعقل المُميِّز، والقوام المعتدل، والصورة الحَسَنة، وهذه هي مُؤهِّلات الاستخلاف والتمكين، والسيادة على هذه الأرض ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

ثالثًا: غير أنَّ هذا الإنسان في كثيرٍ من الأحيان لم ينهَض بمتطلّبات هذا الاستِخلاف، بل انتكَس في فِطرته، وأغلَقَ منافِذَ التفكير والمعرفة في عقله؛ فنزل عن محلِّ الكرامة والسيادة، وارتكَس في حمأة الشهوة الهابِطة ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ أي: بما اقترَفَت يداه وبما جناه هو على نفسه.

رابعًا: ثم يستثنِي الله أولئك الأخيار الذين لم ينتكِسوا كما انتكس الآخرون، بل ثبَتُوا على الجادّة، وعَلَتْ بهم هِمَمُهم إيمانًا وعملًا صالحًا حتى فازوا بالرضا والسعادة الدائمة ﴿إِلَّا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾.

خامسًا: ثم تعودُ السورة في خاتمتها إلى ما استهلَّت به، لتؤكِّد أنَّ رسالات الله التي أنزَلَها على أنبيائه هي الدين الحقّ الذي لا ينبَغِي التكذيب به، ولا الشكّ فيه، وأنّ ما أخبَرَت به من البعث والحساب والجزاء هو الحقّ الذي قامَت الشواهد والأدلّة عليه، وأنّه تعالى هو أحكَم الحاكمين في عدله وإحسانه ﷻ ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعۡدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَحۡكَمِ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ ثمرتان معروفتان، والقسَم بهما محتملٌ لما فيهما من نَفعٍ كبيرٍ للناس، غير أنّ عطفَ المكانَين المقدَّسَين عليهما يُرجِّح أنَّ المقصود منبَتهما في الأرض المباركة التي عاشَ فيها إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وحَكَمَ فيها داود وسليمان، ووُلِدَ فيها عيسى وغيرهم من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام أجمعين، وذِكرُ التينِ والزيتون عنوانًا لتلك الأرض المباركة يُشيرُ إلى ما تتميَّز به تلك الأرض مِن زروعٍ وثمارٍ.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ هو الطور الذي في صحراء سيناء، والذي تلقَّى فيه موسى ﷺ رسالة ربه.

﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ وهو مكّةَ المُشرَّفة، وقد ميَّزها الله بالأمن كما ميَّز الأُولَى بالتين والزيتون.

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ هذا هو جواب القسَم؛ فالإنسان أفضل مخلوقٍ على الأرض من حيث خِلقَته التي جاءت بأحسن تقويمٍ في عقله وجسمه، وروحه وفِطرته؛ وما ذاك إلَّا لأنَّه مُكرَّمٌ عند الله، ومُعَدٌّ ليكون سيَّد هذه الأرض ﴿إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة: ٣٠].

﴿ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ أي: أرجَعناه بعد هذا التفضيل والتكريم إلى السفل والدُّون، وهذا ليس عامًّا في كلِّ الناس، بل هو فيمَن اختارَ بنفسه الانحِطاطَ على العلوِّ، والإهانة على الكرامةِ، والخَبَل على العقل، وليس أدلَّ على هذا مِن أولئك الذين اتَّخذوا من الحجارة آلهة، ومن السحرة والمشعوِذِين ناصِحِين ومعلِّمِين.

وهذا المعنى للآية أولَى من اقتِصاره على الهَرَم الجسدي الذي لا يملِك له الإنسان دَفعًا،

والذي لا علاقة له بالرسالات السماويَّة وهي محلُّ القسَم، ثمّ لا معنَى للاستِثناء الوارِد بعدها، بمعنى أنّ التفسير الجسدي لهذه الآية سيقطعها عن صدر السورة وعن خاتمتها ويُخرِجها من السياق.

ثمّ إنّ وصفَ ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ مُشعِرٌ بالذمّ، ويصعُبُ إطلاقه على كبيرِ السنِّ، وأمَّا نسبة الفعل إلى الله، فهذا جارٍ مجرى السُّنن الإلهيَّة الحاكمة، كقوله: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾[1] فمَن طلَبَ الضلالة ضلَّ، ومَن طلَبَ الهداية هُدِي، ومَن طلَبَ الرفعةَ ارتفع، ومَن طلَبَ المهانةَ هانَ، والله لا يُكرِهُنا على شيءٍ مِن ذلك؛ فالله لا يظلِمُ أحدًا، ولا يُحابِي أحدًا.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ هؤلاء هم المُستَثنُون من تلك الانتِكاسة، وهم أهلُ الهِمَم العالية الذين لم يرتكِسُوا في حمأة الوثنيَّة، ولم يُدنِّسوا أنفسهم بأخلاق الجاهليَّة.

﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوعٍ؛ فهم أهل الكرامة والسعادة الدائمة في الدنيا والآخرة.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ أيها الإنسان بعد أن رأيتَ الآيات الدالَّة على قُدرة الله تعالى ظاهرةً عيانًا.

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ بأحكَمهم في عدله.

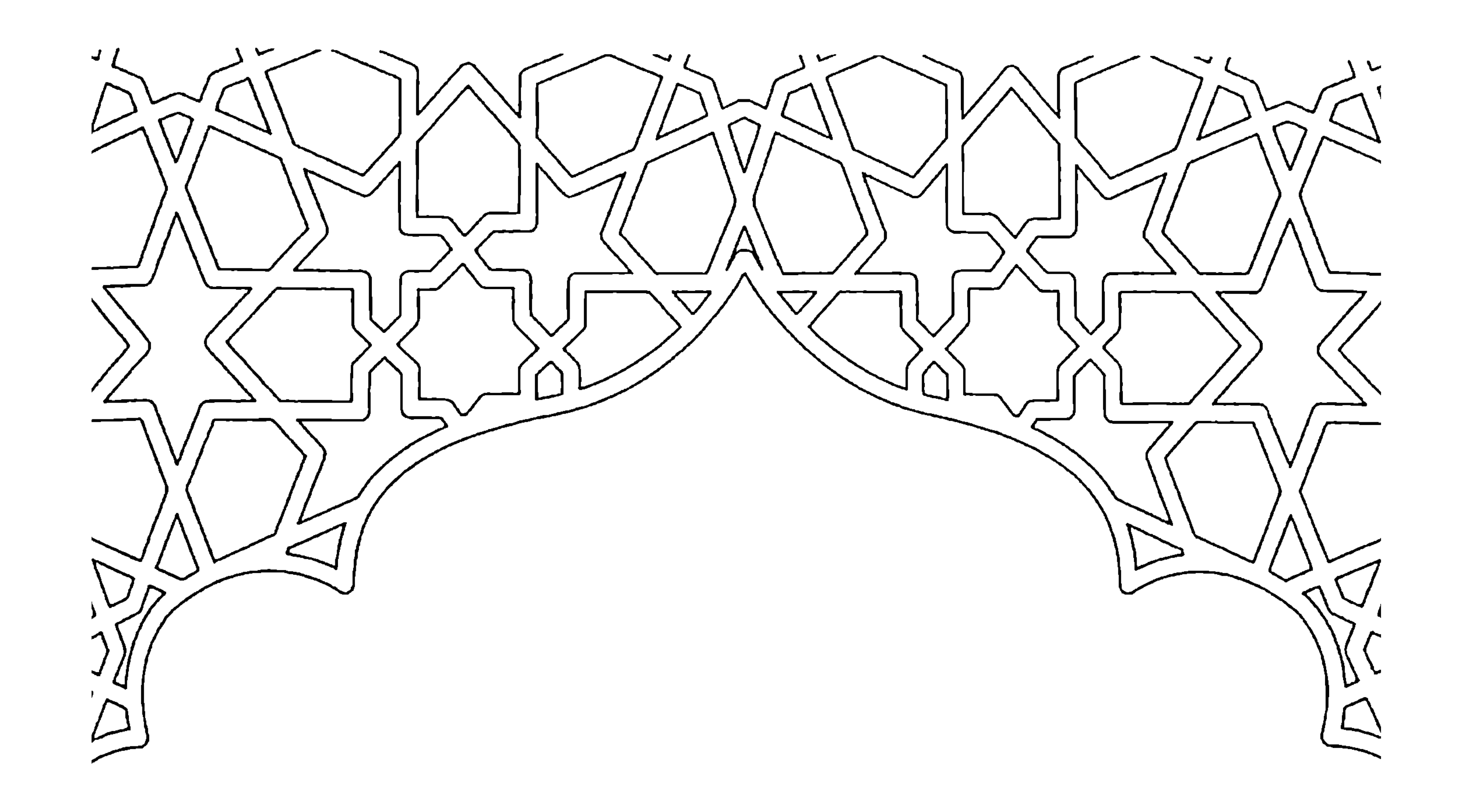
وكان ابن عباس ﷺ إذا قرَأها قال: (سبحانك اللهم وبَلَى)[2]، وروي نحو ذلك في أحاديث ضعيفة عن النبي ﷺ[3].

---

(١) تكرَّر هذا النصُّ الكريم ثلاث مرات في كتاب الله تعالى: في سورة الرعد/ ٢٧، وسورة النحل/ ٩٣، وسورة فاطر/ ٨.

(٢) ينظر: تفسير الطبري «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» (٢٤/ ٥١٦/ مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية – دار هجر، ط. ١، ١٤٢٢– ٢٠٠١م، تح عبد الله بن عبد المحسن التركي).

(٣) من ذلك: حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَ مِنْكُمْ: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى آخِرِهَا: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فَانْتَهَى إِلَى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، فَلْيَقُلْ: بَلَى، وَمَنْ قَرَأَ: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ فَبَلَغَ: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾، فَلْيَقُلْ: آمَنَّا بِاللهِ» رواه أبو داود (١/ ٢٣٤/ دار الفكر، تح محمد محيي الدين عبد الحميد)، والترمذي (٥/ ٤٤٣/ دار إحياء التراث العربي، تح أحمد شاكر)، وأحمد (٢/ ٢٤٩/ المطبعة الميمنية، ط. ١٣١٣هـ، تصحيح محمد الزهري الغمراوي) بإسنادٍ ضعيفٍ.



سورة العلق

المجلس التسعون بعد المائتين: اقرأ باسم ربِّك

المجلس
التسعون بعد المائتين

سُورَةُ العَلَقِ

﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ﴿٩﴾ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

اقرأ باسم ربك

سورة العلق أوَّل سور القرآن نزولًا، وبها بدأَت النبوَّة واستهلّت الرسالة، وأشرَقَت هذه الأرض بنور ربها، وكانت الإشارة الأولى أنّ هذه الرسالة إنّما هي رسالة القراءة والكتابة، رسالة العلم والتعليم، رسالة الهدى والتقَى، لا يَحِيد عنها إلّا هالِك، هذه هي سورة العلق أو سورة (اقرأ)، والتي يمكن أن نُلخِّص معانيها فيما يأتي:

أولًا: استهلّت السورة بفعل الأمر: (اقرأ)؛ للدلالة على أنّ هذه الرسالة رسالة علمٍ وقراءةٍ ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ﴾ ثم تأكَّد هذا المعنى بتكرار فعل القراءة مقرونًا بالعلم، وبأداة تدوين العلم وتوثيقه، وهي القلم ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾.

ويلحظ هنا أيضًا ارتباط الأمر بالقراءة، مع التنويهِ بخَلقِ الإنسان إشارة إلى أنّ هذا الإنسان إنّما يسمُو بالعلم، مع التأكيد أنّ مصدرَ العلم هو نفسه مصدر الخلق؛ فالذي خَلَقَ هو الذي علَّم، وهذا منطِق العقل والفطرة ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، فكما أنّ الخلق كلّه قد صدر عنه سبحانه، فالعلم كذلك، وهل العقل الذي هو وعاء العلم إلّا خَلقٌ مِن خَالِقِهِ سبحانه؟

ثانيًا: ثم ينتقل السياق إلى ذلك الإنسان الذي ينسَى خلقه وأصل نشأته فيطغَى، ويظنُّ أنَّه مُستغنٍ عن خالقه فيأمر وينهى بغير حقٍّ، ويمنع الناس عن ذكر ربِّهم وعبادته، وهو غافلٌ عن آخرته، جاهلٌ بقدرة ربِّه عليه وعلمه به ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾.

والربط بين هذه الآيات وما قبلها يُشير إلى أنَّ الابتعاد عن منهج الله في العلم والتعلُّم يُثمِرُ هذه الثمار السيئة في التعامل مع الخلق؛ حيث يسُود الجهل، ويسُود الطغيان، وهما قرينان لا يفترقان.

ثالثًا: ثم تختتم السورة بتهديدٍ شديدٍ لأولئك الخارجين عن منهج الله، المُعتَدين على خلق الله ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾.

دقائق التفسير

﴿ٱقْرَأْ﴾ أمرٌ بالقراءة، وهي بحقِّ رسول الله ﷺ قراءةٌ من مسموعٍ لا من مكتوبٍ؛ لأنَّه كان ﷺ أميًّا، فهو يتلُو ما يسمعه من جبريل عليه السلام.

﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ فيها وجوهٌ كثيرةٌ تتكامل ولا تتعارض:

منها: ابتداء القراءة بالتسمية، كما هو شأن المسلم في كلِّ شؤونه من أكلٍ وشربٍ، ولبسٍ وذبحٍ وغيرها.

ومنها: استِحضار معيَّة الله ورقابته، أي: استِحضار النيَّة الصالحة والقصد المرضيِّ عند الله، فيقرأ لا رياءً ولا سمعةً، ولا مباهاةً، أو تكسُّبًا.

ومنها: اعتقاد أنَّ الله تعالى هو مصدر العلم، وهو الذي يُعلِّمُنا ما لا نعلم، كما جاء هذا المعنى في قوله الآتي: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: خلق الإنسان من علقة لا تعِي ولا تعلَم شيئًا، ثم علَّمَه ما لم يكن يعلَم، فالله هو مصدر الخلق ومصدر العلم.

﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ أي: اقرأ وأنت تستشعر فضل الله عليك ولطفه وكرمه.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ أي: علَّم الإنسان الكتابة بالقلم، وهيَّأه لإتقان هذه الوسيلة في توثيق معلوماته، ولو فكَّر الإنسان في كفِّه وتوزيع أصابعه عليها وطول كلِّ إصبعٍ، لعلم أنها مهيّأة بالفعل للكتابة ونحوها من أسباب التعلُّم، والأمور الدقيقة في الصناعة والعمران، فلا يوجد مخلوقٌ على الأرض يملِك مثل هذه الأداة، كما أنَّه لا يوجد مخلوقٌ غير الإنسان يمتلِك هذا العقل الذي يستقبل فيه المعلومات ويُحلِّلها، ويحفظها ويبني عليها؛ ولذلك أتمَّ الله هذا المعنى بإطاره الأعمّ فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ بمعنى أنَّ الإنسان يجنَح إلى الطغيان حينما يرى نفسه مُستغنيًا بماله وجاهه وقوته، وهذا من تمام غُروره وجهله؛ فلو فكَّر في خلقه من علقةٍ مهينةٍ، ثم موته الذي لا يملِك له دفعًا، لاعترَف بضعفه وعرف قَدرَ نفسه، وهذا ما دعَا القرآنُ إلى التنبُّهِ له ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ أي: الرجُوع يوم القيامة.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ هذا مظهَرٌ من مظاهر الطغيان؛ أن ينهَى مَن يظنُّ في نفسه القوَّة غيره عن الصلاة، وكأنَّه يُريد أن يستعبِد الناس، وقد جاء الاستفهام لغرض التشنيع على هذا الظُّلم. والذي يظهَر هنا أنَّ هذه الآيات التي تتحدَّث عن الطغيان ومنع الصلاة، جاءت متأخِّرة في النزول عن صَدر السورة؛ لأنَّها تتكلَّم عن موقفٍ من مواقِف قريش في صدِّها عن هذه الدعوة، ولا شكَّ أنَّ هذا إنَّما كان بعد أن ذاعَ خبرُ الدعوة وانتشر بين الناس، والله أعلم.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أي: أرأيتَ لو كان ذلك المُصلِّي على الهُدى وآمرًا بالتقوى – والإشارة هنا إلى رسول الله ﷺ –، أي: كيف يتجرَّأ عليه ذلك الذي ينهَاه عن صلاته، والمقصود أنَّ ذلك الطاغِية لو فكّر مليًّا، لوضع في حسبانه احتمال كَون هذا المُصلِّي

على الحقِّ، وأنَّ ما عنده نافعٌ له، فلماذا يُسارِعُ بالصدِّ والمنع؟

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ أي: أرأيتَ إلى مُسارعته هذه بالتكذيب والإعراض؟ وجوابه مُتضمّنٌ في قوله تعالى الآتي: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ بمعنى أنّه لو آمَنَ بالله، لما كذَّب ذلك التكذيب، ولا طغَى ذلك الطغيان، وهذا الجوابُ فيه توطئة للتهديد الآتي:

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ أي: لئِن لم ينتَهِ عن طغيانه وعدوانه، لنأخُذَنَّ بناصيته أخذًا شديدًا عنيفًا، والناصية: مُقدِّمة الرأس.

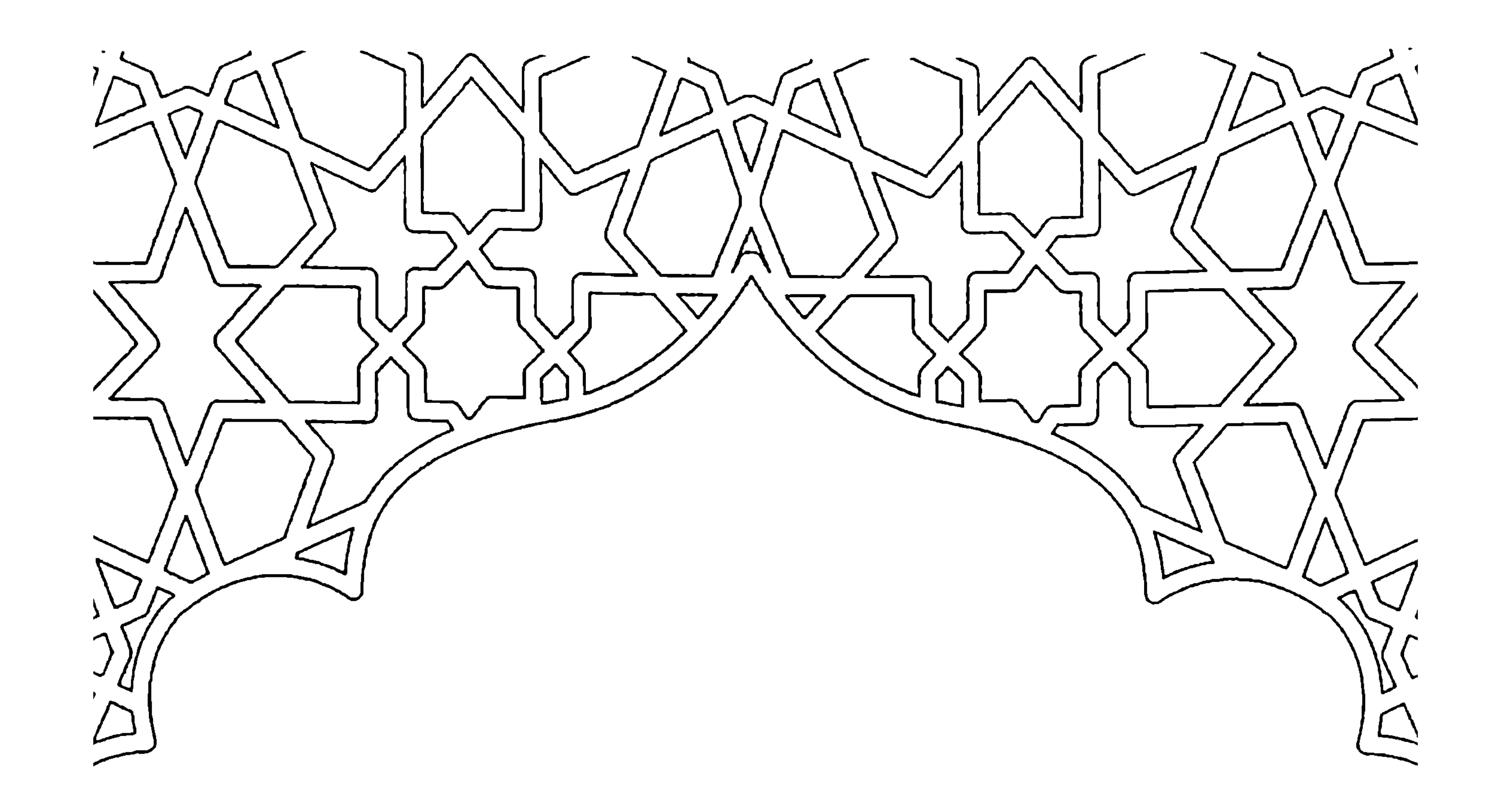
﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أي: كاذِبة في أقوالها، خاطِئة في أفعالها، وعبَّر بالناصية هنا عن ذات الشخص كلّها، ولا يبعُد أن تكون الناصية هي محلّ القرار واتخاذ المواقف؛ حيث ثبَتَ علميًّا أنَّ خلايا المخ موزَّعةٌ إلى مجموعاتٍ؛ كلّ مجموعةٍ مسؤولة عن وظيفةٍ معيّنةٍ، والله أعلم.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي: ليستنصِر بأصحابه وأعوانه، وهذا على سبيل التعجيز والتهكُّم به وبنادِيه، والمقصود بالنادي هنا: نادي قريش الذي كانت تجتمع فيه لبحث شؤونها، وتدبير أمورها.

﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ أي: سنُكلِّفُ به الزَّبانية، وهم ملائكة العذاب، وأصل اللفظة: من الزَّبْن، وهو الدفع بقوّة.

﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ بعد أن نهاه أبو جهل عن الصلاة.

﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾ أي: اسجُد طاعةً وتقرُّبًا لربك، وإرغامًا لأنف عدوّك.



سُورَةُ القَدْرِ

المجلس الحادي والتسعون بعد المائتين: ليلة القدر



﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾

ليلة القدر

سورة القدر سورةٌ فريدةٌ في موضوعها؛ لأنَّها مخصصةٌ لبيان فضل الليلة التي نزل فيها القرآن الكريم، وهي ليلة القدر، ومنها جاء اسمُ هذه السورة، ويمكن تلخيص ما ورد فيها بالآتي:

أولًا: تأكيد أنَّ هذا القرآن قد نزل في هذه الليلة التي أسماها القرآن ليلة القدر ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وهي الليلة المباركة التي ورَدَ ذِكرُها في سورة الدخان: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، ومن المقطوع به أنَّ هذه الليلة هي إحدى ليالي شهر رمضان المبارك؛ لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

ثانيًا: بيان أنَّ هذه الليلة عظيمةٌ عند الله، لا تُشبِهُهَا ولا تُدانِيها ليلة أخرى ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

ثالثًا: ثم تتأكَّد عظمَتها بنزول جبريل ﷺ مع وفدٍ من الملائكة بإذن الله ﷻ ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾.

رابعًا: وتختتم السورة ببيان أنَّها ليلة السلام مِن مَغيب شمسِها حتى طلوع فجرِها ﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: القرآن الكريم، وأتى بالضمير الدالّ عليه؛ تنويهًا على أنّه معلومٌ وحاضرٌ في الذهن، فلا يتبادر إلى الذهن غيره.

﴿فِي لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ سُمِّيت بذلك تعظيمًا لها؛ لأنَّ القَدْر هو المنزلة العظيمة، والمكانة الرفيعة، وكَون القرآن أُنزِل فيها يعني أنّه بدأ نزوله فيها؛ لأنّه من المقطوع به أنَّ القرآن لم ينزِل جملةً واحدةً، بل نزَلَ مُفرَّقًا بحسب الحوادث والنوازل، ومراحل الدعوة المختلفة، ففي هذه الليلة بدأت نبوَّة سيدنا محمد ﷺ، وهذا سرُّ تعظيمها، وهذا أَولَى من قول مَن يقول: إنَّ النزول يعني نزوله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا.

والصحيحُ: أنَّها ليلةٌ مكررةٌ في كلِّ سنةٍ؛ إذ لا معنى لتحرِّيها إلَّا هذا، ولأنَّها ليلةٌ مُحدَّدةٌ بحدثٍ معينٍ، وهو نزول القرآن، فالأرجَح أنَّها ليلةٌ ثابتةٌ مِن ليالي رمضان، وليست مُتنقِّلة في لياليه، وأنّها في عُشرِه الأواخر؛ لورود الأحاديث بذلك، وأمَّا إخفاؤها فذلك لحكمةٍ تربويَّةٍ حتى يتشوَّف الناس لها، ويحتاطون في تحرِّيها، فتعمّ الأعمال الصالحة على مساحةٍ أوسَع من الزمن.

ويُضاف إلى ذلك حِكمة أخرى، وهي أنّ إثبات دخول الشهر لا يكون بوحيٍ من الله، وإنَّما باعتماد رؤية الهلال، وهذه قضيةٌ بشريَّةٌ لا يمكن الجَزم بها، ورُبَّما اختلَفَت باختلاف المطالع، وحالة الصَّحْو أو الغَيْم؛ ولذلك تختلِفُ البلاد فيه، وأمَّا ليلةُ القدر التي هي عند الله فهي ليلةٌ مُحدَّدةٌ، ومِن ثَمّ كان هذا الأمر بتحرِّيها في أكثر من ليلةٍ، والله أعلم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ هذا استفهامٌ يُقصَدُ به تعظيم المُستفهَم عنه، وتشويق السامِع لمعرفة جوابِه.

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ بفضلها ومنزلتها عند الله، وكذلك ببركتها على الأرض من حيث مضاعفة الحسنات، واستجابة الدعوات، ولو لم يكن ذلك، لما كان لتحرِّيها في كلِّ عامٍ مغزى، بل هذه هِبَة المولى الجليل لعباده الموفَّقين لطاعته، وهي تعظيمٌ لهذا القرآن، وتنبيهٌ

للناس أن يعتَنُوا به تلاوةً وتدبُّرًا وعملًا، وهي كذلك إكرامٌ لرسول الله ﷺ؛ لأنّها مبتدأ نُبوَّته، وذكرى اصطفائه على الناس بهذا الوحي وهذه الرسالة العظيمة.

﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم ﴾ هذا مظهرٌ عظيمٌ من مظاهِر تعظيم الله لهذه الليلة المباركة؛ حيث تتنزَّل الملائكة ومعهم جبريل ﷺ من السماء إلى الأرض يُبارِكون المؤمنين ويدعُون لهم، وهذا النزول إنَّما هو بإذنٍ من الله السميع العليم.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ أي: إنَّ نزولَ الملائكة مع ما فيه من تعظيمٍ لذكرى نزول القرآن، واتِّصال الأرض بالسماء، فيه أيضًا تنفيذٌ لأوامر الله العَليَّة التي كتب أن يَقضِيها في هذه الليلة المباركة، والتي قال عنها في سورة الدخان: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ﴾ [الدخان: ٣، ٤].

﴿سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ فالليلة هذه كلّها سلامٌ وخيرٌ وبركةٌ، وقد جاء تأكيدُ هذا المعنى احترازًا؛ لأنَّ الملائكة حينما تنزِل بأمر الله قد يكون نزولها لإهلاك قومٍ وتدميرهم، فكان هذا الاحترِاز أنَّ ليلةَ القدرِ سلامٌ كلها، ولن تنزِل ملائكةُ الله فيها إلَّا بالسلام، والإشارة هنا إلى أنَّ القرآن هو رسالةُ السلام؛ ولذلك كانت ليلة نزوله هي ليلة السلام.



المجلس الثاني والتسعون بعد المائتين: حتى تأتيهم البيِّنة



﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ۝٥ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۝٨﴾

حتى تأتيهم البيِّنة

تتناول هذه السورة موقِفَ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين من هذه الرسالة المباركة، وكيف أنَّها إنَّما جاءت لتبيين الحقّ لهم، وإرشادهم إلى ما فيه صلاحهم، لكنَّهم أضلَّتهم أنفسهم فكفروا بها، فكان عاقبتهم النار، ثم قارَنَت السورة حالَ هؤلاء الكافرين بحال المؤمنين الذين استجابوا لله ولرسوله وعملوا الصالحات، فأدخَلَهم الله في رضوانه، ووعدهم بجنَّاته، وكما يأتي:

أولًا: تذكر السورة حالَ الضلال والتِّيه الذي كان عليه الناس قبل البعثة المحمَّديَّة المباركة؛ إذ كانوا بين مشركٍ عابدٍ لصنمٍ، وبين كتابيٍّ مُتَّبعٍ لأهواء الكهنة والأحبار والرهبان بعد أن زادوا ونقصوا في كتاب ربِّهم، فلم يكن الله ليترُكَهم على هذه الحال، حتى يبعث لهم مَن يُبيِّنُ لهم الحقَّ من الباطل بالحجة الظاهرة، والكتاب المبين الذي لا يأتِيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾.

ثانيًا: ثم ندّدَت السورة بموقِفِ أهل الكتاب خاصّة مِن هذه البعثة المحمّديّة؛ لأنّهم كانوا على علمٍ بها، وكانوا ينتظرون النبيَّ الذي بشَّر به أنبياؤهم، وكانوا يستفتِحُون به على المشركين، لكنهم حينما ظهر في غيرهم أطبَقَ عليهم حسدهم، فكذّبوه وكفروا برسالته، مع أنّه لم يكن يدعوهم إلى شيءٍ يُخالف أصلَ رسالتهم وما دعاهم إليه أنبياؤهم ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾، وهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٨٩].

ثالثًا: ثم بيَّنَت السورة عاقبةَ هؤلاء الذين كفروا بهذه الرسالة وكذّبوا بها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾.

رابعًا: ثم ختمَت ببيان حال أهل الإيمان وما وعدهم الله به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾.

دقائق التفسير

﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ﴾ أي: الرسالة التي تُبيِّنُ لهم الحقَّ من الباطل، وهي رسالةُ المصطفى ﷺ والتي كان يتلوها عليهم ويُبلِّغهم بها

﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ﴾ وهي مطهّرةٌ؛ أي: محفوظةٌ ومصونةٌ من دسّ الداسّين، وتحريف المحرّفين.

﴿فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ أي: في هذه الصحف كُتِبت آيات الله القيّمة التي أنزلها على نبيّه، والقيّمة معناها: العظيمة عند الله بألفاظها ومعانيها، وما حوَتْه من أخبارٍ وتشريعاتٍ تحقّق الخير والعدل والرحمة لهذه البشريّة.

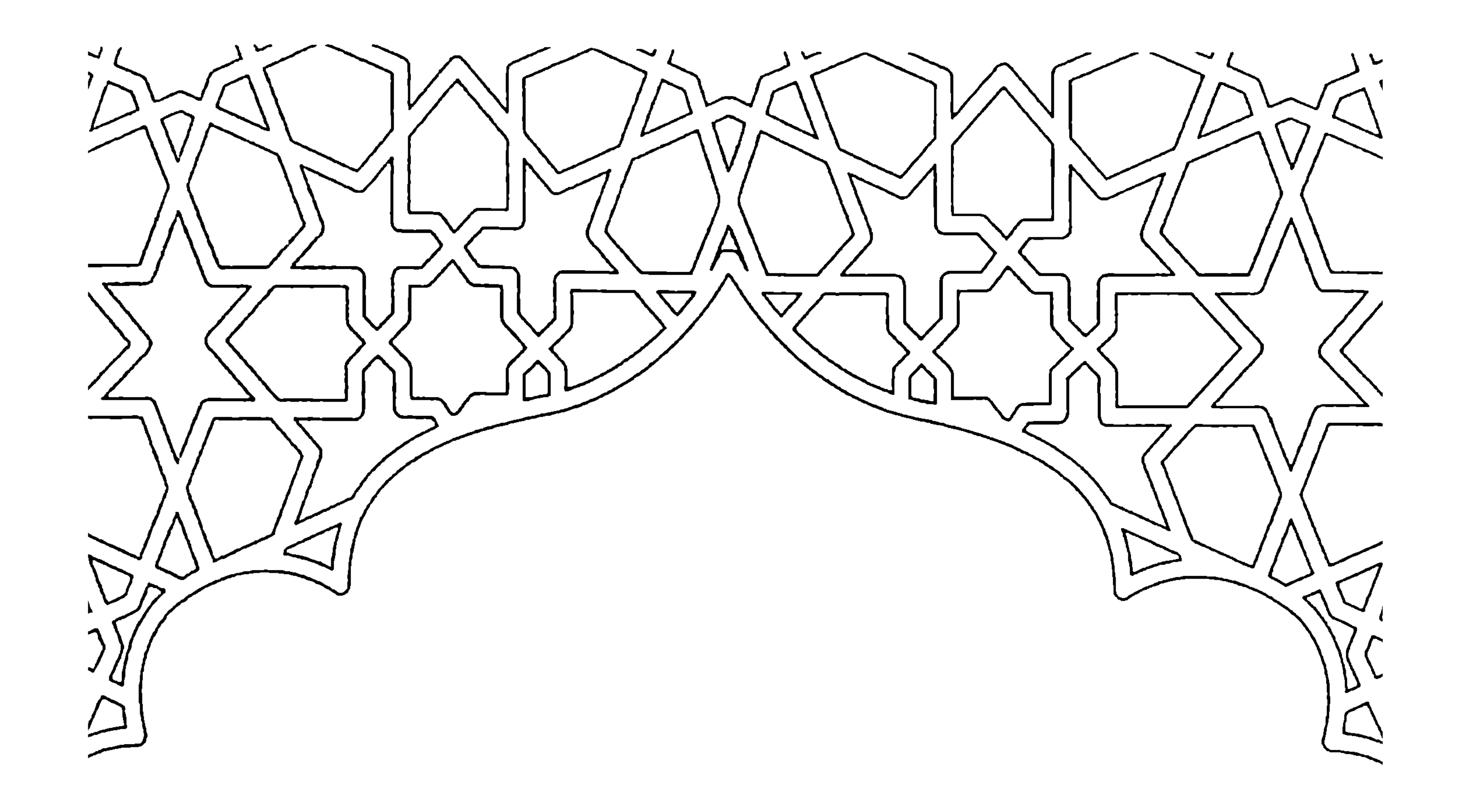
﴿حُنَفَآءَ﴾ جمع حنِيف، وهو: المُتمسِّك بعقيدة التوحيد المفارق للشرك وما يتَّصِل به.

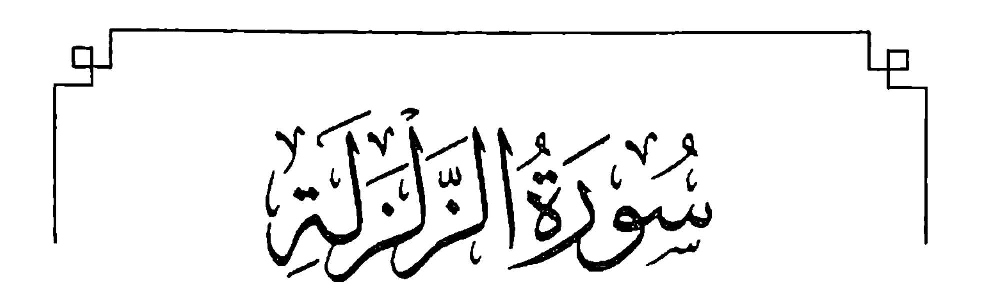
﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ أي: دينُ الشِّرعة والطريقة القيِّمة، أي: العظيمة والمستقيمة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي: شرُّ الناس.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي: خيرُ الناس، وأصلُ البريَّة: البريئة مفعول برَأَ بمعنى: خلق، ومنه اسم الله تعالى البارئ بمعنى الخالق.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ جنَّاتُ إقامةٍ دائمةٍ.





المجلس الثالث والتسعون بعد المائتين: ليُروا أعمالهم

المجلس
الثالث والتسعون بعد المائتين



﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾

ليُروا أعمالهم

موضوع هذه السورة هو اليوم الآخر وما فيه من أهوالٍ وأحوالٍ، وثوابٍ وعقابٍ، ويتلخَّصُ في الآتي:

أولًا: تستهلُّ السورة بذلك الحدث العظيم الذي تُزلزَل فيه الأرض زِلزالًا شديدًا حتى يُخرج كلّ ما في داخلها من مياه ومعادن وغيرها ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾.

ثانيًا: يقِف الإنسان آنئذٍ حائرًا مُتسائِلًا عن هذا الذي يحدُثُ في الأرض ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾.

ثالثًا: تنتقل السورة إلى الغرض الرئيس، وهو إعلام الناس أنَّ كلَّ ما عمِلُوه على الأرض سيُظهِرُه الله، وستشهَد الأرض على ذلك، وسيَرَى الناس أعمالهم هناك محفوظة لهم محصيَّة عليهم ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

رابعًا: آنذاك يكون الجزاء الشامل والعادل؛ فليس من كبيرةٍ أو صغيرةٍ إلَّا كان لها وزنها في ميزان الله ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾.

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ تكرَّر هذا المعنى بألفاظٍ أخرى في القرآن الكريم؛ مثل: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ [الواقعة: ٤]، و﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ [النازعات: ٦]، وكلمة ﴿زِلْزَالَهَا﴾ مفعولٌ مُطلقٌ يُفيد التأكيد، وإضافته إلى الأرض يُفيد اختصاصه بها وتمكُّنه منها.

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ أي: كلّ ما في باطنها، وهذا نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤].

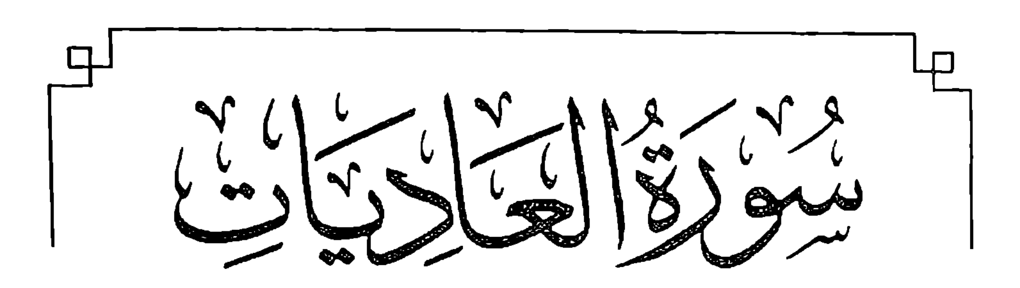
﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا﴾ أي: ما الذي حدَثَ لها؟

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ ذاك يوم الحساب؛ حيث يأمرها الله تعالى أن تشهَد على أهلها بما فعَلُوه على ظهرها.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ أي: ينصرِفون بعد الحَشر مختلفين على حسب أعمالهم؛ فأهل الخير فريقٌ، وأهل الشرِّ فريقٌ.

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ أي: ليرَوا نتائج أعمالهم، ولا يبعُد أنَّهم سيرَون أعمالهم أيضًا؛ فالناس الآن يتداولون التسجيلات المصوَّرة والموثَّقة لبعض أنشطتهم بهذه الأجهزة الحديثة، فما بالُك بذلك اليوم!

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ ذِكرُ مِثقال الذَّرة هنا يعني: دِقَّة التوثيق، ودِقَّة الحساب، ودلالته على عظائم الأعمال وكبائرها أولَى.



المجلس الرابع والتسعون بعد المائتين: إنَّ الإنسان لربِّه لكَنود

سُورَةُ العَادِيَاتِ

﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾

إنَّ الإنسان لربِّه لكنود

تتناول سورة العاديات علاقةَ الإنسان بربِّه، ذلك الإنسان الذي ينعَم بهذا الخير الذي سخَّره الله له، ثم ينسى الله وينسى حسابه، وثوابه وعقابه، وقد مهَّدت السورة لهذا الموضوع بقَسَمٍ مُؤكَّدٍ ومُتسلسلٍ يحمِلُ دلالاتٍ أخرى تتَّصِل بحركة الإنسان وما سخَّره الله له، وكما يأتي:

أولًا: يُقسِمُ الله تعالى في مُستهلِّ هذه السورة بالخَيل التي سخَّرها الله لهذا الإنسان، يُقسِمُ بها، ويُبيِّنُ صفاتها وهي تعدُو وتضرِب الأرض بسنابِكِها وتُثيرُ الغُبار مِن خلفها ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾.

ثانيًا: أمَّا جواب القسَم فكان عن ذلك الإنسان الكَنُود الحريص على المال والمتاع والحطام ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾.

ثالثًا: ثُمّ تختتم السورة بتحذير هذا الإنسان؛ فإنَّ وراءه يومًا سيخرج فيه من قبره، وسيظهر ما كان يُخفِيه في صدره، وسيقِف أمام ربِّه العليم الخبير ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾.

﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ يُقسِمُ الله تعالى بالخيل التي تعدُو سريعًا، فيكون لها في صدرها صوتٌ لتسارُع نفَسِها. وفائدةُ القسَم - مع ما فيه من تأكيد المُقسَم عليه - التنبيه إلى ما في الخَيل من مزايا، وأنَّها من أهم وسائل القتال في ذلك الوقت.

والإشارة إلى هذا المعنى مع أنَّ السورة مكِّيَّة - على الأرجح - يُؤكِّد أنَّ الإعداد النفسي والتربوي للمراحِل القادمة بدأ مُبكِّرًا، على خلاف ما يُظَنُّ أنَّ القرآن المكي لم يكن يتناوَل إلَّا الموضوعات الإيمانيَّة والعقديَّة.

﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ أي: التي تضرب الحصى بحوافرها وهي مُسرِعةٌ في عَدْوِها، فينقدحُ الشرَر منه إشارة إلى قوّتها وشِدَّة عَدْوِها.

﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا﴾ وهذا هو الغالِب في الغارات أن تكون صُبحًا؛ لمباغتة العدو من ناحية، ولإتاحة الوقت الكافي من النهار قبل أن يُقبِلَ الظلامُ فيختلط العدو بالصديق.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا﴾ أي: أثَرْنَ بعَدْوهنَّ الغبار.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ أي: أوصَلن راكبهنَّ إلى وسط المعمَعَة وشدَّة القتال بين الفريقَين.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ هذا هو جواب القسَم، وهو الغرَضُ الرئيسُ من السورة، والكَنود: الكفور الجَحود.

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: يشهَد على نفسه بحالِه ومقالِه؛ لأنَّه مُعلِنٌ لكفره، مُنكِرٌ لنعمةِ الله عليه، مغرورٌ بنفسه وبقوته.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ والخير هنا: المال والمتاع الزائل، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، ومحبَّة المال بذاتها ليسَت نَقصًا، لكن اقترانها بالكفر والبخل والظلم هو الذي يجعَلُها في موقع الذمّ.

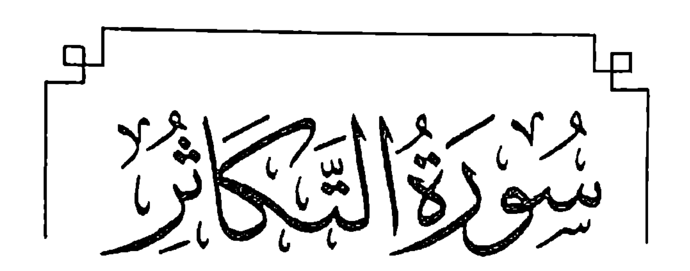
﴿۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي: ألا يعلَم ماذا سيحصُلُ له يوم البَعث؟ حين

يخرُجُ الناس من قبورهم استِعدادًا للحساب، وصورة القبور المُبعثَرة تبعَث في النفس الرعب والهلَع، وهي صورةٌ تدفَعُ الإنسانَ للتفكير في مصيره وعاقبة أمره.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي: كُشِفَ ما كان يُخفِيه في صدره من نوايا وخفايا؛ فليس هناك ما يُكتم أو يُخفى، وفي العبارة تهديدٌ لا يَخفى.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ وهو سبحانه الخبيرُ بهم في ذلك اليوم وفي هذا اليوم، لكنَّ تخصيص يوم الحساب بالذكر؛ لأنَّه يوم المجازاة، فناسَبَ التذكير به والتحذير منه.





المجلس الخامس والتسعون بعد المائتين: وما أدراك ما القارعة

ألهاكم التكاثر



﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾

وما أدراك ما القارعة

سورة القارعة لها موضوعٌ واحدٌ فقط، وهو التذكير بالآخرة وما فيها من أهوالٍ وأحوالٍ، وحسابٍ وجزاءٍ، فتستهلُّ استهلالًا مباشرًا كأنَّه يُنذر بمداهمة الساعة ومجيئها على غفلةٍ من الخلق: ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ وهي هنا مبتدأٌ ينتظر الخبر، فيأتي خبَرُها سؤالًا سريعًا ومفاجِئًا ليزيدها إبهامًا، ويزيد السامع تشويقًا: ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، ثم يتبع السؤالَ سؤالٌ آخر: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾، ثم يأتي الجوابُ وقد شَخصت الأنظار والأسماع لمعرفته: ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾.

هذه هي القارِعة؛ أن تُفتَّت الجبال حتى تصِيرَ هباءً، فما بالُك بما هو دُون الجبال! وبعد هذا الخراب الشامِل، يأتي الحساب على ما قدّمه الإنسان في حياته على هذه الأرض، ويأتي مع الحساب الجزاء ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾.

﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾ اسمٌ من أسماء القيامة؛ سُمِّيَت به لأنَّها تقرَع الناس وتصدمهم بأهوالها وشدائدها.

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ سؤالان قُصِدَ بهما تنبيهُ السامع إلى خطورة الأمر، وأنَّه مِمَّا يستوجِب السؤال عنه والاهتمام به.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ صورةٌ لدهشة الناس وحَيرَتهم، والفَراش: حشراتٌ صغيرة طيَّارة، وقد يُطلَقُ على الجراد أيضًا، والمبْثُوث أي: المنتشر.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ صورةٌ للخراب الذي يعمُّ الأرض؛ بحيث تكون الجبال كالصوف المنفوش المتطايِر الذي لا يستقرُّ في مكان.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بالطاعات والحسنات حتى غلَبَت ورجَحَت على سيئاته.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ أي: عيشة يرضَى عنها، والمقصود بها: الجَنَّة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨﴾ فلم يكن له عمل يرجُوه ويُثقِّل ميزانه؛ إمَّا لكونه مُفرِّطًا في الواجبات مُنهمِكًا في المُنكِرات، وإمَّا لكونه محَبَط العمل بكفره وشركه.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ الهاوية هي ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ وقد الْتَبَسَ على بعضهم معنى ﴿فَأُمُّهُۥ﴾، والأقرب - والله أعلم - أنَّه شبَّهَ النارَ بالنسبة لهذا الشقيِّ بأُمِّه التي تحتضِنُه ولا تَوَدُّ فِراقَه، وهذا على سبيلِ التوبيخِ والتنكيلِ.

المجلس
الخامس والتسعون بعد المائتين



﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾

ألهاكم التكاثر

على صِلةٍ بالقارعة، تأتي سورة التكاثر لتُعالِج حالة الغفلة التي يعيشها الناس في هذه الدنيا بسبب انهماكهم بجمع المال والتنافُس في تكثيره والمباهاة به ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ويُقاس على المال: كلّ متاعٍ دُنيويٍّ؛ من نساءٍ وأولادٍ، وأنصارٍ وأتباعٍ، وجاهٍ وسلطانٍ، ثُمَّ لمّا يَحِين الأجل وينتقل إلى دارٍ ثانيةٍ ليس فيها سوى التراب، آنذاك سيعلَم عِلمَ اليقين أنّه كان غافلًا ومغرورًا، وليتَ مسيرته تنتهي عند ذلك التراب، بل سيصطدم بما هو أشدُّ وأدهَى؛ لأنَّ القبر لم يكن دار مقامة بل طريق زيارة ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، ثم تكون الجحيم داره وقراره، أعاذنا الله منها ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، ثم تعود السورة إلى تحذير هؤلاء المُتكاثرين والمتنافسين ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أي: أشغَلَكم التكاثُرُ والتنافُسُ في جمع المال ونحوه عن ذِكرِ الآخرة والاستِعداد لها.

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ أي: استمرَّ تكاثُرُكم وتنافُسُكم إلى الساعة التي تَحِين فيها آجالُكم، فتنتقلون إلى مقابِركم، وقد شبَّه الذهابَ إلى المقابر بالزيارة؛ لأنَّ المقابر ليست دار مقام، بل هي مرحلة محدودة ثم ينفُذُ منها الناس إلى مقامهم الحقّ؛ في جَنَّةٍ، أو في نارٍ.

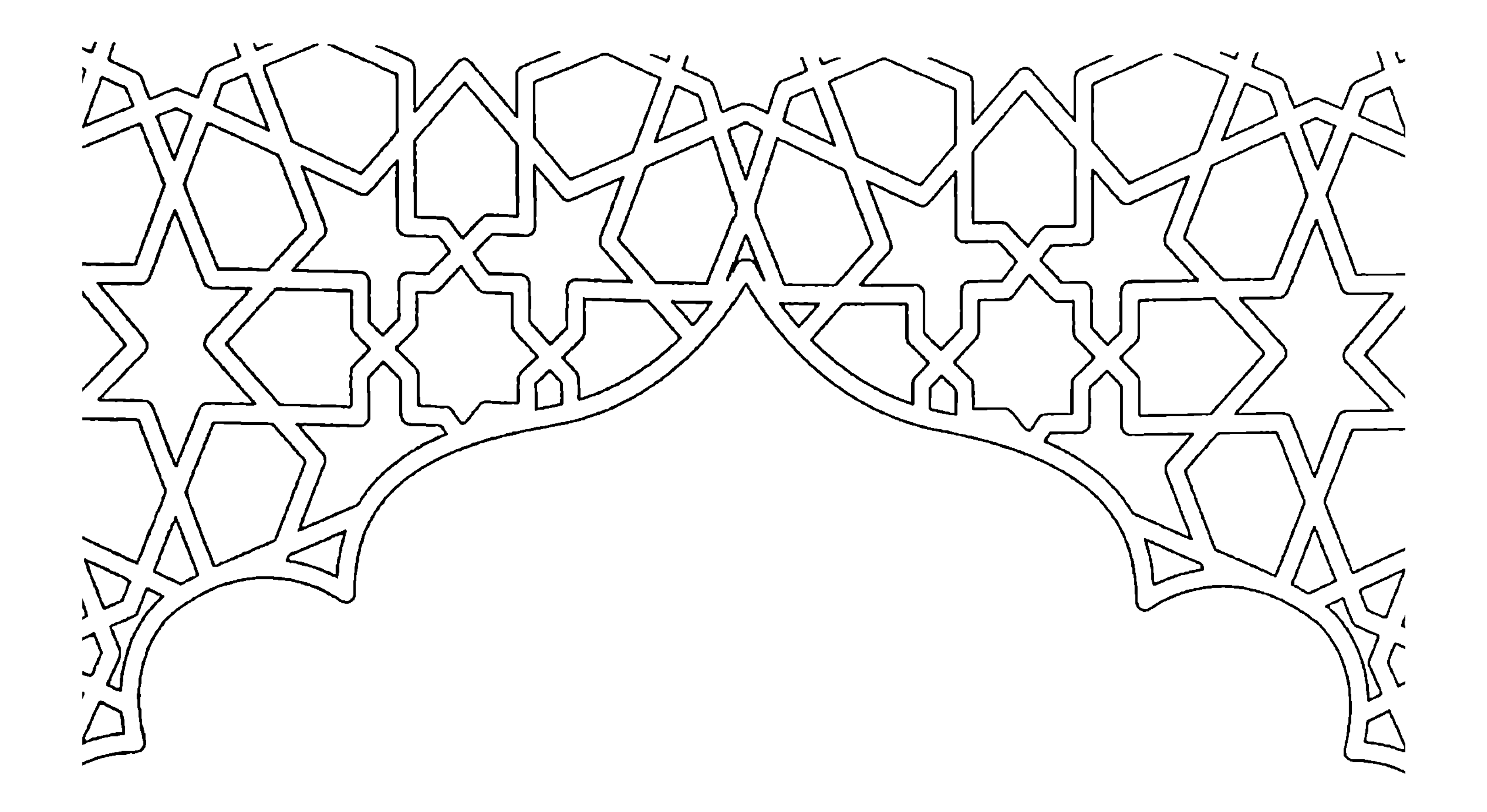
﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تأكيدٌ متكرِّرٌ أنَّ الناس سيعلَمون الحقيقةَ هناك كما هي دون شكٍّ ولا غفلةٍ؛ لأنَّها ستكون مصيرهم ومقرهم.

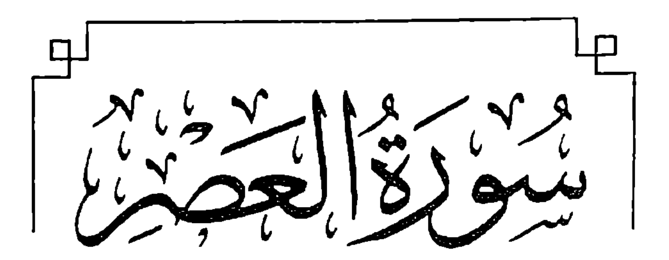
﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا شرطٌ اعتراضيٌّ جِيءَ به دون جوابٍ حتى تذهب الأذهانُ فيه كلّ مذهب؛ مما يزيدُ في حالة القلق والاضطراب المُلجِئ إلى التفكير الجادّ، والبحث عن طريق الخلاص.

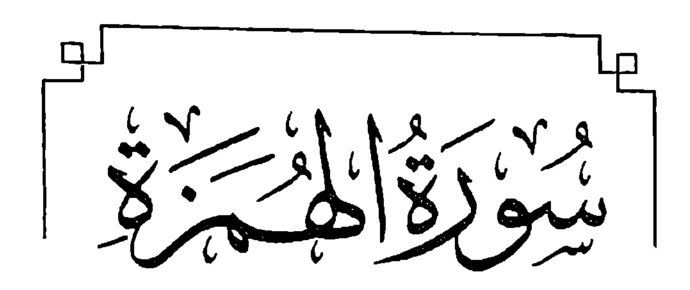
﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ هذا تأكيدٌ ثالِثٌ لقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وهو تأكيدٌ معنويٌّ، وليس جوابًا لِـ ﴿لَوْ﴾؛ لأنَّ الرؤية هي من العِلم الذي هو فِعلُ الشرط، فلا تصحُّ جوابًا له إلَّا بتأويلٍ بعيدٍ.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا تأكيدٌ رابعٌ، وهذه المؤكِّدات لها غاية واحدة، وهي أن تنتزِع هذه القلوبَ من رَقدتها وغفلتها لتنبّهها إلى تلك الحقيقة القادِمة والآتِية في الطريق طالَت الأيَّام والساعات أم قصُرَت.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: لتُسألنَّ ولتُحاسبنَّ عن هذا الذي تكاثَرتُم به وتنافَستُم عليه.







المجلس السادس والتسعون بعد المائتين: شروط النجاة

يحسب أن ماله أخلده

المجلس
السادس والتسعون بعد المائتين



﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾

شروط النجاة

تتناول سورة العصر شروطَ النجاة بعد أن حذَّرت الإنسان من مصيره الخاسر إن لم ينتبِه لنفسه ويَسْعَ بخلاصها، هذا هو موضوع هذه السورة، فهي تستهلُّ بهذا التحذير الشديد: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ثم تضَع شروطَ النجاة كما يأتي:

أولًا: الإيمان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ومعناه: التصديق الجازم بأركان الإيمان المعروفة؛ الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقَدَر خيرِه وشرِّه[1].

ثانيًا: العمل الصالح ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وأقلّه: إبراء الذِّمَّة بفعل الواجبات، وترك المُحرَّمات، ثم فوق ذلك درجات من الترقِّي في سلَّم القُربات والمندوبات، والتحلِّي بأكرم الصفات، والتنزُّه عن الدناءات والمكروهات.

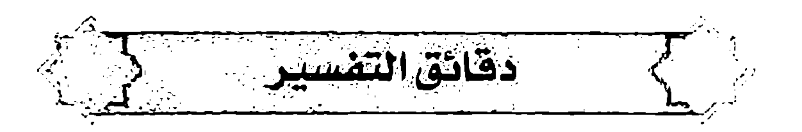
ثالثًا: التواصِي بالحقِّ ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ وأقلُّه: أمرٌ بالمعروف، ونهيٌ عن المنكر بقَدر المستطاع، وتعليمٌ لمن تحت ولايته على الدين وحسن الاتِّباع، وفوق ذلك درجات ترتقي إلى وراثة الوظيفة النبويَّة في العلم وتبليغه، وحلّ مشاكل الحياة في ضوئه، وإرشاد السائرين ودعوة الغافلين.

---

(١) وذلك للحديث المعروف بحديث جبريل ﷺ، وفيه: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ، قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، والحديث رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ، ورواه مسلم عن عمر بن الخطاب ﷺ، واللفظ له، ينظر: صحيح البخاري ١/ ٢٧، وصحيح مسلم ١/ ٢٩.

رابعًا: التواصِي بالصبر ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ وأقلُّه: حمل النفس، ونُصح من يلزَم نُصحه بالصبر على الواجبات، بمعنى: الثبات عليها، والصبر عن المحرَّمات، بمعنى: الابتِعاد عنها وعدم التشوُّف لها، والصبر على المقدُورات، بمعنى: ضبط النفس عن الجَزَع المُفضِي إلى السخط والكفران، ثُمّ فوق ذلك تكون الدرجات العُلا في الصبر على مجاهدة النفس، وتحمُّل محِن الدعوة، وتكلفة الجهاد، وكلّ ما يتَّصِل بالشأن العام؛ من دفع الظلم، وإقامة العدل، فكلّ ذلك بحاجةٍ إلى العزم والصبر.

خامسًا: وقد تضمَّنَت الآيات شرطًا ضمنيًّا، وهو التعاوُنُ والتكاتف والتكافل بين أهل الحقِّ؛ فكلّ الشروط الأربعة جاءت مسندةً إلى واو الجماعة، والجماعة هي الأُمَّة المؤمنة، فلا بُدّ من إعلان الانتماء لها، والعمل معها وفي صالحها، إضافةً إلى أنَّ فعل التواصِي لا يتحقَّق إلَّا بالمشاركة والتفاعل مع الناس، والله أعلم.



دقائق التفسير

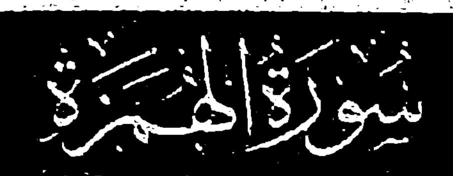
﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ يُقسِمُ الله تعالى بوقت العصر، وهو الوقت المعروف بين انتهاء وقت الظهر إلى غروب الشمس، وهو الوقت الذي يتهيَّأ الناس فيه للانتهاء مِن أعمالهم والتوجُّه إلى سكَنهم وراحَتهم، فهو بين وقت العمل ووقت الخلود إلى النوم، وهو الوقت الأنسَب للزيارات، وتوطيد العلاقات، ومِن ثَمَّ كان مُناسِبًا للتذكير بالتواصِي والتناصُح بالحقِّ وبالصبر.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ هذا جواب القسَم، وقد اجتمع في تأكيد معناه عِدَّة مؤكِّدات: أولها: القَسَمُ، وثانيها: حرف إنّ، وثالثها: (أل) التعريف، وهي للاستغراق؛ بمعنى أنّها تُفيد العموم لكلِّ أفراد الإنسان إلَّا من استَثنَتْهم السورة فيما بعد، ورابعها: حرف اللام في ﴿لَفِي﴾ فهي للتأكيد أيضًا، واجتماع هذه المؤكِّدات تحفيزٌ للعاقل أن يُفكِّر بجدٍّ في مصيره وعاقبة أمره، وسبيل خلاصه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ قدَّم الإيمان؛ لأنَّه الأصل، فلا يتصوَّر العمل الصالح المقبول عند الله من دون إيمانٍ، وأخَّرَ العمل عنه؛ لأنَّه ثمرته، وعَطْفُ العمل على الإيمان يُفيد أنَّ العمل من لوازم الإيمان وثمراته، وليس من أركانه؛ لأنَّ العطف يقتضي المغايَرة، والله أعلم.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾ لأنَّ الإيمان والعمل الصالح مهما بلَغَ إن لم يكن معه عملٌ لنَشره وتعليمه، وتثبيت الناس عليه، فإنَّه سيُحاصَر ويضعُف ويغلبه الباطل.

﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ لأنَّ التواصِي بالحقِّ يُعرِّض المُتواصِين لعداوة أهل الهوى والضلال، فكان لا بُدَّ من التدرُّع بالصبر والتواصِي به أيضًا.



﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾

يحسب أن ماله أخلده

على صِلةٍ بموضع سورة العصر، تأتي هذه السورة لتقدِّم نموذجًا مِن أولئك الخاسرين الهالكين الذين يقِفُون عقبةً بوجه المؤمنين الصالحين المُتواصِين بالحقِّ، والمُتواصِين بالصبر، إنَّه النموذج الذي لا يكُفُّ عن همْزِ المؤمنين ولمزِهم ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾.

من أولئك الذين يظنُّون أنَّ معيار النجاح والنجاة إنَّما هو بجمع المال والحطام الزائل، وتعداده والتفاخُر به ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ أولئك هم الذين يتوعَّدهم الله بعذابه الشديد ﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾.

دقائق التفسير

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ هذا وعيدٌ من الله لكلِّ مَن يُكثِرُ من الهمز، ومعناه: الإشارة الخفيَّة بالانتقاص من الآخرين، وقد نزَلَت في مجموعة من مُشركي مَكَّة كانوا يلمِزُون رسولَ الله ﷺ والمؤمنين به.

﴿لُّمَزَةٍ﴾ أي: كثير اللَّمْز، ومعناه: الانتقاص أيضًا؛ وجِيءَ به لتنويع اللفظ، وترسيخ المعنى، والفرقُ الذي يذكره المختصُّون في دقائق اللغة ليس بمؤثِّرٍ في النتيجة، ولا في المعنى العام.

﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ إحصاءً له، وحرصًا عليه، ومُباهاةً به، وصيغة ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ تُوحي بأنَّه يعدّ ماله مرةً بعد مرةٍ، كناية عن شدَّة ولَعِه به.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ هذا على سبيل التوبيخِ له، بمعنى أنَّ مَن يرَى حِرصَه وكثرة عدِّه لمالِه يظنُّ فيه أنَّه يرَى في ماله سببًا في خلوده وإبعاد الموت عنه.

﴿كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ أي: أنَّه لن يُخلَّد، بل سيموت وسيُلقَى في جهنم، والحُطمةُ اسمٌ من أسمائها؛ لأنَّها تُحطِّمُ كلّ داخلٍ فيها، والتحطيم هنا هو العقوبة المناسبة لتكبُّرِه وهمزِهِ بالمؤمنين ولمزِهِ.

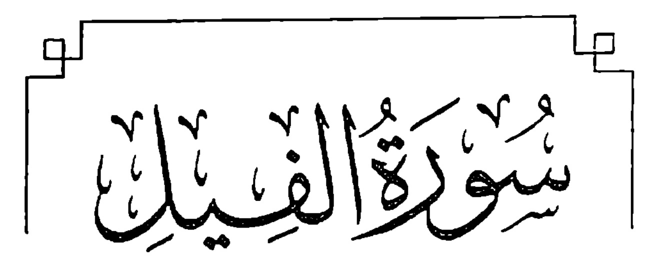
﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ﴾ استفهامٌ يُقصَدُ به تعظيم ما يُستفهَمُ عنه، والتهويل من شأنه وخطره.

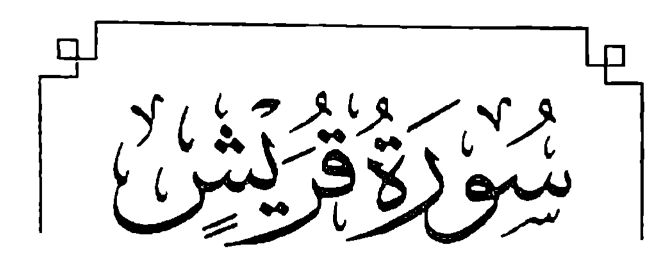
﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ﴾ أي: المُسعَّرة، وهذا هو جوابُ الاستفهام، وهذا هو معنى الحُطمة.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ﴾ بمعنى أنَّ لظاها ينفُذُ إلى أفئدتهم وأجوافهم.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مغلقةٌ فلا مخرَج منها ولا مفرّ.

﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾ والعَمَدُ جمعٌ، مفردُه عَمُود، وهو معروفٌ، وموقِعُها في صورة جهنَّم - أعاذنا الله منها - رُبَّما له علاقة بأبواب جهنَّم وأسوارها المُؤصَدة عليهم، فتكون مُمدَّدة على طول جهنَّم ومُحيطها، ورُبَّما تكون لغَرضٍ آخر لا تتحصَّل لنا صورتُه وغايتُه، لكن الإخبار به يزيدُ من حالة الرَّهبة، وهذا هو المقصُود؛ إذ الغايةُ الكبرى لهذه الأخبار إنَّما هو الترهيبُ منها، ودفعُ الناس للنَّأْي بأنفسهم عن أسبابها وطُرُقها، والله أعلم.





المجلس السابع والتسعون بعد المائتين: أصحاب الفيل

أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف

المجلس
السابع والتسعون بعد المائتين

سُورَةُ الفِيلِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ﴿٢﴾ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ﴿٥﴾﴾

أصحاب الفيل

تتناول هذه السورة حدثًا عظيمًا وقع قبل البعثة المحمّديَّة؛ يتلخَّص في أنَّ أبرهة الحبشي كان قصد الكعبة المشرفة بجيشٍ كبيرٍ، بقصد هدمها وتحويل العرب عنها إلى دارٍ أخرى بناها ليجمع العرب حوله، ويفرض عليهم سلطانه، ولم يكن في قريش وقبائل العرب مَن يَقوَى على صدِّه ومَنعِه، فتولَّى الله أمرَ حماية بيته الحرام، فنزَلَت هذه السورة تُذكِّر النَّاس بذلك الحَدَث العظيم، وآياته الدالَّة على وحدانيَّة الخالق وعظمته وقدرته ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ﴾.

وكان مِمَّا سلَّطه الله على جيش أبرهة طيورٌ رَمَت جُندَه بحجارةٍ مخصوصةٍ حتى أهلكَتْهم عن آخرهم ﴿وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾.

لقد جاء التذكيرُ بهذا الحَدَث؛ تنبيهًا لعقول أهل مكَّة أنَّ أصنامهم هذه التي يعبدونها من دون الله لم تكن لتدفع عنهم عدوان أبرهة وفِيله وجنده، وأنَّ الله الذي حَمَى بيته الحرام قادرٌ على أن يحمي دينَهُ ونبيَّهُ وعبادَهُ المؤمنين، وفيه أيضًا تأكيد ارتباط هذه الأُمَّة المحمّديَّة بهذه البقعة المباركة؛ فهي جزءٌ من هويَّتهم وعقيدتهم، وشعائرِ دينِهم.

ويلحظ هنا أيضًا أن تعليق القرآن على هذا الحدث قد خَلَا من الإشارة إلى أنَّ الكعبة في ذلك الوقت كانت تعُجُّ بالأصنام، وفي هذا تعليمٌ للأُمَّة بطريق الإشارة أنَّ دفع العدو الصائِل الذي يُريد مسحَ معالم الأرض وتغيير هويتها مُقدَّمٌ على معالجة الأمور الداخلية مهما كان خطرها؛ فالحفاظ على الأرض والناس ضرورةٌ حتى تأتي الفرصة المناسبة للإصلاح، وهكذا كان أمر مكَّة، فالله حماها رغم ما فيها من أصنامٍ وجاهليَّةٍ جَهلاء حتى جاء وقت البعثة المُحمَّديَّة.

ويُشبِهُ هذا: موقف هارون مع بني إسرائيل لما عبَدُوا العِجْل، فلم يُفارقهم، وحينما عاتَبه أخوه موسى ﷺ ردَّ عليه بقوله: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: ٩٤]، بمعنى أنَّه أراد الحفاظ عليهم حتى يرجِع إليهم موسى؛ فهو الأقدَر على إصلاحهم، وقد سكَتَ موسى، وأقرَّ الله هارُون على حكمته هذه، وهذا درسٌ دقيقٌ ونفيسٌ في إدارة المجتمعات، وترتيب الأولويات، وربط الغايات بالمقدِّمات، والله أعلم.

دقائق التفسير

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ الاستِفهام هنا تقريريٌّ لتواتر القصّة ومعرفة أهل مكَّة بها مَن حضر ومَن لم يحضر، فنزَلَ ذلك العِلم منزلة الرؤية، وأصحابُ الفيل: هم جيش أبرهة الحبشي، واستعمال الفيل في القتال لم تعهَده العرب، بل هو من صَنيع الفرس والأحباش؛ ولذلك اشتَهرَت الوقعة باسم الفيل.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في ضلالٍ وضياعٍ، رغم كثرتهم، وقوَّة جيشهم، واستِسلام العرب لهم.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ كلمة طير تُطلَقُ على المفرد، وعلى الجمع، والمقصود بها هنا الجمع، والأبابيل اسم جمعٍ لا مفرد له، وهو بمعنى: جماعات، والأصل فيها أنَّها طيور على الحقيقة، ومن تأوَّلَها بالأمراض والجراثيم فقد أغرَبَ وتكلَّف التأويلَ بلا مسوِّغٍ إلَّا

الاستِبعاد، والاستبعاد لا محلّ له هنا؛ لأنَّ المقام مقام بيان آيات الله وإعجازه لخلقه، وقدرةُ الله لا يحدُّها حدٌّ ولا سدٌّ.

﴿تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ﴾ مخصَّصة لهم، وقد وردَ ذِكر هذه الحجارة في قصة لوطٍ ﷺ: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود: ٨٢]، فدلَّ أنَّها من الحجارة المُعدَّة لإهلاك المُفسِدين، والله أعلم.

﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ أي: كبقايا الزرع الذي داسَتْه الدوابُّ وأكَلَتْه حتى ترَكَتْه مُهشَّمًا مُبَعثَرًا، وهي صورةٌ لجيش أبرهة بعد أن أهلَكَتْه هذه الحجارة، والله أعلم.

المجلس
السابع والتسعون بعد المائتين

سورة قريش

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾

أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف

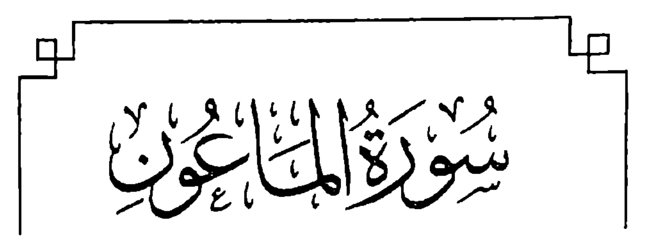
على صِلةٍ بسورة الفيل والحديث عن مكَّة وأمنها وحمايتها، تأتي هذه السورة لتُذكِّر قريشًا بنعمة الله عليهم في أمنهم، وفي أسباب رزقهم، فبعد هلاك أبرهة وجيشه، زادَت هيبةُ البيت في نفوس العرب، وزاد تعظيمُهم له، وأصبَحَت قريش آمنة في إقامتها، وفي ظعنها، وطرق تجاراتها لا يتعرَّضُ لهم أحدٌ، ولا يُنافِسُهم أحدٌ، وقد ذكَّرهم القرآن بكلِّ هذا ليشكُرُوا اللهَ على نعمائه، وليعبدوه وحده دون شريكٍ أو وسيطٍ ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾.

ويلحظ هنا ربط القرآن بين الأمن وبين الغذاء، وهذه معادلةٌ علميَّةٌ دقيقةٌ يُشير إليها القرآن الكريم لضمان استقرار المجتمع؛ فالشعوب الجائعة التي لا تقدِرُ على سدِّ حاجاتها الضروريَّة تكون مؤهَّلة للفوضى، وانتشار الجريمة، وشيوع الرشوات والسرقات، والمجتمع المضطرب والفوضوي لا يمكن أن يُنتِج ما يسدُّ به حاجةَ أفراده، وهكذا يُغذِّي الجوعُ الخوفَ، ويُغذِّي الخوفُ الجوعَ.

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ﴾ أي: لما تألَفُه قريش في شأن تجارتها من رحلةٍ في كلِّ شتاءٍ إلى اليمن، وأخرى في كلِّ صيفٍ إلى الشام، وعدَّ كثيرٌ من المفسِّرين اللام التي في صدر السورة لام تعليل مُتعلّقة بقصة الفيل، أي: أنّ الله أهلَكَ جيش الاستِبعاد، والاستبعاد لا محلّ له هنا؛ لأنَّ المقام مقام بيان آيات الله وإعجازه لخلقه، وقدرةُ الله لا يحدُّها حدٌّ ولا سدٌّ.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ مخصَّصة لهم، وقد وردَ ذِكر هذه الحجارة في قصة لوطٍ ﷺ: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]، فدلَّ أنَّها من الحجارة المُعدَّة لإهلاك المُفسِدين، والله أعلم.

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي: كبقايا الزرع الذي داسَتْه الدوابُّ وأكَلَتْه حتى ترَكَتْه مُهشَّمًا مُبَعثَرًا، وهي صورةٌ لجيش أبرهة بعد أن أهلَكَتْه هذه الحجارة، والله أعلم.



سورة الكوثر

المجلس الثامن والتسعون بعد المائتين: علاقة الدين بالأخلاق

فصلِّ لربِّك وانحَر

سُورَةُ المَاعُون

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾

علاقة الدين بالأخلاق

تتناول هذه السورة طرفًا من القيم الدينيَّة والأخلاقيَّة؛ لتأكيد صلة الدين الحقّ بالأخلاق الفاضلة، وقد جاء هذا أوّلًا في سياق تنديد القرآن بسلوك المشركين وطريقة تعاملهم مع الضعفاء والمساكين: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾؛ حيث جعل كفرهم بالدين وبعقيدة البعث والجزاء سببًا فيما هم عليه من قسوةٍ وفظاظةٍ، وسوءِ خُلُقٍ.

وعليه فإنَّ المؤمن الصادق الإيمان لا بُدّ أن يُقبِلَ على الطاعات، وكلِّ وجوه الخيرِ والبرِّ، ولأنَّ هذا المفهوم هو المُتبادر إلى الذهن، استدرك القرآنُ استدراكًا دقيقًا مُنبِّهًا إلى أنّه ليس كلُّ مَن يدَّعي الإيمان صادقًا في دعواه، وليس كلّ مَن يُصلِّي تُنتظر منه هذه الأخلاق الحميدة؛ فهناك أقوامٌ اتّخذوا الدين مراءاةً ومباهاةً، فهؤلاء لا تختلف أخلاقهم في النتيجة عن أولئك المشركين، بل هؤلاء جريمتهم أشنع؛ لأنّهم جمَعُوا إلى سوء أخلاقهم أن شوَّهوا دينَ الله، وأساءُوا إلى الصلاة والمُصلِّين ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ هو الذي يُكذِّب بالبعث وما فيه من حسابٍ وجزاءٍ، وهو تكذيبٌ بالدين كلّه؛ لأنَّ مَن كذَّب بالآخرة فقد كذَّب بالإسلام كلّه، وجملة ﴿أَرَءَيْتَ ﴾ استفهامٌ يُقصَدُ به تنبيه السامع إلى أهميَّة ما بعده، وتشويقه لمعرفته.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ أي: يدفعه بقوةٍ وشِدَّةٍ.

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ أي: لا يحضُّ غيره، ومن باب أَولَى أنَّه لا يطعم هو، وكونه لا يحضُّ فيه إشارةٌ أنَّه يأنَفُ من ذلك على وجه التكبُّر، فيعدُّ الاهتمام بالضعفاء والمساكين مما لا يَلِيق به؛ لأنَّه يُقلِّلُ مِن شأنه، وهذه صفةٌ موجودةٌ عند كثيرٍ من أمثال هؤلاء، فتراه يُبذِّر مالَه يمينًا وشمالًا، فإذا دُعِي إلى اليتيم والمسكين أعرَضَ واستكبَر.

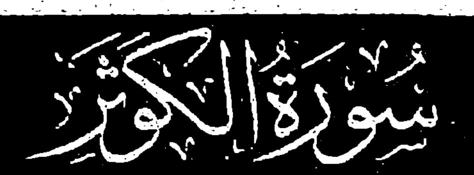
﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ هذا صِنفٌ آخر، يُثبِتُ القرآنُ لهم أنَّهم يُصلُّون، لكن صلاتهم هذه لا يقصدون بها وجه الله؛ إنَّما يراءُون بها الناس، وبالتالي فهم ساهُون عن حقيقة الصلاة، غافلون عن غايتها، وذلك قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ فتشابَهَت أفعالهم مع أفعال المشركين.

وقد وهمَ مَن ظَنَّ أنَّ المقصود بهؤلاء هم المشركون، بدعوَى أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ يعني أنَّهم تاركون لها لكفرهم وعدم إيمانهم؛ فالسهو عن الصلاة لا يعني نفيها جُملةً، ولو كان كذلك لعادَ على وصفهم الأوَّل بالإبطال؛ إذ قال فيهم: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾ ثُمّ إنَّ تأويل المُصلِّين هنا بالمشركين مُستبعدٌ غاية الاستبعاد، ومُستغربٌ غاية الغرابة.

كما أنّه لا يصحُّ أن يكون المقصود بهم أهل الإيمان مِمَّن يحصُلُ لهم السهو الذي لا يتنزَّه عنه في العادة أيُّ مكلّف، ولو قصد هذا المعنى لقال: (في صلاتهم)، فتحصَّل مِن كلِّ هذا أنَّ

القرآن يتكلَّم عن صنفٍ آخر يُصلُّون مع المصلين، لكنَّهم مُهمِلون لصلاتهم ولا يعتَنُون بها في خلواتهم، ولا يسعَون لتحقيق غاياتها في حياتهم.

وقوله: ﴿ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ ﴾ أي: يمنَعُون المعونةَ عن المحتاج إليها؛ لشدَّة بُخلهم، وابتعادهم عن طريق الخير.



﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

فصلِّ لربِّك وانحَر

هذه السورة ترتبط بما قبلها؛ من حيث تأكيد الصلة بين الدين والأخلاق ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ فالصلاة لله وهي عبادةٌ خالصةٌ له، والنحرُ عبادةٌ أيضًا، لكنها مرتبطةٌ بمساعدة الآخرين، وتقديم الخير لهم، فالمُصلِّي الحقّ هو مَن يحرِص على إعانة الآخرين ومحبّة الخير في كلِّ وجهٍ.

وفي السورة ميزة استهلَّت بها تنبيهًا لأهميتها؛ لأنَّها تخصُّ الحبيبَ المصطفى ﷺ، وهي إكرامُ الله له بالكوثر ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾، وفي مُقابل هذا الاستهلال جاء الختام إكرامًا له ﷺ أيضًا، وحمايةً لمقامه الشريف، وإرغامًا لمُبغِضِه ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

دقائق التفسير

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ هو نهرٌ في الجنّة خصَّ الله به نبيَّهُ ومُصطفاه ﷺ، واسمه يُوحِي بالخير العميم، والفضل المُستديم.

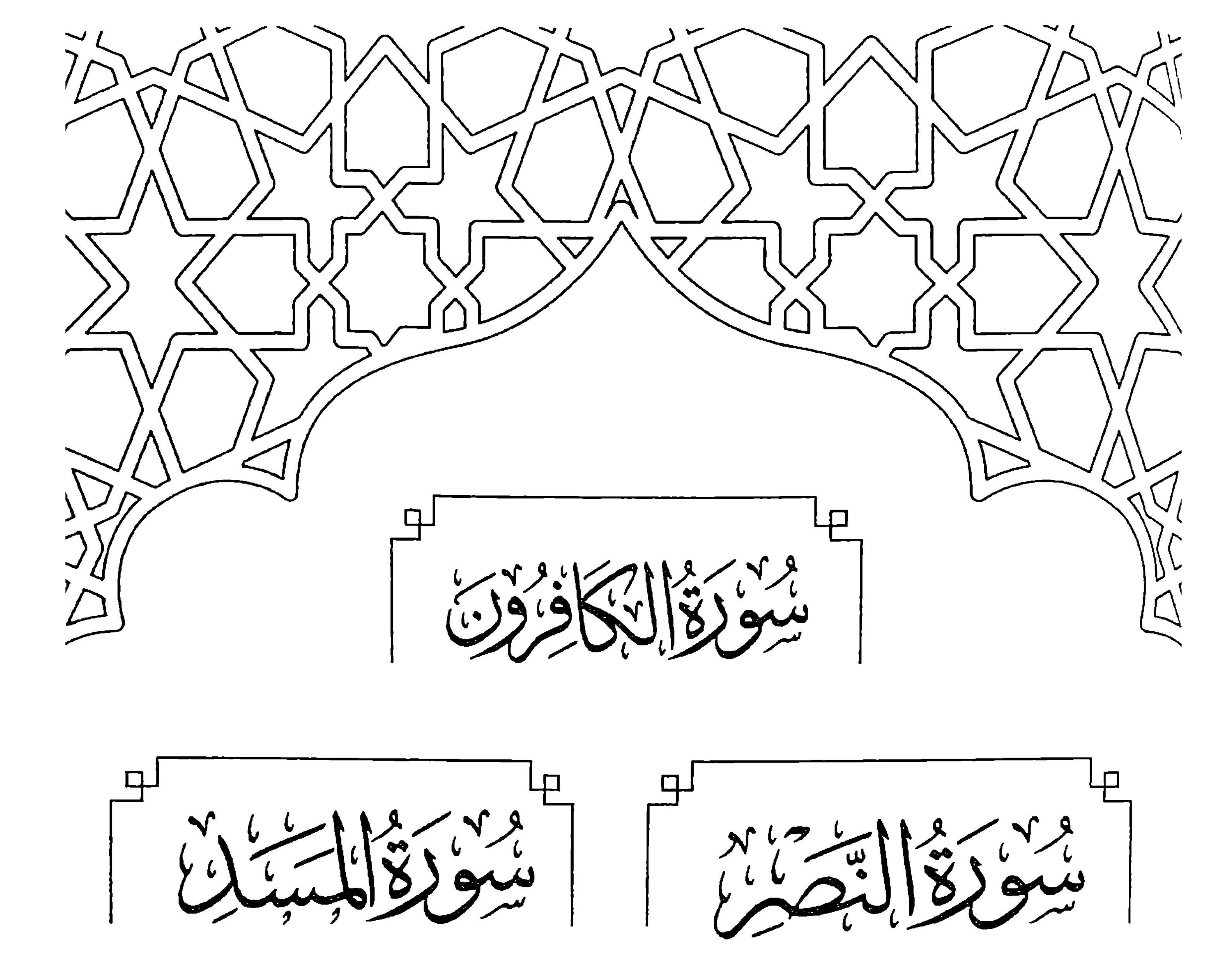
﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي: أقِم الصلاة شُكرًا لله على ما حَبَاك به من الاصطفاء والإكرام، وفيه إشارةٌ إلى المبادرة بالطاعة إزاءَ كلِّ نعمةٍ، فذلك مِن شكرها، وهذه نفيسةٌ تربويَّةٌ لكلِّ مسلمٍ، وبالشكر تزيدُ النعم وتدُوم.

﴿وَٱنْحَرْ﴾ أمرٌ بنحر الأضاحي، وهي من الشكر أيضًا، وفيها تعزيزُ روح التكافل والتعاون بين أفراد المجتمع المسلم، وإشاعة المحبَّةِ والودِّ فيما بينهم.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: عدوك ومُبغِضك.

﴿هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ﴾ أي: المقطوع عن الخير، والمحروم من البركة في دنياه وأخراه.

وفيه إشارةٌ هنا إلى أنَّ فعل الخير وشُكر الله على نعمه يُقرِّب المؤمنين من النصر، ويدفع عنهم شرَّ عدوهم.



المجلس التاسع والتسعون بعد المائتين: لكم دينكم ولي دين

نهاية الصراع مع قريش

تبَّت يدا أبي لهَب

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾

لكم دينكم ولي دين

موضوعُ هذه السورة هو إعلان المفاصلة مع الكفر، والتمايز بين طريق الحقِّ وطريق الباطل، ولقد كان هذا في بداية الدعوة المكِّيَّة وبعد محاولاتٍ من زعماء مكَّة لاستِرضاء النبيِّ محمد ﷺ أن يعبُد آلهتهم يومًا، ويعبُدوا إلهه يومًا، ورُبَّما كان هذا خِداعًا منهم واستدراجًا لإبطال نبوَّته أمام الناس لو ساوَمَهم على ذلك، وأيًّا ما كانت نواياهم، فإنَّ هذه السورة تُؤسِّسُ لمبدأ عظيم، وهو أنَّ المساومة على الدين مرفوضةٌ مهما كان ضعفُ المسلمين وقِلَّة عددهم وحِيلتهم، من هنا جاء هذا النداء الصريح والواضح ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾.

ولقد كان في هذا تيئيسٌ للمشركين، وتثبيتٌ للمؤمنين، وتبيينٌ للناس أجمعين أن يختاروا لأنفسهم هذا الطريق أو ذاك، فلا مجال للجَمع بين الطريقَين أو الوقوف بَين بَين.

ثمَّ أكَّدت السورة أنَّ زعماء قريش هؤلاء الذين ساوَمُوا رسولَ الله ﷺ لن يؤمنوا ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ وهذه نبوءةٌ بسوء الخاتمة لهم، وهؤلاء وأمثالهم هم المقصودون بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦]، وليس عامة الكافرين.

ثم أكَّد هذه المفاصلة: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، وقد جاءت الجملة المؤكّدة هذه بصيغة الجمل الاسميَّة؛ لإفادة الثبوت واستقرار الحال بعد أن كانت الجملة الأولى فعليَّة تُفيد نفيَ الاستقبال.

ثم جاء توضيح المقصود بهذه المفاصلة: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾؛ فهي مُفاصلةٌ بين دينَين، وليست مُفاصلة في العلاقات الاجتماعيَّة والمشتركات الحياتيَّة العامة؛ من بيعٍ وشراءٍ، وجوارٍ، وتعاونٍ في مجالات النفع العام؛ كإغاثة الملهوف، ومساعدة الضعيف، فضلًا عن صِلة الأرحام، وأداء الحقوق والأمانات.

دقائق التفسير

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ سمّاهم بما يُحقِّقُ التمايُز عنهم، وليس هذا شَرطًا في مخاطبة غير المسلمين في كلِّ الأحوال؛ فقد جاء في القرآن نداؤهم بـ(يا أيُّها الناس)، و(يا أيُّها الإنسان)، و(يا أهل الكتاب)، والحكمة تقتضي مُخاطبتهم بالاسم الذي يُناسب الحال والمقام.

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ أي: لا أعبدُ أصنامكم التي تعبدونها.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ أي: ولا أنتم عابدون الله الذي أعبده؛ لأنَّكم مُشرِكون به، وفيه دليلٌ على أنَّ ﴿مَآ﴾ لا يقتصر إطلاقُها على غير العاقل، فإطلاقها على العاقل واردٌ وصحيحٌ إذا أُمِن اللبس.

﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾ أي: ولِي دِيني، وحُذِفَت الياء تخفيفًا، وقد بقيت الكسرة علامة عليها، وفيه جوازُ إطلاق لفظ الدين على ما يعتقِدُه الناس دينًا ولو كان باطلًا.

المجلس
التاسع والتسعون بعد المائتين

سورة النصر

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾

نهاية الصراع مع قريش

في سورة الكافرون كان إعلان المفاصلة بين الإسلام والوثنيَّة، وكانت بداية الصراع الفعلي بين الفريقَين؛ حيث رفَضَت سورة الكافرون نهجَ المساومة والحلول الوسط، وفي هذه السورة يتمُّ الإعلان عن نهاية ذلك الصراع المرير باستسلام الوثنيَّة، ودخول المسلمين مكَّة فاتِحين مُنتصرين ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ وهو فتحٌ لم تُرَق به الدِّماء، بل فُتِحَت به القلوبُ حتى دخَلَت قريش ثُمّ القبائل العربية الأخرى في هذا الدين ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾.

ثم تختتم السورة بتسبيح الله وحمده واستغفاره؛ فهذا من دلائل الشكر على نعمة الله بنصره وفتحه المبين ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

دقائق التفسير

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ هو فتح مكَّة، والفتح أكبر من النصر، ولا يكون الفتح إلَّا بعد نصر؛ إذ النصر غلَبَة جيش على جيش، والفتح استِسلام البلاد للجيش المُنتصِر، وقد جاء فتح مكَّة ثمرةً لسلسلةٍ من الانتصارات التي حقَّقها المسلمون على مشركي مكَّة.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ إشارة إلى أنَّ الناس يُقبِلون على

النجاح الظاهر والإنجاز المشهود أكبر من إقبالهم على ظهور الأدلَّة المعرفيَّة، وسطوع البراهين العقليَّة، فالقرآن الذي رفَضَتْه قريش فكانت المفاصلة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ هو نفسه القرآن الذي آمنوا به أفواجًا بعد الفتح، وفي هذا درسٌ بليغٌ للدُّعاة والعاملين للإسلام أنَّ صناعة النموذج الناجح هو الذي يجعل الناس يُقبِلون على الدَّعوة ويحتضنونها، أمَّا الاعتماد على النقاش والاستدلال المنطقي فقد ينفَع المُهتمِّين بهذا الشأن، لكن أفواج الناس لا تنتبه لهذه المناقشات ولا الحوارات.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: سبِّحْهُ تسبيحًا مُصاحِبًا للحمد.

﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ وأنت في حالة النصر، وهذا درسٌ تربويٌّ آخر للأُمَّة؛ فنجاحُها لا يُعفِيها من مراجعة مواقفها وتقويم أخطائها، والنصرُ لا يُعفِيها من استِذكار ذنوبها، واستِغفار الله منها، بل هذا من الشُّكر الواجِب، وهو ضمانةٌ ألا ينقَلِب النصرُ إلى حالةٍ من الاغتِرار بالقوة، وإهمال العهود، وتضييع الحقوق.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي: يقبَلُ التوبة عن عباده كلما تابُوا إليه، وهذا من رحمته تعالى بعباده، وعِلمِه بحاجتهم إلى بابه الواسع هذا.

سورة المسد

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾

تبّت يدا أبي لهب

نموذجٌ يعرِضُه القرآن الكريم لأولئك النفَر الذين تصدّوْا لهذه الدعوة من يومها الأوَّل، وهو الوحيد الذي سمّاه القرآن باسمِه الذي عُرِفَ به، وقد توعَّده الله بالخسران المؤكَّد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

وقد كان عمَّ رسولِ الله ﷺ فلم تشفَع له قرابته، وفي هذا آيةٌ على عدل الإسلام، وأنّه لا يُحابِي أحدًا على الحقِّ، وآيةٌ على صِدْقِه ﷺ وأمانته في تبليغ هذا الدين.

وفيه آيةٌ أخرى؛ أنّه تعالى توعَّد أبا لهبٍ بالنار ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ بمعنى أنّه يموت على الكُفر، وقد نزَلَت السورة وهو حيٌّ، وكان باستِطاعته أن يتظاهر بالإيمان لتكذيب هذا الإخبار، لكنَّه خابَ وخسِرَ، وقد أشرَكَ القرآن معه زوجته، وكانت من أشدِّ النساء عداوةً لهذا الدين، فتبَّت كما تبَّ، وخسِرَت كما خسِرَ ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾.

دقائق التفسير

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ دعاءٌ عليه بالخسران، وهو أسلوبٌ من أساليب التنديد والتشنيع، ومثله: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧]، و﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وهو متضمّن الإخبار بسوء حاله أيضًا، وهذا هو محل التشنيع.

وأبو لهب هو عمُّ رسول الله ﷺ، واسمُه عبد العُزَّى بن عبد المطلب؛ وكانوا يسمونه أبا لهبٍ لشدَّةِ وضاءة وجهه وإشراقته، وقد اختارَ له القرآن هذا الاسم؛ تفاديًا لذكر اسمه (عبد العُزَّى) وهو اسمٌ صريحٌ في الشرك - والعياذ بالله -، ولمناسبة اللهَب للهَب جهنَّم التي توعَّده الله بها، ولمناسبته أيضًا لمعنى الحطَب الذي تحمِلُه امرأته، وهذا من بديع الإشارات القرآنية، وكل القرآن بديع.

﴿وَتَبَّ﴾ تحتمل التأكيد، وتحتمل الإخبار على معنى أنَّه قد تحقَّق بالفعل ما توعَّدَه الله به آنِفًا.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾ دلالة أنَّه كان من أصحاب الأموال، لكن ماله هذا وكلّ ما كسَبَه لم يُغنِ عنه من عذاب الله شيئًا.

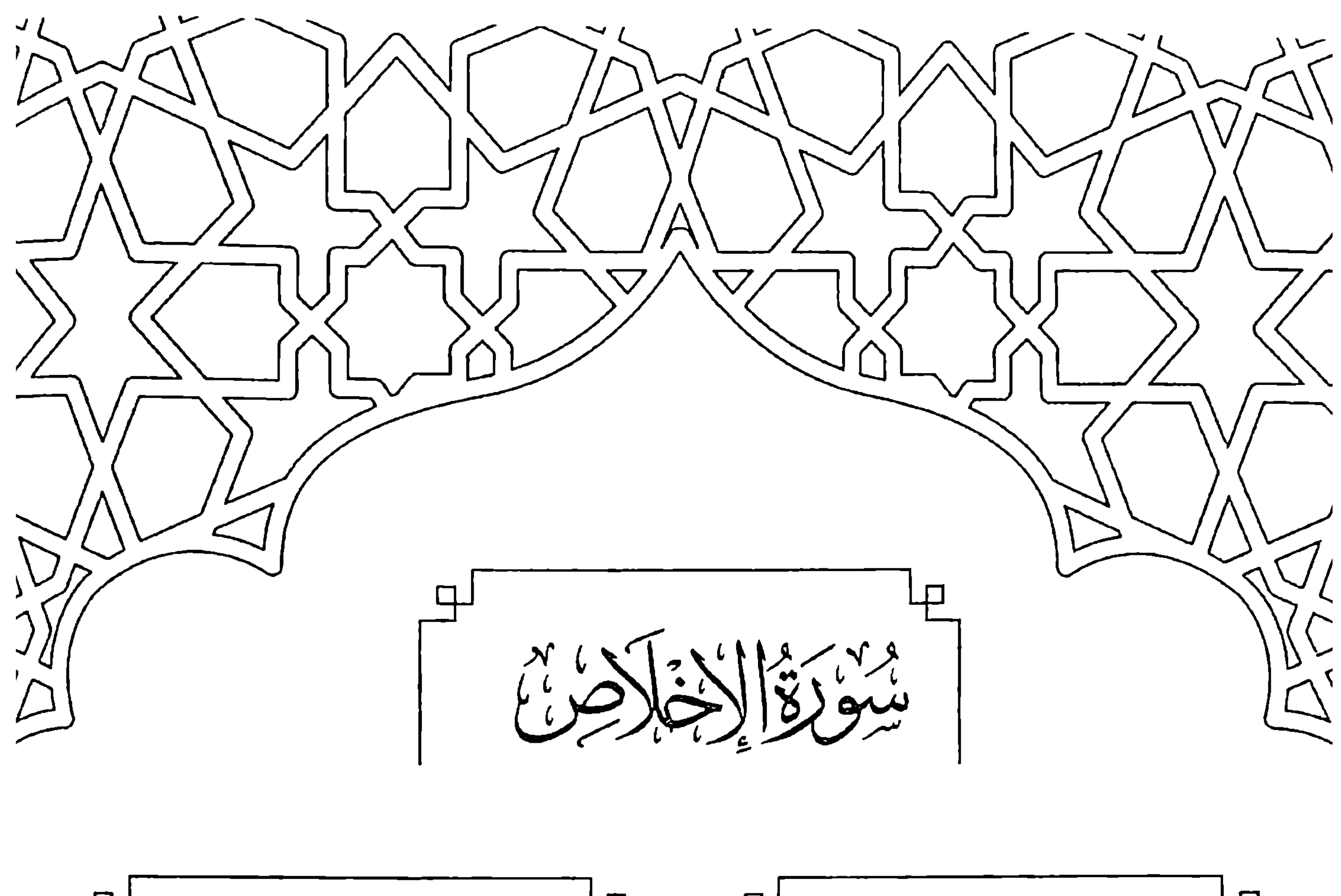
﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وعيدٌ شديدٌ مُتضمّنٌ الإخبار الجازم بسوء خاتمته وهلاكه على الكفر، فمات على ذلك، وهذه من معجزات القرآن الظاهرة والخالدة.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ أي: مشتركة معه في هذا الوعيد؛ لاشتراكها معه، ومعاونتها له في عداوته لرسول الله ﷺ ولدعوته.

﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ هذا جزءٌ من وعيدها الذي توعَّدها الله به، بمعنى أنَّها ستحمِلُ عذابَ النار ووقودها المُستعِر كما كانت تحمِلُ وِزرَ عداوتها وبُغضها وتأليبها على رسول الله ﷺ، وحملها الحطب في الدنيا قد يكون على حقيقته، وقد يكون كناية عن حملها الفتنة والنميمة وتأليب الناس على هذه الدعوة، وهذا المعنى أقرب وأنسب لها، ولمكانتها في قومها، وقد جُوزِيَت في النار بما يُناسِب فعلها.

﴿فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ استِكمالًا لصورتها البشعة في عداوتها، وحملها لأوزار الكراهية والعدوان والتأليب، وسَعيِها الحثيث في ذلك، ولصورة جزائها الذي ستُخزَى به في جهنّم.

والجِيدُ: العُنُق، والمَسَدُ: اللّيف الذي تُصنَع منه الحبال في العادة.





سُورَةُ النَّاسِ

المجلس المُتمِّم ثلاثمائة: حقيقة التوحيد

التعوّذ من الشر والحسَد

التعوذ بالله من شياطين الإنس والجن

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

حقيقة التوحيد

التوحيدُ أساس الإسلام، وقاعدتُه التي يُبنى عليها، وقد جاءت هذه السورة العزيزة مخصَّصة لبيان معنى التوحيد وتخليصه عن أيِّ شائبةٍ؛ فبدأت بإثبات وحدانيَّته تعالى المطلقة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ فهو الذي لا ربَّ سِوَاه، ولا معبودَ بحقٍّ عداه.

ثم بيَّنَت صفةً عظيمةً لله تعالى، وهي من أُسس التوحيد ومعانيه الرئيسة: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾، والصمد: هو سيّد هذا الكون الذي يُديره ويُدبِّر أمره؛ فهو مُقدِّر المقادير، ومُشرِّع الأحكام، وكلُّ حاجات الخلق بيده، فلا ينبغي أن يُقصَد غيره.

ثم عرَّجَت السورة لنفي بعض المعاني الفاسدة التي علِقَت بأهل الكتاب وغيرهم في تصوُّراتهم الخاطئة والجاهلة عن الله: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فالله سبحانه خلق الوالد والولد، وليس مُحتاجًا لأحدهما، فهو المتفرِّد سبحانه بالجلال والكمال، ونسبةُ الولد إلى الله كما تقولُ النصارى في المسيح ﷺ، أو كما يقول المشركون في الملائكة ﷺ مُنافٍ لعقيدة التوحيد، وداخلٌ في حقيقة الشرك.

ثم تختتم السورة ببيان معنًى آخر من معاني التوحيد، وهو تفرُّده سبحانه في ذاته العليَّة وفي أسمائه وصفاته، وهو المعنى المُقتَضِي بالضرورة إبطال الشَّبِيه والندِّ والمُماثِل من كلِّ الوجوه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الأمر بالقول هنا يُفيد معنى التعليم، وتأكيد أنَّ هذا إنَّما هو وحيٌ من الله تعالى، والضمير ﴿هُوَ﴾ يعودُ إلى ما استقرَّ في الأذهان من المعنى المُجمَل عن الإله الذي خلق هذا الكون، والذي هو محلّ السؤال والجدال بين المؤمنين والمشركين.

﴿أَحَدٌ﴾ صفةٌ لله تعالى تعني أنَّه المُتفرِّد في كلِّ وجهٍ، فلا شريك له، ولا ندّ، ولا مثيل.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ أي: هو السيِّد الذي بيده أمرُ الخلائق ومصيرُها، وهو سنَدُها في وجودها، واستمرار حياتها، وقضاء حوائجها.

﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ أي: ليس له ولد، كما أنَّه ليس له والد.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي: لم يكن له أحدٌ يُماثِلُه ويُكافِئُه، تبارك ربُّنا وتعالى وتقدَّس وتعظَّم.



﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

التعوّذ من الشر والحسد

الجنوح نحو الحسد وكراهية المحسود والعمل على إيذائه وإلحاق الشر به مظهرٌ من مظاهر الخروج عن جادَّةِ التوحيد والتسليم لحُكمِ الله وقضائه وقدره، وهذا الجُنُوح على الحقيقة حالة من السخط على ما قسمَه الله لعباده، وقد يُقابِل هذا الجنوح جنوحٌ آخر؛ حيث يلجَأ المحسودُ إلى أهل السحر والعرافة والشعوذة ليدفع عنه الحسد، وهذه الظاهرة بمبتداها ومنتهاها غريبةٌ عن المجتمع المؤمن الموحِّد لله، بل هي من عمل الشيطان وحزبه، والشرك وجنده.

ومعلومٌ أنَّ عداوة إبليس لآدم وذرِّيَّته إنَّما كانت مُنبعِثَة من الحسد، من هنا جاءت هذه السورة لتُعالج هذه الظاهرة وعلى أساسٍ متينٍ من التوحيد؛ حيث يلجَأ العبدُ إلى الله وحده ليحتمي به من شرِّ كلِّ ذي شرٍّ، وحسدِ كلِّ حاسدٍ، وشعوذةِ كلِّ مُشعوذٍ.

دقائق التفسير

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أمرٌ مِن الله تعالى لنبيِّه ﷺ ثُمَّ لكلِّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ من بعده أن يطلُبَ الحمايةَ من الله وحده الذي هو ربُّ الفلق، والفلق: الصُّبح، والله هو ربُّ الصُّبح، وربُّ كلِّ شيءٍ، لكن ذِكر الصُّبح مُشعِرٌ بالأمل والفرَج.

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ عامٌّ في التعوُّذِ من كلِّ ذي شرٍّ؛ من الجنِّ، والإنس، والهوامِّ، وكلِّ ما خلق الله.

﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ أي: وأعوذ بالله من شرِّ الليل إذا اشتدَّت ظلمته، وهذا من إضافة الاسم إلى ظرفه؛ فالشرُّ ليس من الليل، وإنَّما مِمَّا يقع في الليل، ومعلومٌ أنَّ ظلمة الليل مناسبة للصوص، وأهل الغدر، والدعارة والمنكر، وغير ذلك مما يُخشى منه ومن شرِّه.

﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ وهنَّ النساء اللواتي يتعامَلن بالسحر والشعوذة؛ وخصَّ النساء لانتشار ذلك بينهنَّ أكثر من الرجال، والنَّفْثُ: النَّفْخُ، والعُقَد: خيوط كُنَّ يعقِدنها وينفُثْن فيها مُعتقِدات أنَّ أثرهن في المسحور سارٍ ما دامَت العُقدة على حالها، فإذا حُلَّت بطَل أثرُها.

والتعوُّذ من شرِّهن لا يلزم منه الإقرار بتأثير هذه العُقَد في حياة الناس، بل هو تعوُّذٌ من شرِّهن؛ لأنَّهنّ بؤرة مِن بؤر الفتنة والنميمة، وزراعة الأحقاد والأضغان، ونشر الخرافة والجهل، وكفى بذلك شرًّا.

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ والحسدُ: تمنِّي زوال النعمة عن الغير، وقد يتبَعُه سعيٌ عمليٌّ؛ كالوشاية عند ذي سلطان، ونشر الإشاعة المشوِّهة للسمعة، ونحو ذلك، والتعوُّذ بالله منه لا ينبغي أن يصِلَ إلى حدِّ الوسواس، وكأنَّ عين الحاسد تفعل ما تريد – حاشا لله –؛ فالله سبحانه هو مالك الملك، وهو مُقدِّر المقادير والأرزاق والآجال، والحاسِدُ لا يملِك طاقةً فوق طاقة البشر، وليس له صِلة بعالم الغيب، غايةُ ما في الأمر أنَّ الحسَدَ قد يُصيِّره إلى عدوٍّ.

وأمَّا اتِّهام الناس بالحسد وتعيين مُعيَّنٍ منهم بلا بيِّنة ولا عداوة ظاهرة، فهذا من البُهتان الذي لا يقِلُّ إثمه وضرَرُه عن الحسد نفسه، ورُبَّما يكون فيه شيءٌ من ادِّعاء الغيب، والعياذ بالله من كلِّ ذلك.

المجلس المتمم ثلاثمائة

سُورَةُ النَّاسِ

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾

التعوّذ بالله من شياطين الإنس والجن

إذا كانت سورة الفلق قد خُصِّصَت لدفع الشرِّ والحسد، فإن سورة الناس قد خُصِّصَت لدفع أصل هذا الشرِّ، وأصل ذلك الحسَد، وهو وسوسة الشيطان التي تُزيِّنُ الباطل، وتغرِي بالمنكر، وقد استهلَّت هذه السورة بتأكيد معاني التوحيد؛ إذ هي العقيدة التي تحمِي المسلم من وسوسة الشيطان، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ فأكَّد توحيد الله في ربوبيَّته؛ فالله هو خالق الناس، وهو سيِّدهم، وهو الذي بيده أمرهم.

ثم أكَّد توحيده سبحانه في مُلكِهِ لهذا الخلق؛ إذ الذي يخْلُقُ هو الذي يملِك، ثم أكَّد توحيده سبحانه في ألوهيَّته؛ فهو المستحقُّ للعبادة وحده، بحكم أنَّه لا ربّ غيره، ولا مالكٌ لهذا الكون سِواه، ومن مُقتضيات ألوهيَّته تعالى: اللُّجوء إليه وحده، والضَّراعة بين يديه لدفع شرِّ الشيطان ووسوسته ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾.

ولكي لا يتوهَّم مُتوهِّمٌ أنَّ الشرَّ والوسوسة محصُوران في شياطين الجنِّ، جاءت الآية الأخيرة في السورة لتُبيِّن أنَّ هناك شياطين الإنس الذين يُوَسوِسُون أيضًا، ويعملون الشرَّ، ويدعُون إليه.

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ تخصيصُ الناس هنا مع أن الله سبحانه هو ربُّ الخلق أجمعين؛ لأنهم هم المقصودون بهذا التعليم، وهم المقصودون أيضًا بوسوسة الشيطان، وفي هذا الاختِصاص معنًى آخر، وهو معنًى ودودٌ؛ إذ جاء في مُقابل كيد الشيطان، كأنَّه تطمِينٌ من الله يقول لهم: أنا الله ربُّكُم وملِكُكُم وإلهُكُم، وأنا معكم، فلا تخافوا من الشيطان.

﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ هو الشيطان الذي يُوحِي بالخفاء إلى الناس بالأفكار الخبيثة التي تدعو إلى الشرِّ، وتُزيِّنُ المنكر.

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ هو الشيطان أيضًا، وهذه صِفةٌ من صفاته أنَّه خانِسٌ مُختفٍ لا تراه العيون، وهذا بطبيعة خِلقَتِه، لكن اقتِرانها بالوسوسة أعطاها معنًى مُضافًا، وهو أنَّه مُتربِّصٌ يتحيَّنُ الفرصة والثغرَة المناسبة ليبدأ في وسوسته.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يُلقِي فيها الشبهات، ويُزيِّن لها المنكرات.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بمعنى أنّ الوسواس الخنَّاس ليس من الجنِّ فقط، بل هناك من الإنس من يقوم بعمل الشيطان فيتربَّص ولا يُظهِر عداوته، ثم يتحيَّن الفرصةَ لإشعال الفتن، وإثارة الشبهات، والترويج للمنكرات، وإيقاع الناس في مهاوي الضلال والفساد، وهذا المعنى يؤكِّده القرآن في سورة الأنعام: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

أعاذنا الله وقارئ هذه الكلمات من شياطين الجن وشياطين الإنس، وختَمَ لنا بالصالحات، إنّه قريبٌ سميعٌ مجيبٌ.

* * * * *

تم بفضل الله تعالى ليلة الجمعة لخمسٍ خلَون من شهر ذي القعدة الحرام، وهي أوَّلُ جمعةٍ في الأشهر الحرم المتواليات في سنة ثمانٍ وثلاثين وأربعمائة وألفٍ من هجرة خاتم المرسلين ﷺ، والله وحده أسأل أن يكون مقبولًا عنده، ونافعًا لعباده، وأن يجزِي بالخير العَميم كلَّ من بذل فيه جهدًا، أو رأيًا، أو نُصحًا، أو سعَى بنشره والتعريفِ به.

وآخرُ دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الفهرس

المجلد الأول

سورة الفاتحة

سورة البقرة

سورة آل عمران

سورة النساء

سُورَةُ المَائِدَةِ

سُورَةُ الأَنْعَامِ



سورة الأنفال





سورة يونس

سورة هود

سورة يوسف



سورة إبراهيم

سورة الحجر

سورة النحل

سورة الإسراء

سُورَةُ الكَهْفِ

سُورَةُ مَرْيَمَ

سُورَةُ طه



سورة الحج

سورة المؤمنون

سورة النور



سورة الشعراء

المجلد الثالث

سورة النمل



سورة العنكبوت

سورة الروم

سورة لقمان

سورة السجدة

سورة الزمر

سورة غافر

سورة فصلت

سورة الشورى

سورة الزخرف

سورة الدخان

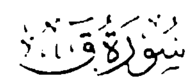
سورة الجاثية

سورة الأحقاف

سورة محمد

سورة الفتح

سورة الحجرات



المجلد الرابع

سورة الذاريات

سورة الطور

سورة النجم

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

سورة الحديد

سورة المجادلة

سورة الحشر

سورة الممتحنة

سورة الصف

سورة الجمعة

سورة المنافقون

سورة التغابن

سورة الطلاق

سورة التحريم

سورة الملك

سورة القلم

سورة الحاقة

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة المزمل

سورة المدثر

سورة القيامة

سورة الإنسان

سورة المرسلات

سورة النبأ

سورة النازعات

سورة عبس

سورة الكوثر

سورة الكافرون

سورة النصر

سورة المسد

سورة الإخلاص

سورة الفلق

سورة الناس